

**منارات السائرين
ومقامات الطائرين**
أبو بكر عبد الله الرازي

- ♦ المؤلف: أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي
- ♦ العنوان: كتاب منارات السائرين ومقامات الطائرين
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2020
- ♦ تصميم الغلاف: عمر الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٩ / ٢٠٥٠٧

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 256 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

كتاب
منارات السائرين
ومقامات الطائرين

تأليف
أبو بكر عبد الله بن شاهور الرازي

تحقيق
خميس حسن

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

الرازي، أبو بكر عبد الله بن شاهاور
كتاب منارات السائرين ومقامات الطائرين
تحقيق: خميس حسن
ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2020
560 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 20507 / 2019
الترقيم الدولي 8 - 256 - 765 - 977 - 978
1 - تصوف
أ - الرازي، أبو بكر عبد الله بن شاهاور
ب - العنوان

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً، وأفضل الصلوات وأزكى التحيات على نبينا محمد المصطفى الأمين وحبيب إله العالمين، وعلى آله الميامين الطاهرين وصحبه المتقين العارفين.

وبعد:

لا شك أن طريق الله عظيم، وتحقيق الإيمان هو غاية مطلوب الإنسان. وعبادة الله عزل وجل بالطريق الذي رسمه في كتابه الكريم وبيته سنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلوات والتسليم هي غاية وجود الإنسان على الأرض والحكمة من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقد سلك الصوفية في طريق الوصول إلى الله تعالى طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها، وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورّد؛ حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي، فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون، وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة.

وكما يقول الشيخ عبد الحليم محمود: «والواقع أن التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيقاً ضد الرغبات، ليصل الإنسان إلى السمو، أو الكمال الروحي؛ ليكون عارفاً بالله» (التصوف: المنقذ من الضلال، ص ١٢٤)

وقد اتفق متقدمو الصوفية على التعويل التام على الكتاب والسنة واعتبارهما مصدرا للتلقي والاستدلال الوحيدين، ويروى عنهم نصوص كثيرة في ذلك، فمن ذلك ما قاله أبو يزيد البسطامي (ت: ٢٦١هـ): «لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات، حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة».

وقال إمامهم سهل بن عبد الله التستري (ت: ٢٨٣هـ): «مذهبنا مبني على ثلاثة أصول: الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال».

ويقول أبو الحسن الشاذلي (ت: ٦٥٦هـ): «من دعا إلى الله تعالى، بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو بدعيٌّ».

وكما يقول الشعراني (ت: ٩٧٣هـ) في الطبقات الكبرى: «فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو».

هذه هي بعض أقوال أئمة الصوفية الأوائل الذين تقيدوا في عبادتهم وطريقتهم بالكتاب والسنة، قبل أن تتسرب إلى من جاء بعدهم العقائد الفاسدة والشطحات الغربية التي حادت بهم عن الطريق، وابتعدت عن حقيقة الإسلام في كثير من الأمور التي طرّقها التصوف، فأصبح مذموماً ينفر منه أهل الحق لخلط المتصوفة بين الزهد والتصوف المغالي.

بين يديك - عزيزي القارئ - هذه الطرفة النفيسة لعَلَم من أعلام التصوف في القرن

السابع الهجري، ألا وهو الشيخ نجم الدين الرازي عبدُ الله بن محمد بن شاهاور ابن أنوشروان بن أبي النَّجيب الأسدي، الذي يُعدُّ من أبرز علماء الصوفية المجريين العاملين، ومن أقطابهم المعروفين، فقد كتب في التصوف كغيره من علماء الطائفة، ولا غرابة في الجمع بين التجربة والتأليف، فلا يكتب في التصوف إلا من عاش تجربة عبَّرت عن حاله، ومارس رياضة نفس فيها عمًا في وجدانه، فقد ذاق مذاق القوم، ومن ذاق عَرَف.

وبالإضافة إلى ذلك، فهذا الكتاب «منارات السائرين ومقامات الطائرين» يُعد صورة لحركة التفكير الصوفي بعامة حتي منتصف القرن السابع الهجري. إذ عمد مؤلفه إلي تقديم كتاب حاوٍ للرؤى والتصورات الصوفية الهامة، يستعرضها بشكل منسق ومنهج ملتزم حاول فيه حشد أكثر الآراء والشطحات التي امتلأ بها الواقع الصوفي في عصره وقبل عصره من خلال استعراض عدد كبير من الآراء لرجال التصوف، سواء كان مؤيدًا لهذه الآراء أو ناقدًا.

وقد ظلم هذا الكتابُ ظلمًا بيِّنًا؛ حيث جاءت نسخته المحققة من قبل وبها من الخلل والنقص ما أفقدها كثيرًا من رونقها، سواء من حيث ضبط الأسماء أو تحريف مواضع فيها تحريفًا كاملاً، أو وجود كثير من الكلام المفقود الذي يغير كثيرًا من المعنى. وللأسف كان الاعتماد كاملاً والنقل كثيرًا من هذه النسخة.

وسيلحظ القارئ الكريم - بإذن الله الفارق الكبير في هذا التحقيق الذي بذلنا فيه جهدًا كبيرًا لضبط النص بصورة أقرب ما يكون قدر الإمكان إلى ما كتبه المؤلف وأراد، وقد نبَّهنا على صور الاختلاف بين النسختين في مواضعها؛ ليلحظ القارئ الكريم الفارق، ويدرك الاختلاف الموجود. فالكتاب يستحق هذه العناية وهذا الجهد لما يمثله من قيمة كبرى ودلالة لها مغزاها على ما وصل إليه الفكر الصوفي في فترة حياة المؤلف. كما يحوي عددًا كبيرًا من الآراء والأفكار التي جمعها المؤلف بين دفتي كتابه.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أقدم خالص شكري وتقديري للدكتور أحمد جمعة عبد الحميد الباحث بمركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر، الذي كان لملاحظاته القيّمة دور كبير في خروج الكتاب بهذا الشكل.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير للدكتور السيد إسماعيل السروي، أستاذ اللغة العبرية بكلية دار العلوم جامعة المنيا على رحابة صدره، وتشجيعه الدائم، ومشورته الصادقة.

وفيما يلي الحديث عن المؤلّف وحياته وشيوخه، وتلاميذه، ومصنّفاته وعن الكتاب، ومصادره، ورؤيته الصوفية وروافده العلمية، والنسخ التي اعتمدت عليها في تحقيق الكتاب، وطريقتي في إخراج النصّ.

أسأل الله تعالى أن يهب لنا قلوباً مطمئنةً، ونفوساً راضيةً، وعلمًا نافعاً، وعملاً صالحاً. وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا، وعلى آله وصحبه. والحمد لله رب العالمين.

خميس حسن

١- نجم الدين الرازي^(١)

(٥٧٣هـ - ٦٥٤هـ)

اسمه ونسبه :

لم تسعفنا المصادر بمعلومات وافية عن صاحبنا، سواء عن أسرته أو نشأته والظروف التي لا بدت حياته الطويلة التي جاوزت الثمانين بقليل. ولكننا يمكن من خلال ما حصلنا عليه أن نرسم صورة تقريبية لحياته.

ونبدأ بذكر اسمه ونسبه، إنه الشيخ نجم الدين الرازي عبد الله بن محمد بن شاهوار ابن أنوشروان بن أبي النجيب، الأسدي، الرّازي، نجم الدين أبو بكر، شيخ الطريقة والحقيقة، المعروف بلقب «داية»^(٢). وقد اتفقت معظم المصادر التي رجعنا إليها على أن مولده كان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة من الهجرة بمدينة خوارزم (والتي تُسمّى الآن خيوة وتقع غرب أوزبكستان) وهي مدينة اشتهرت بالعلم والعلماء. ولم يخالف في إثبات هذا التاريخ إلا عمر رضا كحالة عندما تعرض لترجمته في كتابه

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات: (٣١٢ / ١٧) وشذرات الذهب لابن العماد (٤٥٧ / ٧) وتاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي (١٦٧ / ٤٨) ومروءة الجنان للبيهقي (١٠٤ / ٤) والأعلام للزركلي (١٢٥ / ٤) ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢٨١ / ٢). وكشف الظنون لحاجي خليفة.

(٢) لم تشر المصادر التي رجعتُ إليها، قديمة وحديثة، إلى هذا اللقب، وإنما ذكر هذا اللقب في المخطوطات الثلاث للكتاب. ففي (ح): أبو بكر محمد بن شاهوار بن عبد الله الأسدي الرازي المشهور بداية. وفي (ل): منارات السائرين ومقامات الطائرين للشيخ نجم الدين أبي بكر محمد بن شاهوار الرازي المعروف بداية. وكذلك في نسخة المكتبة الأزهرية.

(معجم المؤلفين) حيث ذكر أن مولده كان سنة ٥٦٤ هـ الموافق ١١٦٨ م.

وقد انتقل نجم الدين الرازي بعد ذلك إلى بغداد وتلقى فيها العلم على يد شيوخ كثيرين سنذكرهم لاحقاً. وكانت له رحلات علمية كثيرة التقى فيها برجال الصوفية وعلمائها في كل مكان. وفي تاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي (٤٨ / ١٦٧) وصفه بأنه: كان كبير الشأن، من أصحاب الأحوال والمقامات. أكثر الترحال إلى الحجاز، ومصر، والشام، والعراق، والروم، وأذربيجان، وأرّان، وخُراسان، وخوارزم^(١).

شيوخه:

سمع نجم الدين الرازي الكثير من شيوخ التصوف ورجال العلم في عصره منهم:

١- أحمد بن عمر الخيوقى (نجم الدين الكُبرى):

هو أحمد بن عمر بن محمد، الزاهد القدوة نجم الدين الكُبرى^(٢)، أبو الجنب الخيوقى، وخيوق قرية من قرى خوارزم. الصوفي شيخ خوارزم. قال أبو علاء الفرضي: إنما هو نجم الكبراء ثم خُفّف وغُيّر.. طاف البلاد وسمع الحديث واستوطن خوارزم وصار شيخ تلك الناحية، ملجأ الغرباء عظيم الجاه لا يخاف في الله لومة لائم^(٣).

وقد تلقى الكبرى العلم في الإسكندرية وهمذان، حيث سمع من الحافظ أبي العلاء. قال عنه ابن نقطة: هو شافعي المذهب إمام في السنة، وقال غيره: وقيل: إنه فسر القرآن في اثني عشر مجلداً. وقد ذهب إليه فخر الدين الرازي صاحب التصانيف وناظر بين يديه فقيهاً في معرفة الله وتوحيده فأطالا الجدل ثم سألا الشيخ عن علم المعرفة فقال: هي واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردّها فسأله فخر الدين:

(١) فقد انتقل في بداياته إلى بغداد وأقام بها.

(٢) ويروى (الكبرى) على صيغة فُعْلَى كـ «عظمى».

(٣) الوافي بالوفيات، (٧ / ١٧٢).

كيف الوصول إلى إدراك ذلك؟

قال: بترك ما أنت فيه من الرئاسة والحظوظ.

قال: هذا ما أقدر عليه.

وأما رفيقه فزهّد وتجرّد وصحب الشيخ^(١).

أننى عليه الإمام ابن تيمية فقال عنه: «وهذا الشيخ نجم الدين هو من أجلّ شيوخ تلك البلاد وأصحهم إسلامًا وأبعدهم عما يخالف الكتاب والسنة»^(٢).

وكانت وفاته شهيدًا في سبيل الله عندما نزلت التتار على خوارزم في ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وستمائة، فخرج نجم الدين الكبرى فيمن خرج للجهاد، فقاتلوا على باب البلد حتى قتلوا - رضي الله عنهم - وقتل الشيخ.

٢- أبو المظفر بن السمعاني:

هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار، ولد سنة سبع وثلاثين وخمسائة بنيسابور، وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة. بكر به والده في سماع الحديث، وطاف به في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأسمعه الحديث وحصل له النسخ، وجمع له معجمًا لمشايخه في ثمانية عشر جزءًا. وكان والده الحافظ ابن السمعاني المؤرخ المشهور، وكان جده محمد إمامًا فاضلاً مناظرًا محدثًا فقيهاً شافعيًا حافظًا، وله الإملاء الذي لم يسبق إلى مثله. كما شغله والده الحافظ ابن السمعاني بالفقه والأدب والحديث حتى حصل من كل واحد طرفًا صالحًا، وحدث بالكثير ورحل إليه الطلاب، وكان محترمًا ببلاده^(٣).

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة. وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١٢/٢٢)

(٢) جامع المسائل لابن تيمية، المجموعة الرابعة، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ص ٣٩٣.

(٣) الوافي بالوفيات، (١٨/١٩٩)

٣- عبد المحسن الطوسي :

هو عبد المحسن بن أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد أبي القاسم ابن الطوسي الموصلّي (ت ٦٢٢ هـ) نشأ في الموصل، وسمع الحديث من أبيه وجده وعمه عبد الرحمن كما سمع من أبي عبد الله الحسين بن نصر بن خميس الجهنّي الكعبي (ت ٥٢٢ هـ)، ورحل إلى بغداد وسمع بها من المبارك بن الحسن بن أحمد الشهرزوري (ت ٥٥٠ هـ) وكان من أكبر العدول في الموصل، وكان يقول الشعر.

٤- المؤيد الطوسي :

هو المؤيد بن محمد بن علي بن الحسن بن محمد بن أبي صالح. رضي الدين أبو الحسن الطوسي، ثم النيسابوري المقرئ، مُسند خراسان في زمانه. وُلد سنة أربع وعشرين وخمسمائة. سمع كتب الحديث على كبار محدثي عصره، وطال عمره، ورحل إليه الناس من الأقطار، وكان ثقة، مقرئاً، جليلاً. وحَدَّث عنه كثيرون. توفي في العشرين من شوال سنة سبع عشرة وستمائة^(١).

وقد أشار فخر الدين الرازي إلى أحد مشايخه وهو علي البوياني «القزويني» وقال عنه: وهو أحد مشايخي؛ كان كبير الشأن، عديم النظير في عهده. وقال عنها أيضاً: وقد كان صاحب كرامات، مشهوراً بالولاية. وللأسف لم أعثر على ترجمة له. كما سمع من عبد المعز الهروي ومنصور بن الفَرَاوي وعبد الوهاب بن سَكينة وزينب الشعرية ومسمار بن العُويس ومحمد بن أبي بكر الغَزَال وعبد الله بن إبراهيم ابن عبد الملك الشحادي وجماعة سواهم.

تلاميذه :

ذكرنا من قبل أن عبد الله الرازي قد أكثر الترحال إلى بلاد كثيرة منها الحجاز، ومصر،

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢٢/١٠٤-١٠٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٤/ ٣٨٤) والتكملة لوفيات النقلة (٢٦/٣)

والشام، والعراق، والروم، وأذربيجان، وأرَّان، وخُراسان، وخوارزم، وفي تلك البلاد التقى بعلمائها فأخذ منهم، كما سمع منه كثيرون وأخذوه عنه العلم، والطريقة، وشرح لهم رؤيته في التصوف والأخلاق وآداب السلوك مع المريد والشيخ وسائر الناس. ومن أشهر من سمع منه في تلك البلاد - وهم كُثُرٌ - نذكر:

١- شرف الدين الدميّاطي:

هو العلامة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن شرف بن الخضر ابن موسى الدميّاطي الشافعي. ولد سنة ٦١٣ هـ وتفقّه بدمياط بمصر وبرع، ثم طلب الحديث. وكان من ضمن شيوخه الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الرازي. وقد أشار الياضي عند ترجمته لنجم الدين الرازي إلى أنه كان من شيوخ الدميّاطي^(١). من كبار العلماء المُحدّثين الصالحين في القرن السابع، وأول الثامن، أخذ عن الكبار، وصار شيخاً للكبار.

وقال الذهبي في معجمه: العلامة الحافظ الحجة أحد الأئمة الأعلام وبقية نقاد الحديث. رحل وسمع الكثير، وفي «معجمه» نحو ألف ومائتين وخمسين شيخاً، وله تصانيف في الحديث والعوالي^(٢)، والفقه، واللغة، وغير ذلك. ومحاسنه جمّة. انتهى^(٣).

وتوفي الشيخ شرف الدين الدميّاطي سنة ٧٠٥ هـ.

٢- قطب الدين القسطلاني:

هو محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد بن

(١) مرآة الجنان لليافي (١٠٤/٤).

(٢) العالي لغة: الشيء المرتفع على غيره. واصطلاحاً: هو الحديث الذي قلَّ عددُ رواته، مع سلامته من الضعف، فيقرب رجال سنده من الرسول ﷺ، أو من إمام من أئمة الحديث.

(٣) شذرات الذهب لابن العماد (٢٤/٨)

الميمون القيسي التُّوزي، الشيخ قطب الدين ابن القسطلاني، الفقيه المحدث، الأديب الصوفي، العابد.

ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع من والده ومن الشيخ شهاب الدين السهروردي، وسمع الكثير بمصر ودمشق من أصحاب السلفي وأصحاب ابن عساكر، وبغداد من جماعة^(١).

من مؤلفاته: صَنَفَ قطب الدين القسطلاني عددًا كبيرًا من المصنفات وصل إلى ستة وثلاثين مصنفًا منها: اقتداء الغافل باقتداء العاقل، وتفسير آيات من القرآن الكريم، ولسان البيان عن اعتقاد الجنان، وغيرها.

وتوفي في الثامن من المحرم سنة ستمائة وست وثمانين من الهجرة^(٢).
كما روى عن الشيخ نجم الدين الرازي غير هذين: داود بن شهملك الليري، ومحبي الدين محمد شاه الغزالي، وشمس الدين محمد بن حسن الساوجي، وكهف الدين إسماعيل بن عثمان القصري، وإمام الدين عبد الله بن داود بن معمر الفاخر^(٣).

وفاته:

وبعد رحلة طويلة قضاهما الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الرازي توفي ببغداد في سادس شَوَّال سنة أربع وخمسين وستمائة، ودفن بالشونيزية^(٤). وقال تلميذه الدمياطي: إنه توفي في أول عام ستة وخمسين، فُحِرَّ هذا. ولكن أغلب المصادر اتفقت على أن وفاته كانت سنة ٦٥٤ هـ.

(١) طبقات الشافعية (٨ / ٤٤).

(٢) انظر ترجمة وافية له في مقدمة تحقيق كتاب « اقتداء الغافل باقتداء العاقل » تحقيق أحمد جمعة عبد الحميد، نشر دار الفارابي، ٢٠١٥.

(٣) تاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي (٤٨ / ١٦٧).

(٤) الشُونِيزِيَّة، بالضم ثم السكون ثم نون مكسورة، وياء مثناة من تحت ساكنة وزاي وآخره ياء النسبة. هذا الموقع هو الجانب الغربي لنهر دجلة ببغداد.

روافده الصوفية :

ساهمت عدة عوامل في تشكيل شخصية الرازي العلمية ورؤيته الصوفية على وجه الأخص.

ومع ندرة المعلومات عن أسرته ونشأته صغيراً ودور أسرته في تعليمه يمكن أن نعتبر الرافد الأول في تكوينه العلمي هو نشأته في مدينة خوارزم وهي مدينة اشتهرت بالعلم والعلماء في عصره؛ فقد يكون هذا هو العامل الأول في إقباله على العلم ورغبته في تحصيله.

الرافد الثاني هو شيوخه، فقد تتلمذ على كبار علماء عصره ليس في خوارزم فقط، فقد أكثر الترحال إلى الحجاز ومصر والشام والعراق والروم وأذربيجان وأران وخُراسان وخوارزم. وقد ذكرنا من هؤلاء الشيوخ الشيخ نجم الدين الكبرى وعبد المعز الهروي ومنصور بن الفَرَاوي والمؤيد الطوسي وابن السمعاني وعبد الوهاب ابن سكينه وزينب الشعرية وعبد المحسن بن الطوسي ومسمار بن العويس ومحمد ابن أبي بكر الغَزَال وعبد الله بن إبراهيم بن عبد الملك الشحادي وآخرين.

الرافد الثالث، وهو ظروف عصره السياسي والاقتصادية والاجتماعية، وهي المتمثلة في النكبات التي حلت بالعالم الإسلامي.

وهذه لمحة عن الحياة السياسية في عصر الرازي :

دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ وسيطروا على الخلافة العباسية وقراراتها، ولكن نتيجة ضعفهم في أواخر عهدهم برزت ظاهرة قيام دول منفصلة على حسابهم، دارت في فلك الخلافة العباسية، عرفت بالدول الأتابكية، وهذ ذات أصول تركية. (أتابك: كلمة تركية مركبة من كلمتين، أتا: مربّي، بك: أمير، ومعنى الكلمة: مربّي الأمير).

أشهر هذه الأتابكيات: كيفا وماردين ودمشق ودانשמند والموصل والجزيرة وأذربيجان وفارس.

وقامت إلى جانب الأتابكيات دول أخرى، نتيجة تولية السلاطين السلاجقة نواباً لهم في الأقاليم التي كانت تحت حكمهم، فاستأثر هؤلاء النواب بحكم هذه الأقاليم وأورثوها أبناءهم، وقد تلقبوا بـ«الشاهات». ومن أشهر هؤلاء الشاهات: شاهات خوارزم وشاهات أرمينيا.

وهكذا ورثت الدول الأتابكية وشاهات خوارزم أملاك السلاجقة، مما مهد السبيل لقيام مرحلة استقل فيها الخلفاء العباسيون، واستردوا ما كان لهم من سلطات، كما أتاح هذا الضعف والانقسام للغرب الأوروبي الفرصة لشن الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية من جهة، ودفع المغول لاجتياح العالم الإسلامي في أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق من جهة ثانية، فدمروا بغداد وقضوا على دولة الخلافة العباسية^(١).

مؤلفاته العلمية:

كان الرازي يكتب باللغة الفارسية واللغة العربية، وقد أشار هو إلى ذلك في كتابه الذي نحن بصدد تحقيقه هنا، وكان يشير إلى اللغة الفارسية التي كتب بها بـ«العجمية». ومن الكتب التي كتبها بالفارسية كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» وذكر أيضاً أنه كان يكتب أشعاراً بالفارسية فقال: «كما قلت هذا المعنى في رباعية بالأعجمية».

وهذه قائمة بكتبه:

١ - بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني^(٢).

٢ - تحفة الحبيب^(٣).

(١) انظر: تاريخ الدولة العباسية، محمد سهيل طقش، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩.

(٢) ذكره الزركلي في الأعلام (١٢٥/٤) وحاجي خليفة في كشف الظنون (١/٢٢٤).

(٣) ذكره كحالة في معجم المؤلفين (٢/٢٨١).

- ٣- حسرة الملوك^(١).
- ٤- زبدة العوالي وحلية الأمالي^(٢).
- ٥- سلوك أرباب النعم^(٣).
- ٦- كشف الحقائق وشرح الدقائق^(٤).
- ٧- مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد^(٥).
- ٨- معيار الصدق في مصداق العشق^(٦).
- ٩- منارات السائرين ومقامات الطائرين^(٧).

رؤيته الصوفية:

عُرِفَ عن نجم الدين الرازي الإنكار على مُدَّعِي التَّصَوُّفِ، والتَّصَدِّي لَهُمْ، فهو المَحْدُثُ والفقيه والصُّوفي، الذي أخذ التَّصَوُّفَ عن أربابه العُدُولِ المتبعين لكتاب الله عز وجل والتمسكين بالسُّنَّةِ الغَرَّاءِ، وكان ينحو وَجْهَةً قَرِيبَةً مِنْهُمَا، بل إن من كلامه ما يدل على أنه كان من صوفية أهل الحديث في المعتقد. انظر إليه

(١) ذكره صاحب معجم المؤلفين (٢/ ٢٨١).

(٢) نسب حاجي خليفة (٦/ ٢) هذا الكتاب في (كشف الظنون) للشيخ مجد الدين (محيي الدين) شرف الدين ابن مؤيد البغدادي، وقال: ذكره في تحفة البررة. ولكن عبد الله بن شاهور الرازي نسبته في منارات السائرين إلى نفسه عندما قال: وهذه الأحاديث مما قد خرجنا في كتابنا الموسوم بـ «زبدة العوالي وحلية الأمالي» ص ٤٦٧.

(٣) انظر معجم المؤلفين لكحالة (٢/ ٢٨١).

(٤) انظر الأعلام للزركلي (٤/ ١٢٥).

(٥) انظر معجم المؤلفين لكحالة (٢/ ٢٨١) وذكر حاجي خليفة (٢/ ١٦٥٥) أنه كتبه باللغة الفارسية وجعله على خمسة أبواب فيها أربعون فصلاً كلها في السلوك والوصول وتربية النفس. أتمه في أول رجب سنة ٦٢٠ ببغداد سيواس. الباب الأول في ديباجة الكتاب، والثاني في المبدأ، والثالث في المعاش، والرابع في المعاد، والخامس في السلوك والطوائف المختلفة. ترجمه قاسم بن محمود القرا حصارى في عصر السلطان مراد بن محمد خان، وسماه (إرشاد المريدين إلى المراد في ترجمة مرصاد العباد).

(٦) انظر (كشف الظنون) لحاجي خليفة (٢/ ١٧٤٤).

(٧) الذي نحن بصدده تحقيقه. وقد ذكره صاحب معجم المؤلفين (٢/ ٢٨١) وكشف الظنون (٢/ ١٨٢٣).

كيف يقول: «وأنه على العرش استوى، كيف شاء بلا تكييف، استواء يليق بذاته. وأنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا، نزولاً يوافق لصفاته ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وهو باين من جميع خلقه، يحتاج إليه العرش، وحملته. وهو حاملهم بقدرته، كيف يشاء، غير محتاج إلى شيء من خلقه.. كان الله ولم يكن معه شيء، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى. لا زال، ولم يزل بها موصوفاً. لا أغيار فتفارقه، موصوف بما وصف به نفسه، هو ورسوله، تعالى عن أن يكون في المخلوقات كما وصفه جهنم ومتبعوه».

وكذلك كان في تصوفه، انظر إليه كيف يفند مزاعم الصوفية في «العشق الإلهي» حين قال: «فإن قيل: هل يوصف الرب تعالى بالعشق أم لا؟ وهل يوصف العبد بعشق الحق تعالى أم لا؟

قلنا: إذا فسرنا العشق بأنه مجاوزة الحد في المحبة، فالحق لا يوصف بأنه يجاوز الحد، فلا يوصف بالعشق، ولو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد، لم يبلغ ذلك استحقاق قدر محبة الحق سبحانه، فلا يقال: إن عبداً واحداً جاوز الحد في محبة الله، ولا يوصف الحق بأنه يُعشق لهذا المعنى، وهذا قول المشايخ.

ولكن إذا فسرنا العشق بأنه مجاوزة حد العبد في المحبة لله فهو حق».

ويحذر من اتباع المبتدعين الذين يحيدون عن السراط القويم فيقول: «فعلى الطالب الراغب مجانية أهل الأهواء، والبدع؛ لئلا يعتقد شيئاً من البدع، فلا يفلح أبداً.. فإن من شرط السائرين إلى الله تعالى أن يكونوا على الصراط المستقيم؛ ليلبغوا مقاصدهم، ويفيد اجتهادهم، ويكون سعيهم مشكوراً».

وكما نقد القسطلاني أوضاع المتصوفة في عصره نقداً لاذعاً، فقد كان لازماً عليه أن يتحدث عن الأنموذج الأمثل لما يجب أن يكون عليه الصوفي الحقيقي الكامل، ورسم له طريقه الذي يرى أنه يوصله إلى المقام العالي في التصوف وتشرق فيه

نفسه بأنوار التوحيد الحق. فيقدم أوصاف القلب التي خلقه الله تعالى عليها بالقوة، ومقامات سَيْرِهِ في أطواره المختلفة من زهد وتوكل وورع ورضا ويقين... إلخ.

كما يظهر من خلال كتابنا هذا سعة اطلاعه وإلمامه الواسع بأقوال كبار رجال التصوف، سواء من سبقوه أو من عاصروهم وسمع منهم خلال رحلاته الواسعة في البلاد ولقائه بهم وحفظه عنهم. ولكن مما يؤخذ عنه عند نقله عنهم إغفاله لذكر مصدر الأقوال التي ينقلها سواء بالسماع المباشر منهم أو من كتبهم التي اطلع عليها، إلا في مرات قليلة جدًا ذكر فيها مصدر ما ينقله.

٢- الكتاب

موضوع الكتاب:

وُفّق الشيخ نجم الدين الرازي في اختيار عنوان كتابه (منارات السائرين ومقامات الطائرين) فالعنوان يعبر فعلاً عن موضوع الكتاب والهدف الذي سعى إليه الرازي من خلاله بناء على طلب مريديه « أن أصنّف كتاباً كاملاً في شرح مقامات العارفين، شاملاً لكرامات السالكين، جامعاً لمنازل السائرين، ساطعاً بمراحل الحائرين؛ ليكون مفيداً للمستفيد المبتدي، وممدداً للمستمد المنتهي ». فإن هذا الكتاب يسمح للمريد بمعرفة الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى؛ لما يطلع من خلاله على الحكم والقواعد الصوفية التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان وأسرار مقام الإحسان وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك برعاية وتربية وإشراف شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب، وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، فالشيخ هو الذي يأخذ بيد مريده إلى نور الحقيقة، وجادة الطريقة، ف«المريد الصادق، ما لم يلحق من شيخ كامل

لا تثمر شجرة وجوده من الثمار المودعة فيها بوجود مُوجدِها».

ولكن شطحات الرازي وصلت به إلى وضع الشيخ في مقام بضارع مقام النبي ﷺ بين أصحابه فقال: «فإنه لو خطر ببال المريد أن في العالم أحدًا يوصله إلى الله تعالى غير شيخه تصرف فيه الشيطان، وأزعجه عن الخلوة، لا سيما عند ظهور القبض والابتلاء، وانسداد روزنة القلب، وربما يبلغ هذا التصرف إلى أن يتمثل بصورة شيخه فيره أشياء يفسد بها اعتقاده، وإرادته. فأما إذا استحكمت إرادته في حق شيخه، كما قلنا، يستحيل للشيطان التمثل بصورة الشيخ. فإن الشيخ في قومه كالنبي في أمته، وكما أن الشيطان لا يمكنه التمثل بصورة النبي ﷺ... فكذا لا يمكنه التمثل بصورة الشيخ، فيبقى المريد محفوظاً».

جمع الرازي في كتابه هذا عددًا كبيرًا من الآراء والأفكار والشطحات من مختلف المدارس والطرق والاتجاهات الصوفية المختلفة، وإن حاول أن يتخفى وراء ستار التصوف السني، ولكنه وقع فيما وقع فيه غالبية الصوفية الذي بنوا معظم أفكارهم وشطحاتهم على أحاديث واهية ضعيفة كانت عماد نظرياتهم وآرائهم وأفكارهم التي أخذتهم بعيدًا في دجى الغيبات ودهاليز التأويلات المغرقة في الغموض والتفلسف الذي يبعد المرء عن الحقيقة، وقد بيّنا في التحقيق هذه الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي أوردها الشيخ.

وقد قسم الرازي كتابه إلى فاتحة، وخاتمة، ووضع للمقامات عشرة أبواب.

الفاتحة التي قدّم بها الكتاب قسمها إلى ثلاثة فصول تناول فيها الفيض الأول؛ الذي عبّر عنه بكلمة «كُنْ»، وأوّل شيءٍ تَكُونُ بتكوين الفيض الأول: الروح الأعلى، والنور الأدنى، وهو روح سيد الأولين والآخرين، محمد المصطفى، عليه وعلى آله أفضل الصلوات. واعتمد في رأيه هذا على حديث جابر بن عبد الله الأنصاري عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أول شيء خلقه الله، فقال له: «نور نبيك يا جابر»^(١).

(١) انظر تخريجنا لهذا الحديث ص ٤٩.

وختم الفصل الثالث بقوله: إن الروح ليس بعرض ولا مزاج؛ لأن المزاج والأعراض توجد في الجسم كلها تابعة للجسم، والتابع للشيء هو أحس منه، وأقل حظاً من الوجود؛ لأنه لا يوجد إلا بوجوده.

وبعد الفاتحة قسم الكتاب إلى عشرة أبواب:

في الباب الأول تحدث عن مقام المعرفة، تحدث في الفصل الأول فيه عن مقام معرفة العوام. وفي الفصل الثاني عن مقام معرفة الخواص. وفي الفصل الثالث عن مقام معرفة أخص الخواص.

في الباب الثاني تناول فيه مقام التوحيد وتحدث في الفصل الأول فيه عن مقام توحيد العوام. وفي الفصل الثاني عن مقام توحيد الخواص. وفي الفصل الثالث عن مقام توحيد أخص الخواص.

الباب الثالث في مقام النبوة وقد بدأ الفصل الثاني منه بقوله: «اعلم أن ما ذكرناه من مقام الأنبياء هو غاية شرف الإنسانية، والأفق الأعلى منه، فلم يبق له الارتقاء عن هذا المقام بسعيه وجهده، بل تنحط إليه الأمور الإلهية، والجذبات الربانية وحيًا أو إلهامًا» ثم تحدث عن أصناف الوحي وقيمة العقل وتكلم عن المنام الصادق وأنه جزء من النبوة. والفرق بين المنام ووقائع القوم. ودلائل النبوة، والفرق بين الرسول والنبى. والفرق بين النبوة والكهانة. والفرق بين المعجزة، والكرامة، والشعبذة، والسحر. وإثبات نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وفضله.

الباب الرابع وهو من أهم أبواب الكتاب وتحدث فيه عن مراتب مقامات الولي. وقسمها إلى خمسة مقامات هي مقام التقوى، ومقام الزهد، ومقام الصبر، ومقام الرضا، ومقام المحبة.

وإن إلقاء نظرة على أبواب الكتاب الباقية تعطي لنا فكرة عن تنوع ثقافة المؤلف وجمعه لآراء وأفكار من سبقوه وأصالة كثير من الأفكار التي أوردها،

فعناوين الباب الثامن على سبيل المثال الذي تناول فيه مقامات النفس ومعرفتها، تحدث فيه عن معرفة النفس، وماهيتها وتزكية النفس عن صفاتها الذميمة وصفة الكبر وعلاجها بالتواضع وصفة الحرص، وعلاجها بالقناعة وصفة الحسد وعلاجها بالنصيحة والرحمة والشفقة وصفة الشهوة، وعلاجها بالعفة والاجتناب عن الشهوات، وبالجوع وصفة الغضب، وعلاجها بالحلم. وصفة البخل، وعلاجها بالسخاء وصفة الحقد، وعلاجها بالعفو وسلامة القلب. ثم ختم كلامه بالحديث عن مراتب التوبة على حسب مقامات النفس، وكأنه يرسم منارات السائرين ويحدد مقامات الطائرين.

مصادر الرازي في كتابه :

عاش الشيخ نجم الدين الرازي أكثر من ثمانين عامًا (٥٧٣هـ - ٦٥٤هـ) قضاها في تحصيل العلم والترحال بين البلاد طلبًا للسمع من العلماء في البلاد التي زارها أو نقل ما تعلمه إلى تلاميذه ومريديه في تلك البلاد. وقد كتب هذا الكتاب في أخريات أيامه كما صرح هو في مقدمة كتابه عند ذكره الدوافع والدواعي التي دعت به إلى تأليفه، فقال: «وإني وإن كنت قد صَنَفْتُ قبل هذا (أي كتاب منارات السائرين) بنيف وثلثين سنة كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد». ومعنى هذا أنه حصَّل كثيرًا من المعارف وأصبح له منهجه وطريقته الخاصة، وهذا واضح في تلك العبارات التي يوضح بها منهجه ومصادره التي سوف يعتمد عليها في تصنيفه، فيقول: «فاستخرت الله، وأسعفت ملتسمه، وعرفت مقتبسه بقدر الإمكان بعد الإمعان، مستعينًا بالله في إمامه، مستهديًا منه في إتمامه، مستنبطًا معانيه من إشارات القرآن، وتلويحات الأخبار، ورموز المشايخ الكبار، مؤسسًا مبانيه على مشاهدات الأنوار، ومكاشفات الأسرار، من غرائب المواهب، وعجائب المراتب».

فهذه الفقرة من كلامه توضح أنه سوف يعتمد على مكتنزه من المعارف والإشراقات التي تلوح له في ترتيبه للمقامات وتقسيماته للمراتب الصوفية ورسمه

لطريق السالكين على هذا الدرب.

وعند استقراء مصادره نجد أنه لا يذكر كثيرًا المصادر التي اعتمد عليها في تأليف كتابه صراحةً، فنجده كثيرًا ما يقول: «وقد اجتمعت العلماء والحكماء» أو «ويقال» أو «وقيل» أو «وقد ورد عن بعض الحكماء الإسلاميين» أو «وقد جاء عن بعض الكبراء من الأئمة» أو «وقال بعض أهل العلم» أو «وقال المشايخ» أو «وجاء في الأخبار».. وهكذا. أو أنه لم يرغب في ذكر المصادر التي اعتمد عليها في كتابه صراحةً. ولكن يعود ويصرح أحيانًا أن هذا كلامه هو عندما يرد على رأي ما فيقول: «اعلم أن» أو «وقلت».

ولكنه - رغم هذا - وفي مرات قليلة يذكر المصادر التي اعتمد عليها عند ذكره لمقولة أو رأي يحتاج للرد عليه أو يعضد هو رأيه بما نقله. ومن تلك المصادر:

- الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري.
- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي.
- كتاب «غور الأمور»: للإمام الحافظ المحدث الحكيم الترمذي.
- كتاب العروض لعلي بن طباطبا العلوي.
- عوارف المعارف لشهاب الدين السهروردي.
- أدب القضاء: الإمام الشافعي.
- تحفة البررة: أبو سعيد شرف المؤيد البغدادي.
- السماع الطبيعى: ابن سينا.
- الفصول والغايات: أبو العلاء المعري.
- كتاب منافع الأعضاء لجالينوس.

كما كان يحيل أحيانًا إلى كتب له سابقة مثل كتاب «زبدة العوالي وحلية الأمالي».

عنوان الكتاب:

أشار المؤلف في بداية كتابه وفي ثناياه إلى عنوان الكتاب، وكرر ذلك مرات كثيرة، ففي أوله يقول: «وسميت هذا الكتاب بهذا الاسم «منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله» ولعمري إنه حريٌّ بهذا الاسم فريٌّ بهذا الاسم. فإن السائر يسير بأنوار مناره، والطائر يطير بأطوار مطاره». (ص: ٤٠).

وفي الخاتمة يكرر العنوان نفسه فيقول: «الحمد لله الذي وفقنا لإنجاز ما وعدنا في إتمام كتاب «منارات السائرين إلى الله، ومقامات الطائرين بالله» (ص ٥٠٣). كما كان هو العنوان نفسه على خلاف مخطوط المكتبة الأزهرية والمكتبة الحمزاوية، أما مخطوط ليدن فكان عنوانه «منارات السائرين ومقامات الطائرين» للشيخ نجم الدين (أبو) بكر محمد بن شاهوار الرازي المعروف بداية. وقد اخترنا العنوان المختصر الذي اُشتهر به الكتاب قديمًا وحديثًا، حيث ذكره صاحب معجم المؤلفين عمر رضا كحالة، وذكره أيضًا حاجي خليفة في (كشف الظنون)، فكلامهما ذكره باسم «منارات السائرين ومقامات الطائرين» دون الزيادات الموجودة فيه.

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق:

١- نسخة المكتبة الأزهرية:

يوجد منها نسخة مصورة محفوظة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، تحت رقم ٩٣٣ حليم ٣٣٥٦٧ وعدد أوراقها ١٧٦ ورقة ومسطرتها ١٧ سطرًا. وتاريخ النسخ سنة ٩٤٤ هـ بقلم إمام الدين ابن نعمة الله لاهوري. ورقمها في قاعدة بيانات معهد المخطوطات (ميكرو فيلم ٥١٢- التصوف والآداب الشرعية). وقد رمزت إليها بالحرف (ز).

٢- نسخة ليدن:

وعدد أوراقها (١٦١) ورقة ومسطرتها ٢٥ سطرًا. ورقمها في قاعدة بيانات معهد المخطوطات (ميكرو فيلم ٢٠٩- التصوف والآداب الشرعية). ولا يوجد عليها اسم الناسخ أو تاريخ النسخ. وهذه النسخة مقسمة إلى قسمين، القسم الأول: كتاب (مقامات السائرين ومقامات الطائرين) لنجم الدين الرازي، وينتهي عند الورقة ٨٥.. والقسم الثاني كتاب (شرح منازل السائرين) للقاشاني. وكتاب (منازل السائرين) ينسب إلى أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي. ويبدأ من الورقة ٨٧. وقد رمزت إلى نسخة ليدن بالحرف (ل).

٣- نسخة المكتبة الحمزاوية بالمغرب:

وهي من أفضل النسخ، وتكاد تكون خالية من الأخطاء وبها تصويبات مفيدة. واعتمدت عليها كثيرًا في ضبط النص، وهي مكتوبة بخط واضح ومقسمة تقسيمًا جيدًا. وهي مرقمة بالصفحات ويبلغ عدد صفحاتها ٣٧٥ صفحة في كل صفحة ١٧ سطرًا. وتاريخ الفراغ من نسخها الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخر سنة ٧٢٦ من الهجرة بالقاهرة على يد أحمد بن محمد بن عبد الله الكردي. أي أنها نسخت بعد وفاة المؤلف بحوالي اثنتين وسبعين سنة تقريبًا.

ويوجد منها نسخة ميكرو فيلم في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ورقمها في قاعدة البيانات (ميكرو فيلم ٧٤٩- التصوف والآداب الشرعية).

وقد رمزت إليها بالحرف (ح).

٤- النسخة المطبوعة:

وهي من تحقيق سعيد عبد الفتاح، ونُشرت بالكويت سنة ١٩٩٣، وقد كان الاعتماد على هذه النسخة كثيرًا، بل لقد نشرت إحدى دور النشر متن الكتب كما ورد

في نسخة سعيد عبد الفتاح دون تعديل يذكر.

ولأن الاعتماد كان كبيراً على هذه النسخة فقد رأيت ضرورة ضمها إلى مصادر التحقيق والتنبيه على مواضع الاختلاف بين ما حققناه وبين هذه النسخة؛ حتى يدرك القارئ الكريم الفارق بين النسختين.
وقد رمزت إليها بالحرف (ط).

منهج التحقيق:

- ١- خرجت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.
- ٢- خرجت الأبيات الشعرية ما أمكنني ذلك وضبطت مفرداتها من مصادرها، وشرحت الغامض من مفرداتها من قواميس اللغة.
- ٣- ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب ما أمكنني ذلك.
- ٤- تصويب الأخطاء الطباعية والنحوية التي وقعت في النسخ المخطوطة، وكتابة الكلمات بالكتابة الإملائية الحديثة دون الإشارة إليها في الهامش لعدم إثقال الكتاب، مثل كلمات: مسئلة، يفنا، المبتلا، استولا، بدايت (بداية)، بدة (بدت).. وهكذا كثير من الكلمات، وقد تميزت النسخ (ز) بكتابة كثير من كلمات المنتهية بتاء مربوطة بتاء مفتوحة والعكس.

٥- ضبط النص بالشكل ما دعت الحاجة إلى ضبطه.

٦- عمل الفهارس الفنية اللازمة للكتاب.

وخير ما نختم به كلامنا أن ندعو الله العلي القدير أن يلقي عملنا هذا القبول والاستحسان وأن يجعله في ميزان حسناتنا، وأن يتجاوز عنا فيما قصرنا فيه وأن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد أفضل صلاة وأتم تسليم.

الرَّبَّانِي صِفْوَةُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ شَاهَا
 وَرَأَى سَيِّدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَشَكَرَ سَعِيَهُ قَدْ أَلْتَمَسَ مِنِّي بَعْضُ
 خَلَصِ اصْحَابِي مَسْنَنَ تَسْلُكٍ بِذِيْلٍ رَادِيٍّ وَزَمَنِي بِأَنْ أَصْنِفَ كِتَابًا
 كَامِلًا فِي شَرْحِ مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ شَامِلًا لِكِرَامَاتِ السَّالِكِينَ
 جَامِعًا لِمَنْ زِلَ السَّائِرِينَ سَاطِعًا بِمَرَاكِلِ الْجَابِرِينَ لِيَكُونَ مُفِيدًا
 لِلْمُسْتَفِيدِ الْمُبْتَدِي وَمُتَدًّا لِلْمُسْتَمْدِ الْمُنْتَهَى سَالِكًا فِيهِ طَرِيقُ
 الْإِجْزَازِ مَجْمَلًا فِي مَوَاقِعِهِ الْإِجْزَازِ سَاعِيًا فِي كَنْفِ الْأَعْظَمِ عَنْ
 حَقَائِقِهَا رَاعِيًا إِيْرَادِ امْتِلَاحٍ مَحْسُوسَةٍ لِلدَّقَائِقِهَا نَاجِبًا أَعْلَانِ
 مُوَضِّحَةٍ لِطَرَائِقِهَا وَإِنِّي إِنْ كُنْتُ قَدْ صَنَفْتُ قَبْلَ هَذَا مَنِي وَ
 ثَلَاثِينَ سَنَةً كِتَابَ مِرْصَادِ الْعِبَادِ مِنَ الْمَبْدَأِ إِلَى الْمَعَادِ وَهُوَ
 مُسْتَجْمَعُ أَكْثَرِ شَرَايِطِ الْمَلْتَمَسِ وَالْأَزْبَابِ السُّلُوكِ أَكْرَمِ الْقَبَسِ
 وَلَكِنَّهُ مَوْلُوكَ بِالْجَمِيَّةِ وَقَدْ حَرَمَ مِنْ فَوَائِدِكَ أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ
 فَارَادَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ مَوْلَفًا بِالْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيحَةِ بَدَلًا
 عَنِ الْجَمِيَّةِ الْمَلِيحَةِ لِيَكُونَ عَلَى مَوَائِدِ فَوَائِدِكَ الْعُلَمَاءُ الْمُتَحَرُّونَ
 وَالْفُضَلَاءُ الْمُعْتَبَرُونَ فَاسْتَحَرْتُ اللَّهَ وَأَسْعَفْتُ مَلَمَسَهُ وَعَمَرْتُ
 مُقَبَّلَهُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ بَعْدَ الْأَمْعَانِ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ فِي إِمْتَامِهِ
 سَهْدِيًّا مِنْهُ فِي إِمْتَامِهِ بِسُتَيْطَا مَعَانِيهِ مِنْ إِشَارَاتِ

ومقامات الطائرين بالله من معرفة النظر وانهم الفكر ووقف الكشف
 اسرارهم ومعانيهم ونشرها في مطاوعهم ولم يردعه العصبية والدخلة الودية انصف
 واعترف باي وان كنت من المتأخرين لات عالميات المتقدمين
 تخصيها القول النبي صلى الله عليه وسلم امي كالعمر لا يدري او هو خير ام هو
 ولا يعلم قد رما ودعت فيمن لا العلماء بالله والناجون في العلم الذين هم
 او تاد الارض وعمد السابلي الذين هم اقرب العالم وجه الله على الخلق
 عليهم سلام الله ورحمته وبركاته فاقول كما قال الله تبارك وتعالى
 ان هذه تذكرة فمن شا اتخذ الي ربه سبيلا على باي لم ادع فيه العصبية عن
 اسكان السهو والغلط فان الانسان يعرض النسيان وسيت انسانا لانك ناس
 واول ناس اول ناس في المتوقع من كرم الناظرين المتاملين فيه ان اطلع عالم
 منصف على موضع سهو وغلط ان يصلح بقله وفضل وكرمه بشرط ان يكون
 على يقين دون خيرون فان الظن غلط ويصعب ولا يكون من راي
 الف صواب غطاء واذا وجد سهوا نادى عليه واداه كما قيل صماد صماد
 حبيبا ذكرت سبوه عندهم اذ نواخت الكتاب بالخير ختم الله كتاب
 احوالنا بالخير وذكره في ربيع الاول سنة ثمانية وتسعين وثمان
 واحمد سر رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد النبي
 وآله وصحبه اجمعين وعترته الطاهرين وسلم تسليما كثيرا

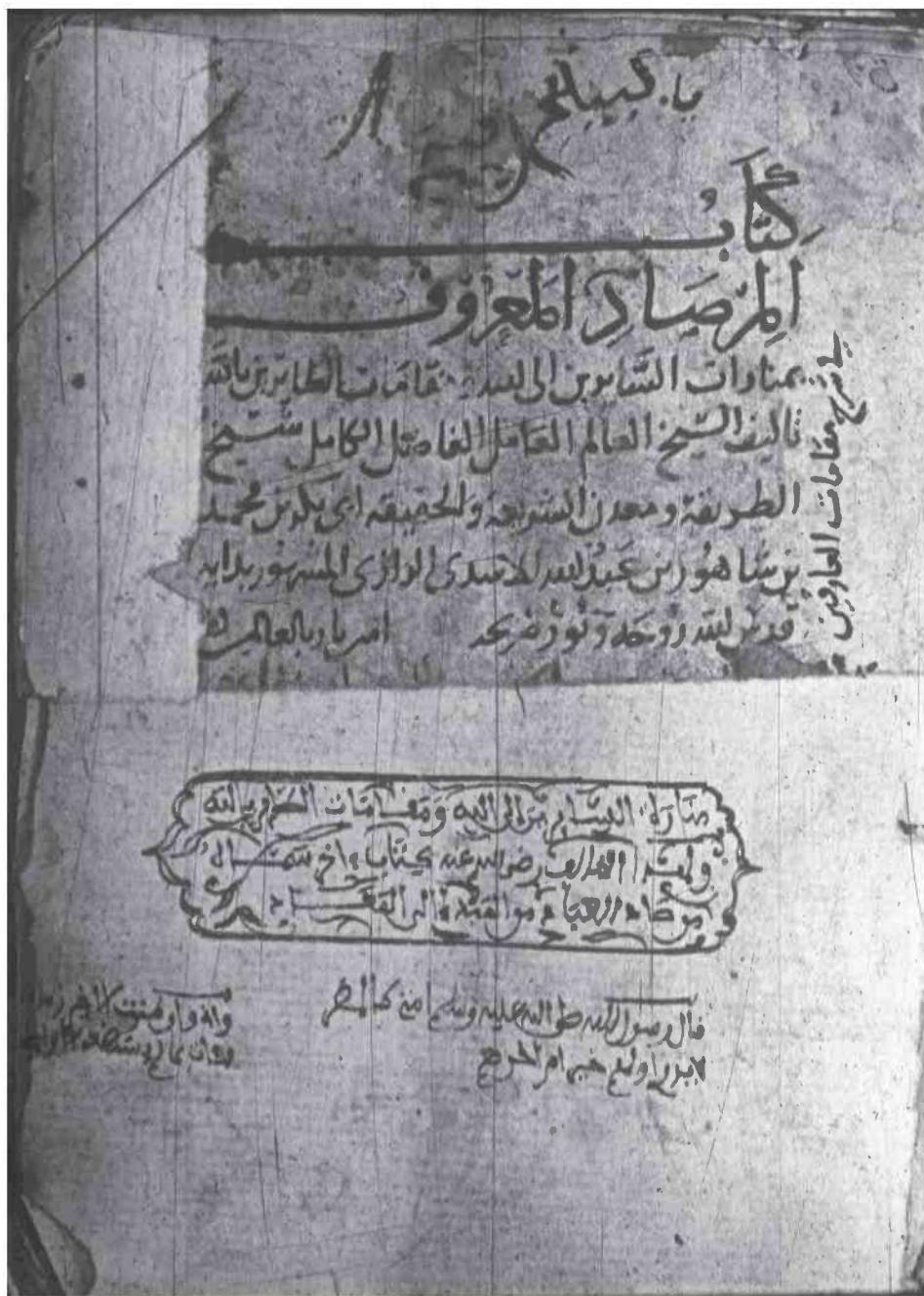
(الورقة الأخيرة من نسخة المكتبة الأزهرية)

الفصل الأول في رد الوجود إلى
 القلب الفصل الثاني في رد الوجود إلى النفس
 الفصل الثالث في رد الوجود إلى
 الجواهر الفصل الرابع في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الخامس في رد الوجود إلى
 النفس الفصل السادس في رد الوجود إلى
 النفس الفصل السابع في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثامن في رد الوجود إلى
 النفس الفصل التاسع في رد الوجود إلى
 النفس الفصل العاشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الحادي عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثاني عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثالث عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الرابع عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الخامس عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل السادس عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل السابع عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثامن عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل التاسع عشر في رد الوجود إلى
 النفس الفصل العشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الحادي والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثاني والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثالث والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الرابع والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الخامس والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل السادس والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل السابع والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثامن والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل التاسع والعشرون في رد الوجود إلى
 النفس الفصل الثلاثين في رد الوجود إلى
 النفس

ولا كان روح عيسى في يد خلقه غيبه منطلق من الموجودات اخرج عن حاله فقال النبي
 بعد الموعظة ان روح محمد صلى الله عليه وسلم عن رف الموجودات وخرج به الجنة المواجه حتى ظهر من سد
 رة المشهي اخرجته الله عنه فقال سبحان الرب اسير في بيده ففرق عظيم بين المقامين في العبدية
 بين من هو باق في حبه عن نفسه وبين من هو فان على نفسه باق بره ففرق عن ربه فكل روح هو
 عن خلق الكونين وخرج عن رفها اسهل لتمام العبودية وقيل له فادخل في عبادي ثم
 بفتح جذبات الغاية ودخول الجنة المضافة اياهم بقوله وادخل الجنة وهذا الاختلاف
 روح من هو ارب رب العالمين بالفتح فاحص ايا اسفل سافلين الغالب فافهم جازم اعلم انك عبد
 من انت في قبضه واسره ان كنت في اسره نفسك فانت عبد لنفسك وان كنت في اسره دنياك
 فانت عبد لدنياك وان كنت في اسره اخيك فانت عبد اخيك وان كنت في اسره مولاك فانت
 عبد لمولاك وقال سهل بن عبد الله لا يصح التقيد لاحد حتى لا يخرج من اربعة اشياء من
 هو هو الرب والفقر والذل وقال ذو النون العبودية ان يكون عبده في كل حال كما ان
 بك في كل حال قال الشيخ المصنف رحمه العبودية ان يكون عبد الرب في كل حال لا سببا
 ولا نكرا بل شي فان العبد وما يملكه لولاه المقام الشيخ الفقر قال الله في الفقر: الذين احصوا
 في سبيل الله لا يستطيعون حيلة ولا ياتون من الارض وقال رسول الله الفقراء البصير هم طبساء اليوم
 القباة وقال يوحنا الفقراء خمسة قبل الاغنياء خمسة عام نصف يوم اعلم ان الفقير من
 اشرف مقامات الرواد ذلك لان الله خلقه كان اول مخلوق ولم يكن معه علف او مكان عبد
 اكلوا ولا يجد عيشا وهو اكل على مولا امورا فنهاية الفقر الرجوع ايا البداية فالفقر على
 نفسه اوج فقر القوام وهو بدم المال كما ولدت له وفقر كواص وهو بدم الامال وفقر
 من احكام الصناعات كما كان في عام الارواح وقهر الاخص وهو بدم الوجود وكما كان في علم
 الله قبل ايجاد بالوجود ليكون عبدا لملوك لا بعد رعا شي من الوجود وهو على مولا
 بحد الوجود وبذل المقصود وهذا هو الفقر الذي افهمه النبي صلى الله عليه وسلم فقر في شئ وهو

فقر الفقر

مفاتيح قلوبهم في خزائن الغيب لا يعلمها الا عالم الغيب فلا يظهر عليه غيبه الا الهنا الهنا هم الهك
المستقيم وثبتنا على دينك القديم في متابعة سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى اله
ربنا لا تكلنا ايا انفسنا طرفة عين ولا اقل من ذلك واقر في علينا سجال فضلك وفضلك
عنا وامت علينا بحدود وجودك من مستغربين في بحر فاضلك ونوالك باوام محلي بحالك
جلالك باله العالمين وخبر الناجين برحمتك وكرمك بالهمم الراحمين واكرم الاكرمين بحلاله
الزمن وفقنا لانجاز ما وعدنا في انعم كتاب منارات السائرين ايا الله ومقامات الطالبين
بالدخول في المحل في النظر وانعم الفكر وفق لكشف اسرار ومعانيه ونشر ما في مطاوعه ولم
يرد به العصب والرحمة الودية انصف واعترف باننا والنا كنت من المتأخرين لان تمام ما
المستقدمين تصحى القول بالحق صلى الله عليه وسلم طالع لا يورث اولهم خيرا اخرهم حلا يملق قوما يورثون
فيما لا يطالب باله والراسخون في العلم الذين هم ابناء الارض وعمد السماء بل الذين هم اقرب
العالم ورجح الله على خلق عليهم سلام الله ورحمة وبركاته فاقول كما قال الله تعالى ان الله عز وجل
فمن شاء اتخذ اياته سبيلا عظيم اذ في هذه العشرة عن امكان السهو والخطا فان الانسان يوهن
النسيان وسقط انسانا لانك تاس واقل من اول الناس فالتاس فالتوقع من كرم الناطقين
المتاملين فيه والاطلح عالم منصف عما وضع سهو وغلط ان يصلي بجملة يغفل ذكره
بشرط ان يكون على يقين دون تحجر وطن فان الظن محطى ويصعب ولا يكون عن رأي
الفصواب عطاء واذا وجد سهوا انا دين عليه واياه في قيلهم اذا سمعوا خيرا
وذكرت به وان ذكرت بهو وعندهم اذ نوا جنت حنت الكتاب بالخير ختم الله كتاب



(الورقة الأولى من نسخة المكتبة الحمزاوية)

184

السبع واستبلاء صفات في أضدادها وفيها مرض القيقب
 وموتها فاما الصفات السبع التي هي من صفات القيقب وهما
 الكبر فيحتاج بالتواضع كما بينته ان شاء الله تعالى الفصل
 الثالث في صفة الكبر وعلاجه بالتواضع قال الله تعالى اني
 واسئت كبر وكان من الكافرين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا
 لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من
 في قلبه مثقال ذرة من ايمان فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب ان
 يكون ثوبه حسنا قال الله جميل يحب اكل العكر من بطر
 الحق وعيصر الناس قال ابن الاعرابي يطرسوا احوال الغني
 ويطرون الحق ها هنا ان يجعل الحق باطلا ويقال هو ان يتكبر
 عند الحق فلا يقبله كما كان لا يلبس وعيصر الناس اي يحتقرهم فلا
 يراهم شيئا فدللت الالة والحديث ان الكبر كفر الاله
 قابله في نقيضه بالايمان في الحديث وقال في القرآن وكان من
 الكافرين اي صار من الكافرين لا باء والاستكبر كجاءه والى ايت
 النبي صلى الله عليه في النوم جالسا وهو يديم الكبر والتكبر فتذكر
 حديثه الذي قاله صلى الله عليه وسلم ما اتاكم من دد ولا الدد مني فقلته
 ولكن جرا على لساني ما اتاكم من الدد بالالف واللام فلما سمع النبي صلى

في مقابلة

سبع السبع

مقدمة المؤلف^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله [المتوحد في ذاته]^(٢)، المتفرد في صفاته، المبدع في مبدعاته، المبدئ في مخترعاته. الذي خلق ببدیع فطرته^(٣)، وصنيع حكمته، أول ما خلق روح المصطفى، ثم خلق منه أرواح الأنبياء والأولياء، أولي^(٤) الأحلام والنهي؛ فجعله أب^(٥) الأرواح، كما جعل آدم أب^(٦) الأشباح. ثم خلق منه العالم بما فيه إنساناً كبيراً، وجعل شخص آدم فيه عالماً صغيراً. ووشحه بالرحمة، والرأفة. ورشحه للمعرفة والخلافة. وكرمه^(٧) بالإعانة على حمل الأمانة، وجعله مستعداً لهذا الشأن العظيم،

(١) إضافة من المحقق.

(٢) ساقطة في (ل) والإضافة من (ح، ز).

(٣) في (ط): حكمته.

(٤) في (ز): (وَأُولَى) وفي (ح): (وَأُولَى).

(٥) في (ز)، (ل)، (ح): (أَبَا) والتصويب من (ط).

(٦) في (ز)، (ح): (أَبَا).

(٧) في (ز): لزمه.

والشأو^(١) الجسيم. فجعله صَدَفَ دَرَّةَ حَبِيْبِهِ الْمُجْتَبَى، وَنَبِيْهِ الْمُصْطَفَى، الْمَبْعُوْثَ إِلَى كَافَةِ الْوَرَى، الَّذِي سَمَّاهُ مُحَمَّدًا وَأَحْمَدًا^(٢)، وَخَاطَ خِلْعَةَ النَّبُوَّةِ عَلَى قَدِّهِ، فَجَعَلَهُ مُقْتَدَى وَآتَاهُ كِتَابًا؛ يَنْابِغُ الْحَكْمَ فَوَارَةً فِي دَرَجِهِ، وَشَمُوسُ الْغُيُوبِ طَالِعَةً مِنْ بُرْجِهِ. فَأَصْبَحَ وَالْعَالَمُ فِي سِرْبَالِهِ، وَكُلُّ الْعُلُومِ فِي سِرْبَالِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ؛ الَّذِينَ هُمْ أُمَّةُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى. [وَعَلَى أَصْحَابِهِ؛ الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ مَوَارِيثِهِ، وَنَقْلَةُ أَحَادِيثِهِ]^(٣)، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ الطَّيِّبَاتِ الطَّاهِرَاتِ، أُمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد :

فَقَالَ شَيْخُنَا، وَمَوْلَانَا، الْإِمَامُ الرَّبَّانِي، صِفُوَّةُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ «أَبُو بَكْرٍ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ شَاهَوْرٍ الْأَسَدِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَشَكَرَ سَعِيَّهُ^(٤):

قَدْ التَّمَسَّ مِنْ بَعْضِ خُلَصِّ^(٥) أَصْحَابِي مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِذَيْلِ إِرَادَتِي، وَلَزِمَ^(٦) بَابِي، أَنْ أَصْنَفَ كِتَابًا كَامِلًا فِي شَرْحِ مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ، شَامِلًا لِكِرَامَاتِ السَّالِكِينَ، جَامِعًا لِمَنَازِلِ السَّائِرِينَ، سَاطِعًا بِمَرَاكِزِ^(٧) الْحَاطِرِينَ؛ لِيَكُونَ مَفِيدًا لِلْمُسْتَفِيدِ الْمُبْتَدِي، وَمِمْدًا لِلْمُسْتَمِدِّ الْمُنْتَهِي. سَالَكًا فِيهِ طَرِيقَ الْإِيْجَازِ، مُجَدِّدًا فِي مَوَاعِيدِهِ الْإِنْجَازِ، سَاعِيًا فِي كَشْفِ الْأَغْطِيَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا، رَاعِيًا إِيْرَادَ أَمْثَلَةٍ مُحَسَّوسَةٍ لِدَقَائِقِهَا، نَاصِبًا أَعْلَامًا مُوَضَّحَةً لَطَرَائِقِهَا.

(١) هَكَذَا وَرَدَ فِي (ز)، (ل)، (ح) وَوَرَدَ فِي (ط) الثَّنَاءُ. وَالشَّأُو: الْأَمْدُ وَالْغَايَةُ. يُقَالُ: بَلَغَ شَأُوًا بَعِيدَ الْمَدَى فِي عَمَلِهِ: غَايَةً وَشَأْنًا.

(٢) لَمْ تَذْكُرْ (وَأَحْمَدًا) إِلَّا فِي (ل).

(٣) سَاقِطَةٌ فِي (ز).

(٤) فِي (ل): (فَقَالَ شَيْخُنَا، وَمَوْلَانَا، الْإِمَامُ الرَّبَّانِي، صِفُوَّةُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ، جَمَالَ الْمَلَةِ وَالِدِينَ، سُلْطَانَ الْمَائَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ أَبُو بَكْرٍ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ شَاهَوْرٍ الْأَسَدِيِّ الرَّازِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

(٥) الْمَثْبُتُ هُنَا مِنْ (ز)، (ح).

(٦) فِي (ز)، (ح)، (ط): (لَزِمَنِي).

(٧) فِي (ط): لِمَرَاكِزِ.

وإني وإن كنت قد صُنِّفْتُ قبل هذا بنيف وثلاثين سنة كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» (*) وهو مستجمع أكثر شرائط الملتمس، ولأرباب السلوك أكبر المقتبس، ولكنه مؤلف بالعجمية. وقد حُرِّم من فوائده أهل العربية. فأردت أن يكون هذا الكتاب مؤلفًا بالعربية الفصيحة، بدلًا من العجمية المليحة؛ ليكون على موائد فوائده العلماء المتبحرون، والفضلاء المعتبرون. فاستخرت الله، وأسعفت ملتسمه، وعرفت مقتبسه بقدر الإمكان بعد الإمعان، مستعينًا بالله في إمامه^(١)، مستهديًا منه في إتمامه، مستنبطًا معانيه من إشارات القرآن، وتلويحات الأخبار، ورموز المشايخ الكبار، مؤسسًا^(٢) مبانيه على مشاهدات الأنوار، ومكاشفات الأسرار، من غرائب المواهب، وعجائب المراتب، سالكا فيه طريقة لم أُسَبِّق إلى سلوكها. وإن صُنِّفَ في هذا الباب كتب كثيرة من أرباب الحقائق وملوكها. ورحم الله عبداً، إذا عرف اعترف، وإذا استنصف أنصف. حين أوضح معالم الدين بحيث يحصل للطالب الراغب منه

(*) كتاب (مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد) من تصنيفه، ويحتوى هذا الكتاب على العديد من الموضوعات، فهو مرصع بالكثير من الآيات القرآنية الشريفة التي تأتي حسب مذاق الصوفية وأذواقهم، مما يعطينا مفهومًا خاصًا عن أهمية هذا الكتاب من ناحية التفسير لآيات القرآن الكريم، كما استشهد المؤلف في كتابه بقدر كبير من الأحاديث النبوية سواء في افتتاحيات الفصول أو في ثنايا النص؛ والكتاب مليء بالأحاديث التي يبلغ قدرها حوالى المائتين والتسعين حديثًا، غير الأحاديث المتكررة.

كما يمتاز المرصاد بكثرة المصطلحات والتعبيرات الصوفية التي يتجلى بها الكتاب، ويحتوي أيضًا على الحديث عن العديد من العارفين والشيوخ السابقين والمعاصرين للمؤلف وأحوالهم وأفكارهم التي استفاد ببعضها في الكثير من موضوعات كتاباته، ولا ننسى الأشعار الفارسية الجميلة التي يزر بها المرصاد ومنها جزء كبير لنفس الشاعر داية والباقي لشعراء مشهورين.

يقدم لنا الكتاب المعارف القيمة عن وضع وسلوك الطبقات المختلفة للشعب و آدابه ورسومه في ذلك العصر، حيث يتناول الاضطراب العام من سبل المغول وهجومهم المروع على الشعوب الآمنة. وكذلك يتحدث الكاتب عن فساد الناس وأجهزة الحكومة والخدمة والبرطلة والرشاوى وأثرها في أخلاق وشعوب مجتمعات ذلك العصر وغير ذلك من الموضوعات.

(١) في (ز): إتمامه.

(٢) في (ز): مأسسا.

برد اليقين، فيكون منارًا [للسائرين]^(١) إلى الله، ومطارًا للطائرين بالله. بتوفيق الله الموفق والمعين، إن شاء الله رب العالمين.

وسميت هذا الكتاب بهذا الاسم [منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله]. ولعمري إنه حريٌّ بهذا الاسم فرِّي^(٢) بهذا الاسم. فإن السائر يسير بأنوار مناره، والطائر يطير بأطوار مطاره.

وجعلت للكتاب^(٣)، فاتحة، وخاتمة، ووضعت للمقامات عشرة أبواب. تبرُّكا بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ويشتمل كل باب منها على عدة فصول.

وهذا فهرست الأبواب والفصول^(٤):

الباب الأول: في مقام المعرفة^(٥).

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مقام معرفة العوام.

الفصل الثاني: في مقام معرفة الخواص.

الفصل الثالث: في مقام معرفة أخص الخواص.

الباب الثاني: في مقام التوحيد.

(١) سقطت من (ل).

(٢) وردت في (ل) و(ز) و(ط): (جرى بهذا الاسم قرئ بهذا الوسم) والتصويب من (ح). والفري: أمر عجيب، عظيم، محير. يقال: فلانٌ يفري الفري: إذا أجادَ عمله وأتى فيه بالعجيب.

(٣) في (ز، ح): الكتاب.

(٤) في (ز): فهرست الأبواب فقط. ولم ترد هذه العبارة في (ل) مطلقا ولعله سهو من الناسخ الذي لم يذكر كلمة باب عند عرضه لمحتويات الكتاب في هذا الجزء، بل ذكر كلمة فصل بدلا منها فقال: (ويشتمل كل باب منها على عدة فصول: الفصل الأول في مقام معرفة العوام، الفصل الثاني في مقام معرفة الخواص... إلخ. ولم يذكر (الباب الأول وهو: مقام المعرفة. كما ورد في باقي النسخ).

(٥) في (ز): في مقامات المعرفة. والتصحيح من (ح).

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مقام توحيد العوام، وهو مقام المبتدئ.

الفصل الثاني: في مقام توحيد الخواص، وهو مقام المتوسط.

الفصل الثالث: في مقام توحيد أخص الخواص، وهو مقام المنتهي.

الباب الثالث: في مقام النبوة.

وهو يشتمل على عشرة فصول:

الفصل الأول: في كيفية ارتقاء الحواس الخمس إلى الحس المشترك ومنه^(١) إلى ما فوقه إلى أن يصير الروح به قابلاً للوحي.

الفصل الثاني: في كيفية الوحي.

الفصل الثالث: في أصناف الوحي.

الفصل الرابع: في أن العقل ملك مطاع بالطبع متهيئ لقبول الوحي والإيمان.

الفصل الخامس: في المنام^(٢) الصادق، والفرق بين المنام ووقائع القوم^(٣).

الفصل السادس: في دلائل النبوة، والفرق بين الرسول والنبي.

الفصل السابع: في الفرق بين النبوة والكهانة.

الفصل الثامن: في الفرق بين المعجزة، والكرامة، والسحر، والشعبة^(٤).

الفصل التاسع: في إثبات نبوة المصطفى (صلوات الله عليه).

الفصل العاشر: في فضيلة نبينا ﷺ على جميع الأنبياء وختم النبوة به.

(١) في (ز، ح): (ومنها) والتصويب من (ط).

(٢) في (ز): منام.

(٣) في (ز): القول.

(٤) وردت في (ط): الشعوذة. والشعبة: شَعَبَدَ شَعْبَةً: مهر في الاحتيال وأرى الشيء على غير حقيقته، معتمداً على خداع الحواس.

الباب الرابع: في مقام الولاية.

وهو يشتمل على ستة فصول:

الفصل الأول: في مراتب مقامات الولي.

الفصل الثاني: في مقام التقوى.

الفصل الثالث: في مقام الزهد.

الفصل الرابع: في مقام الصبر.

الفصل الخامس: في مقام الرضا.

الفصل السادس: في مقام المحبة.

الباب الخامس: في مقام الإنسان.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في أن الإنسان هو العالم الكبير بالروح.

الفصل الثاني: في أن شخص الإنسان عالم صغير.

الفصل الثالث: في تسوية القلب، وتعلق الروح.

الباب السادس: في مقام الخلافة المختصة بالإنسان.

وهو مشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ماهية الخلافة.

الفصل الثاني: في اختصاص الإنسان بالخلافة.

الفصل الثالث: في تفاوت الخلافة ودرجاتها.

الباب السابع: في مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في كيفية رد الروح إلى القلب.

الفصل الثاني: في رجوع الروح إلى الحضرة.

الفصل الثالث: في العبور عن مقامات خواص جواهر العنصرية، [وهي أربعة مقامات: الترابية، والمائية، والهوائية، والنارية]^(١).

الفصل الرابع: في العبور عن خواص جواهر المركبات والنباتات في الرجوع.

الباب الثامن: في مقامات النفس، ومعرفتها^(٢).

وفيه عشرة فصول:

الفصل الأول: في معرفة النفس، وماهيتها.

الفصل الثاني: في تزكية النفس عن صفاتها الذميمة.

الفصل الثالث: في صفة الكبر وعلاجها بالتواضع.

الفصل الرابع: في صفة الحرص، وعلاجها بالقناعة.

الفصل الخامس: في صفة الحسد وعلاجها بالنصيحة والرحمة والشفقة.

الفصل السادس: في صفة الشهوة، وعلاجها بالعفة والاجتناب عن الشهوات، وبالجموع.

الفصل السابع: في صفة الغضب، وعلاجها بالحلم.

الفصل الثامن: في صفة البخل، وعلاجها بالسخاء.

الفصل التاسع: في صفة الحقد، وعلاجها بالعفو وسلامة القلب.

الفصل العاشر: في مراتب التوبة على حسب مقامات النفس.

(١) ما بين قوسين إضافة من (ط).

(٢) في (ز): ومعرفها.

الباب التاسع: في معرفة القلب ومقاماته في التصفية.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: في معرفة القلب.

الفصل الثاني: في مقامات القلب^(١).

الباب العاشر: في معرفة الروح ومقاماته.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: في معرفة الروح وماهيته.

الفصل الثاني: في مقامات الروح.

* * *

(١) ورد في (ل، ز): (وفيه ثلاثة عشر فصلاً).

فاتحة الكتاب

اعلم أَيَّدَكَ الله بروح منه، وأحياك بنوره، أن لهذا الملتَمَس مقدمات ينبغي أن تُعرف أولاً حتى تُستفتح منها هذه المطالب، وهي معرفة مراتب الموجودات الصادرة من مبدعها^(١) وموجدِها. على سبيل الاختصار، وهي^(٢): الحضرة الإلهية، المسماة عند بعضهم بواجب الوجود. ونعني بواجب الوجود؛ أن يكون وجوده من ذاته لا من غيره. ووجود غيره منه. فيكون كل ما سواه ممكن الوجود. والممكن: ما يكون طرفاً وجوده، وعدمه متساويين. فلا بد له من مرجح طرف وجوده على عدمه. والمرجح: هو الله الواحد الأحد الصمد. لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد^(٣).

فصل

ثم اعلم، أن العالم بما فيه من الغيب والشهادة، مكوَّن^(٤) من الفيض الأول؛ الذي عبَّر عنه بكلمة «كُنْ». كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥) [النحل: ٤٠]. وأوَّلُ شَيْءٍ تَكُونُ بتكوين الفيض الأول: الروح الأعلى، والنور الأدنى، وهو روح سيد الأولين والآخرين، محمد المصطفى، عليه وعلى آله

(١) في (ز، ح): مبدئها.

(٢) في (ز): وهو.

(٣) يشير المؤلف هنا إلى نص سورة الإخلاص.

(٤) في (ل): مكوَّن بتكوين الفيض...

(٥) لم ترد هذه الآية في (ل) ووردت في (ح، ز).

أفضل الصلوات، وأزكى التحيات. ونوره كما قال عليه السلام: «أول ما خلق الله روعي»^(١). وفي رواية «نوري». وإنما قال في رواية أخرى: «أول ما خلق الله العقل»؛ لأن العقل هو نوره بالحقيقة. فافهم جدًا. وإنما قال في رواية أخرى: «أول ما خلق الله القلم»؛ لأن روحه كان قلم الحق، سبحانه وتعالى^(٢)، فكما أن القلم يستفيض من المداد للكتابة، كان روحه مستفيضًا من الفيض الأول، ويفيض على المكونات. فكان المكونات كتاب^(٣) كتبه الله تعالى بقلم^(٤) روحه ومداد أنوار فيضه الأول؛ فلهذا السر قال النبي، عليه السلام، «خلق الله القلم من نور، ومداده النور»^(٥). وكل عالم من العوالم المختلفة حرف من حروف كتابه. والإنسان الكامل كلمة من كتابه، مركبة من حروف العوالم المختلفة كلها. كما سَمَّى الله تعالى «عيسى» عليه السلام، بالكلمة، فقال: «روح الله وكلمته»^(٦). وكان بهذا الاعتبار كل نبي كلمة. وكان نبينا ﷺ هو الكتاب كله. وقد كشف القناع عن هذا السر بقوله ﷺ:

(١) حديث: أول ما خلق الله روعي، نوري، العقل: رواه ابن تيمية في مجموع فتاويه (١١ / ٢٣٠) وقال: كذب موضوع. وابن العربي في العواصم من القواصم (٢٤٢) وقال: لم يصح. وفي رواية: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر» حكم المحدثون بأنه حديث منكر وذهبوا إلى وضعه. قال العلامة عبد الله بن الصديق الغماري: «وعزوه إلى رواية عبد الرزاق خطأ لأنه لا يوجد في مصنفه ولا جامعته ولا تفسيره»، وقال الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوى ج ١ ص ٣٢٥: «ليس له إسناد يعتمد عليه» اهـ، وهو حديث موضوع جزئًا... إلى أن قال: وبالجملة فالحديث منكر موضوع لا أصل له في شيء من كتب السنة.

(٢) في (ز): أول ما خلق الله القلم الحق تعالى.

(٣) سقطت من (ز): (فكان المكونات كتاب) ووردت في (ل، ح): (فكان المكونات كتابًا).

(٤) في (ز): بالقلم.

(٥) روى أبو داود في سننه (٤٧٠٠): عن عبادة بن الصامت: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». ورواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب إسنادًا.

(٦) الصحيح عن عيسى عليه السلام والذي ورد في القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا فَلَنُنَّ أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدَهُ يَخْتَرُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

«لما خلق الله القلم، قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب لا إله إلا الله، محمد رسول الله»^(١).

يشير به إلى أنه لا مكون للمكونات إلا الله، سبحانه وتعالى^(٢)؛ لأنه كَوْنُها بفيض جوده، ولا وجود للمكونات إلا بمحمد ﷺ؛ لأنه برسالته إلى المكونات، استفاض من الفيض الأول، وأفاض عليهم فتكوّنوا برسالته، كما تتكون الحروف والكلمات برسالة القلم المستفيض من المداد، وتبليغه إلى المصحف.

وقد صرح النبي ﷺ بتحقيق هذا المعنى في حديث «جابر بن عبد الله الأنصاري» رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه^(٣) الله.

قال: «هو نور نبيك يا جابر، خلقه ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شر»^(٤).
و حين^(٥) خَلَقَهُ أَقَامَهُ قُدَامَهُ فِي مَقَامِ الْقَرَبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ^(٦) أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ؛ فَخَلَقَ الْعَرْشَ مِنْ قِسْمٍ، وَالْكَرْسِيَّ مِنْ قِسْمٍ، وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَخِزْنَةَ الْكَرْسِيِّ مِنْ قِسْمٍ، وَأَقَامَ الْقِسْمَ الرَّابِعَ فِي مَقَامِ الْحَبِّ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ^(٧) أَلْفَ سَنَةٍ. ثُمَّ جَعَلَهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ؛ فَخَلَقَ الْقَلَمَ مِنْ قِسْمٍ، وَاللُّوْحَ مِنْ قِسْمٍ، وَالْجَنَّةَ مِنْ قِسْمٍ. وَأَقَامَ الْقِسْمَ الرَّابِعَ فِي مَقَامِ الْخَوْفِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ؛ فَخَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ جِزءٍ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ مِنْ جِزءٍ، وَخَلَقَ الْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ مِنْ جِزءٍ. وَأَقَامَ الْجِزءَ الرَّابِعَ فِي مَقَامِ الرَّجَاءِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ؛ فَخَلَقَ الْعَقْلَ مِنْ جِزءٍ، وَخَلَقَ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ مِنْ جِزءٍ، وَالْعَصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ مِنْ جِزءٍ، وَأَقَامَ الْجِزءَ الرَّابِعَ فِي

(١) انظر تخريج الحديث السابق هامش رقم (٥).

(٢) ساقطة من (ز، ل، ح) والإضافة من (ط).

(٣) في (ل، ح): خلق.

(٤) في (ز، ح، ط): شيء. والتصويب من (ل).

(٥) في (ز): وخير.

(٦) في (ز): اثنا عشر.

(٧) في (ل، ح): اثني عشر.

مقام الحياء اثنتي عشرة ألف سنة، ثم نظر الله إليه فترشح النور عرقاً فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفاً وأربعة آلاف قطرة من النور. فخلق الله تعالى من كل قطرة روح نبي أو رسول ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله تعالى من أنفاسهم نور الأولياء والسعداء، والشهداء، والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة. فالعرش والكرسي من نوري والكروبيون^(*) من نوري، والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السموات السبع من نوري^(١)، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم [والحلم من نوري، والعصمة]^(٢) والتوفيق من نوري، وأرواح الرسل والأنبياء من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون^(٣) من تباريح^(٤) نوري. ثم خلق الله اثني عشر حجاباً، فأقام النور وهو الجزء الرابع، في كل حجاب ألف سنة، وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة، والسعادة، والهيبة، والرحمة، والرأفة، والعلم، والحلم، والوقار، والسكينة، والصبر، والصدق واليقين. فعبَدَ الله^(٥) ذلك النور في كل حجاب ألف سنة. فلما خرج النور من الحجب ركَّبَهُ الله تعالى في الأرض فكان يضيء منها ما بين المشرق والمغرب، كالسراج في الليل المظلم. ثم خلق الله آدم من الأرض، وركَّب فيه النور في جبينه ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، ومن طيب إلى طاهر، إلى أن أوصله إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى رحم أمي آمنة. ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين ورحمة للعالمين، وقائد الغر المحجلين. هكذا كان بدء^(٦)

(*) الكروبيون: جاء في لسان العرب في مادة (كرب): والكرب: القرب. والملائكة الكروبيون: أقرب الملائكة إلى حَمَلَةِ الْعَرْشِ.

(١) في (ل): (والكروبيون من نوري، والروحانيون من الملائكة، وملائكة السموات السبع من نوري).

(٢) ساقطة في (ل)، (ز).

(٣) سقطت من النسخة (ط).

(٤) في (ز): نتائج. وأثبتها محقق النسخة (ط)، وأرى أن كلمة (تباريح) التي وردت واضحة في (ل، ح) هي الأنسب للسياق وتعني الشدة والتوهج.

(٥) في (ط): فعبَدَ الله به.

(٦) في (ح، ل): بدؤ.

خلق نبيك يا جابر»^(١).

فثبت أن المكونات تكوّنت بإفاضة^(٢) فيض نور النبي ﷺ الذي هو المستفيض من الفيض الأول، فكان مثل نوره^(٣) وروحه ﷺ. مع المكونات مثل البذر مع الشجر، فإن أصلها، وفرعها، وجذعها، وأوراقها، وثمراتها متفرعات ونتائج من البذور، فيصح عن الزارع لو قال للبذور: لولاك لما زرعت الشجرة. كما قال تعالى لنبيه ﷺ: لولاك

(١) حكم المحدثون على هذا الحديث بأنه حديث منكر وذهبوا إلى وضعه. قال العلامة عبد الله بن الصديق الغماري: «وعزوه إلى رواية عبد الرزاق خطأ لأنه لا يوجد في مصنفه ولا جامعه ولا تفسيره»، وقال الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوى ج ١ ص ٣٢٥: «ليس له إسناد يعتمد عليه» اهـ، وهو حديث موضوع جزماً... إلى أن قال: «وبالجملة فالحديث منكر موضوع لا أصل له في شيء من كتب السنة». ولقد حكم بوضعه أكثر المحدثين كالحافظ الصاغاني، وأقره الحافظ العجلوني على ذلك.

ثم إن هذا الحديث يعارض حديثين صحيحين أحدهما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن حبان، قال أبو هريرة: قلت يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبثني عن كل شيء. قال: «إن الله تعالى خلق كل شيء من الماء».

فكان سؤال أبي هريرة عن أصل العالم الذي خلقت منه المخلوقات فأجاب الرسول بأنه الماء، وهذا الحديث أخرجه ابن حبان وصححه.

والحديث الآخر حديث جماعة من أبناء الصحابة عن آبائهم عن رسول الله: «إن الله تعالى لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء». أوردته الحافظ ابن حجر على أنه صحيح أو حسن عنده، وذلك في شرحه البخاري في كتاب التوحيد عند ذكر حديث: «كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء» وهذا الحديث أي حديث «كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء» يصح أن يعد حديثاً ثالثاً للدلالة على أن الماء هو أول العالم.

ثم أن وصف الرسول ﷺ بأنه نور من نور الله إن أريد به أنه نور ذاتي من نور الله فهو مخالف للقرآن الدال على بشريته، وإن أريد بأنه نور باعتبار ما جاء به من الوحي الذي صار سبباً لهداية من شاء من الخلق فهذا صحيح، فللنبي ﷺ نور هو نور الرسالة والهداية التي هدى الله بها بصائر من شاء من عباده، ولا شك أن نور الرسالة والهداية من الله. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ٥١﴾ وكذلك أوحينا إليك رؤساً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتب ولا الإيمن ولكن جعلناه نورا تهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ٥٢ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿الشورى: ٥١ - ٥٣﴾.

(٢) في (ط): بإضافة.

(٣) سقطت من (ح، ط).

لما خلقت الكون^(١).

ثم اعلم أنه كما أن للبذر لطافة مودعة فيه بالحكمة البالغة لقبول تعلق النفس النامية، التي هي من عالم [الملكوت به، وهي غير جنس البذر؛ لأن البذر من عالم]^(٢) الملك، وله مكان من جنسه ليستقر فيه، ولا بد له من مادة ليستمد منها المدد لاستكمال الشجرة، وهي الأرض، فكذا كان لروح محمد ﷺ لطافة مودعة فيه لقبول تعلق الفيض الإلهي به وهو غير جنس روحه وله مكان من جنسه، ليستقر فيه، وهو الوجود الروحاني، ولا بد له من مادة يستمد منها لاستكمال شجرة المكونات، وهي الفيض الأول. أعني أمر «كُنْ» فإنه يمدّه إلى الأبد.

ثم نقول: الأمر بالنسبة إلى الأمر، هو الفيض الأول. وبالنسبة إلى المأمورات فهو المفيض، وأول فيضه الروح، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] فبهذه النسبة فالروح هو الفيض الأول، ومنه ينشأ عالم الأرواح بأسره، فروح النبي ﷺ بهذا الاعتبار آدم الأرواح وأبوها. كما كان آدم، عليه السلام، آدم الأشباح وأباها.

فصل

ثم اعلم أن أقسام المكونات تنقسم^(٣) إلى قسمين: روحانيات، وجسمانيات. وقد تسمى بالغيب والشهادة. وتارة تُسمى بالعلويات والسفليات، وأخرى تسمى بالدنيا والعقبى، والآخرة والأولى. ومرة تُسمى بالملك والملكوت. فالملك ما يظهر من الكون وتدركه الحواس الخمس. وهو قابل للقسمة والتجزئة. والملكوت ما بطن من الكون ولا تدركه الحواس الخمس، ولا يقبل القسمة والتجزئة؛ لأنه ليس بجسم

(١) ذكره الصاغانى في موضوعاته بنص: "لولاك لما خلقت الأفلاك" ووافقه العجلونى في كشف الخفاء ٢٣٢/١ في الحكم عليه بالوضع. وكذلك الشوكاني في الفوائد ص ٣٢٦، والألباني في سلسلته ٢٨٢/١.

(٢) ما بين القوسين سقط في (ط).

(٣) في (ز): تقسم.

ولا عَرَض، بل هو جوهر قائم بذاته^(١). والدليل عليه أن الجسم إذا قبل صورةً ما، لم يمكنه أن يقبل صورة تغيرها^(٢) من جنسها إلا بعد أن يخلع الصورة الأولى ويفارقها على التمام. ومثال ذلك أن الفضة إذا قبلت صورة الخاتم لم يمكنها أن تقبل صورة الكوز إلا بعد أن يزول عنها صورة الخاتم^(٣)، ويخلعها خلْعاً تامًّا. وكذلك الشمع، إذا قبل صورة نقش ما، لم يمكنه أن يقبل صورة نقش آخر إلا بعد أن تنمحي صورة النقش الأول، وتفارقه مفارقة تامة، وعلى هذا جميع الأجسام. وهذه قضية صادقة مشهورة لا يُحتاج فيها إلى دليل. فإننا إذا وجدنا شيئاً حاله بخلاف حال الأجسام في المعنى الذي ذكرناه؛ أعني أنه يقبل صوراً كثيرة من غير أن يبطل شيء منها، تبين لنا أنه ليس بجسم، فإن بان لنا أنه كلما كثرت هذه الصور^(٤) فيها ازدادت قوة على قبول غيرها، ثم جرى ذلك منها على هذا النظام إلى غير نهاية، ازدادنا بصيرة ويقيناً أنه ليس بجسم، فالروح الإنساني الذي هو من الملكوت الأعلى بهذه الصفة، وذلك أنه إذا قبل صورة معقول ما، أو ثبتت تلك الصورة ازداد بها قوة على تصور معقول آخر إليها من غير أن تفسد الصورة الأولى، ثم كلما كثرت صور المعقولات فيه اقتدر بها على قبول غيرها، وقوي في هذا القبول قوة متزايدة بحسب تزايد المعقولات.

(١) في (ل): قائم بيد القدرة. وفي (ح): قائم بنفسه.

(٢) في (ط): غيرها. وفي (ح، ز): بغيرها.

(٣) في سائر النسخ: (الجام) والتصويب من (ل)، والجام إناء للشرب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة.

(٤) في (ح): الصورة.

فصل

ثم اعلم^(١) أن من الأمور المُسلَّمة^(٢) أن الإنسان إنما تميَّز^(٣) عن البهائم وغيرها بهذا المعنى الموجود له لا بتخاطيطه، ولا بشيء من أشكاله البدنية، ومن الدليل على أن ذلك كذلك أن هذا المعنى هو الذي يقال به فلان أكثر إنسانية من فلان، إذا كان فيه أبين وأظهر. ولو كانت الإنسانية بالتخاطيط، وغيرها من جملة البدن، لكان إذا تزايدت في إنسان قيل بها فلان أكثر إنسانية من فلان. ولسنا نجد الأمر كذلك، وهذا المعنى الذي ذكرناه يسمى مرة بما نسميه روحًا إنسانيَّة، ومرة نفسًا ناطقة، ومرة قوة عاقلة، ومرة قوة مميزة. ولسنا نشأح^(٤) في الأسماء، فليُسمَّ بأي اسم كان. ولكن الاسم الذي به سمَّاه الله تعالى ورسوله أولى به وأليق، وهو الروح^(*). ومما يدل أيضًا أن هذا المعنى -أي الروح- ليس بجسم، أن جميع أعضاء الإنسان، وغيرها من الحيوان، صغر فيه أم كبر، ظَهَرَ منه أو بَطَنَ، إنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن يتم إلَّا بها. وإذا كان البدن كله آلات، ولكل آلة منها فعل خاص لا يتم إلَّا بها، اقتضى مستعملًا يستعمله. كما نجد آلات الصائغ والنجار، وغيرهما. وليس يجوز أن يقال: إن بعض البدن يستعمل بعضه هذا الاستعمال؛ لأن ذلك البعض الذي يشار إليه، ويظن أنه يستعمل الآلات الباقية، هو أيضًا آلة، وجزء من آلة، وجميعها مستعملة، فمستعملها غيرها. وإذا كان مستعملها غيرها ولم يكن جزءًا منها، وجب أن يكون غير جسم، ليتِمَّ له ألا يشغل مكان الجسم ولأنه آلات الجسمية في مواضعها؛ لأنه لا

(١) سقطت من (ح، ز، ط).

(٢) في (ز): الملمة.

(٣) في (ز): يُميَّز.

(٤) نشأح من الفعل شأح، وشأح فلانًا: خاصمه ومأحكه. ولا مُشأحة في الأمر: لا مخاصمة أو مباحكة فيه.

(*) لفظ (الروح) يذكر ويؤنث، وقد اختار المؤلف تذكيره في كتابه هذا.

يحتاج إلى مكان، ويستعملها كلها على اختلاف الأغراض المستعملة فيها، في حال واحد من غير غلط، ولا عجز ليتم من الجميع أمر واحد. فإن هذه الأحوال ليست أحوال الأجسام، ولا موضوعة في أحكامها.

ثم نقول إن الروح ليس بعرض ولا مزاج؛ لأن المزاج والأعراض توجد في الجسم كلها تابعة للجسم، والتابع للشيء هو أخس منه، وأقل حظاً من الوجود؛ لأنه لا يوجد إلا بوجوده^(١). فإن كان أخس منه، فكيف يستخدمه، ويستعمله كما يستعمل الصانع آله، ويصير رئيساً عليه، ومتحكماً فيه؟.. هذا قبيح شنيع.

ثم نشرع في شرح المقامات.



(١) في (ز): بوجده.

الباب الأول
في مقام المعرفة
وفيه ثلاثة فصول

مقام المعرفة

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

جاء في التفسير: وما عرفوا^(١) الله حق معرفته. عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ، قال:

«إن دعامة البيت أساسه، ودعامة الدين المعرفة بالله، واليقين، والعقل القامع.

فقلت: بأبي وأمي. ما العقل القامع؟.

قال: الكف عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله»^(٢).

وقال داود، عليه السلام: «يا رب، لماذا خلقت الخلق؟ قال: كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»^(٣).

اعلم أن ألسنة الفصحاء عن ذكر حقائق أمور المعرفة محتبسة، وقلوب العرفاء

(١) في (ز): وما عرف.

(٢) روى ابن حجر العسقلاني في (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية) (٢٧٧٧) والهشمي في بغية الباحث (٨٤٩): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَعَامَةً وَدَعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ، فَيَقْدِرُ مَا يَعْقِلُ يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَلَعَمْرِي لَقَدْ نَدِمَ الْكُفَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]».

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وما يروونه: كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فعرفتهم بي، فبي عرفوني، هذا ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أعرف له إسناداً صحيحاً ولا ضعيفاً». الفتاوى الكبرى: (٨٨/٥)، و مجموع الفتاوى: (١٢٢/١٨). ونقل كلامه هذا الإمام العجلوني رحمه الله في كشف الخفاء: (١٣٢/٢)، وذكر مثل ذلك عن الزركشي، والحافظ ابن حجر، والسيوطي وغيرهم، وقال: وهو واقع كثيراً في كلام الصوفية، وبنوا عليه أصولاً لهم. وقال الشيخ الألباني رحمه الله: (لا أصل له) انظر السلسلة الضعيفة: (١/١٦٦). وقد أحسن المؤلف في نسبة هذا الكلام إلى داود عليه السلام، فكثير من الكتب تذكر هذا مسبوفاً بعبارة (وقال عليه السلام) فيقع في الأذهان أنه للنبي صلى الله عليه وسلم، أما نسبة هذا إلى داود عليه السلام في هذا السياق يؤكد سعة اطلاع المؤلف على الكتب والأخبار.

عن شرح دقائقها مختنسة. حارت عن الكشف بكيفيتها عقول العقلاء، وطارت عن استدراك كليتها بصائر العلماء، فرجعت العقول منه خاسرة خائبة، وانقلبت البصائر إليهم خاسئة هائبة؛ تعظيمًا وإجلالًا لتلك المعاهد، وتخشعًا وتذللًا لتلك المقاصد. جلّ جناب القدس عن درك العقول، وعزّ سرادق الكبرياء عن الحضور بالوصول، وكبر عنقاء الوصال^(١) عن الاصطياد^(٢) بالحصول.

لَقَدْ طُفْتُ فِي تِلْكَ الْمَعَاهِدِ كُلِّهَا وَصَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْعَوَالِمِ
فَلَمْ أَرِ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سَنَّ نَادِمٍ^(٣)
ولكن الشأو^(٤) مع عظم شأنه، وعزّ برهانه، قد جعل الله للسائرين إليه منارات، ورتب للطائرين به مقامات، فمبلغهم^(٥) من ذلك على قدر ما طابت لهم ريح العناية، وسارت بهم على فلك الاستقامة؛ حتى وصلوا إلى معادن جواهر الهداية، فبذلوا ليحصلوا، وانفصلوا ليتصلوا. فهبت نفحات ألطاف الربوبية، فانخرقت حجب أستار البشرية عن وجه العبودية، عند سطوات نكباء^(٦) أوصاف الألوهية. فكشف عن قلوبهم غطاء ظلمة النكرة، وكوشفوا بأنوار المعرفة، فعاشوا بعد أن طاشوا، وطاشوا بعد أن عاشوا. فتارة بتجلي جماله عاشوا، وأخرى بتجلي جلاله طاشوا. فهم مترددون بين روضة عيش وغدير طيش. إلى أن قطعوا مفاوز العيش، وعبروا عن بحار الطيش، فلم يبق العيش، ولا الطيش. ففنوا عن أناتهم بألوهيته^(٧)، وبقوا بلا همّ بربوبيته.

(١) في (ز): الوصول.

(٢) في (ط): الاصطبار.

(٣) في (ح): (نحو تلك العوالم) وفي (ز): (أو قارعًا من سن)، (كف بحائر).

(٤) في (ز): (ولكن نشاء). وفي (ط): (ولكن غاية الأمر).

(٥) في (ط): فبلغهم.

(٦) النَّكْبَاءُ: رِيحٌ انحرفت ووقعت بين ريحين كالصَّبَا وَالشَّمَال. وقد كتبها محقق النسخة (ط): (نكهات) وهي واضحة صريحة في النسخ الثلاث التي اعتمدت عليها.

(٧) في (ح) مكتوبة (بوهيته) ويوجد فوقها حرفان (لام وألف متعانقان) وكأن الناسخ يصححها إلى (بألوهيته) وهي الأقرب هنا للمعنى ومقابلة لكلمة (بربوبيته) التالية. وفي (ط): فنوا عن أنانيتهم بهويته.

ثم اعلم أن مقامات المعرفة ثلاث مبنية على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مقام معرفة العوام.

الفصل الثاني: في مقام معرفة الخواص.

الفصل الثالث: في مقام معرفة أخص الخواص.



الفصل الأول

في مقام معرفة العوام

وهي معرفة عقلية^(١)، وقد تساوى فيه^(٢) المسلم، والكافر، واليهود، والنصارى، والمجوس، والملاحدة، والفلاسفة، والطبائعية^(٣)، والدهرية^(٤). فإن لهم شركة في العقل، وقد اتفق كلهم على وجود إله بلا حُلفٍ، وإنما وقع الخلاف فيما بينهم في صفات الألوهية، لا في الذات. وهذا الخلاف أيضًا واقع فيما بين المسلمين. ولكل طائفة منهم مذهب في إثبات الصفات ونفيها، فلا نشرع في شرحه لئلا يخرجنا من حد الإيجاز. والذي يدل على اتفاق المؤمن والكافر في إثبات ذات الله تعالى، قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ولقد قال الذين يعبدون الأصنام أيضًا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

(١) في (ز): وهي المعرفة العقلية.

(٢) الضمير هنا يعود على مقام، ويشير إلى الاستواء في مقام المعرفة.

(٣) الطبائعية الذين ينكرون ما سوى هذا الوجود الذي يشاهده الناس ويحسونه، وهو وجود الأفلاك وما فيها، وقالوا: إن العالم دائم لم يزل ولا يزال، ولا يتغير ولا يضمحل، وإن الأشياء ليس لها أول البتة. (إغاثة اللهفان، ابن قيم الجوزية: ٢/ ٢٥٦).

(٤) الدهرية فرقة من الكفار ذهبوا إلى قَدَم الدهر واستناد الحوادث إلى الدهر كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْدِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [البجائية: ٢٤]... وذهبوا إلى ترك العبادات رأسًا لأنها لا تفيد، وإنما الدهر بما يقتضيه مجبول من حيث الفطرة على ما هو الواقع فيه. فما ثمَّ إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وسماء تقلع وسحاب تقشع وهواء تقمع، ويسمَّون بالملاحدة أيضًا. (موسوعة كشاف العلوم والفنون، محمد علي التهانوي، ٢/ ٨٠٠).

واعلم أن هذا النوع من المعرفة، أعني المعرفة العقلية ليست بمنجية^(١) من النار، إلا أن يكون الاستدلال العقلي مؤيداً بنور الإيمان، ومؤكداً بالأعمال الصالحة. والله أعلم.

والمعرفة العقلية ما يكون ثابتاً بالدليل الواضح على وجود الصانع الباري، ووحدانيته في الإلهية جل جلاله.

ثم اعلم أن أولى الاستدلالات على وجود الصانع ووحدانيته بالحركة، وأنها أظهر الأشياء دلالة عليه، وهو أن أحد الأصول المبينة للعقل التي قال بها من اتبع الحق: إنه لا يحدث شيء من الأشياء من غير علة. ولا يتحرك متحرك إلا عن محرك له سواء؛ وذلك أن لكل جسم طبيعي حركة تخصّه، وذلك أن الجسم ما كان منه موجوداً، أو ما كان منه مُتَكَوِّناً. وإنما قوامه بصورته الخاصة التي هي به، وصورته الخاصة هي المقومة لذاته هي طبيعته، وطبيعة مبدأ الحركة الخاصة به، وحركته الخاصة به هي التي تحركه إلى تمامه. وتتمام كل شيء، هو ما لاءمه ووافقه، وكذلك كل متحرك يتحرك إلى تمامه وإلى ما يوافقه. ولهذا قيل: إن كل متحرك يتحرك إلى تمامه فهو بالشوق، والذي يشترك فهو معلول ما^(٢) يشترك إليه، والعلة تتقدم على المعلول بالطبع. فلذلك صار الاستدلال بالحركة أظهر الأشياء، وأولاًها بالدلالة على الصانع عز وجل... ونعود فنقول: إن الحركة المطابقة^(٣) للأجسام الطبيعية هي ست: حركة الكون، والفساد، والنمو، والنقصان، والاستحالة، والنقلة، وذلك لأن للحركة نقلةً وتبدلاً ما. والتبدل في جسم إذا كان طبيعياً، لا يخلو من أن يكون عرضاً^(٤)، إمّا بمكانه، وإمّا بكيفيته، وإمّا بجوهره. وأمّا التبدل بالمكان فإمّا أن يكون ب كله أو بجزئه. فإن كان ب كله

(١) في (ل): بناجية.

(٢) في (ل، ز): مما.

(٣) في (ز): المطلقة.

(٤) ساقطة في (ل، ح).

كانت حركته مستقيمة، وإن تبدل بجزئه كانت حركته مستديرة. ونفرض للمستدير أن يتحرك أيضًا إما من محيطه إلى مركزه وإما من مركزه إلى محيطه. فإن تحرك من مركزه إلى محيطه كانت حركته نموًا، وإن تحرك من محيطه إلى مركزه كانت حركته نقصًا. فأما المتبدل بالكيفية فليس يخلو إما أن يحفظ جوهره أو لا يحفظ. فإن حفظ جوهره كانت حركته استحالة، وإن لم يحفظ جوهره كانت حركته فسادًا. [وهذه الحركة الأخيرة إذا نظر إليها بقي إلى جوهره الثاني، أعني ما استحال إليه سميت كونًا] ^(١). ثم نقول: إن لكل متحرك بحركة من أنواع الحركات محررًا سواء، وإن محرك جميع الأشياء غير متحرك. وإنه علة تمامها، وعلة حركتها؛ وذلك لأن كل متحرك تحرك بغير محرك، فذلك المتحرك لا يخلو من أن يكون حيًا، أو غير حي. فإن كان حيًا، وادعى مدع أن حركته من ذاته، لا من غيره، قلنا له: لو كان كذلك لكننا إذا نزعنا جزءًا من أجزائه الشريفة بقيت حركة الحي. وحركة الجزء المنزع جميعًا. وليس الأمر كذلك بل هو بالضد.

فليس إذن ذات جوهر الحي هو المحرك بل غيره، وإن كان المتحرك ^(٢) غير حي، فهو إما نبات، وإما جماد. فإن كان نباتًا، فيلزم في حركته ما يلزم من حركة الحي أيضًا، وإن كان جمادًا، فإنه: إما أن يكون أحد العناصر الأربعة، أو واحدًا من مركباتها. فإن كان أحد العناصر، لزم فيه إن كانت حركته من ذاته ألا يقف إذا بلغ موضعه الخاص به إذا انتهى إليه. وإن وقف فيه لزم أن يقف في غيره كما يقف الحيوان حيث يريد. وليس الأمر على ذلك، فليست حركة العناصر من ذاتها، فهي إذن من غيرها.

وكذلك حال المركبات من العناصر، فإن قال قائل: إن حركة العناصر إنما هي

(١) جاءت هذه العبارة في (ل): (وهذه الحركة الأخيرة إذا نظر إليها يقينا إلى جوهره الثاني، أعني ما استحال إليه سميت كونًا) وفي (ح): (وهذه الحركة الأخيرة إذا نظر إليها بفناء ينظر إلى جوهره الثاني، أعني ما استحال إليه سميت كونًا وفسادًا).

(٢) في (ط): المحرك.

لطلبها المكان الذي يخصها^(١)، لأنه هو المطلوب المتشوق إليه، وكل مطلوب متشوق إليه فهو المحرك لطالبه. فمن هذه الجهة أيضًا، محرك العناصر غيرها. ويمكن أن نبين على هذه الجهة أن الحيوان إنما يتحرك بالشهوة، أو بالكراهة... أمّا بالشهوة فليدنو من المشتهى شوقًا إليه. وأمّا بالكراهة فليبعد من المكروه هربًا منه. فمحركه إذن غيره. ثم ننظر في هذا المحرك أيضًا، فإن لزمه نوع من أنواع الحركة لزم فيه ما لزم في المتحرك الأول، [ولا يزال الأمر كذلك إلى أن ينتهي إلى محرك لا يتحرك بنوع من أنواع الحركة]^(٢) وهو مبدأ أو علة لوجود جميع الأشياء، وبه قوام كل جوهر ووجود كل موجود. وإذا تبين ذلك، فقد علم أن الوجود في جميع الأشياء بالعرض. وهو في المبدع الأول بالذات.

وقد اجتمعت العلماء والحكماء على أن كل ما يوجد في شيء ما بالعرض فهو في شيء آخر بالذات. وذلك أن العرض في الشيء أثر، والأثر حركة، ولا بد له من مؤثر فقط. فالوجود إذن ذاتي المبدع الأول، الواحد الصمد، جل جلاله؛ لأنه لم يقبله من غيره، ومن قبله جميع الأشياء التي دونه، وبه قوام صور الموجودات. وإذا كان الوجود فيه كما قلنا ذاتيًا فليس يجوز أن يتوهم معدومًا. فهو واجب الوجود. وما كان واجب الوجود، فهو دائم الوجود. وما كان دائم الوجود، فهو أزلي. وإذا كان كذلك، فلا يجوز أن يتوهم شيء من أنواع الموجودات لم يكن وجوده منه؛ لأنه، عز وجل، الذي فاض به، وأعطاه ما دونه، فهو إذن من الوجود في أعلى رتبة. ووجودات سائر الأشياء كلها فائضة^(٣) عنه و مستفادة منه.

وبيان أنه تعالى واحدٌ أنه لو كان الفاعلون أكثر من واحد للزم أن يكونوا مركبين، وذلك أنهم اشتركوا في أنهم فاعلون، واختلفوا بالذوات. ولا بد أن يكون الشيء

(١) في (ل، ز): يخصه.

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) في (ل، ح): ناقصة عنه.

الذي به خالف أحدهم الآخر غير ما وافقه به. فيجب من ذلك أن يكون كل واحد منهم مركبًا من جوهر، وفصل. والتركيب حركة؛ لأنه أثر ولا بد له من مؤثر على ما تبين من قبل. فيجب من ذلك أن يكون للفاعل فاعل. وهذا يمر بلا نهاية. فبالضرورة يرتقي إلى فاعل واحد، يفعل بعض أفعاله بذاته، وبعضها بتوسط أشياء^(١) من مفعولاته. والله أعلم.



(١) في (ل): الأشياء.

الفصل الثاني

في مقام المعرفة النظرية وهي (معرفة الخواص)

وهم أهل البصائر والرؤى، من أرباب القلوب السليمة الزكية. فإنهم ينظرون من روزنة القلوب، في ملكوت الأشياء. كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] فيرون الآيات المودعة في كل شيء، فتدل الآيات على معرفة الله، ووحدانيته. كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

وإن القلب إذا سلم عن الآفات، وأعرض عن الدنيا، وأقبل إلى المولى، وصقل بمصقل الذكر عنه، كدورات صفات البشرية؛ تنور بنور الذكر؛ وهو كلمة: لا إله إلا الله. وهي مركبة من نفي، وإثبات. فبنفيها تنتفي شواغل القلب، وظلماته^(٢)، وبالإثبات تثبت شواهد أنوار المذكور، فيكشف الغطاء عن بصر بصيرة القلب، فيرى بها جمال آيات الحق تعالى.. كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾.

[النجم: ١١].

(١) البيت لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان (ت ٢١٠هـ)، والذي في الديوان (الواحد). انظر ديوانه ص: ١٢٢، ط دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان.

(٢) في (ز): وظلماتها.

ومن هنا قال من قال: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه.. فمعرفة العوام بدلائل العقول، ومعرفة الخواص بشواهد المدلول. فأين من يعرف الحق تعالى بإراءة العقل ممن يعرفه الحق بإراءة آياته في مرآة الآفاق، وقلبه. كما قال الله تعالى: ﴿سَرِّبْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].



الفصل الثالث

في مقام المعرفة اليهودية وهي (معرفة أخص الخواص)

وهم أصحاب مشاهدات الجمال، وأرباب مكاشفات الجلال الذين اختصهم^(١) الله بهذه السعادة، واصطفاهم لهذه السيادة. بلا هم وهم في كتم العدم، محبسون من عهد القدم. وخياط القضاء بخياطة^(٢) القدر. وخيط المشيئة على حانوت الأزل، بيد العناية، وقوة القدرة، وصناعة الحكمة. كان يخطط خلعة المعرفة على قدّهم؛ من ثوب قد نسج من سُدى يحبّهم ولحمة يحبونه. كما قال الله تعالى: «فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»^(٣). فكان وجود العالم بما فيه في الخلقية تبعاً لهذه المعرفة. فلا يدري أهي درة في صدف المحبة، أو المحبة درة صدف المعرفة.. فإن المحبة بغير المعرفة لا يمكن وصولها. وإن المعرفة بغير المحبة لا يمكن حصولها. فلما أنعمت النظر، وأمعنت^(٤) الفكر كُشف^(٥) لي أن المعرفة صدف درة المحبة؛

(١) في (ز، ل): استخصهم.

(٢) في (ل، ح): بخياط.

(٣) راجع هامش (٣) في الفصل الأول ص ٥٧.

(٤) في (ط): وأتقنت.

(٥) في (ح): كُشف.

لأن المحبة من صفات الله تعالى، والمعرفة من صفات العبد. ولهذا سبقت المحبة على المعرفة حيث قال: «فأحببت أن أعرف»، فقد أضاف المحبة إلى نفسه، ونسب المعرفة إلى غيره. والمحبة قديمة، والمعرفة حادثة. والقديمة أولى بالدريّة، والحادث أخرى بالصدفية. وقد كشف القناع عن وجه هذا المعنى النبي ﷺ بقوله: «إن الله خلق آدم فتجلّى فيه»^(١)، وحيث قال: إن الله خلق آدم على صورته؛ أي على صفته. فتحقق من هذا أن العالم صدف ودرته «آدم» عليه السلام، و«آدم» صدف ودرته «محمد» ﷺ. وشخص «محمد» صدف، وقلبه درته. وقلبه صدف، والمعرفة درته. والمعرفة صدف، والمحبة درته. ولهذا سُمّي حبيب الله. واختص بهذا الاسم دون سائر الخليفة، من الملائكة المقربين، والأنبياء، والمرسلين. وهو المشار إليه بكناية المحبة، والمعرفة في قوله تعالى: «فأحببت أن أعرف».. والناس تبع له في نيل هذين المقامين. ومن هنا كان النبي ﷺ يقول: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر»^(٢).

ويقول: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة، ولا فخر»^(٣). ولواؤه هو المقام المحمود، الذي خصّه الله تعالى به من كمال المعرفة، والمحبة. وما بلغ إليه من سواه، وهم تحت مقامه.

والله أعلم.

ثم اعلم أن لكل نبي وولي تمتعاً من مقام هذه المعرفة، على قدر شهودهم، الذي قدر الله لهم، واستعدادهم في قبول الفيض الإلهي، بلا واسطة حجاب. ولا يبلغ

(١) رواه البخاري في الاستئذان (١)، ومسلم في البر (١١٥) والجنة (٢٨)، وأحمد في مسنده (٣/٢٤٤، ٢٥١، ٣٧٣، ٤٢٤، ٤٦٣، ٥١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢) وابن ماجه (٤٣٠٨) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٤٥٤، ١٤٥٥) وابن عساكر في معجمه (٩٨٥) الذهبي في السير (٨/٢٩٣).

(٣) رواه الترمذي في سننه باب المناقب (٣٦١٥) بلفظ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ويدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر). ورواه ابن ماجه في الزهد باب ذكر الشفاعة.

السائر الصادق إلى هذه المرتبة السَّنيَّة إِلَّا بالعبور على مقامات النفس، والقلب، والسر، والروح، والخفيّ مؤيدًا بالتأييد الإلهي، كما يجيء شرحه في مواضعه، إن شاء الله تعالى. ثم السَّير يتبدل بالطير، فالسير يكون في مقامات البشرية السفلية [والطير يكون في مقامات الروحانية العلوية ثم يتبدل الطير]^(١) بالجدبة، فالجدبة تبعده عن أنانيته، وتقربه إلى هويته، إلى أن تورث الجدبة المشاهدة. فالمشاهدة أحضرته معه، وغيبته عنه، إلى أن تثمر المشاهدة المعانية، فالمعانية تجمع به، وتفرقه عنه، إلى أن ظهر بالعيان، فالعيان يسحقه^(٢)، والعين تمحقه. ثم تحققه ويزهق باطله، فيكشف بأنوار غيب الغيب... فيطالع أسرار ربوبية^(٣) الملك والملوك. وَيَكْلُهُ في تيه العظمة^(٤) والجبروت، حتى يتجلى له شمس الربوبية عن سماء العبودية، فأشرقت أرض البشرية بنور ربها وترقى المقام إلى تَلَأْلُؤ أنوار الألوهية المستفادة من سر الله، نور السماوات والأرض. ثم هبت نفحات ألطاف الربوبية، وانفتح في عين الشمس باب الهوية، وانغمس فيه المنغمس ثم لا تسأل.

شعر:

قد كان ما كان سرًّا لا أبوح به فظنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر^(٥)
فاستضاءت الآفاق^(٦) الجسدانية بضوء الشريعة، وظهرت المشكاة النفسانية بلوامع الطريقة، وتنورت الزجاجية القلبية بأنوار حقيقة الروحانية، وأشرق مصباح الروحية بنار نور الإلهية، وبدت شجرة الوجدانية. ونودي موسى السر من الشجرة:

(١) هذه العبارة ساقطة من (س) وفي (ح): الروحانيات بدل الروحانية.

(٢) في (ز): تستحقه.

(٣) ساقطة من (ح، ل).

(٤) في (ط): ويله حيران في تيه العظمة. وفي (ح، ز): في تيه العظמות والجبروت.

(٥) في ديوان ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ):

فكان ما كان مما لست أذكره فظنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر

(٦) في (ز): الآفات.

﴿أَنْ يَمْوِسَّ إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] فانمحت الجهات، وتلاشت الصور، وانطمست الأبعاد، وانعدمت الأجزاء، وسطت عزة الوحداية، وتجلي نور الصمدانية الربانية. فتكدك جبل الإنسانية، وخر موسى الروحانية صعبًا. فاحترقت الغيرة بنار الغيرة^(١). وارتفعت الشراكة، وبقيت الوحدة متعززة برداء الكبرياء والعزة، متزرة بإزار العلاء والعظمة. وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]. هذا أوان ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنُكَبِّ اللَّهُ رَجًى﴾ [الأنفال: ١٧]. هذا وقت ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣]. ألا وهو سر «كنت له سمعًا، وبصرًا، ولسانًا. فبي يسمع ويبصر، وبي ينطق»^(٢). ولعمري إن هذا حال من كوشف بأسرار «كنت كنزًا مخفيًا»^(*). فلما كشف الغطاء، وذهب الخفاء، ورفع الخباء، وطويت الأرض والسماء، ظهر الخفاء، ودام اللقاء، ف ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، ولا القلب ما روى. فرعى في رياض المعرفة، وشرب من حياض المحبة، وسقي بكأس الجمال شراب الجلال من بحر الوصال. فاستراح من ضروب القيل والقال، وكثرة السؤال، وتغير الأحوال؛ إذ تجافى عن المحاط المطلق، المحيط به، والغيب المحاط المحيط به غيب المحيط المطلق، فتحقق له حقيقة: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

كما أقول:

أبان الحق ليس به خفاء	وباح السر وانكشف الغطاء
فنفسي زailت والروح بادت	فلم يبق التكدر والصفاء
تجلت سطوة الجبروت حتى	فينيئاً ثم قد فني الفناء

(١) في (ط): الغيرية.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري برقم (٦٥٠٢) بلفظ: «... مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا...».

(*) سبق الكلام عن هذه العبارة في الباب الأول.

بقاء الحق أفنانا وأفنى بقاء فناننا ذاك البقاء
فهذا مقام المعرفة الشهودية الحقيقية، التي يُعرف فيه الرب بالرب، كما قال عليه
السلام: «عرفت ربي بربي. ولولا فضل ربي ما عرفت ربي»^(١).
رزقنا الله وإياكم كمالية هذا المقام، وثبت الله أقدامنا على الصراط المستقيم،
يوم تزل الأقدام.



(١) ينسب هذا القول لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وينسب أيضًا إلى ذي النون المصري كما جاء في مدارج
السالكين لابن القيم.

الباب الثاني

في مقام التوحيد

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في مقام توحيد العوام

وهو مقام المبتدئ.. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]. فلما سأل العوامُ الجاهلُ عن النبي ﷺ: «انسب لنا ربك من أي شيء هو؟ من ذهب، أو من فضة؟»^(١).

فأنزل الله تعالى هذه السورة، وأمره أن يصفه تعالى بأمر ملائم لعقولهم، على حسب مقامهم. وعرف لهم نفسه به مخبراً عن معنيين وهما: إثبات صفات الكمال، وسلب صفات النقصان. فأثبت أنه هو الله أحد. وهو للحصر؛ أي هو الله الذي أحدي في ذاته بالإلهية. ليس له ثان في الإلهية والأحادية. فأما نفي الاثنينية عنه في الإلهية، فقد تقدم الدليل عليه. وأما نفي الاثنينية لأحديته فلأن أحديته لا تشبه أحدية شيء آخر؛ وذلك أن كل شيء في أحديته قابل للتصنيف^(٢)، والتضعيف، بحيث لو نُصِفَ أو ضُعِفَ ذلك الشيء لا يتغير عن جنسيته التي اختص بها مثله كمثل دينار واحد، أو

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، تفسير سورة الإخلاص، حديث (٣٩٨٧) (٢/ ٥٨٩) والترمذي في الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الإخلاص، (٣٣٦٤) والمتقي الهندي في كنز العمل (٤٧٣١).

(٢) في (ز، ط): للتصنيف.

ثوب واحد، لو نُصِف أحدهما، يبقى منه نصفه، ولو ضُفِف يصير مثنى، ولا يتغير من الجنسية المختصة بالدينار، أو الثوب، بخلاف أحدية الإلهية؛ فإنها تتغير بالتنصيف والتضعيف عن الإلهية وصفتها؛ لأن من وصف الإلهي ألا يكون ناقصاً ولا زائداً كما ثبت في الدليل^(١). وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾ دال على هذا المعنى؛ لأن الصمد هو الكامل الذي لا يحتاج إلى شيء لكمالته. وكل شيء ناقص بالنسبة إلى كماله، محتاج إليه في إتمامه.. وقوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ يدل على سلب صفات النقص؛ ليعلم أن معرفته مبنية على إثبات صفات الكمال، وسلب صفات النقص، لأرباب النظر. وكان أصل واحد: وحد، فقلبت الواو همزة، والواو المفتوحة قد تقلب همزة، كما تقلب المكسورة، والمضمومة. ومنهم امرأة أسماء بمعنى وسما من الوسامة.

ومعنى الواحد في اسمه سبحانه، قيل هو الذي لا يصح في وصفه الوضع والدفع بخلاف قولك إنسان واحد؛ لأنك تقول إنسان بلا يد، ولا رجل، فيصح رفع الشيء منه، والحق سبحانه بخلاف ذلك. ويقال التوحيد على لسان العلم؛ الحكم بأن الشيء واحد. وأيضاً العلم بأن الشيء واحد. وقالوا وحَّده إذا وصفته بالوحدانية. كما يقال شجعت فلاناً إذا نسبته إلى الشجاعة.

وقيل التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الحق للحق: وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد.

الثاني: توحيد الحق للخلق: وهو حكمه سبحانه بأن العبد موحد وخلق توحيد العبد.

والثالث: توحيد الخلق للحق: وهو علم العبد بأن الله [تعالى]^(٢) واحد، وحكمه

(١) في (ز): لما ثبت في الدليل.

(٢) زائدة من (ز).

وإخباره عنه بأنه واحد.

واعلم أن التوحيد فرض على المؤمنين، بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

ففرض التوحيد: اعتقاد القلب أن الله، عز وجل، واحد لا من طريق عدد، وأول لا ثاني له. أزلي لا أزلية لقدمه. أبدي لا غاية لأبديته. آخر في أوليته. أول^(١) في آخريته. ظاهر في باطنيته، باطن في ظاهريته. وهو حي، وله حياة. ومريد وله إرادة^(٢). وقادر وله قدرة. وسميع وله سمع، وبصير وله بصر. ومتكلم وله كلام. وعليم و علم. وبقا.

وأن صفاته، وأسماءه، وأنواره، غير مخلوقة ولا منفصلة عنه. وأنه أمام كل شيء، ووراء كل شيء، وفوق كل شيء، ومع كل شيء، [وأقرب إلى كل شيء]^(٣) من نفس الشيء. وإنه مع ذلك غير محل للأشياء، وليست الأشياء محلاً له. ولا يشبه الأشياء، وأنه على العرش استوى، كيف شاء بلا تكيف، استواء يليق بذاته. وأنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا، نزولاً يوافق لصفاته^(٤) ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وهو باين من جميع خلقه، يحتاج إليه العرش، وحملته. وهو حاملهم بقدرته، كيف يشاء، غير محتاج إلى شيء من خلقه.. كان الله و لم يكن معه شيء، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى. لا زال، ولم يزل بها موصوفاً. لا أغيار فتفارقه^(٥)، كما

(١) في (س): أول.

(٢) هكذا في (ح) وفي باقي النسخ: ومريد له إرادة. ومع باقي الجمل حتى نهاية الفقرة.

(٣) ساقطة من (س).

(٤) في (ح، ل): ولا يوافق لصفاته والتصحيح من (ز).

(٥) في (ز): في فارقه.

قالته الكرامية^(١). ولا ذاته^(٢)، مماثلة، كما قالته النصاري والhezيلية^(٣) من المعتزلة^(٤).

(١) الكرامية: فرقة منسوبة لمحمد بن كرام (ت ٢٥٥هـ)، كان عظيم التزهّد كثير التعبد، يغلو في التمسك بظواهر النصوص، دون فقه، فوقع في تشبيه الله تعالى بخلقه. وفي غلو الكرامية في التسنن جمعوا بين التشبيه، والغلو في معاوية رضي الله عنه. فكانوا لأجل تصويب معاوية رضي الله عنه والرد على الشيعة مستعدين لتقرير كل قول ساقط؛ فجوزوا تقسيم الدولة والبيعة لأكثر من حاكم لذلك، واتهموا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما جرى لعثمان رضي الله عنه؛ لأجل الرد على الشيعة. فهربوا من ضلالة ووقعوا في أختها. ومن صولتهم وشدتهم في القرن الرابع الهجري أنهم تسلطوا على العلماء بالعامّة، حتى إنهم لما ضيقوا على الإمام الحافظ المحدث الكبير أبي عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ)، فصار من تضيقهم لا يستطيع الخروج من منزله، حتى إلى المسجد، فقبل للحاكم: لو خرجت فأملت في فضائل معاوية حديثاً، لاسترحت، فرفض ذلك. وقد ذهبت الكرامية إلى أن الإيمان قول باللسان فقط، وأنه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه. قال الأشعري في المقالات: (والفرقة الثانية عشرة من المرجئة: الكرامية، أصحاب محمد بن كرام، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله كانوا مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان) (انظر مقالات الإسلاميين: ٢٣٣/١). وانظر (الفرق بين الفرق للبغدادى، تحقيق محمد عثمان الخشت، ص ١٨٩ - ١٩٠).

(٢) في (ز): ولا زاده.

(٣) الhezيلية: هم أتباع أبي الhezيل محمد بن الhezيل بن عبد الله البصري المعروف بالعلاف، ولد سنة (١٣٥هـ)، وتوفي سنة (٢٢٦)، وقيل: سنة (٢٣٥)، وقيل: سنة (٢٣٧هـ) في خلافة المتوكل عن مائة سنة، مولى عبد القيس، وشيخ المعتزلة البصريين، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل أحد أصحاب واصل بن عطاء. وقد اطلع على الفلسفة اليونانية فجاءت أقواله متأثرة بها. وكان يرى أن نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يفنيان، وأنهم يصيرون إلى سكون دائم خموداً، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار، ومذهبه هذا قريب من مذهب جهنم؛ إذ حكم بفناء الجنة والنار، وقد التزم أبو الhezيل هذا المذهب. (الفرق بين الفرق، ص: ١١١).

(٤) الاعتزال لغة: مأخوذ من اعتزل الشيء وتعزله بمعنى تنحى عنه، ومنه تعازل القوم بمعنى تنحى بعضهم عن بعض، وكنت بمعزل عن كذا وكذا أي: كنت في موضع عزلة منه، واعتزلت القوم أي فارقتهم، وتنحيت عنهم.

أما المعتزلة اصطلاحاً: فهو اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني الهجري، وسلكت منهجاً عقلياً متطرفاً في بحث العقائد الإسلامية، وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل عن مجلس الحسن البصري.

يقول البغدادى في الفرق بين الفرق: ثم حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد بن باب في بدعته، فطردهما الحسن عن مجلسه، فاعتزلا إلى سارية من سوارى مسجد البصرة، فقبل لهما ولأتباعهما معتزلة؛ لاعتزالهم قول الأمة.

ولا أحوال تعرف، كما قالته البهشمية^(١) ليس بجسم فيكون محدثاً مركباً، كما قالته المجسمة^(٢). ولا جوهر فيكون محلاً حاملاً. منزّه عن الصفات الموجبة للحدوث^(٣)، والآفات، موصوف بما وصف به نفسه، هو ورسوله، تعالى عن أن يكون في المخلوقات كما وصفه جهنم^(٤) ومتبعوه.. خلق آدم بيديه كما قال تعالى: ﴿يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ﴾ [ص: ٧٥].. وكلتا يديه يمين، كما قال رسول الله ﷺ^(٥).. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. نفذت مشيئته كما سبق الأشياء علمه. فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. خالق المحدثات، وصانع المصنوعات، كما قال [تعالى]^(٦): ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] لا خالق معه يشاركه في خلقه، كما قال [تعالى]^(٧): ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

(١) البهشمية: هم أتباع أبي هاشم الجبائي، وهو من أئمة المعتزلة، مات ببغداد في شهر شعبان من سنة ٣٢١هـ. انفرد أبو هاشم عن أبيه بإمكان استحقاق الذم والعقاب بلا معصية مع كونه مخالفاً للإجماع والحكمة، وبأنه لا توبة عن كبيرة مع الإصرار على غيرها عالماً بقبحه، ولا توبة مع عدم القدرة. ولا يتعلق علم واحد بمعلومين على التفصيل. ولله تعالى أحوال لا معلومة ولا مجهولة ولا قديمة ولا حادثة كذا في شرح المواقف. (الفرق بين الفرق).

(٢) المشبهة أو المجسمة هي مصطلح يُطلق على من يقول بأن الله جسم، أو من يشبه الله بالمخلوقات، ويُطلق عليهم أيضاً الحشوية، ومن أشهر الفرق التي تُوصف بالتجسيم والتشبيه فرق الكرامية التي ذكرناها سابقاً، والسبئية نسبة إلى عبد الله بن سبأ والهاشمية أصحاب هشام بن الحكم، وغيرها من الفرق.

(٣) في (ز): والحدوث.

(٤) هو جهنم بن صفوان الراسبي، من أهل خراسان، ظهر في المائة الثانية من الهجرة، ويكنى بأبي محرز، وهو من الجبرية الخالصة، وأول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته.

وكان مولى لبني راسب إحدى قبائل الأزد، وكان من أخلص أصدقاء الحارث بن سريج إلى أن قُتل سنة ١٢٨ هـ، وقيل: إن الجهم قتل سنة ١٣٠ هـ، وقيل سنة ١٣٢ هـ.

قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: جهنم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم، السمرقندي، الكاتب المتكلم أس الضلالة، ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، كتب للأمير حارث بن سريج التميمي. وكان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن. ويقول: إن الله في الأمكنة كلها.

قال ابن حزم: كان يخالف مقاتلاً في التجسيم: وكان يقول: الإيمان عقد بالقلب، وإن تلفظ بالكفر.

(٥) حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم: «كلنا يدي ربي يمين».

(٦) إضافة من (ط).

(٧) سقطت من (ح، ز).

والخلق لا يستطيعون أن يخرجوا من علمه، ولا يقدرّون على اكتسابهم إلاّ بعونه. وهم محتاجون إلى الله تعالى في كل جزء من أفعالهم في أن يعطيهم حولاً وقوة. وأن ما وجدوه من الإيمان والطاعات فبهدايته، وتوفيقه، ولطفه. وما تركوه من السيئات فبعصمته وتسديده، وما كان من كفرهم، ومعصيتهم فبخذلانه ومشيتته. يعترفون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً، ولا ضرراً، إلاّ ما شاء الله. قال الله عز وجل^(١): ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وأن الله تعالى ينعم على من يشاء من خلقه، ويؤلم من يشاء، ويغني، ويفقر، ويؤتي ملكه من يشاء، وينزعه ممن يشاء. وهو في جميع ذلك عدل غير جائر؛ لأنه الملك القاهر، الذي كانت الأشياء به، وليس فوقه أمر، ولا زاجر. بذلك نطق الكتاب ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١] ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويعتقدون أنه تعالى يراه أولياؤه في الآخرة، وأن الكافرين محجوبون عنه. ويسألون النظر إلى وجهه الكريم تأسيّاً برسولهم. وهو من أعظم نعم أهل الجنة عندهم، لا يوازنه نعمة، ويقرون بعذاب القبر، ويتعوذون بالله منه، ويرون أن السؤال في القبر حق، والبعث^(*) بعد الموت حق، والحساب والميزان حق، وتطائر الكتب، والحوض حق، والوقوف بين يدي الله حق، وشفاعة المصطفى حق لأهل الكبائر. ويخافون على مسيئتهم، ويرجون لمحسنهم، ولا يكفرون أهل المعاصي من الموحّدين^(٢) المؤمنين، كما يكفرهم الخوارج^(٣). ولا

(١) في (ز، ل): وقال الله تعالى.

(*) في (ل): والبعثة.

(٢) في (ط): الموجودين. وفي جميع النسخ التي اعتمدنا عليها (الموحدين) كما أثبتنا.

(٣) الخوارج في اللغة جمع خارج، وخارجي اسم مشتق من الخروج، وقد أطلق علماء اللغة كلمة الخوارج في آخر تعريفاتهم اللغوية في مادة (خرج) على هذه الطائفة من الناس؛ معللين ذلك بخروجهم عن الدين أو على الإمام علي، أو لخروجهم على الناس.

وقد أطلقت كلمة الخوارج هذه في كتب اللغة على طائفة من أهل الآراء والأهواء لخروجها عن الدين أو على الإمام علي رضي الله عنه. فيقول الأزهري في (تهذيب اللغة): والخوارج: قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة. وهو تعريف ابن منظور والفيروزآبادي أيضاً.

ويقول الزبيدي عنهم: هم الحرورية والخارجية طائفة منهم، وهم سبع طوائف سموا به لخروجهم على =

يخرجونهم من الإيمان كما يذهب إليه المعتزلة^(١). ولا أنهم لا يدخلون النار كما قال بعض المرجئة^(٢). بل هم بين خوفه، ورجائه، ويكلون أمرهم إلى خالقهم، فإن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم. ويؤمنون بإخراج قوم من النار بشفاعه المصطفى. وإن لم تؤمن به المعتزلة، وبعض الرافضة^(٣). متبعون لكتاب ربهم، ولما ثبت عن نبهم،

= الناس أو عن الدين أو عن الحق أو عن علي كرم الله وجهه بعد صفين.

واصطلاحاً: اختلف العلماء في التعريف الاصطلاحي للخوارج، وحاصل ذلك:

منهم من عرفهم تعريفاً سياسياً عاماً، اعتبر الخروج على الإمام المتفق على إمامته الشرعية خروجاً في أي زمن كان.

قال الشهرستاني: (كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان والأئمة في كل زمان. (الملل والنحل: ١/ ١١٤)

ومنهم من خصهم بالطائفة الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه. قال الأشعري: (والسبب الذي سُموا له خوارج؛ خروجهم على علي بن أبي طالب) (المقالات: ١/ ٢٠٧).

(١) المعتزلة: سبب الإشارة إليهم.

(٢) المرجئة لغة: من الإرجاء، وهو التأخير والإمهال، قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٦]. أي أمهله، ومن الرجاء، ضد اليأس وهو الأمل. قال تعالى: ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

المرجئة اصطلاحاً: وفي الاصطلاح كانت المرجئة في آخر القرن الأول تطلق على فئتين، كما قال الإمام ابن عيينة:

- قوم أرجأوا أمر علي وعثمان فقد مضى أولئك.

- فأما المرجئة اليوم فهم يقولون: الإيمان قول بلا عمل.

واستقر المعنى الاصطلاحي للمرجئة عند السلف على المعنى الثاني «إرجاء الفقهاء»، وهو القول بأن: الإيمان هو التصديق أو التصديق والقول، أو الإيمان قول بلا عمل، «أي إخراج الأعمال من مسمى الإيمان»، وعليه فإن: من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان من قال بهذه الأمور أو بعضها فهو مرجئ.

ثم أطلق الإرجاء على أصناف أخرى كالجهمية القائلين بأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكرامية القائلين بأن الإيمان هو قول اللسان فقط. وللمزيد انظر (فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب بن علي عواجي، ٣/ ١٠٧١-١٠٧٥).

(٣) الرافضة: الرفض في اللغة يأتي بمعنى الترك. يقال: رفض يرفض رفضاً، أي ترك. وعرفهم أهل اللغة بقولهم: «والروافض كل جند تركوا قائدهم»؛ هذا هو معنى الرفض في اللغة. وأما في الاصطلاح: فإنه يطلق على تلك الطائفة ذات الأفكار والآراء الاعتقادية الذين رفضوا خلافة الشيخين وأكثر الصحابة، وزعموا أن الخلافة =

ملازمون للجماعة، مطيعون لسلطانهم. ولا يرون الخروج عليهم كما تراه الخوارج، والمعتزلة، والروافض. ويؤدون حقوقهم، ويصبرون فيما لهم وعليهم. ويفضلون أصحاب نبيهم، وآله. ويعرفون حقوقهم، وينشرون مناقبهم، ويمسكون عما شجر بينهم تعظيماً لهم. وإرادة السلامة لدينهم^(١). ويقدمون «أبا بكر» رضي الله عنه في الإمامة والفضل، ثم «عمر» ثم «عثمان»، ثم «علياً»، كرم الله وجوههم. لا يميزون بينهم كالرافضة. ولا ينكرون فضل «عثمان» و«علي» كالمارقة^(٢). يعترفون أنهم الخلفاء الراشدون، والمهديون، خير الخلق بعد النبيين، والمرسلين. ويرون الجمعة والجماعة خلف كل بر وفاجر، والمسح على الخفين في السفر والحضر؛ اقتداءً بنبيهم ﷺ. وصدقوا بخروج الدجال، ونزول «عيسى ابن مريم» عليه السلام، ومعراج النبي ﷺ، في اليقظة، والرؤيا حق. والسحر، وظهور الآيات، وكرامات الأولياء حق. وأن الدعاء والصدقة عن الموتى والاستغفار ينفعهم^(٣)، بفضل الله، وأن الله هو الرزاق حراماً كان أو حلالاً. وأن الله هو المسعر^(٤)، وغلاء الأسعار ورخصها بيده،

= في علي وذريته من بعده بنص من النبي صلى الله عليه وسلم، وأن خلافة غيرهم باطلة.

وقد أطلقت هذه التسمية على الرافضة لأسباب كثيرة:

١ - قيل: إنهم سمو رافضة لرفضهم إمامة زيد بن علي، وتفرقهم عنه.

٢ - وقيل: سمو رافضة لرفضهم أكثر الصحابة، ورفضهم لإمامة الشيخين.

٣ - وقيل: لرفضهم الدين.

ولعل الراجح هو الثاني، ولا منافاة بينه وبين الأول، لأنهم كانوا رافضة يرفضون الشيخين وقد رفضوا زيداً كذلك إذ لم يرض مذهبه. وللمزيد انظر (فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب بن علي عواجي، ١/ ٣٤٤-٣٤٦).

(١) في (ط): ويرون الأسلم لدينهم.

(٢) المارقة: هم أنفسهم فرق الخوارج وبعض الفرق من الروافض.

(٣) في (ط): وأن الدعاء حق، وأن الصدقة عن الموتى والاستغفار ينفعهم.

(٤) يشير المؤلف هنا إلى الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أنس قال: غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله سعر لنا، فقال: «إن الله هو المسعر القابض الباسط الرزاق وإنني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان وابن حزم وابن حجر والألباني.

والآجال مقدرة لا يموت ميت إلا بأجله. قد سلموا لما ثبت من أخبار نبيهم، إيماناً بلا تشبيه، ولا تأويل، ولا تعطيل. كقول النبي ﷺ: «ينزل الله إلى سماء الدنيا»^(١)، وأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، بلا كيف. وكذلك بكل ما ثبت عن نبيهم قائلون، ومسلمون. لا يرون المراء والخصومات. متبعون، غير مبتدعين. وأن الله، سبحانه، لم يزل موجوداً بصفاته كلها، كما لم تزل له. وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا تزال بلا نهاية، ولا غاية. وأن ما سوى أسمائه، وصفاته وأنواره، وكلامه من الملك والملكوت، والحروف محدثة كلها كانت بعد أن لم تكن^(٢). بأوقات مختلفة، محدثة على وفق الإرادة، والحكمة البالغة الأزلية.

هذا الذي ذكرناه جملة، من مذهب أهل السنة، والجماعة من الصحابة، والتابعين، الذين اتبعوهم بإحسان. ومعتقد السلف الصالح. وعلى هذا قد اندرج أئمة الهدى، والعلماء الراسخون، والمشايخ المقتدون^(٣)، من أرباب الحقيقة، ليقترني به المريد الصادق، والطالب الوامق^(٤)، ويجعله منار سبيله، وواضح دليله، محترماً من مذاهب أهل البدعة، والأهواء المختلفة.

كما قال رسول الله ﷺ، فيما أوصى:

«فإنه من يعيش منكم فسيروا اختلافاً كثيراً. فعليكم بستتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(٥).

(١) رواه البخاري في صحيحه ن كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، حديث رقم (٧٤٩٤) ورواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها رقم (١٦٨ - ٧٥٨) ورواه غيرهما.

(٢) في (ز): (محدثة كلها كان تعد أن لم يكن).

(٣) في (ز): (المقيدون) وفي (ط): (المعتبرون).

(٤) في (ز): (الموافق) والوامق: اسم فاعل من الفعل (وَمَقَّ) بمعنى أحب من غير رية.

(٥) روى الحاكم في مستدركه كتاب العلم حديث رقم (٣٤٤): عن العرياض بن سارية، قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها =

ففي قوله: فسيرى اختلافاً كثيراً، إشارة إلى ظهور البدع والأهواء؛ فالصراط المستقيم إلى الله تعالى، ما كان عليه ﷺ هو ومتبعوه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].. وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. فالله تعالى كما أمر بلزوم المتابعة، أمر بمجانبة أهل الأهواء، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم». وقال: «من كان مُسْتَنًا فليستَنَ بمن مات». أولئك أصحاب محمد ﷺ^(٢) كانوا خير [هداة]^(٣). أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم. فهم كانوا على الهدى المستقيم، وقد أخبر النبي ﷺ عن افتراق هذه الأمة، وظهور الأهواء والبدع فيها، وحكم بالنجاة لمن اتبع سنته، وسنة أصحابه.

فقال: «إن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفرق^(٤) أمتي على ثلاث وسبعين كلهم في النار إلا ملة واحدة..»

= العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصينا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يمشى منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

(١) أخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، باب ما يذكر في ذم الرأي (١٣/ ٢٨٧) والسيوطي في الدر المنثور (١٧٨/ ٢) وابن كثير في تفسيره (٥٢١/ ١).

(٢) في (ح): (أولئك أصحاب محمد وآله صلى الله عليهم أجمعين).

(٣) في (ل): هذه.

(٤) في (ح): وستفترق.

قالوا: من هم يا رسول الله؟.

قال: ما أنا عليه وأصحابي».

فعلى الطالب الراغب مجانية أهل الأهواء، والبدع؛ لئلا يعتقد شيئاً من البدع، فلا يفلح أبداً.. فإن من شرط السائرين إلى الله تعالى أن يكونوا على الصراط المستقيم؛ ليلبغوا مقاصدهم، ويفيد اجتهادهم، ويكون سعيهم مشكوراً، ولا يكونوا من جملة من يقول تعالى فيهم: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَنَجَعْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. ومن أراد أن يقف على مذاهب هؤلاء المبتدعين من أهل الأهواء^(١)، الذين

(١) ورد في (ز) ذكر المذاهب والفرق بأسمائها:

(وما خبر عن مذاهب هؤلاء المبتدعين من أهل الأهواء الذين تفرقوا على اثنتين وسبعين فرقة بأسمائهم موجزاً مختصراً ليفرقوا هم أهل الحق فيجتنبوا عنهم وعن مذاهبهم إن شاء الله تعالى، قال الإمام الرباني، رضي الله عنه: أصول الفرق كلها على عشر فرق (فرقة) منهم أهل السنة والجماعة، فمن المبتدعة الخوارج: وهم على خمس عشرة فرقة. النجدات - العطوية (هكذا) الأزارقة - الهذيلية - الأباضية - البشيمية - العجاردة - البدعية - الميمونية الشهراخية (كذا) - الصمقرية (هكذا) - الأخنسية - الفضيلية الحازمية (كذا) - الصلتية - والشيعية وهم اثنتان وثلاثون فرقة وهي ثلاثة أصناف: الغالية، والزيدية، والرافضة. والغالية اثنتا عشرة فرقة (هكذا): البدائية - والطارية - والحربية - والمغربية - والخطابية (هكذا) - والمعمرية - والفضيلية - والمتناسخية - والشرعية - والسبائية - والمفوضية. والزيدية على ست فرق: الجارودية - والسلمانية - والبترية - والنعمية - واليعقوبية - والطائفية. والرافضة أربع عشرة فرقة: القطيعية - والكيسانية - والمغربية - والكربية - والمحمدية - والحنفية - والنارسية - والإسماعيلية - والقرامطة - والشمطية - والعمارية - والممطورية - والموسوية - والإمامية - والزرازية. والمعتزلة وهم ست فرق (فرقة):

- الهذيلية - والنظامية - المعمرية - الجبائية - الكعبية - البهشية.
- والجمية فرقة واحدة - والضرازية فرقة واحدة - والتجارية فرقة واحدة - والكلابية فرقة واحدة.
- والمرجئة اثنتا عشرة فرقة: الجهمية - الصالحية - الشمرية - اليونسية - الثوبانية - التجارية - الغيلانية - التشيبية - الحنيفية - المغاربة - الموسوية - الكرامية.
- والمشبهة: ثلاثة فرقة (هكذا): الهاشمية - المقاتلية - الاسمية.

فجميع ذلك ثلاث وسبعون فرقة، على ما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه). هذا ما ذكر في النسخة (ز) من تفصيل للفرق الاثنتين والسبعين، ويبدو فيها الخلط الشديد في الفرق وأسمائها وتداخلها في بعضها مما يوحي بأن المؤلف قد كتبها من الذاكرة دون تدقيق أو أن الناسخ هو من أضاف هذا الجزء من عنده هو دون أن يكون من وضع المؤلف.

تفرقوا على اثنتين وسبعين فرقة، فليطالع كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني^(١)،
فإنها مشروحة فيه شرحاً وافياً، كافياً، شافياً.

والله أعلم.



(١) كتاب الملل والنحل لأبو الفتح الشهرستاني وهو عبارة عن كتاب يتحدث عن الطوائف الإسلامية باختلافها وكذلك يتحدث عن الأديان السماوية ويتحدث عن بعض طوائفها ويتحدث أيضاً عن الديانات والاعتقادات الوثنية وما قبل الإسلام عند العرب، وكذلك عن الأديان والفلاسفة الرومان، ويتحدث عن الأديان والاعتقادات لدى حكماء الهند، وغيرها.

الفصل الثاني

في مقام توحيد الخواص (وهو مقام المتوسط)

وهو توحيد بالحال فضلاً عن المقال، وذلك بأن يتحلى^(١) القلب بحلية^(٢) علم التوحيد على ما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤]. أمرهم بعلم التوحيد، وذلك مبني على تجريد القلب عن تعلقات الكونين، ليكون^(٣) قابلاً لنور الوجدانية فيستفيد منه علم التوحيد، وهذا مقام الإحسان؛ الذي سألَه جبريل^(٤)، عليه السلام، للنبي ﷺ.

فقال: ما الإحسان؟

قال: «الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٥). وإنما يتهيأ التجريد للقلب، بعد أن يتجرد^(٦) القلب عما له بُدٌّ منه. غير ما أُلجأته

(١) في (ل، ز): يتجلى.

(٢) في (ل، ز): تجلية.

(٣) في (ط): فيكون.

(٤) في (ل): جبرائيل.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، حديث رقم (٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (٨-١).

(٦) في (ز): تجرد.

إليه الضرورات الإنسانية، لئلا يكون شاغلاً للقلب عن قطع العلاقات. ولا يتيسر للقلب قطع العلاقات إلا بمعونة الذكر، وهو ذكر: لا إله إلا الله؛ فإن للذكر في هذا المعنى تأثيراً عظيماً، فلهذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. فالفلاح فلاح القلب عن تعلقات الكونين.

وللذكر آداب وشرائط، سنبينها^(١) في موضعه إن شاء الله، فبملازمة ذكر اللسان يصفو القلب، ثم بدوام الذكر يتنور القلب بنور الذكر، ودوام الذكر يستدعي العزلة، والخلوة.

ولللخلوة شرائط وآداب، نذكر شرحها إن شاء الله تعالى. فإذا تخلى العبد عن الخلق متوجهاً إلى الله تعالى بصدق النية، وتردد الذكر بلا فتور، ولا قصور، بحيث لا يفتر عنه في طريق الوضوء وحالة الأكل، يأخذ قلبه عن لسانه، ولسانه عن قلبه، حتى تصير الكلمة متأصلة في القلب، مزيلة لحديث النفس، مستولية على قطع العلائق، إلى أن يتشربها القلب فلا يسكت عنها بسكوت اللسان.

ثم يتجوهر القلب بجوهر الذكر فينتفي بنفيه حجب تعلقات الكونين، ويثبت بإثباته شواهد المذكور في مرآة القلب عند اتحاد القلب والذكر، فيكاشف بالوحدانية.

فيقول: رأى قلبي ربي. فيتحقق له علم التوحيد بعين اليقين.

وقال الجنيد^(٢): علم التوحيد مبين لوجوده، ووجوده مفارق لعلمه.

(١) في (ز) سنينه.

(٢) الجنيد: سيد الطائفة ومقدم القوم، كان على حال من العبادة والزهد والتأله، مستقيماً على طريقة السلف في الجملة، يعظم الكتاب والسنة، وينهى عن الإحداث والبدعة. وهو: الجنيد بن مُحَمَّد بن الجنيد أَبُو الْقَاسِمِ الْخَزَاز، ويقال القواريري وقيل: كان أبوه قواريريا، وكان هو خزازاً، وأصله من نهاوند، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد. قال الخطيب البغدادي رحمه الله: سمع بها الحديث، ولقي العلماء، ودرس الفقه على أَبِي ثور، وصحب جماعة من الصالحين، منهم الحارث المحاسبي، وسري السقطي.

وقال الجريري^(١): ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد.

وقال الحصري^(٢): أصولنا في التوحيد خمسة أشياء:

- رفع الحدث.
- وإفراد القدم.
- وهجر الإخوان.
- ومفارقة الأوطان.
- ونسيان ما علم وجهل.

= ثم اشتغل بالعبادة ولازمها حتى علت سنه، وصار شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وطريقة الوعظ. وله أخبار مشهورة، وأسند الحديث عن الحسن بن عرفة. (تاريخ بغداد: ٨ / ١٦٨).

وقال الذهبي رحمه الله: هو شيخ الصوفية، وُلِدَ سنة نيف وعشرين ومائتين، وَتَفَقَّهَ عَلَى أَبِي ثَوْرٍ، وسمع من: السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ، وَصَحْبِهِ، وَمَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَرْفَةَ، وَصَحَبَ أَيْضًا: الْحَارِثَ الْمُحَاسِبِيَّ، وَأَبَا حَمْرَةَ الْبَغْدَادِيَّ، وَأَتَقَنَ الْعِلْمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ، وتَأَلَّمَ، وتَعَبَّدَ، وَقَلَّ مَا رَوَى. قِيلَ: كان نقش خاتم الجنيد: إِنْ كُنْتَ تَأْمَلُهُ فَلَا تَأْمَنُهُ.

وعنه: من خالفت إشارته معاملته، فهو مدع كذاب (سير أعلام النبلاء ٤٣ / ١١).

(١) الجريري: هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، كان من علماء مشايخ الصوفية، ومن كبار أصحاب الجنيد، فلما توفي الجنيد أجلسوه مكانه، وأخذوا عنه آداب التصوف، وقد أسند الحديث.

من أقواله: غاية همة العوام السؤال، وبلوغ درجة الأوساط الدعاء، وهمة العارفين الذكر. ومن أقواله أيضًا: من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرّم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذ بكلام الحق تعالى، ولا يستحيله وإن كثر ترداده على لسانه؛ لقوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

توفي الجريري سنة أربع وأربعين ومائة.

(٢) الحصري: هو أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري، بصري الأصل، سكن بغداد ومات بها يوم الجمعة في ذي الحجة سنة ٣٧١هـ. وكان شيخ العراق في وقته ولم يُر مثله في قوله. صحب الشبلي وإليه كان ينتمي - وكان يصحب غيره من المشايخ. (انظر الطبقات الكبرى ١ / ١٠٥ والرسالة القشيرية ص ٣٢).

الفصل الثالث

في مقام توحيد الأخص (وهو مقام المنتهى)

قال الله تعالى [لنبيه صلى الله عليه وسلم]^(١): ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. اعلم أن مقامات التوحيد ثلاث:

التوحيد: وهو ما يحصل للطالب المبتدئ عن صدق المقال. وقد مرّ شرحه.
والوحدانية: وهي ما يصدر عن الحال بإراءة الحق في مرآة الآفاق، للمتوسط، كما بينا.

والوحدة: وهي المقام المحمود الذي اختص به «محمدًا» ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] دون سائر الخلائق. اللهم إلا بعض خواص الأولياء من أمته، ومتابعيه بتبعيته. وذلك من كمالية علم التوحيد، المبني على التفريد بعد أداء حق التجريد. وهو أن يفردك الحق عنك بفردانيته عند استيلاء سلطان الذكر، حين يخرج من قشر الحرف والصوت فيفنى بسطوة نفيه وجود الذكر ويبقى بسلطنة إثباته بقاء المذكور، فينوب^(٢) المذكور عن الذكر بدوام الذكر، على مقتضى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].. فيصير حينئذ الذكر مذكورًا،

(١) سقطت من (ط).

(٢) في (ل): لينوب.

والمذكور ذاكراً، ويتبدل الأين بالعين، والمباينة بالمعيانة، والاثنيينة بالوحدة. هذا^(١) أوان أن يسمع بسمع، ويبصر ببصره، ويتكلم بكلامه، ويعلم بعلمه، أنه لا إله إلا الله، ويستغفر عن ذنب حسابان أنه يعلم أنه لا إله إلا الله كما هو؛ لأن علمه غير متناه. والذي يدل على اختصاص النبي ﷺ وخواص أمته بحقيقة علم التوحيد المخصوص بلا إله إلا الله، وإن كانت الأمم الماضية يباشرون هذه الكلمة، ويعتقدونها ما رويها في كتاب (عوارف المعارف):

عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه^(٢): أن عيسى ابن مريم، عليه السلام، قال: «رب أنبئني^(٣) عن هذه الأمة المرحومة».

قال: أمة «محمد» ﷺ، علماء أخفاء، حلماء كأنهم أنبياء. يرضون مني بالقليل من العطاء، وأرضى منهم بالقليل من العمل. وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله. يا عيسى، هم أكثر سكان الجنة؛ لأنها لم تذلل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم، ولم تذلل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم».

وعن «عبد الله بن عمرو بن العاص»^(٤) رضي الله عنه، قال:

(١) في (ل): وهذا.

(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ، وهو ابن أخي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه. أتى به أَبُو لُبَابَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: «مَا هَذَا مِنْكَ يَا أَبَا لُبَابَةَ؟» قَالَ: ابْنُ ابْنَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْتُ مَوْلُودًا أَصْغَرَ مِنْهُ. فَحَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسَحَ رَأْسَهُ، وَدَعَا لَهُ بِالْبِرَّةِ. فَمَا رَأَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ مَعَ قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا فَرَعَهُمْ طَوْلًا، وَكَانَ أَطْوَلَ الرِّجَالِ وَأَتَمَّهُمْ. وَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَمْرُهُ سِتِّ سِنِينَ.

(٣) في (ل، ز): أنبأني.

(٤) تزوج والده عمرو بن العاص بأمة ريطة بنت منبه بن الحجاج بن عامر السهمي، وهو معدود في الصحابة، وكان الزواج وهما في سن صغيرة، فكان أول ولد لهما هو عبد الله، ولد سنة ٧ قبل الهجرة، ووالده أكبر منه بحوالي ١٢ عامًا، وقد كان واعيًا منذ صغره لما يدور حوله فقد روى عنه ابن هشام حديثًا عن أكثر ما رآه من إظهار قریش لعداوتها للرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة.

أسلم عبد الله قبل أبيه، وهاجر بعد السنة السابعة للهجرة، وشهد مع رسول الله بعض المغازي، وكان يضرب بسيفين، ويقال إن اسمه كان العاص، فلما أسلم غيَّره النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله. وأسلمت والدته، =

«إن هذه الآية مكتوبة في التوراة:

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للمؤمنين، وكنزاً للأُميين. أنت عبدي ورسولي. سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب^(١) في الأسواق. ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتحوا أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً... يعني أعيناً عمياً عن رؤية جمال الحق، وآذاناً صمّاً عن سماع كلام الحق، وقلوباً غلفاً مغطاة عن إدراك علم التوحيد والمعرفة.



= وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: نعم أهل البيت عبد الله، وأبو عبد الله، وأم عبد الله. وكان عبد الله من الصحابة المقربين إلى رسول الله لرغبته في الدين وإقباله على العبادة، وعهد إليه رسول الله مرة أن يجهز أحد جيوشه، وهذا وسام ثقة من الرسول بأمانته وحسن تدبيره وتقديره، وكان عبد الله أحد الذين حفظوا القرآن العظيم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، روي البخاري والنسائي، وهذا لفظه، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن، فقرأته كله في ليلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأه في شهر. قلت: يا رسول الله، دعني أستمع من قوتي وشبابي. قال: اقرأه في عشرين. قلت: دعني أستمع، قال: اقرأه في سبع ليال. قلت: دعني يا رسول الله أستمع. قال: فأبى. وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وسلم قال: إنه لن يفقه فيه رجل قرأه في أقل من ثلاث.

(١) جاء في لسان العرب مادة (سخب): والسَّخْبُ والصَّخْبُ بمعنى الصياح.

الباب الثالث في مقام النبوة

(وهو يشتمل على عشرة فصول)

الفصل الأول

في كيفية ارتقاء الحواس [الخمس] ^(١) إلى الحس ^(٢) المشترك، ومنه إلى ما فوقه إلى أن تصير الروح به قابلاً للوحي

اعلم إننا وإن كان قصدنا في هذا الباب الكلام على النبوات، ولكننا لا نصل إلى تحقيقه إلا بعد ذكر مراتب الموجودات، واتصال بعضها ببعض، والحكمة السارية في جميعها التي نشأت من قبل الله الواحد، فأعطت كل مرتبة قسطها، ووزنوها بميزان العدل كما سنبينه في موضعه، إن شاء الله تعالى. فاقصرنا من جميعها على شرح الحواس الخمس التي هي:

حاسة السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس وهي حاصلة في الحيوان الكامل في الحواس الخمس، وهي مع ذلك متفاوتة المراتب:

– فمنها الجافية الحواس البليدة.

– ومنها الذكية المطيعة، التي تستجيب للتأديب ^(٣)، وتقبل الأمر والنهي، وتستعد لقبول أثر النطق، والتمييز. كالفرس من البهائم، والبازي من الطيور.

(١) سقطت من (ز).

(٢) في (ز): بالحس.

(٣) في (ز): يستجيب التأديب.

- ثم ترتقي في أفقه الأعلى إلى أول مرتبة الإنسان. وهذه المرتبة^(١)، وإن كانت شريفة، من مراتب الحيوانات، وهي أعلاها وأفضلها، فهي رتبة خسيصة من مرتبة الإنسان، وهي مراتب القروء، وأشباهها من الحيوانات التي قاربت الإنسانية، وليس بينها وبينها إلا اليسير الذي إن تجاوزته صار إنساناً، فإذا بلغه انتصبت قامته، وظهر فيه من قوة التمييز الشيء اليسير الذي يناسب حالته، وقربه من أفق البهائم، ولكنه على حال يهتدي فضل اهتداء إلى المعارف، ويقوى فيه أثر النفس، ويقبل التأديب، بالفهم، والتمييز. وهذا الأثر وإن كان شريفاً بالإضافة إلى ما دونه من رتب البهائم، فهو خسيس دنيّ جداً، بالإضافة إلى الإنسان الكامل الناطق.

ثم للحواس الخمس ارتقاء إلى الحس المشترك ليجمعها ويؤلفها في ذاته، ولولا هو لتفرقت علوم الحواس، ولم يكن لها ما يؤلفها، ولا ما يحفظها، بعد أن تزول آثارها. فنقول^(٢):

إن النفس لما تحركت الحركة المنسوبة إلى أسفل لم يكن ممكناً للجسم المركب، على جفائه^(٣) وغلظه، أن يتصل بالنفس على لطفها، وبعدها من الجوهر الحسي إلا بوسائط يلطف فيها الحس أولاً [فأول]^(٤)، حتى ينتهي إلى غاية ما، يمكنها أن تنتهي إليه. فحينئذ يمكن أن يقع بينهما الاتصال؛ الذي يصير أحدهما قابلاً أثراً من الآخر.

ومثال ذلك، أن المعدة إذا لطف الغذاء بالهضم، وحصل منه في القلب دم رقيق اللطف، ما أمكن، من الغذاء، عادت الحرارة التي في القلب عليه فزادته تلطيفاً، وأجرته في العروق الجوفية^(٥)، التي تسمى شريانات، وهو اللطف ما يكون من الدم،

(١) في (ز، ح): الرتبة.

(٢) في (ز): فيقول.

(٣) في (ز): جفائته.

(٤) سقطت من (ز). وفي (ل): أولاً أولاً.

(٥) في (ل): الأجوف.

وحصل منه في العرق الأجوف الذي^(١) يرتقي إلى الدماغ فيجري فيه جريان الماء في الأنابيب.. أعني أنه يبقى فيه فضاء ما، فلا يختنق^(٢) فيه بأن يملأه. وذلك الدم حار قريب العهد بالقلب فيرتفع منه بخار لطيف يحصل في فضاء العروق الأجوف الخالي من الدم، كلما ارتفع لطف هذا البخار، حتى يحصل في الدماغ فيتشعب إلى عروق دقاق كثيرة، شبيهة بالشعر في الدقة، ويتفرق في الدماغ فيعدل برده بحرّه، ويعتدل هو أيضاً ببرد ذلك وبصير منه ما يُسمّى روحاً حيوانياً^(٣). وبحسب صفاء هذا الروح، وتهذبه، في حالاته تكون صدور قوى الروح الإنساني عنه، واستعداده^(٤) لقبول آثاره من الحس والفهم. وتنشئ الطبيعة حينئذ من الدماغ أعصاباً يكون بها الحس والحركة الإرادية في جميع البدن، وبها يتميز الحيوان من النبات. فمنها العصبية الجوفاء التي تنقسم إلى ثقبى العينين، وينفذ فيها ذلك الروح، وقد تهذب غاية تهذبه^(٥)، ولطف جداً فيكون به البصر.

ومنها التي تأتي الأذن فيكون بها السمع، وكذلك الباقيات، فإذا حصل في كل واحد من الحواس أثر من المحسوس تأدى منه إلى الحس المشترك، وهو قوة من قوى النفس في أفق هذا الجوهر اللطيف من الجسم يقبل هذه الآثار كلها، وكما أن كل حس من الحواس الخمس يختص بنوع من المحسوس فيقبل آثاره ثم يميز [بين أشخاصه، وكذلك الحس الجامع المشترك يقبل الآثار من الحواس كلها ثم يميز بينها، إلا أن الفرق بينهما أن الحواس الخمس إنما تقبل الصور من المحسوسات بالدفعات، وتتأثر منها]^(٦).

(١) في جميع النسخ: التي.

(٢) في (ز): يختنق.

(٣) في (ز): حيواناً.

(٤) في (ح): لاستعداده.

(٥) في (ح): غاية التهذيب.

(٦) وردت هذه الفقرة في (ل) بهذا الترتيب: (ومنها التي تأتي الأذن فيكون بها السمع، وكذلك الباقيات، فإذا =

والحس المشترك إنما يقبل الصور من الحواس في دفعة واحدة من غير أن يتأثر منها بما يحصل فيه من تلك الصور؛ لأنه في نفسه صورة، والصورة لا تقبل الصورة على طريق التأثير، بل على طريق آخر، وبنحو أعلى وأشرف. ولذلك يدرك^(١) الجميع بلا زمان، ولا تجزئة، ولا انقسام، ولا تختلط الصور هناك، ولا تتزاحم كما تتزاحم في الأجسام. وترتقي هذه القوة إلى قوة تسمى المتخيلة، وربما يظن أنهما واحد. وهذه القوة يظهر فعلها [في]^(٢) جزء الدماغ المقدم، ثم ترتقي إلى قوة أخرى للنفس تسمى الحافظة، وهي كالخزانة التي تحفظ [فيها]^(٣) الأشياء الكثيرة، أستحضر منها ما يحتاج إذا امتد الزمان. فهذه القوة يظهر فعلها في الجزء المؤخر من الدماغ، وهناك قوة أخرى للنفس وهي قوة الفكر تقع بها حركة الروية، والتوجه نحو العقل. ويختص بهذه القوة الإنسان دون سائر الحيوان، ويظهر فعلها في البطن الأوسط من بطون الدماغ. وليس للحيوانات الباقية هذا الجزء من الدماغ، وإنما لها تانك القوتان في دينك الجزئين فقط؛ ولذلك^(٤) لا رؤية لها. فإذا حصلت تلك الصورة في هذه القوة حتى تقبلها^(٥) وتنظر فيها، فقد ارتقت إلى أفق الإنسان، وفي هذه المرتبة تظهر الإنسانية. وعلى قدر هذه الحركة، واستقامتها وصحة نظرها وتميزها^(٦)، تكون مرتبة الإنسان، وتميزه عن البهائم، وعلى قدر استكمالها بالحركة، وقبولها أثر العقل يكون

= حصل في واحد من الحواس أثر من المحسوس يقبل هذه الآثار كلها، وكما أن لكل حس من الحواس باطنًا يختص من المحسوس فيقبل آثاره ثم يميز بين أشخاصه، فلذلك الحس الجامع المشترك يقبل الآثار من الحواس كلها ثم يميز بينها، إلا أن الحواس الخمس إنما تقبل الصورة من المحسوسات وتتأثر منها).

(١) في (ط): لم يدرك.

(٢) سقطت من (ل).

(٣) سقطت من (ط).

(٤) في (ل): وكذلك.

(٥) في (ل): تقبلها.

(٦) في (ح): تميزها.

مقداره من الإنسانية^(١). فإذا جعل الإنسان أقصى سعيه بما يستفيده من حواسه أن يرقىها إلى هذه القوة، ويحركها أبدًا في طلب أسبابها، ومبادئها الأولى، أعطاه حينئذ العقل حقائقها، فاستكملت صورة الإنسانية فيه، وتصورت نفسه بحقائق الأشياء، وتلك الحقائق هي أبدية الوجود غير داخلية تحت الكون ولا تحت المدة والزمان؛ لأنها بسائط، فتصير محاولات هذا الإنسان كلها ومساعيه فيها بطريق الرياضات النفسانية، والمجاهدات الشرعية، كما سيحيي شرحها إن شاء الله تعالى.

ويبلغ الإنسان في هذه المرتبة متصاعدًا فيها إلى غاية أفقه التي إن تجاوزها لم يكن إنسانًا، بل صار ملكًا كريمًا، وينبغي أن تتصور ذلك كما تصورت الوسائط الأخرى في أواخر أفقها، وأوائل آفاق ما هو فوقها، إلى أن تدركه العناية الأزلية، وهبت نفحات ألطاف الحق فانخرقت الحجب النورانية الروحانية بهبوبها، وتأثر الروح العلوي بشواهد الأنوار الربانية، ويتقوى بقوة لم تكن في الاستعداد الإنساني^(٢) مجبولة، وهي لطيفة ربانية روحانية، تسميها المشايخ خفيًا؛ لأنها كانت مخفية متكمنة^(٣)، لا يخرجها من القوة إلى الفعل^(٤) إلا سطوات الأنوار الربانية. فبالارتقاء إلى مقام الخفي يستعد للترقي^(٥) من أواخر الأفق الإنساني إلى أوائل آفاق ما فوقها، فيستعد لقبول الفيض الرباني بلا واسطة، وهذا مقام الإنباء؛ بأن ينبئه الحق تعالى بإراءة آياته في آفاق نفسه عما يشاء كما يشاء، للأولياء^(٦) بالإلهام، وأما الأنبياء بالوحي بحسب استعداد كل واحد منهم.

والله أعلم.

(١) في (ل): الإنسان.

(٢) في (ز): استعداد الإنسان.

(٣) في (ل): متمكنة.

(٤) في (ز): العقل.

(٥) في (ل): المرتقي.

(٦) في (ل، ز): أما الأولياء.

الفصل الثاني

في كيفية الوحي

اعلم أن ما ذكرناه من مقام الأنبياء هو غاية شرف الإنسانية، والأفق الأعلى منه، فلم يبق له الارتقاء عن هذا المقام بسعيه وجهده، بل تنحط^(١) إليه الأمور الإلهية، والجذبات الربانية وحيًا أو إلهامًا، كما قال تعالى لنبيه [محمد]^(٢) ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: ما كنت تدري مع كمال عقلك، وغاية حسن استعدادك، ما يكون الكتاب، والإيمان.. يشير إلى أن الإنسان بالعقل الكامل لا يطلع^(٣) على حقائق القرآن، ونور الإيمان... ولكن جعلناه؛ يعني الكتاب والإيمان، نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا بالوحي المنزل إليهم. ومثال ذلك: أن الإنسان إنما ارتقى من قوة الحس إلى قوة التخيل، وارتقى من قوة التخيل إلى قوة الفكر، ومن قوة الفكر إلى إدراك حقائق الأمور التي في العقل.

وذلك أن هذه القوى متصلة اتصالاً روحانيًا، كما بينا فيما مضى، فربما عرض لها من قوة قبول بعضها من بعض الآثار أن تنعكس في بعض الأمزجة منحطة كما تصاعدت على سبيل الفيض فيؤثر حينئذ العقل في القوة الفكرية، وتؤثر القوة الفكرية

(١) في (ل): تُخط. وفي (ط): تتخط.

(٢) موجودة في (ط) فقط.

(٣) في (ل): لا يبلغ.

في القوة المتخيلة، وتؤثر القوة المتخيلة في الحس، فيرى الإنسان أمثلة الأمور المعقولة؛ أعني حقائق الأشياء ومبادئها وأسبابها، كأنها خارجة عنه، وكأنه^(١) يراها ببصره ويسمعها بأذنه. وكما أن النائم يرى أمثلة الأشياء المحسوسة في القوة المتخيلة، ويظن أنه يراها من خارج، وربما كانت صحيحة مبشرة أو منذرة في المستأنف، وربما رأى الأمور بأعيانها من غير تأويل، وربما رآها مرموزة تحتاج إلى تأويل، كذلك حال هذا المستيقظ إذا استقرت فيه هذه القوة العالية أخذته عن المحسوسات حتى كأنها غابت عنها فيشاهد في القوة المتخيلة ما انحدر إليها من علو الخفي بإراءة^(٢) الله تعالى إياه إلى العقل، ومن العقل إلى الفكر، ومن الفكر إلى المتخيلة.. ويسمع ما [لا]^(٣) يشك فيه.

ولأن تلك الأمور ليست في زمان، فمستقبلها وماضيها واحد؛ لأنها حاضرة معاً. فالأمور لائحة له، فيشاهد مستقبلها كما يشاهد ماضيها، فإذا أخبر بها كانت صحيحة، وكانت وحياً. والله أعلم.



(١) في (ز، ل): وكأنها.

(٢) في (ط): من إراءة.

(٣) ساقطة من (ل).

الفصل الثالث

في أصناف الوحي

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾.

[الشورى: ٥١].

فالله تبارك وتعالى جعل أقسام كلامه مع عباده ثلاثة:

- وحياً: بلا واسطة.

كما أخبر عن حال النبي ﷺ بقوله:

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠].

- وكلامه^(١) من وراء حجاب.

كما أخبر عن حال موسى -عليه السلام- بقوله تعالى:

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

والذي يدل على أنه كلمه من وراء حجاب، قوله تعالى حكاية عن موسى -عليه

السلام-:

﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) في (ح، ط): وكلاماً.

أي ارفع الحجاب عني لأنظر إليك.

- وإرسال الرسول: وهو جبريل^(١) - عليه السلام - وغيره من الملائكة، يرسلهم إلى الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

ثم: جعل أصناف الوحي ثلاثة:

الأول - وحيًا للعجماء:

وهو بالإجراء^(*)، كما^(٢) أخبر عن حال النحل بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] الآية، فأثار الوحي في معاملاتها ظاهرة، فلو لم يكن أنها اتخذت البيوت المسدسة الهندسية، التي يعجز العقلاء عن اتخاذ مثلها، بإجراء^(٣) الوحي الرباني، وإلا فكيف يصدر من حيوان يكون بمعزل من العقل مثل تلك المعاملات.

الثاني - وحيًا للأولياء:

وهو بالإلهام، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنِ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة: ١١١]. فلو لم يكن إيمان الحواريين بالإلهام الرباني إلى قلوبهم، لكفروا. كما أخبر الله تعالى عن حالهم وحال غيرهم من بني إسرائيل بقوله تعالى:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾.

[الصف: ١٤].

(١) في (ل): جبرائيل.

(*) في (ز): بالأجر.

(٢) في (ز): لما.

(٣) في (ز): بأجر.

يعني فأمّنت طائفة الحواريين من بني إسرائيل بالإلهام الرباني، وكفرت طائفة منهم؛ إذ لم يلهموا به.

والثالث - وحيًا للأنبياء:

وهو بالإيحاء^(١) من الله تعالى، تارة بواسطة جبريل^(٢)، كما قال تعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وأخرى، بغير واسطة في النوم، كما قال تعالى [حاكيًا عن إبراهيم]^(٣):

﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»^(٤).

وقد ورد عن بعض الحكماء الإسلاميين^(٥): أن أصناف الوحي يجب أن تكون بعدد أصناف قوى النفس؛ وذلك أن الفيض الذي يأتي النفس، إما أن تقبله بجميع قواها أو ببعضها. وقوى النفس تنقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين وهما: الحس والعقل.

(١) في (ل): بالإيحاء.

(٢) في (ل): جبرائيل.

(٣) ساقطة من (ل، ز، ط).

(٤) من الغريب أن النسخ الثلاث التي اعتمدت عليها في تحقيق هذا الكتاب أوردت هذا الحديث برواية «نوم الأنبياء وحي» ولم أثر عليه بهذه الصيغة. والصيغة المعروفة هي التي أثبتتها هنا وهي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «رؤيا الأنبياء وحي» والذي يرويه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَوَضَّأَ مِنْ شَنْ مُعَلَّى وَضُوءًا خَفِيفًا - يُخَفِّفُهُ عَمَرُو وَيَقْلِلُهُ جَدًّا -، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ، فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَحَوَّلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ اضْطَجَعَ، فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، فَاتَاهُ الْمُتَادِي بِأَذْنِهِ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ مَعَهُ إِلَى الصَّلَاةِ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ فَلَنَّا لِعَمْرُو: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ قَالَ عَمَرُو: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ: إِنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]. رواه البخاري في الوضوء (٥) ورواه أيضًا في الأذان (١٦١).

(٥) في (ز): الإسلامية.

وكل واحد من هذين [القسمين]^(١) ينقسم إلى أقسام كثيرة، وأقسامها إلى أقسام آخر كثيرة.. حتى تنتهي إلى الجزئيات التي لا نهاية لها.

وإنما عرض^(٢) هذه الأقسام بحسب الآلات والمدرجات الكثيرة. فأما قواها، التي هي الحواس:

فمنها ما هو في أفق النبات.

ومنها ما هو في أفق الحيوان البهيمي.

ومنها ما هو في أفق الإنسان.

وأعلاها مرتبة، ما هو في أفق الإنسان، أعني حسَّ البصر والسمع؛ وذلك أن أول ما يقبله الحيوان من أثر النفس، ويتميز به عن النبات هو حسَّ اللمس، الذي يوجد في أنواع الصدف، ثم حسَّ الذوق، والشم، اللذين في أصناف الدودة^(٣)، وكثير من الفراش، ثم في آخره^(٤) إذا قبل صورة السمع والبصر صار منه الحيوان الشريف الذي شرحنا [من أمره ما شرحنا]^(٥)، وإنما صار هذان الحسَّان شريفين؛ لأنهما أبسط، وأقل مخالطة للهولي، وذلك أنهما يقبلان صور الأمور من غير استحالة إليها.

فأما تلك الحواس الأخر فإنها لا تقبل الأثر إلا بمخالطة وممازجة واستحالة هيولانية، وإذا كانت صور الحقائق التي تأتي النفس من فوق غير ملابسة^(٦) لشيء من الهولي لم تتجاوز حسَّ البصر والسمع؛ لأنه ليس في طاقة الحواس الأخر أن تقبلها بنوع من الأنواع، ولا بجهة من الجهات، وعلى أن تلك المعاني البسيطة الشريفة، إذا

(١) ساقطة من (ز).

(٢) في (ز) غرض.

(٣) في (ط): الدود.

(٤) في (ط): تأخره. وفي (ح، ز): بآخره.

(٥) ساقطة من (ز).

(٦) في (ز): ملابسة.

انتهت إلى السمع والبصر، صار فيها ظل الهيولى، ولذلك تظهر في معرض منها، ولم يمكن بعد ذلك أن تتجاوز منها إلى كثافة أخرى؛ لأن في ذلك خروجاً عن ذواتها، وهذا محال.

فقد تبين أن أصناف الوحي بعدد أصناف قوى النفس، إلا ما استنار به من الحواس الثلاث، التي هي في أفق الحيوان البهيمي القريب من النبات. وأقواها ما اشتملت عليه النفس بقواها الباقية كلها، ثم اشتملت عليه ببعضها إلى أن ينتهي إلى ما تقبله بقوة واحدة من قواها. وبالله التوفيق.

هذا من كلام الحكيم. والله أعلم.

وأما ما [جاء] ^(١) على لسان العلم من أصناف الوحي:

• فمنها: الرؤيا الصالحة في النوم.

كما روت «عائشة» رضي الله عنها، قالت:

«أول ما بدئ به رسول الله، ﷺ، من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم. وكان ^(٢) لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ ضوءه، وإنارته» ^(٣).

يعني ما يرى في النوم بالليل جاءه بالنهار حقاً ظاهراً لا يحتاج إلى التأويل والتعبير.

• ومنها: ما يبدو في اليقظة فيسمع صوتاً، أو يرى ضوءاً، كما روينا عن «ابن

عباس» [رضي الله عنهما] ^(٤)، قال:

«أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، وفي رواية، ثلاث عشرة، يسمع الصوت، ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً. وثمانين سنين يوحى إليه، وأقام

(١) ساقطة من (ز).

(٢) في (ط): فكان.

(٣) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده.

(٤) ساقطة من (ز).

بالمدينة عشراً منها^(١) ما يرى ملكاً فيكلمه كما جاء في حديث «عائشة» رضي الله عنها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾ [العلق: ١-٣].

فرجع بها رسول الله ﷺ، يرجف فؤاده، فدخل على «خديجة بنت خويلد»، فقال: زملوني.. زملوني. فرملوه حتى ذهب عنه الروع^(٢). الحديث.

• ومنها: ما يظهر له الملك، في أفق الفلكية^(٣). كما روينا عن «جابر»، رضي الله عنه، قال:

قال رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي: «بينا أنا واقف فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض. قال رسول الله ﷺ، فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقًا^(٤)، فرجعت فقلت: زملوني. زملوني. دثروني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝﴾ [المدثر: ١-٥]، ثم تتابع الوحي^(٥).

(١) في (ح، ل): ومنها.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير باب (اقرأ باسم ربك الذي خلق) برقم (٤٤٥٣) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بدء الوحي برقم (٢٥٢-١٦٠).

(٣) في (ح، ز): الملائكة. وفي (ل): الملكية. وما أثبتناه من (ط).

(٤) في (ل): فخشيت منه فزعاً. ومعنى جئت: جلست علي ركبتي.

(٥) أخرجه البخاري برقم (٤٩٥٤) والبيهقي في شرح السنة (١٣ / ٣٢٠). ورواية البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قَبْلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي، فَرَمَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَاهْجُرْ ۝﴾ - قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرُّجْزَ الْأَوْتَانِ - ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَبَاعَ.

- ومنها: ما ينفت الملك في الرُّوع.
- كما جاء في الحديث: «أن الروح الأمين نفث في رُوعي، أي نفسي وخليدي، أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها»^(١).
- ومنها: ما ينزل^(٢) جبريل به على قلبه ﷺ.
- ومنها: ما يلقيه الله تعالى في القلب بغير واسطة جبريل، كما جاء في الأحاديث الربانية، كقوله، عليه السلام: «من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»^(٣). الحديث.
- ومنها: ما يأتي به جبريل، عليه السلام، متمثلًا في صورة إنسان، كما كان يأتي في صورة دحية^(٤)، وصورة الأعرابي.
- ومنها: ما يأتي به غيره من الملائكة كما كان يأتي في صور مختلفة.
- ومنها: ما كان سرًّا بين الله [تعالى]^(٥) ورسوله ﷺ، فلم يحدث به أحدًا.
- ومنها: ما يحدث به الناس، وذلك على صنفين:
- فمَنه ما كان مأمورًا بكتابته^(٦) قرآنًا.
- ومنه ما لم يكن مأمورًا بكتابته^(٦) قرآنًا، فلم يكن من القرآن.
- والله أعلم.

(١) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع (٥٥٧٥) ط مجمع البحوث.

(٢) في (ط): نزل.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة برقم (٩٣٧٠).

(٤) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة. الكلبي القضاعي. صاحب النبي - صلى الله عليه وسلم ورسوله بكتابه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى هرقل. روى أحاديث. قال ابن سعد: أسلم دحية قبل بدر ولم يشهدا. وكان يشبه بجبريل. بقي إلى زمن معاوية.

حدث عنه: منصور بن سعيد الكلبي ومحمد بن كعب القرظي، وعبد الله بن شداد بن الهاد، وعامر الشعبي، وخالد ابن يزيد بن معاوية. وقد شهد اليرموك، وكان على كردوس وسكن المزة. (سير أعلام النبلاء).

(٥) زيادة من (ز).

(٦) في (ح، ز، ل): بكتبته. وما أثبتناه من (ط)

الفصل الرابع

في أن العقل ملك مطاع بالطبع متهى لقبول الوحي، والإيمان به

اعلم: أن الله تعالى خص العقل برتبة هي أعلى مراتب المبدعات، وأن جميعها محتاجة إليه، وهو الذي يمدّها بفضائله، وإن كان بعضها لأجل بعده عنه، وقلة حظه منه، يتمرد عليه، وعلى ذلك فإنه لا محالة يخضع له إذا ظهر له أدنى ظهور. فمثله كمثّل الملك [الذي]^(١) يحتجب عن بعض عبيده، ويطلع عليهم^(٢) من حيث لا يرونه، فإذا خالفوا أمره واجترأوا على بعض ما نهى عنه، إنما ذلك لأنهم لا يرونه، ولا يعلمون أنه يراهم. فإن أحسّوا به أدنى إحساس، انقبضوا ضرورة، وهابوا^(٣) طبعاً، ويظهر هذا المعنى ظهوراً تاماً في البهائم، فإنها تخدم الإنسان وتهابه بالطبع.

وتتبع العدة الكثيرة الراعي الواحد، وربما كانت قوة واحد منها تزيد على قوى عدة كثيرة منهم. وكذلك حالها في عظم الأجسام والجرأة والبطش، وعلى هذا يجري^(٤)

(١) ساقطة من (ل).

(٢) في (ز): ويطلع عليه.

(٣) في (ط): وهابوه.

(٤) في (ز): الجري.

أمر الناس بعضهم مع بعض؛ فإن عامتهم إذا وجدوا بينهم^(١) واحداً أكثر حظاً من العقل فإنهم يهابونه، ويخضعون له، ويتبعونه منقادين مستسلمين كشبه البهائم، إذ الطبيعة واحدة بعينها، وكذلك يفعل أولئك العقلاء لمن هو فوقهم في العقل من الطاعة والانقياد، وشدة التهيّب. ولقوة هذا [الأمر]^(٢) الطبيعي ربما ظن بواحد من الناس أكثر مما فيه من العقل فينقاد له.

فقد بان ما أردنا بيانه من مرتبة^(٣) العقل، وأنه ملك مطاع بالطبع.

فأما الدليل على أنه متهى لقبول الوحي والإيمان به، فقول النبي ﷺ:

«أول ما خلق الله العقل. فقال له: أقبل.. فأقبل، ثم قال له: أدبر. فأدبر.. ثم قال: وعزني وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك؛ بك أعرف، وبك آخذ، وبك أعطي، وبك أعاقب، وبك أثيب». وفي رواية: «وبك أعبد»^(٤). فصح أنه متهى لقبول الوحي؛ إذ كان هو أول من اختص من الله تعالى بالوحي، والخطاب والمحبة، والمعرفة، والعبادة، والعبودية، والنبوة بأنباء الحق [تعالى]^(٥)؛ إذ أنبأه عن معرفة نفسه، ومعرفة ربه.

وإذا أمعنت^(٦) النظر، وأيدت بنور الله تحقق^(٧) لك أن الذي هو المعبر^(٨) عنه بالعقل، والموصوف باختصاص الوحي، والخطاب، والمحبة، والمعرفة والعبادة، والعبودية، والنبوة، هو روح حبيب الله تعالى، ونبيه محمد ﷺ [عليه أفضل

(١) في (ز): منهم.

(٢) ساقطة من (ز).

(٣) في (ح): رتبة.

(٤) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٥) زيادة في (ز).

(٦) في (ز): أنعمت. وأنعمت بمعنى واحد.

(٧) في (ز) يتحقق.

(٨) في (ز): معبر.

فإنه الذي قال: «أول ما خلق الله عز وجل روعي» وفي رواية «نوري»^(٢).

فروحه [الشريفة]^(٣) جوهر نوراني، ونوره هو العقل، وهو عرض قائم بجوهره.

ومن هنا قال عليه السلام:

«كنت نبياً، وآدم بين الروح والجسد»^(٤)؛ أي، لم يكن بعد روحاً ولا جسداً.

ومن هنا قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(٥)؛ لأنه عرف نفسه بتعريف الله؛ إذ

(١) غير موجودة في (ز. ل).

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) غير موجودة في (ز، ح، ل) والزيادة من (ط).

(٤) أورده الترمذي في سننه كتاب المناقب باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم (٣٦٠٩) عن أبي هريرة قال:

قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد.

(٥) أورد الإمام السيوطي رحمه الله تعالى كلاماً طويلاً في هذا الحديث في كتابه الحاوي تحت عنوان (القول

الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه أراه شافياً مانعاً وأنقله لك هنا باختصار:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد فقد كثر السؤال عن معنى

الحديث الذي اشتهر على الألسنة: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وربما فهم منه معنى لا صحة له، وربما

نسب إلى قوم أكابر، فرقت في هذه الكراسة ما يبين الحال ويزيل الإشكال، وفيه مقالات:

المقال الأول: إن هذا الحديث ليس بصحيح، وقد سئل عنه النووي في فتاويه فقال: إنه ليس بثابت، وقال

ابن تيمية: موضوع، وقال الزركشي في الأحاديث المشتهرة: ذكر ابن السمعاني: إنه من كلام يحيى بن معاذ

الرازي.

المقال الثاني في معناه: قال النووي في فتاويه: معناه من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله والعبودية له

عرف ربه بالقوة والربوبية والكمال المطلق والصفات العلى، وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف

المنن»: سمعت شيخنا أبا العباس المرسى يقول: في هذا الحديث تأويلان:

أحدهما: أي من عرف نفسه بذلها وعجزها وفقرها عرف الله بعزه وقدرته وغناه، فتكون معرفة النفس أولاً ثم

معرفة الله من بعد.

والثاني: أن من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين، والثاني حال

المجذوبين.

وقال أبو طالب المكي في «قوت القلوب»: معناه إذا عرفت صفات نفسك في معاملة الخلق وأنت تكره

الاعتراض عليك في أفعالك وأن يعاب عليك ما تصنعه عرفت منها صفات خالك، وأنه يكره ذلك فارض

=

بقضائه وعامله بما تحب أن تعامل به.

قال له: «ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك». وعُرف الله أيضاً، بتعريف الله نفسه إياه؛ إذ قال: «وعزتي وجلالي، ما خلقت أحب إليّ منك». فعرف أنه الإله، الذي من صفاته العزة والجلال، والخالقية، والمحبة^(١). وهو المعروف^(٢) لكل عارف، وله القدرة والحكم على الأخذ والإعطاء، والثواب والعقاب، وهو المستحق العبادة.

وقد جاء^(٣) عن بعض الكبراء من الأئمة: «إن أول المخلوقات ملك كروبيّ يسمى العقل^(٤)»، وهو صاحب القلم، بدليل توجه الخطاب إليه في قوله: أقبل فأقبل.. ثم قال له: أدبر.. فأدبر.. ولما سماه قلماً قال له: اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وتسميته قلماً، كتسمية صاحب السيف سيفاً. وقد سمي النبي ﷺ «خالد^(٥) بن الوليد» «سيف الله»^(٦) وهذا أول لقب في الإسلام. فلا يبعد أن يسمى روح النبي ﷺ ملكاً لغلبة صفات الملكية عليه، كما يسمى جبريل روحاً لغلبة الروحانية عليه.

= وقال الشيخ عز الدين: قد ظهر لي من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه وهو أن الله سبحانه وتعالى وضع هذه الروح الروحانية في هذه الجنة الجثمانية لطيفة لاهوتية موضوعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته وربانيته.

وتجنباً للإطالة يمكن الرجوع إلى كلام السيوطي في كتابه (الحاوي للفتاوى) ج ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٩ المسألة رقم ٦٩.

(١) في (ط): المحبة.

(٢) في (ط): المعروف.

(٣) في (ط): وقد أخذ.

(٤) في (ز): يشمل عقل.

(٥) في النسخ الثلاث (لخالد) وما أثبتته من (ط).

(٦) روى البخاري في «صحيحه» (٣٧٥٧)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَعَى زَيْدًا، وَجَعْفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّأْيَةَ زَيْدٌ، فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». وكان ذلك في غزوة مؤتة ٨هـ.

وأخرج الترمذي بسند رجاله ثقات كما قال الحافظ ابن حجر: عن أبي هريرة قال: نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً فجعل الناس يمشون فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا؟ فأقول: فلان، حتى مر خالد فقال: من هذا؟ قلت: خالد بن الوليد. فقال: نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله.

كقولهم: (فلان شعلة نار) لحدة ذهنه.

وسُمِّيَ^(١) عقلاً، لوفور عقله وقلمًا لكتابة المكونات به، ونورًا لنورانيته. وقد سماه الله تعالى نوراً في القرآن بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾. [المائدة: ١٥].

فالنور «محمد» ﷺ، وقد يكون العقل في اللغة بمعنى العاقل، كالعدل بمعنى العادل. فعلى هذا التقدير والتأويل، يكون روح النبي ﷺ، هو المخلوق الأول.. ولكنه بهذه الاعتبار، ملك، وعقل، ونور، وقلم.

والقلم قريب المعنى من العقل. قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]. جاء في التفسير عن بعضهم: أي بالعقل؛ لأن الأشياء تعلم بالعقل لطيفة:

وفي قوله للعقل: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، إشارة إلى أن للعقل إقبالا وإدبارا، فورث إقباله المقبلون، وهم صنفان: السابقون المقربون من الأنبياء والأولياء، وأصحاب الميمنة، وهم أهل الجنة.

وورث إدباره المدبرون، وهم أصحاب المشأمة، وهم أهل النار؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] الآية.. والله أعلم.



(١) في (ز): يسمى.

الفصل الخامس

في المنام الصادق

[وأنه جزء من النبوة]^(١). والفرق بين المنام ووقائع القوم

عن «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه، قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن، أو تُرى له»^(٢).

وقال ﷺ: «الرؤيا الحسنة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٣).

قوله: من النبوة. أراد تحقيق أمر الرؤيا، وتأكيده، وإنما كانت جزءاً من النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم. وقيل معناه إنها جزء من أجزاء علم النبوة، وعلم النبوة باق، والنبوة غير باقية.

عن «أبي هريرة» رضي الله عنه، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة

(١) سقط في (ز)

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم ٢٢٦٣.

(٣) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة.

إِلَّا الْمُبَشِّرَات. قالوا: يا رسول الله، وما المَبَشِّرَات؟ قال: الرؤيا الصالحة»^(١).

وقال بعض أهل العلم في قوله: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» إن مدة وحي الرسول ﷺ من حين بُدئ^(٢) إلى أن فارق الدنيا، كان ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت ستة أشهر منها في أول الأمر يوحى إليه في النوم، وهو نصف سنة، فكانت مدة وحيه في النوم جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من جملة أيام الوحي.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا كان آخر الزمان لم تكدرؤيا المؤمن تكذب، فأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً»^(٣).

• والرؤيا ثلاثة:

- رؤيا بشرى^(٤) من الله عز وجل.
 - ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه.
 - ورؤيا من تحذير الشيطان.
- وإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدث به، وليقم وليصل^(٥). والقيد في المنام ثبات في الدين، والغل أكرهه^(٦).
- والمعبرون يقولون: أصدق الرؤيا في وقت الربيع^(٧)، عند اعتدال الليل والنهار.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المَبَشِّرَات برقم (٦٩٩٠).

(٢) في (ز): يُدعى.

(٣) رواه البخاري في التعبير (٢٦) ومسلم في الرؤيا (٦) والترمذي (١، ١٠) وأخرجه البغوي في شرح السنة (٢٠٨/١٢).

(٤) في (ز): الرؤيا لبشرى. وفي (ل): الرؤيا بشرى.

(٥) في (ط): (فليصل) وهذا جزء من حديث للنبي صلى الله عليه وسلم أخرجه أبو داود (٥٠١٩)، والترمذي (٢٢٧٠) ونصه: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن أن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس. قال: وأحب القيد وأكره الغل، والقيد ثبات في الدين».

(٦) في (ز): كراهة. انظر متن الحديث في الهامش السابق.

(٧) في (ط): في الوقت الربيع.

• وأما حقيقة النوم، فنقول: هو تعطيل النفس آلات الحواس إجماعاً لها، وإنما وجب هذا الإجماع فيها لأنها آلات جسمانية، وصور في مواد، فيعرض لها من الكلال والفتور بكثرة الاستعمال ما يعرض لجميع الأجسام، فيضطر [فيها]^(١) إلى الإراحة لتعود إلى حالتها، ولتتلافى الطبيعة في تلك الحال ما عرض لها من نقص وخلل، فتتمه.

ومثال ذلك:

أن العين إذا اشتغلت بالنظر، فإنما يتم فعلها بالروح المتهذب، في الشريانات التي في بطون الدماغ، وهو يأتي إلى العَصَبَة المجوفة المنقسمة إلى ثقتي العين، وهو من اللطف بحيث يتخلل من ذلك الثقب في طبقات العين، ويخرج معه الشعاع بالقوة التي تتبعه^(٢)، ويستكمل بالضوء الذي يصادفه من خارج العين، في الهواء من الشمس، أو من غيرها، فيقبل من صور الأشياء التي حصلت في الجرم الصقيل من ناظر العين ما يسمى رؤية وبصرًا.. فإذا تحلل^(٣) ذلك الروح المتهذب الصافي بأجمعه تبعه الكدر منه، والغليظ، ولذلك يحسّ الإنسان في تلك الحال بألم يعرض في عينيه، وكأنه يجد فيها شبيهًا بالرمد، والخشونة؛ لأن مثل العين في تلك الحال مثل حوض فيه ماء صاف، رائق، فخرج من منفذه أولاً أولاً، ثم تبعه الكدر. فإن سد ذلك المنفذ، ولم يسح^(٤) إليه ماء آخر جرى أمره على الاستقامة، وإلا فسد وفني ماء الحوض.

فكذلك حال العين، إذا فني الروح الصافي منها، وجب أن تسد ثقبها^(٥)، وتطبق جفنها، إلى أن يستجمع فيها من الروح الصافي ما يكون سبب إبصارها. ولا تزال

(١) سقطت من (ل).

(٢) في (ل، ط): الذي يتبعه.

(٣) في (ط): تخلص.

(٤) في (ط): لم يسمح.

(٥) في (ز): بقها. وفي (ح، ل): ثقتها.

هذه متداولة للعين ما دام أمرها جاريًا على المجرى الطبيعي. وإذا كان ذلك كذلك، فالإجمام واجب في العين، وسائر الحواس، وإن كان في العين أوجب.

وهذا الإجمام هو النوم، فأما سببه، فقد ذكرناه، ونعود الآن فنقول:

إن النفس في تلك الحال [التي]^(١) تتعطل فيها الحواس لا تهدأ من الحركة، فإذا لم تجد الجزئيات من خارج، عادت إلى ما حصلته، واستفادته من الحواس، واستحفظته في القوة الحافظة التي سمينها الذاكرة، وهي كالخزانة لها، فأخذت تتصفحه، وأقبلت تستعرضه، فربما ركبت تلك الأشياء بعضها على بعض، وهو شبيه بالبعث^(٢) من فعلها، وهو ما يرى الإنسان في نومه كأنه يطير، وكأن جملاً مركباً على طائر، وثورًا على بدن إنسان، وضروب التركيبات الباطلة، وجميع هذه تُسمى أضغاث أحلام.

فأما إذا تحركت النفس في حال النوم نحو العقل، ولم تشتغل بتصفح ما استفادته من الحواس، رأت حينئذ الأشياء المعزوبة^(٣) عن الكون في الأحوال المستقبلية، فإن كان هناك حظ من هذا المعنى وافر، كان ما يراه صادقاً بغير تأويل؛ لأنها ترى الشيء بعينه. وإن كان الحظ قليلاً، كان ما يراه مرموزاً يحتاج إلى تأويل. وهذه الحال غير أحوال النبوة؛ لأن النبي ﷺ يكون هذه حاله، في يقظته ونومه، ويكون مستمرّاً به. فأما ما غيره من الناس^(٤)، فإنما يعرض لهم ذلك في النوم، وفي بعض الأحيان وليس يتم لهم ذلك بالقصد، ولا عند التعمد له، ولكن على ذلك لو لم [يكن]^(٥) يرى الإنسان في عمره كله إلا مناماً واحداً لوجب أن يتنبه منه على فعل النفس، وأن يشعر به، ولو

(١) سقطت من (ل).

(٢) في (ز): بالغيب.

(٣) في (ل): المعرفة. وفي (ز، ط): المعدومة.

(٤) في (ز، ل): أفناء الناس.

(٥) سقطت من (ل، ز، ط).

أدنى شعور، ويعلم منها ماذا أشير له منها إلى سعادتها، وما هي معرضة له من الخلود والنعيم فهمه وسكن إليه وعمل عليه. فإن النفس إذا تزكّت عن صفاتها الذميمة، وأخلاقها الردية بالتزهد عن الدنيا، والعزلة عن الخلق، ومجانبة الهوى، واستعمال أركان الشريعة، والتربية على قانون الطريقة، وملازمة الذكر تلتطف وتصفو، وتنورت بنور الذكر، واطمأنت إليه، تشعّشت بصيرتها، كشعاع البصر. فلما تعطلت الحواس بالنوم أو بالمراقبة، وعزلت النفس عن الخروج إلى المحسوسات، رجعت إلى عالم الملكوت، ولها عروج في العلويات بحسب صفاتها وقوتها في الترقى، والسير في عالم الملكوت، فيعلو شعاع بصيرتها إلى عوالم الروحانيات، كشعاع البصر إلى السماوات، فيشاهد في كل عالم آية أودعها الله فيه.

كما قال تعالى: ﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾.

[الأنعام: ٧٥].

فتكون للنفس في هذه المقامات معاريج على قدر تبدل صفاتها بالسير عن خصائصها، وبحسب تلتطف ذاتها بالتزكية عن أوصافها، كما سيجيء شرحه، في موضعه إن شاء الله [تعالى] ^(١).

فيرى النائم في منامه، والسالك في واقعه أنه يعرج إلى الهواء، ثم يعرج إلى السماء الأولى، [ثم] ^(٢) إلى الثانية والثالثة والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، ثم إلى العرش [إلى أن] ^(٣) يرى أنه يعرج بأقل من طرفة عين من أسفل السافلين إلى

(١) سقطت من (ز، ل).

(٢) سقطت من (ز). وفي (ل): ثم الثانية ثم الثالثة.

(٣) ساقطة من (ط).

أعلى عليين، ومن أعلى عليين يطير إلى أسفل السافلين^(١) إلى أنه يبلغ مرتبة^(٢) بالطير بعد كمال السير يشاهد فيها، ويكشف بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم اعلم، أن تأويلات وقائع السائرين إلى الله [تعالى]^(٣) لا تناسب تأويلات منامات أهل الدنيا، وأربابها، فإن أكثر مناماتهم يكون متخيلاً من وساوس الشيطان، وهو اجس النفس. فأما وقائع أرباب السلوك، وأصحاب السير فعلى ثلاثة أوجه:

- نفساني.

- وروحاني.

- ورباني.

• فالنفساني، على نوعين:

أحدهما: ظهور صفات النفس في كسوة الخيال بصور الحيوانات المناسبة لتلك الصفات، فإن كان الغالب على النفس صفة الحرص، يريها الخيال في صورة الفأرة، والنملة، وغيرها من الحيوانات الحريصة.

وإن كان الغالب عليها صفة الشره، يريها في صورة الخنزير، والدب.

وإن كان الغالب عليها البخل، يريها في صورة الكلب والقردة.

وإن كان الغالب عليها الحقد والعداوة، يريها في صورة الحية.

وإن كان الغالب عليها الغضب، يريها في صورة الفهد.

وإن كان الغالب عليها الكبر، يريها في صورة النمر.

وإن كان الغالب عليها الشهوة، يريها في صورة الحمار، والديك، والفحول..

(١) في (ح): سافلين.

(٢) في (ح، ل): مرتبته.

(٣) ساقطة من (ل، ز).

وهلم جرًّا من الصفات البهيمية، والسبعية، والشيطانية.

فما كانت الغالبة عليها يريها في صورة حيوان متصف بتلك الصفة الغالبة عليه، ليكون السالك واقفًا على عيوب نفسه، فيعالجها بتبديلها، وإزالة غلبتها، وذلك من نتائج نظر العناية.

كما قال النبي ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه»^(١).

• والنوع الثاني:

الاطلاع على صفات النفس، باستيلاء هذه الحيوانات والسباع عليها، أم بانقيادها له، أم باستيلائه عليها بالقتل، والإهلاك؛ ليستدل بذلك على أحوال النفس في الصلاح والفساد.

• والروحاني على نوعين:

أحدهما: ما يكون للخيال فيه تصرف.

والثاني: ما يتجرد عن وصمة الخيال، فما يكون للخيال فيه تصرف، فهو من الوقائع القلبية، بحسب صفاء القلب، وترقيه، ومرضه، وسلامته من شوائب صفات النفس، وتنوّره بنور الذكر.

فيرى في الابتداء، في صورة المياه منها جارية مثل العيون، والأنهار، والأودية، وهي تدل على السير والترقي على قدر قوة الجريان، وكثرة الماء وصفائه.

ومنها دائمة: كالحياض، والإخاضات^(٢)، وهي تدل على جمعية القلب

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف.

(٢) الإخاضات: جاء في لسان العرب: وأما الإخاضة، بالهاء، فإنها الأرض يأخذها الرجل فيحوزها لنفسه ويتخذها ويحييها، وقيل: الإخاض جمع الإخاضة وهو مصنع للماء يجتمع فيه. وفي الحديث: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قِيلَتِ الْمَاءُ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ فِيهَا إِخْضَاتٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى =

وحضوره^(١).. وأَمَّا البحار، فلها تأويلات مختلفة، بعضها يدل على خويصة^(٢) نفس الرائي، بحسب كل مقام.

ومنها: ما يدل على قوة في الجمعية، وشفاء القلب.

ومنها: ما يدل على وصوله إلى عالم الأرواح، وسيره في الملكوت.

ومنها: ما يدل على عالم رباني، يستفيد منه ويغترف من فوائده، ويستنير من نور ولايته، ويتخلق بأخلاقه؛ وكذلك يرى المزارع، والبساتين، والأشجار المثمرة، والرياحين، والأزهار، فبحسب نشوئها، ونموها، واستواء ثمراتها، ونقصانها، وإصابة آفاتها، تدل على ترقى القلب وثمرات الذكر، والأعمال الصالحة، والرياضات، والمجاهدات. ونقصاناتها يدل على أنواع الفترة، والوقفة، والخلل في المعاملات، وما يرى من أنواع الجواهر، والمعادن، والمواضع المعمورة المزخرفة، وكل شيء له جمال، وبهاء ولطافة، فهو أيضاً على هذا القليل.

وفي الوسط: يرى الطيران والمعاريج^(٣) إلى السماوات، ويشاهد الأنوار، كالسرج والشموع، والمشاعل، والنيران المشتعلة، ثم مثل الأضواء، واللوامع، والبروق، ثم الكواكب، والأقمار، والشموس.

ثم يرى الملائكة في صور مختلفة، ويرى الأنبياء [عليهم الصلاة والسلام]^(٤) والأولياء، والعلماء، والصلحاء، والمشايخ، والخلفاء والسلطين، والملوك.. وهذه

= إنما هي قيعان لا تُمسك ماءً ولا تُنبِت كلاً، وكذلك مَثَلُ من فُقه في دين الله ونَفَعه ما بَعَثني الله به فعلم وعَلِم، ومَثَلُ من لم يَرَفَعْ بذلك رأساً ولم يقَبُلْ هُدى الله الذي أُرْسِلْتُ به» الإِخَاذَاتُ: الغُدرانُ التي تأخذُ ماءَ السماءِ فَتَحْسِبُهُ على الشَّارِبَةِ، الواحدةُ إِخَاذَةٌ.

(١) في (ز): والحضور.

(٢) خويصة نفس الرائي: الشيء البعيد في قاع نفسه. ومنه: خَوِصَتِ البئرُ: بُدِ ماؤها فلا تَرَوِي الحيوانَ.

(٣) في (ز): والمعارج.

(٤) ساقطة من (ز).

كلها بإراءة الروح.

ولكل واحد منها تأويلات بحسب المقامات، وما يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم.

ولو شرعنا في شرحها لطال الكتاب، وخرج من شرطنا.

- وأما الذي يتجرد من وصمة الخيال، فهو المعاني المكشوفة، والحقائق المشهودة، والعلوم الدقيقة.. ثم تكون تجليات الروح وصفاته أنواراً مجردة، عن المواد والصور، ماحيةً ظلمات صفات البشرية الذميمة، مبدلة بصفات الروحانية النورانية الحميدة.

والرباني: على نوعين:

أحدهما: بإراءة آياته في الملك والملكوت [والكشف]^(١)، وشواهد أنوار غيب الغيب، والرموز، والإشارات، والإلهامات، والكشف عن حقائق الأشياء، والعلوم اللدنية^(٢)، وإراءة ماهية الأشياء كما هي.

النوع الثاني:

ما يتعلق بتجلي صفات الجمال^(٣) والجلال الذي مقتضاه فناء أوصاف الوجود، ثم تجلي الذات، الذي من خصوصيته إفناء الوجود، كما سنبين شرحه إن شاء الله [تعالى]^(٤).. فظهر الفرق بين منامات الناس، ووقائع القوم، فلا تطول فيه الكلام.. فمن أراد الوقوف على أنواعها فليطالع «مرصاد العباد»^(٥).

(١) موجودة في (ط) فقط.

(٢) في (ز): العلوم الدينية.

(٣) في (ز): الكمال.

(٤) سقطت من (ز).

(٥) سبقت الإشارة لهذا الكتاب.

الفصل السادس

في دلائل النبوة، والفرق بين الرسول والنبي

قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه [الله]»^(١) إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٢).

ثم^(٣) اعلم أن الله -تعالى- جعل المعجزات، وهي ما تكون خارقة للعادة على يد مدعي النبوة، مقترناً^(٤) بدعواه برهاناً قاطعاً على النبوة؛ وذلك الفعل يقوم مقام قول الله تعالى له: أنت رسولي على رؤوس الأشهاد، تصديقاً لما ادعاه مثاله: أن إنساناً قام في ملأ من الناس، بحضرة ملك مطاع، فقال يا معشر الحاضرين إني رسول هذا الملك، وآية صدقي^(٥) أن الملك يقوم ويرفع التاج من [على]^(٦) رأسه^(٧). فيقوم الملك في الحال ويرفع التاج من [على] رأسه عقيب دعوى هذا المدعي. أليس ذلك

(١) الإضافة من (ط).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيفية نزول الوحي برقم (٤٩٨١) ولفظه: «ما من نبي من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة». ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا، حديث (٢٣٩-١٥٢) وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٩٠).

(٣) ساقطة من (ل).

(٤) في (ط): مقترنة.

(٥) في (ز): صديق.

(٦) إضافة من المحقق.

(٧) في النسخة (ط) عدلها المحقق إلى (رأسي) وهي ثابتة في جميع النسخ (رأسه) وهو الصواب.

الفعل منه ينزل منزلة قوله صدقت أنت رسولي^(١)، وإنما يراعى فيه أمور ثلاثة:

- الفعل الخارق للعادة، واقتترانه بالدعوى، وسلامته^(٢) عن المعارضة؛ إذ لو رفع التاج بقول غيره، أو بعد ذلك بمدة، لا يكون هو حجة لهذا المدعي.

فهذه الثلاثة مجموعها برهان قاطع على صدق المدعي للرسالة^(٣) نازلة منزلة التصديق بالقول، وهو مثل حصول العلم في سائر الأشياء من شواهد المقال، وقرائن الحال.

واعلم أن خرق العادة على انفراده لا يكون معجزة، ما لم تقترب به القرائن من التحدي وغيره، فإن خرق العادة قد يقع بالسحر والشعبذة.. وقد يكون بالكرامة للولي. ومثاله حمرة الوجه، فإنه قد يكون من غلبة الدم، ومن السكر، ومن الخجل. وإنما تتبين بوجود القرائن.. فإن كان معها تغير المزاج، فهي من الدم، وإن كان معها اختلاط عقل، وتمايل، فهي من السكر. وإن كان من حادثة دالة على الخجالة، فهي من الخجل. كذلك الفعل الخارق للعادة.. إن كان من دعوى نبي فهو معجزة، وإن كان من غير ذلك فهو كرامة، وإن كان^(٤) مع حيلة^(٥)، وإعداد آلة فهو سحر. وسيأتي الفرق بين هذه الأشياء، إن شاء الله تعالى.

• فأما الفرق بين النبي المرسل، وغير المرسل: فمن وجهين: [صورة ومعنى]^(٦):

- أمّا الصورة، فبأن يكون مخصوصاً من الله عز وجل بالرسالة إلى قوم معين، كما كان في حق «يونس» عليه السلام ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

(١) في (ز): رسول.

(٢) في (ز): وسلامة.

(٣) في (ل): الرسالة. وفي (ط): بالرسالة.

(٤) في (ز): قال.

(٥) في (ل): وإن قال مع جبلة.

(٦) سقطت من (ط).

وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وينزل عليه جبريل، عليه السلام، بالوحي، ويكون عليه كتاب منزل من الله تعالى أو صحف، ويكون صاحب شريعة بإذن الله تعالى وأمره.

- وأما المعنى: فإنه يتميز من غير المرسل، بأن يسمع بإذنه من الله تعالى كلامه، ويبصر^(١) بعينه في اليقظة شواهد الحق على حسب ما ذكرنا من كيفية ذلك فيما تقدم وإمكانه، وهذا أقوى ما يكون من أحوال الوحي؛ لأن ذلك المعنى الفائض عليه من فوق ابتداء من قوته المميزة، أعني العقل، فأثر فيه، وبلغ من قوة أثره ذلك أن تأدى من قوة إلى قوة، حتى انتهى إلى أقصى قواه من أسفل التي من أفق الحيوان؛ أعني حس البصر، و حس السمع. وإما لجهة أخرى دون ذلك، وهو أن يسمع ولا يبصر فيصير كأنه من وراء حجاب، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]. فإذا

سمع ذلك الوحي، وجد في قلبه له روعة ثم تبعه سكون، يقع منه اليقين، وفي كلتا الحالتين يؤمر بحمل الناس^(٢) الذين هم أبناء جنسه على الطريقة المثلى التي تؤدي بهم إلى الصراط المستقيم، وتأديبهم بالآداب التي تجري من نفوسهم مجرى الطب من الأبدان، لتسلم نفوسهم من الجهل، وعملهم من الخطأ، وسعيهم من الضلال، ويقودهم إلى الشريعة التي شبهت بشريعة الماء؛ أعني الطريق إليه، فإن العرب تسمي الطريق إلى الماء شريعة، فالشريعة أيضًا هي الطريق إلى الله تعالى.

فالنبي ﷺ لهذا الأمر مطيع لله تعالى، يركب فيه كل صعب وذلول، ويستهيئ فيه بالموت وأنواع الشدائد، ويحتمل ضروب الأذى، والمكاره. ومن خاصيته أن يكون له قوة عظيمة في الإقناع بالكلام، وتأيد عظيم في قوة كل إنسان إلى رأيه، وصرف

(١) في (ز، ل): بصر.

(٢) في (ل، ز، ط): يوم لحمل الناس. والتصويب من (ح).

الخواطر إلى ما يورده على الأسماع، بإقناعاته. وله قدرة على ضرب الأمثال، وإبراز تلك الحقائق التي هي مقررة عنده، في معارض مختلفة، وتشبيهات ملائمة. ثم إنه مختص بسير وأخلاق مذكورة في سير الأنبياء وأخلاقهم، ومجتمع فيه خصال كريمة، وفضائل يتميز بها عن غيره، ولا تكون مجتمعة في سواه.

• وأما النبي غير المرسل، فإنما يلوح له ما يلوح من حقائق الأمور، ويتجلى له في الأفق الذي ينتهي إليه ما يكون فيضاً من فوق، ولا يكون مرتقياً إليه من أسفل بالتعليم والتدريج. ولا يكون مأموراً بأمر يتحمله، ولا يبلغ من قوته فيما يلوح له من الأمور أن يتجاوز القوة الفكرية، ويتأدى إلى الخيالية^(١)، وما يليها. إلا أنه ربما خوطب بما يسمعه ويسمى مناجاة، أو يسمع من الهوائف، وهو إنسان شريف جداً بين الناس مخصوص بفيض يأتيه من الحق، وبأن يوحى إليه في المنام، ويكون مقرراً لأديان الرسل، داعياً إلى شرائعهم، ويحكم بين الناس بالكتب المنزلة عليهم كما أمر. والله أعلم.



(١) في (ز): خياله.

الفصل السابع

في الفرق بين النبوة والكهانة

اعلم أن مستند^(١) النبوة، هي الحضرة الربونية. وأن مستند^(١) الكهانة، هي النفس الإنسانية.

بأن للنبوة مقامات ومراتب تستند إلى الحضرة.

وللكهانة مقام ومرتبة واحدة تستند إلى النفس. كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

فأمّا مقامات النبوة، ومراتبها:

- فأحدها: أن لنفس النبي قوة جبليّة مركوزة في أصل فطرتها، قابلة لمشاهدات النقوش الغيبية الروحانية، والأنوار الربانية، كاملة في هذا المعنى، بحيث لا تخطئ له فراسة، ولا رؤية، ولا يقع الكذب والتفاوت فيما يخبر، ويرى^(٢).

- وثانيها: أن نفسه قابلة للفيض الإلهي بواسطة جبريل وغيره من الملائكة - عليهم السلام - وبلا واسطة، بأن يسمع كلام الحق تعالى.

- وثالثها: أن الله تعالى يتجلى لبعضهم ببعض الصفات، كما تجلى لموسى عليه السلام بالصفة السمعية لسمع^(٣) كلامه، وتجلّى لعيسى، عليه السلام، بالصفة المُحيية ليحيي الموتى.

- ورابعها: أن من الأنبياء - عليهم السلام - من يتجلّى له الله تبارك وتعالى بذاته

(١) في (ل): مسند.

(٢) في (ط): ويروي.

(٣) في (ز): يسمع.

وجميع صفاته، وهو نبينا [محمد] ^(١) ﷺ، تجلى له ليلة المعراج، فأخبر عن تلك الحالة بقوله: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» ^(٢).

- وخامسها: أن للنبي معجزة كنفوذ تصرفه في الأعيان، وتقليبها عن طبعها، وصورتها، وإظهار الأشياء المعدومة وإخفاء الموجودة، كأحوال عصا موسى، عليه السلام، وغيرها.

وأخبر الله تعالى عن حالة نبينا ﷺ بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُكَ إِنَّمَا يُبَايِعُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

أخبر عن فئائه في الله بالكلية، وبقائه بالله.

• وأما مرتبة الكهانة:

فلنفس الكاهن قوة غريزية جبلية قابلة لمطالعة نقوش الملكوت الروحاني ^(٣) غير كاملة في هذا المعنى، فإنه يخبر عن الأشياء الغيبية الروحانية [من] ^(٤) غير الربانية، فيكون في بعضها صادقاً، وفي بعضها كاذباً. وليس له مرتبة غير هذا، ولا نفوذ لتصرفه في الأعيان، وإن كان في الأخبار صادقاً. وكان في الزمن الأول يعنون بالكهانة العلم، وكانوا يسمون العالم بالعبرانية كاهناً. وكان في التوراة اسم «هارون» أخي «موسى» عليهما السلام كَهَنَّا رَبًّا ^(٥)، يعني عالماً ربانياً.

فلما جاء الله بالإسلام، ونسخ أمر الكهانة، صار هذا الاسم مذموماً؛ لانقراض تلك الأديان؛ إذ كان في العرب رجال ونساء يتكهنون لهم، وكانوا يختلفون إليهم

(١) سقطت من جميع النسخ ووردت في (ح).

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢١٥٧).

(٣) في (ط): الروحانية.

(٤) سقطت من (ح).

(٥) لفظتان آراميتان تعنيان الكاهن الأكبر. وقد وردت في (ط): كهناديا وهو تحريف واضح.

في استعلام خبر الغائب، وتدبير الأمر المحذور واشتباه النسب، وكان الكاهن يسجع لهم، ويخبرهم به، وكانت سوانح الأسجاع في خواطهم، كسوانح الطير والوحش لأصحاب الطيرة، والواردات للرهابين^(١)، وأصحاب الصوامع. وقد رويت في ذلك قصص، وأخبار كثيرة. وربما تحاكموا إلى الكاهن فيخبئون له خبيثة يمتحنون بها صدقه، فإن استخرج الخبيثة رضوا بحكمه. حتى قيل إن قومًا أخذوا جرادة صفراء، وأدروها في قطعة شَنٍّ، وعلقوها^(٢) في عنق كلب لهم اسمه سَوار، فلما أتوا الكاهن قالوا: قد خبأنا لك خبيثة، فأخبرنا ما هي؟ قال: «خبأتم شيئًا طار شبيه الدينار»، قالوا: نريد أبين من هذا.

قال: خبأتم جرادة في عروة مزادة، في عنق سوار ذي قلادة.

فقالوا: قد أصبت، فاحكم بيننا.

وكانوا يسمون الكاهن: الطاغوت.

قال «أبو عبيد» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، إنما أنشأها لأنه يريد به الكاهنة^(٣).

قال النبي ﷺ: «اجتنبوا النجوم فإنها تدعو إلى الكهانة»^(٤).

واختلفوا فيما يقول الكاهن، من أين علمه.

قال بعضهم: إنما يكون ذلك ممن قوة بعض النفوس الألمعية في أصل الخلقة

(١) يقصد الرهبان.

(٢) في (ل): وعلقوها.

(٣) في (ز): الكاهن. وهو يقصد هنا الكهانة كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٣١) بلفظ: لا تعلم النجوم فإنها تدعو إلى الكهانة. وهو من كلام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وأورده بلفظ: «عن ميمون بن مهران قال: قلت لابن عباس: أوصني. قال: أوصيك بتقوى الله وإياك وعلم النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة».

والجبلَّة، وزعم المنجمون أن ذلك لوقوع سهم الغيب في درجة الطالع^(١)، أو برج التاسع^(٢).

وقال بعضهم: إن الكاهن مخدوم الجن فيأتونه بالأخبار. وهذا أقرب^(٣) إلى الصواب.

وقيل: إنه لم يُر قط كاهن إلا وفيه خبل، ونقص في الخلقة، والصحيح من ذلك أنهم يقولون مما يلقي إليهم الشيطان من استراق السمع حين يُرمى بالشهب، فإن الشياطين إذا استرقوا السمع ربما يحترق بعضهم بها، وربما يتساقط بعضهم إلى نواحي الأرض، وقد بقي معه بعض أخبار الغيب مما استرقه من الملائكة المدبرات أمراً، من السماء الأولى، فيلقي ذلك إلى روع الكهنة، فيخبروا الكهنة بها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وأولياؤهم هم الذين يقارنونهم في مشاكلة خبث النفس وخبل الخلقة، ونقصان العقل، وفساد الدين، وهم هؤلاء الكهنة.

وقال بعض الحكماء الإسلاميين^(٤):

إن الفرق بين النبوة والكهانة، إنما يتبين بعد تبين حقيقة الكهانة.. وذلك أنها قوة من قوى النفس أكثر ما يظهر في أوقات الأنبياء، عليهم السلام، وقبيل ورودهم. وذلك أن الفلك إذا أخذ يتشكل بشكل ما يتم به في العالم حدث عظيم، أو يكمل به أمر كبير^(٥)، عرض بين^(٦) ابتداء ذلك الشكل وآخره الذي هو غايته، وتمامه في

(١) في (ط): المطالع.

(٢) برج التاسع هو برج العذراء.

(٣) في (ز): وهذا الخبر أقرب.

(٤) في (ز): الإسلامية.

(٥) في (ز): كثير.

(٦) في (ز): من.

الأرض أحداث شبيهة بما يريد أن يتم، ولكنها تكون غير تامة؛ لأن شبيهات^(١) وأيضًا غير تامة. فإذا استكمل ذلك الشكل في الفلك، وصار إلى غايته، تم به في العالم ما يقتضيه ذلك الشكل، وإنما يكون ذلك في ساعة قصيرة من الزمان كسرعة تبدل الأشكال في الفلك، وكثرة حركاتها المختلفة، فتصير تلك القوة، التي يوجبها ذلك الشكل في شخص واحد أو في شخصين، أو ثلاثة. ويستوعب ذلك الشخص تلك القوة ويستوفيها على التمام والكمال. أما من قرب من ذلك الشكل، ولم يستوفه لتغيره بالحركة، فإنه يكون ناقص القوة بحسب بعده من الشكل.

ولذلك تكون النبوة أكثر ما تظهر في الزمان الطويل لشخص واحد. وربما [عرض]^(٢) في بعض الأزمنة أن يوحى إلى اثنين أو ثلاثة، وربما اجتمعوا في مدينة، وربما تفرقوا في عدة مدن، بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة، والنظر الإلهي لكافة الناس.

فإذا ظهرت النبوة التي هي ما قصد إليه بذلك الشكل، تبين حينئذ قصور تلك القوى التي تقدمت أو تأخرت عنه وعجزها ونقصانها عن ذلك التمام. ولذلك أيضًا يكون ما يظهر بزمان كل نبي جنس ما يريد أن يتم على يده، ومن نوع ما يتحقق به في ذلك النهج، وعلى تلك الطريقة. وقد تنبه المتكلمون في زماننا هذا على ما ذكرته^(٣)، فقالوا:

إنما يبعث الله - عز وجل - إلى كل قوم نبي يأتيهم من جنس ما يدعون الفضل فيه، والبراعة، والتبريز بالعجز الذي لا يطيقونه ولا في مُنْتَهَم^(٤) مثله؛ ليكون أبهر للحجة،

(١) في (ح): لأن مشبهها. وفي (ل): لأن شبيهها.

(٢) سقطت من (ط).

(٣) في (ط): ذكرنا.

(٤) في (ط): إمكانهم.

وأؤكد للدلالة، وأجدر ألا تقول الناس جئتنا^(١) بما لا نعرف منه شيئاً، ولو عرفنا منه ما تعرفه لأتينا بمثله. يعنى قريب لما ذكرناه.

فهذا المعنى الذي ذهب إليه المتكلمون، وإن كان صحيحاً، فإنه هو الإمام^(٢) بما ذكرناه، وكأنهم حكموا به، ورأوا ظله. ثم نعود إلى صفة الكاهن، فنقول:

إن صاحب هذه القوة إذا أحس بها من نفسه تحرك إليها بالإرادة؛ ليكملها، وهي في نفسها^(٣) ناقصة، فيبرزها في أمور حسية، وينثرها في علامات تجري مجرى الفال، والزجر، وطرق الحصى، وما أشبه ذلك. وربما استعان بالكلام الذي فيه تكلف من سجع وموازنة لتصرف نفسه عن الحواس إليه، فيتداخل نفسه ويقوى فيه ذلك الأثر ويهيج في قلبه عن تلك الحركة في نفسه ما تقذفه على لسانه، وربما صدق ووافق الحق، وربما كذب، وذلك أنه تم نقصه بأمر مباين غير ملائم، فعرض له الصدق والكذب جميعاً، وإذا عرض هذا صار غير موثوق به. وربما يكذب الكاهن من تلقاء نفسه، وبالتعمد، خوفاً من أن يبور سوقه^(٤)، وتكسد^(٥) بضاعته، فيستعجل^(٦) حينئذ الرزق، ويخبر بما لا أثر له في نفسه ولا يجد له حركة ليموه به أمره، فيضطر إلى الظنون، والتخمينات. وينبغي أن يتصور أن الكهانة لها عرض كثير، فإن درجات أصحابها متفاوتة بحسب قربهم من غاية الإنساني وبعدهم عنه. وعلى قدر قبولهم الأثر الأعلى، وعلى كل حال، فإنهم متميزون على الأنبياء عليهم السلام بما ذكرنا من مقامات النبوة، وبالكذب الذي لا بد يعترهم، وبما يدعونه من المحالات المحمولة

(١) في (ز): حيناً.

(٢) في (ز): المنام. وفي (ط): إتمام.

(٣) في (ط): نفسه.

(٤) في (ز): ثوقه.

(٥) في (ز): يكسر.

(٦) في (ز): فيستعمل.

على قدر ما أعطوه، فإن اتفق لواحد منهم [أن يكون صادقاً لا يتجاوز ما يدعيه رتبته ومقامه فأول]^(١) ما يلوح له أمر النبي ﷺ، فإنه يعرض فضله وصدقه، ويكون أول مؤمن به ويتبع أمره، ويشهد له كما روي عن «سواد بن قارب»^(٢) و«طليحة»^(٣)، وغيرهما من الكهنة الذين آمنوا فيما بعد، وحسن إسلامهم، وثبتوا عليه إلى وقت وفاتهم.

والله أعلم.



(١) ساقطة من (ط).

(٢) سواد بن قارب الأزدي الدوسي، وقيل: هو سدوسي من بني سدوس. قال البخاري، وأبو حاتم، والدارقطني: له صحبة، وقال أبو عمر: كان يتكهن في الجاهلية، وكان شاعراً ثم أسلم، ودأبه عمر يوماً فقال: ما فعلت كهانتك يا سواد! فغضب، وقال: ما كنا عليه نحن وأنت يا عمر من جهلنا وكُفِّرنا شر من الكهانة، فمالك تعيرني بشيء ثبت منه، وأرجو من الله العفو عنه.

(٣) طليحة: هو طليحة الأسدي الكاهن المشهور.

الفصل الثامن

في الفرق بين المعجزة، والكرامة، والشعبذة، والسحر

المعجزة^(١):

وقد ذكرنا معنى المعجزة وحقيقتها، وقد صح أن المعجزة محض فضل الله تعالى لا مدخل لقدرة العبد^(٢) فيه. فإن العاقل يستيقن أن عظاماً بالية إذا اجتمعت، وتراكمت^(٣)، وقامت شخصاً يتكلم، لا مدخل لقدرة البشر فيه، وكذلك انشقاق القمر في السماء بإشارة الإصبع، حيث يراه الناس في جميع نواحي الأرض. وبلغنا أنه قيل «لجالينوس»^(٤) عند ظهور المسيح، عليه السلام: إنه يبصر الأعمى، فقال: أنا أبصره.

قيل: إنه يرى الأكمه، والأبرص.

فقال: هذا عجيب.

قيل: وإنه أحيا الميت من^(٥) قبره.

(١) إضافة من المحقق.

(٢) في (ز): عبد.

(٣) في (ط): وتراكبت.

(٤) جالينوس هو طبيب إغريقي ولد في بيرغامون سنة ١٢٩ و توفي سنة ٢١٦. مارس الطب في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وعالج العديد من الأباطرة الرومان. كان أكبر أطباء اليونان وأحد أعظم أطباء العصور القديمة.

(٥) في (ز، ل): عن.

قال: ليس هذا في قوة البشر.. احملوني إليه، فهذا تأييد إلهي^(١).
فحملوه إليه، فمات في طريقه «بجنديسابور»^(٢).

[الكرامة]:

واعلم أن كرامات الأولياء ثابتة، وحق عند أهل الحق من أهل السنة والجماعة.
وهي على نوعين:

- كرامة بين العبد والرب، من المواهب التي لا يسعه فيها ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وهي الكرامة الحقيقية مما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهذه مما لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، والعبد* بين المحبين سر ليس يفشيه*^(٣).. وهذه مما يتعلق بالوصل^(٤) والوصال.
- وكرامة^(٥) يطلع عليها الحق، وهي من جنس خرق العادات المشتبهة بالمعجزة. وقد ذكر الأئمة^(٦) بين المعجزة والكرامة فروقاً كثيرة.

- فمنها، قالوا: إن المعجزة تقع عند قصد النبي وتحديه. والكرامة قد تقع من غير قصد الولي.

(١) في (ط): الحق.

(٢) في (ز): خبر سابور وفي (ل، ح): جندسابور. وصوابها: جنديسابور. وهي مدينة فارسية (إيرانية) قديمة في خوزستان. أسسها سابور الأول ملك فارس من ٢٤١ - ٢٧٢ م وأسكن فيها الشعوب اليونانية التي أسرها عام ٢٦٠ م. فتحها الصحابي القائد أبو موسى الأشعري عام ٦٣٨ م. اشتهرت بمدرستها الطبية ولغتها الآرامية.

(٣) شطر بيت من بيتين جاء في كتاب (شرح العلامة الزرقاني المتوفي سنة ١٢٢٢ هـ على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للعلامة القسطلاني المتوفي سنة ٩٢٣ هـ) ج ٨ ص ٢٢٢، نشر دار الكتب العلمية، ونص البيتين:

بين المحبين سر ليس يفشيه	قول ولا قلم في الكون يحكيه
سر يمازجه أنس يقابله	نور تحير في بحر من التيه

(٤) في (ز، ح): بالوصل.

(٥) في (ز): والكرامة.

(٦) في (ز): أئمة.

وقيل: بل يجوز أن تقع الكرامة أيضاً، بقصد الولي، وإنما الفرق بينهما أن المعجزة تقع مع التحدي، والكرامة لا يتحدى بها الولي.

وقيل: بل يجوز أن تقع الكرامة أيضاً للولي بالتحدي.

قلت^(١): وهذا النوع من الكرامة بالتحدي شاهدت كثيراً من الشهيد صاحب الكرامات، والآيات «علي البوياني»^(٢) «القزويني»، رحمة الله عليه، وهو أحد مشايخي؛ كان كبير الشأن، عديم النظير في عهده. وقد سألته عن هذه الحالة، وقلت له:

- إنا سمعنا أن الولي يجتهد في إخفاء حاله وكرامته. والنبى يجتهد في إنشاء حاله وإظهار^(٣) معجزاته.

فقال:

- إني مأمور بإظهار الكرامة نصيحةً للخلق؛ فإنهم بعدوا عن عهد النبوة، ورؤية الآيات. فأظهر الله تعالى على يدي^(٤) آياته لتكون مؤكدة لمعجزات النبي ﷺ، بل هي أيضاً من جملة معجزاته، أظهرها لتجديد^(٥) إيمان الخلق، وتصديقهم بنبوته^(٦).

وقيل: إنما الفرق بينهما هو أن ما كان معجزة للنبي لا يكون كرامة للولي.

وقيل: بل يجوز أن يكون للولي، أيضاً، من الكرامة ما كان معجزة للنبي.

قلت: وهذا النوع أيضاً، شاهدت من الشيخ «علي» رحمة الله عليه، وذلك أن من معجزات النبي ﷺ أنه وضع يده في ماء قليل، فكان الماء ينبع من بين أصابعه

(١) في (ز): قال شيخنا الإمام الرباني المصنف رضي الله عنه. وفي (ل): قال شيخنا الإمام الرباني المصنف رحمه الله.

(٢) في النسخ الثلاث (البوياني) وقد أثبتها محقق (ط) البوناني.

(٣) في (ح): وإفشاء.

(٤) في (ز): يد.

(٥) في (ز): التجديد.

(٦) في (ط): لنبوته.

حتى شرب^(١) منه خلق كثير. فكَذَلِكَ^(٢) رأيت من الشيخ أكثر من مرة، أنه أخذ قدحًا وجعل فيه قليلًا من الماء فَوَضَعَ بين يدي جماعة، وقال: ارقبوه، فإذا الماء كان ينبع من القدح حتى صار ملآنًا من الماء، وله رائحة أطيب من رائحة «الماء ورد»، وذلك حين التمسوا منه شيئًا لدواء المريض، وشفائه. فكان كل من يشرب من ذلك الماء يشفى بإذن الله تعالى من مرضه، وشربت منه مع جماعة جمة. والحمد لله.

وقيل: إنما الفرق هو أن المعجزة لا تقع إلا بعد دعوى ولا يكون مع سكوته معجزة. والكرامة: يجوز أن تقع مع سكوته ومع نطقه. قلت^(٣): ويجوز أيضًا للنبي أن تقع معجزاته^(٤) مع سكوته ومع نطقه؛ لأن الجدي المسموم المشوي حين تكلم مع النبي ﷺ أن لا تأكل مني، فإني مسموم، كان عند سكوت النبي ﷺ، لا عند دعواه بذلك. وإنما الفرق بينهما أن المعجزة تكون عقيب دعوى النبي ﷺ بالنبوة، ولا تكون الكرامة عقيب دعوة الولي بالنبوة؛ لأنه لو ادعى أنه نبي لكان كاذبًا في دعواه. والكاذب لا يكون وليًا لله، فلا يظهر على يديه ما يظهر على أيدي الأنبياء. وهذا فرق ظاهر. وكذا سمعت من لفظ الشيخ «علي البويني»^(٥) أن المعجزة تكون عقيب دعوى النبوة.

وقال المشايخ: إن المعجزات علامات صدق حيث وجدت، فلا تظهر على أيدي الأولياء عند دعواهم بالنبوة؛ لأن لو وجدت عند ذلك، لانقلب الصدق كذبًا، وهو محال.

وقال بعض المشايخ: زيادة المعجزات تزيد قلوب الأنبياء تثبًا. وزيادة الكرامات

(١) في (ز، ح): شربوا.

(٢) في (ل): فلذلك. وفي (ز): وكذلك.

(٣) في (ز): وقال المصنف رضي الله عنه. وفي (ل): وقال المصنف رحمه الله.

(٤) في (ل، ز): معجزة.

(٥) في (ز): اليوناني. وقد تم تصويب الاسم من قبل.

تزيد قلوب الأولياء وجلًا وخيفة حذرًا من أن يكون استدراجًا.

وقال بعضهم: الأنبياء يحتجون بالمعجزات على المشركين. والأولياء يحتجون بالكرامات على نفوسهم لتصلح، وعلى قلوبهم لتطمئن.

وأكثر المعتزلة أنكروا كرامات^(١) الأولياء لعدمها فيما بينهم، وذلك لأجل بدعهم. وإنما أنكرت المعتزلة الكرامة^(٢) بناء على أن الفعل، إنما يكون معجزة بخرق العادة فحسب، وليس كذلك، بل ينضم إلى خرق العادة التحدي بالنبوة، والاقتران بدعوى النبي. ألا ترى أن آيات الساعة^(٣) خارقة للعادة، وليست معجزات.

وأما الدليل على إثبات الكرامات للأولياء:

فهو أن ذلك أفعال خارقة للعادة مقدورة [من]^(٤) الله تعالى، فإذا لم تؤد إلى سد باب النبوة، وجاز ظهورها على أيدي الأولياء. وسمعت الشيخ «عليًا البوياني» برحبة الشام، وكنت في خدمته لما رجعنا من زيارة شيخ من مشايخهم، وقد كان صاحب كرامات^(٥)، مشهورًا بالولاية.

فقال لي:

- إن هذا الشيخ كان صاحب الكرامة، ولم يكن صاحب الولاية.

ثم قال: لم تسلم الزيارة إلا لمن يرى أحوال المزور في لحده وما هو فيه.

وما قال الشيخ صحيحًا؛ لأننا شاهدنا كثيرًا ممن ظهر على يديه بعض الكرامات في ابتداء أمره، أو وسط حاله، وهو لم يبلغ بعد مقام الولاية.

وقد قيل: إن الكرامات الظاهرة تغذية تربي بها أطفال الطريقة. وأما من حيث

(١) في (ل): كرامة.

(٢) في (ل): الكرامات.

(٣) في (ل): الساعات.

(٤) سقطت من (ز).

(٥) في (ز، ح): الكرامات.

السمع، فقصة «مريم» عليها السلام في قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّحْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾. [آل عمران: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ [النمل: ٤٠].
حكاية عن «آصف بن برخيا»، وقصة أصحاب الكهف، وما جرى عليهم من الحالات.

هؤلاء ليسوا بأنبياء، وقد جرى عليهم أمور خارقة للعادات.

فأما السحر:

فهو في اللغة: إراءة الباطل في صورة الحق، ومنه: وقت السحر للصبح الكاذب. والسحر الرثة؛ لأنها كاللحم وليست بلحم.

والشعبذة^(١):

منسوب إلى رجل اسمه «شعبذة» وهو معرَّب وأصله خفة اليد في تقليب الأشياء. والسحر عندنا حق على معنى أنه ثابت واقع وصح الحديث عن النبي ﷺ: «السحر حق، والعين حق»^(٢).

وكان «لبيد بن أعصم» اليهودي وبناته الملعونات قد سحرُوا رسول الله ﷺ بمشط ومشاطة، وجُف نخل طرحوه في ذاعوقة ذي أروان، وهي معروفة حتى نزلت الملكان وأخبراه، فاستخرجه «علي» رضي الله عنه، وفيه نزلت المعوذتان^(٣).

(١) جاء في المعجم الوسيط: شَعْبَذَ شَعْبَذَةً: مهر في الاحتيال وأرى الشيء على غير حقيقته، معتمداً على خداع الحواس. شَعْبَذَ زَيْنَ الْبَاطِلِ لِإِيْهَام أَنَّهُ حَقٌّ. فهو مُشْعِبِذٌ.

(٢) رواه البخاري في الطب (٣٦) واللباس (٨٩) ومسلم في السلام (٤١، ٤٢) وغيرهما.

(٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِّنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، حَتَّى =

وأنكرت المعتزلة، والدهرية، والروافض، السحر. والدليل على صحته إجماع الأمم سلفاً وخلفاً وإجماع أهل الكتاب كلهم من الهند والروم، والفرس.

وآيات القرآن ناطقة به، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، وهن السحرة، ينفثن عند قراءة الرقى.

وكان رسول الله ﷺ كلما حُلَّت عقدة مما سحروه وَجَدَ في نفسه خفة، فلما استتم قام سالماً، كأنما أنشط من عقال^(١)، وقد قال الله تعالى:

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُزُوتَ وَمُرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم اعلم أن أجناس السحر [مختلفة]^(٢): طلسم، ونيرنج، ورقية، وحلقطيرات، وشعبذة.

• فالطلسم: قيل معناه في مقلوبه وهو المسلط.

قالوا: هو جمع آثار سماوية مع آثار عقاقير الأرض، فيظهر منها أمر عجيب.

• والنيرنج: أصله نيرنك فُعْرَبَ، وهو التمويه والتخييل.

قالوا: إن ذلك تمزيج قوى جواهر الأرض بعضها ببعض ليحدث منها أمر عجيب.

• والرقية: هي الآفسون، ومعناه آب سون فُعْرَبَ، أي رقوا على الماء فيشربه

= كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكَتَهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، أُشْعِرْتُ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؛ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ ابْنِ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفٍّ طَلَعَ نَخْلَةً ذَكَرَ، قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بَثْرِ دُرَّوَانَ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحَنَاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا اسْتَخَرْتُكَ؟ قَالَ: قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُتَوَّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا، فَأَمَرَ بِهَا فُدْفِثَتْ.

(١) في (ز): إقال.

(٢) ساقطة في (ز).

المصاب، أو يُصب عليه، وإنما سميت رقية؛ لأنها كلمات رقية من^(١) صدر الراقي ومنه الترقوة، وتلك الكلمات بعضها فهلوية^(٢)، وبعضها نبطية، وبعضها كالهذيانات. زعموا أنما سُمعت من الجن، أو سُمعت في المنام.

• والحلقطيرات: خطوط عقدت عليها حروف، وأشكال، أي حلق ودائرات.. زعموا أن لها تأثيرات بالخاصية، وبعضها مقروء.

• والشعبذة: قد ذكرنا أنها خفة اليد، وخفة الأعمال؛ كالمشي على الأرسان^(٣)، واللعب بالمهراق^(٤)، والحقاق.

واعلم أن الحاصل عقيب هذه الأشياء كلها فعل الله تعالى على وفق إجراءاته العادة بها. وعلة ذلك، ووجه حكمته فيه لا يعلمه^(٥) أحد إلا الله تعالى وتقدس. وليس بيد العامل^(٦) بها إلا إعداد الآلات، والجمع بينها فحسب.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢] جل جلاله.

جاء رجل إلى الصادق فادعى خلق^(٧) الحيوان، فأخذ قطعة لحم، ودفنه في الزبل فصارت دودًا فأراه إياها.

فقال له الصادق: إن كنت أنت تخلقها، فأخبرني بعددها، وعدد ذكرائها وإنائها، وعدد أرجلها وخواص ظاهرها وباطنها، فعجز الرجل.

(١) في (ح): في.

(٢) في (ز): فهلوية نبطية.

(٣) الأرسان جمع (رسن) وهو الحبل.

(٤) مَهَارِقُ: جمع مُهَرِّق. وهو الصحيفة البيضاء يُكتب فيها.

(٥) في (ل، ز، ط): لا يعلم. والتصويب من (ح).

(٦) في (ح): ليس للعامل.

(٧) في (ح): فادعى أنه يخلق.

وغرضنا في إيراد هذه الأشياء إبانة الفرق بين المعجزات، وبين هذه التمويهات الباطلة، إذا ظهرت على أيدي الكذابين، فقد قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

ثم نقول: إن ما يظهر من هذه الطرق كلها فلا يخلو من حيل كسببية تنضاف إليها من مباشرة فعل، وضم شيء إلى شيء، وعمل صورة وهيئة، واختيار وقت، ورصد كوكب، وقوة وهم، وتدخين بخورات، وتعزيز كلمات، وإعداد آلات. وهذه الجملة كلها من أولها إلى آخرها فعل ذلك المدعي وحيلته، وسعيه. وقد صح أن المعجزة محض فعل الله تعالى لا مدخل لقدرة العبد فيه.

واعلم أن المعجزة تبقى بعد النبي زماناً، والسحر سريع الزوال، وهو أحد الفروق بينهما. وأيضاً المعجزة إنما يظهرها النبي على رؤوس الأشهاد، وعظماء البلاد، وأكياس الناس.

والشعبذة إنما تروج على الصبيان، وضعفاء العقول، وأهل السواد، وجهلة الأكراد.



الفصل التاسع

في إثبات نبوة المصطفى ﷺ

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

اعلم أن نبوته ﷺ ثابتة بشهادة الله تعالى، وشهادة جميع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وبشهادة نفسه ﷺ بقوله: «كنت نبياً وآدم لمنجدر بين الماء والطين»^(١)، وبقوله: «أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً»^(٢).

(١) حديث: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»، قَالَ السَّخَاوِيُّ: لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ بِهَذَا اللَّفْظِ فَضْلاً عَنْ زِيَادَةِ: «وَكُنْتُ نَبِيًّا وَلَا آدَمُ وَلَا مَاءٌ وَلَا طِينٌ»، وَقَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي بَعْضِ أَجَوِبَتِهِ: إِنَّ الزِّيَادَةَ ضَعِيفَةٌ وَمَا قَبْلَهَا قَوِيٌّ، وَقَالَ الرَّزْكَانِيُّ: لَا أَصِلُ لَهُ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَلَكِنْ فِي التِّرْمِذِيِّ: مَتَى كُنْتُ نَبِيًّا؟، قَالَ: «وَأَدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»، وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمِ عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَمَكْتُوبٌ: خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينِهِ»، قَالَ الشُّيُوطِيُّ: وَزَادَ الْعَوَامُ: «وَلَا آدَمُ وَلَا مَاءٌ وَلَا طِينٌ»، وَلَا أَصِلُ لَهُ أَيْضًا، يَعْنِي بِحَسَبِ مَبْنَاهُ، وَإِلَّا فَهُوَ صَحِيحٌ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ لِمَا تَقَدَّمَ وَلِحَدِيثِ: «كُنْتُ أَوَّلُ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ وَآخِرُهُمْ فِي الْبَعْثِ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، أَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا ذَكَرَهُ الشُّيُوطِيُّ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ مَيْسَرَةَ الْفَخْرِ بَلَفَظَ: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

فشهد الله على نبوته، وأشهد الأنبياء عليها. وشهد كل نبي على نبوته، وأشهد أمتة عليها، وأوصى كل نبي أمتة بالإيمان به وبنصرة دينه. وأعلموهم بمجيئه بما بيّن لهم في صحفهم من أسمائه، ونعوته، وسيرته، وصفة أمته.

فكان في التوراة، في الفصل العشرين من السفر الخامس:

«إن الرب جاء من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران^(١)، ومعه عن يمينه ربّوات القاسين بمنعهم العز وجذبهم إلى الشعوب، ودعى لجميع قديسيه بالبركة».

تفسيره:

مجيء الله من الطور: إنزاله التوراة على موسى بالطور، وإشراقه من ساعير: إنزاله الإنجيل على عيسى، وساعير أرض الخليل من قرية يقال لها ناصرة. والنصارى منسوبون إليها.

واستعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وفاران؛ أي أرض مكة. جاء في التواريخ أن إسماعيل عليه السلام كان يتعلم الرمي في بركة فاران. وربّوات هي منارات الرهبان والقاسون: جمع قاس، والقاس والقس، والقسيس، هو الراهب، والقس في اللغة هو عظام الصدر، وسموا بذلك؛ لأنهم كانوا يتكلمون من صدورهم من غير تعلم، والشعوب الطرق في الجبال.

• وفي الإنجيل:

قال المسيح: «إني ذاهب عنكم، وسيأتيكم البارقليط روح الحق؛ لا يتكلم من قبل نفسه، يشهد لي كما شهدت له، يعلمكم كل شيء».

(١) في (ز، ل، ط): قاران. والصواب هو ما جاء في (ح): فاران. جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (٤/٢٢٥): فاران: بعد الألف راء، وآخره نون، كلمة عبرانية معربة: وهي من أسماء مكة، ذكرها في التوراة، قيل: هو اسم لجبال مكة.

تفسيره: البارقليط بلغتهم: المحمد، يعني محمدًا ﷺ.

قال النبي ﷺ: «أنا أحمد، وأنا محمود وأنا محمد»^(١).

والبارقليط (تحت الباء ثلاث نقط)، وفي بعض النسخ الفارقليط - بالفاء.

وقوله: يعلمكم كل شيء، هو صاحب شريعة.

وفي الزبور: في الثالث والخمسين والمائة، من مزامير داود «ليرتاح»^(٢) البوادي وقراها، وليصر أرض قيدار مروجًا ويسبح سكان الكهوف، وليهتفوا من قلل^(٣) الجبال بحمد الرب. فإن الرب يأتي كالجبار المتلطي المتكبر، وهو يزجر ويقتل بعدله». قالوا في تفسير أرض قيدار: هي أرض العرب؛ لأنهم أولاد قيدار والمروج ما حول مكة من الأشجار، والنخيل، والعيون، وإتيان الرب: إنزال وحيه بجبل حراء على «محمد» ﷺ.

• وفي كتاب «أشعيا» عليه السلام:

«قال لي الرب: أقم نظرًا ليخبر»^(٤) ما رأى فكان الذي رأى صاحب المنظرة أن أقبل^(٥) راكبًا؛ أحدهما على حمار، والآخر على جمل، يقول راكب الجمل: هوت بابل وتكسرت^(٦) أصنامها، فهذا الذي سمعت من الرب إله بني إسرائيل قد نبأتكم به».

(١) روى البخاري في صحيحه حديث رقم (٣٣٣٩) عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لي خمسة أسماء، أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب».

(٢) في (ز): يرتاح. وي (ل): ليرتاح. ولم أجد لها معنى. ويرتاح هنا بمعنى يطمئن. جاء في القاموس: ارتاحت النفس ونحوها: اطمأنت وخلت من الهم.

(٣) في (ز): قل.

(٤) في (ز): البحر.

(٥) في (ز): أقتل.

(٦) في (ز): كسرت.

قالوا في تفسيره: يعني براكب الحمار «عيسى عليه السلام»، وبراكب الجمل محمداً ﷺ. وكان على يده فتحت بابل وكسرت أصنامها.

وفي كتاب حبقوق^(١) النبي عليه السلام: لقد انكشفت السماء من بها محمد ﷺ. وامتلات الأرض من جده أي من عظمته^(٢).

وفي كتاب [دانيال] عليه السلام، رأيت على سحب السماء كهية إنسان جاء فانتهى إلى العتيق وقدموه بين يديه فخر له الملك، والسلطان، والكرامة وأن يتعبد له جميع الشعوب والأمم واللغات. سلطانه دائم إلى الأبد، وملكه لا يتغير.

قالوا في تفسيره: هذا الإنسان نبي آخر الزمان، ويعني بالعتيق القديم جل جلاله. وفي كتاب «زكريا بن برخيا» عليه السلام، رجع الملك الذي ينطق على لساني، وأيقظني، وقال لي: ما الذي رأيت؟.

فقلت: رأيت منارة من ذهب، وكفة على رأسها، وعلى الكفة سبعة سرج، لكل سراج سبعة أفواه، وفوق^(٣) الكفة شجرتا زيتون، إحداهما: عن يمينه والأخرى: عن يساره. وهذا قول الرب في «زَرْبَابِلَ»^(٤) وهو يدعو باسمي، وأنا أستجيب له، وأصرف عن الأرض إتيان الزور والأرواح، ولنجيبه^(٥).

ذكر في تفسيره: إن شجرتي الزيتون هما النبوة، والملك. «والزربابل» بلغتهم

(١) حبقوق: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وصاحب سفر حبقوق، أحد أسفار العهد القديم. ظهر حبقوق أثناء السنوات الأخيرة قبل سقوط أورشليم في سنة ٥٨٦ ق.م.

(٢) وردت هذه الفقرة في النسخة (ط) وبها اضطراب شديد: [أن] النبي ﷺ نظر وقد انكشفت السماء [فيذا] من بها محمد ﷺ. وامتلات الأرض من جده أي من عظمته.

(٣) في (ح): وفي الكفة. وفي (ز): وعلى الكفة.

(٤) كان الحاكم الفارسي لإقليم يهوده، وحفيد يهويا كين، ملك يهوذا قبل الأخير. في التقليد اليهودي، قاد زربابل أول مجموعة من اليهود، عائدتين من الأسر البابلي في السنة الأولى لحكم سيروس (قورش) ملك فارس.

(٥) في جميع النسخ: (والأرواح النجيبة).

هو محمد ﷺ^(١) والمنارة من ذهب، هي النبوة المرتفعة، يراه كل أحد من النواحي. والسرّج السبعة قالوا: هي أسباع المصحف، وقوله: لكل سراج سبعة أفواه، وهي آيات العزائم، والقوارع من القرآن.

وعن «عبد الله بن عباس»، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] قال: كان «أرميا بن برخيا» أمر بختنصر أن يغزو العرب، فدخل «بختنصر» بلاد العرب، فقتل وسبى حتى انتهى إلى «تهامة» فأتى إليه «بمعد بن عدنان» فأمر بقتله، فقال له «أرميا»، لا تقتله، فإن في صلب هذا نبي يبعث في آخر الزمان، يختم الله به الأنبياء، فخلّى سبيله وحمله معه.

وحكى «ابن قتيبة»^(٢) أن «أسعد بن كرب الحميري»^(٣) آمن بالنبي ﷺ، قبل مبعثه بسبعمئة سنة؛ لما رأى نعته في كتب الأولين.

وكان يقول في شعره:

(١) وضح الآن خطأ هذا التفسير، ف (زربابل) ملك معروف من ملوك اليهود.

(٢) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الأديب والمؤرخ والفقير اللغوي والنحوي والمتكلم العربي، المولود بالكوفة في عام ٢١٣ هجري، وقد نشأ في بغداد وتعلم علم الحديث على يد الأئمة المشهورين بها. شملت مؤلفاته المتعددة على الكثير من المواضيع الدينية والتاريخية والأدبية واللغوية، ومن أهم مؤلفاته: كتاب المعاني الكبير - كتاب الأنواء - كتاب غريب القرآن - كتاب مشكل القرآن - كتاب تأويل مختلف الحديث - كتاب عيون الأخبار - كتاب المعارف - كتاب الشعر والشعراء أو (طبقات الشعراء) - كتاب المسائل والأجوبة - كتاب الأشربة. وغيرها.

(٣) في جميع النسخ: أبو بكر بن أسعد الحميري والصحيح هو أسعد بن كرب الحميري. جاء في البداية والنهاية لابن كثير (ج ٢): قال السهيلي: وروى معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسى الكعبة».

قال السهيلي: وقد قال تبع حين أخبره الجبران عن رسول الله ﷺ شعراً:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري التسم
فلو مد عمري إلى عمره	لكنّ وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه	وفرجت عن صدره كل هم

قال: ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار، ويحفظونه بينهم، وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه.

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم

فلو مُدَّ عمري إلى عمره^(١) لكنت وزيراً له وابن عم

وقال «سيف بن ذي يزن»^(٢) لعبد المطلب بن هاشم: «إني مُفَضِّإِيك بسر لم أبح به لغيرك، وليكن عندك مطويّاً، إني أجد في كتاب عندنا خبراً عظيماً فيه شرف الحياة، وفضيلة الممات، وهو للناس عامة، ولرهطك خاصة، إذا ولد بتهامة غلام [به علامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة، وقد حان حينه]^(٣)، اسمه «محمد»، وبين كتفيه شامة، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه».

فخر عبد المطلب لوجهه ساجداً، وقال: هذا والله ابن ابني بعينه.

ولما ولد ﷺ كانت تباشير النبوة في جبينه متظاهرة، ولآلئ الحكمة من فيه متناثرة.

كما قال بعضهم:

إن الهلال إذا رأيت نموّه أيقنت أن سيصير^(٤) بدرًا كاملاً

وكان يوماً ﷺ بين الصفا والمروة قائماً، وهو ابن سبع سنين؛ إذ نزل جماعة من تجار الشام كانوا على ملة^(٥) المسيح - عليه السلام - فنظر إليه أحدهم، فعرفه بعلامات وجدها في كتابهم من نعوته وسيره.

فقال له: من أنت؟

(١) في (ط): إلى عصره.

(٢) سيف بن ذي يزن بن عافر بن أسلم بن زيد ولد في يافع، عاش حياته في الفترة التي امتدت ما بين العامين ٥١٦ و ٥٧٤م، وهو يمتني الأصل وبالتحديد في مدينة حمير، وفي فترة من فترات حياته تولّى الحكم في هذه المدينة بعد أن قام بطرد ودحر الأحباش من اليمن، وهو أحد أهم الملوك القدماء الذين تولّوا زمام الأمور في كل من حمير وأذواء وإقبال حمير، ويعتبر من الملوك الذين سكنوا قصر غمدان خلال فترة الحكم، حيث استقبل في هذا القصر الوفد الذي قدم من قريش بقيادة عبد المطلب بن هاشم جد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) ما بين معقوفتين سقط في (ط).

(٤) في (ط): سيكون.

(٥) في (ط): دين.

قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

فقال له: من رب هذه؟ وأشار إلى السماء.

فقال: الله ربها.

[فقال له: ومن رب هذه؟ وأشار إلى الأرض.

فقال: الله ربها] ^(١).

فقال له: ومن رب هذه؟ وأشار إلى الجبال.

فقال ﷺ: الله ربها لا شريك له.

فقال النصراني: فهل لها رب غيره؟

فقال له: لا، جئت ^(٢) لتشككني في الله ما له شريك ولا ضد.

ولما ترعرع، كانت قريش تسميه «محمد الأمين»؛ لما شاهدوا ^(٣) فيه من الأمانة، والصدق.

وكان يقول ﷺ: «أنا دعوة إبراهيم، وكرامة موسى، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة» ^(٤).

وذلك أن أمه رأت في المنام، أن نورًا خرج منها فأضاءت به قصور بصرى. ولما أتاه الوحي، وادعى الرسالة وأقام عليها الدلالة، تظاهرت على الخلق معجزاته الباهرة تظاهر القطر من السماء، خارجة لكثرتها عن الحد والإحصاء. قد صنف فيها الكتب الكبار فلا يسعها هذا المختصر.

كما قيل:

(١) ساقطة من (ط).

(٢) في (ط): حيت.

(٣) في (ح): شهدوا.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٣٧، ١٣٨) و (٥/٣٦٢).

فيا عجباً مني أحاولُ وصفهُ وقد فنيت فيه القراطيسُ والصُّحفُ^(١)
 فالصواب أن تقتصر على القدر الذي ذكرناه من بشارات كتب الأنبياء قبله في
 إتيانه، وإشاراتهم إلى عظم شأنه.

في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل^(٢)

ونذكر من معجزاته ما هو من أعظم آياته، وهو الكتاب الذي جاء من عند الله، فإنه
 البحر المحيط لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي درره وغرائبه.
 فأقول: إن وجوه الإعجاز في القرآن العظيم لكثيرة.
 منها: الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وكان
 كذلك.

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].
 وكقوله: ﴿آلَ ۙ عَلَيْهِمُ الرُّومُ ۚ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
 سَيَكْلَبُونُ﴾ [الروم: ١-٣] [الآية، وكان كذلك].
 وكقوله: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وقد هزموا.
 وكقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].
 وكقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].
 هذه أخبار عن الغيب، فكان كما أخبره كتابه المنزل عليه.

ومنها: اشتماله على غرائب الحكم وبدائع الكلم التي أعجزت الحكماء الأوائل
 عن الإتيان بمثلها، فإن القرآن ينطوي على الحكم كلها، علمها وعملها.

(١) في (ز): القراطيس والكتب. والبيت للمتنبي.

(٢) شطر بيت للمتنبي وتمامه:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ

قال الله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وإنما تقاصرت عن معرفتها أفهام الخلق لشيئين:

أحدهما: راجع إلى اللفظ، من الإيجاز والحذف والمجازات، والاستعارات، والتشبيهات، والإشارات اللطيفة إلى الأسرار والحقائق الشريفة، والأساليب الغامضة البديعة.

والثاني: راجع إلى المعنى؛ وذلك لإتيانه بأصول تنطوي على فروع وشعب. وبعضها بيّنها المصطفى ﷺ، وبعضها مفوض إلى استنباط الراسخين في العلم. فما من برهان ودلالة، وتقسيم وتحديد عن مجملات العقليات، والسمعيات إلا والقرآن قد نطق بها على عادة العرب دون طريق المتكلمين، والحكماء، والمنطقيين.

ولذلك قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال النبي ﷺ: «إن لكل آية ظاهراً وباطناً، ولكل حرف حدّاً ومطلعاً»^(١).

فعلى ذلك: أن كل من كان حظه من العلوم، وصفاء القلب أوفر، كان نصيبه من علم القرآن أكثر.

ومنها: ترك المعارضة له، والعجز عنها، إلى يومنا هذا مع كثرة الخصوم، وكثرة دعاويهم ومساس حاجتهم إليها، وقد سُلت عليهم السيوف، وتغشاهم الحتوف، وسُبيت ذراريهم وانتُهبت^(٢) نفائس أموالهم، إلى أن قال لهم: فليأتوا بمثل هذا

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه وبلفظ: إن للقرآن ظاهراً وباطناً.

(٢) في (ز): وانتُهبت.

القرآن^(١)، ثم لما عجزوا عن الإتيان بمثله قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، ثم لما عجزوا عن ذلك، قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فلما عجزوا عن ذلك قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، فلما اشتهر عجزهم عن الجميع قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وكانوا هم الفصحاء اللد^(٢)، والبلغاء اللسن، أهل الخطبة والنثر والنظم، بها يتحاجون، وعلى العجم بذلك يتباهون. ومع ذلك قد عدلوا عن المعارضة، ورضوا بالذل والصغار، ووطنوا أنفسهم على القتل والقتال، والتعرض للنوائب وقبول الجزية، والذل والاسترقاق.

ولا يخفى أن العاقل إذا خيّر بين أمرين يعدل عن أحدهما إلى الآخر، إنما عدل عن الأشد الأصعب إلى الأهلون الأسهل.

* وكفى^(٣) بك داءً أن ترى الموت شافياً*^(٤)

وسبب عجزهم عن ذلك: هو أن نظم القرآن على غاية البلاغة وكمال الفصاحة، ونهاية الجزالة، وهذه الأشياء الثلاثة إذا استجمعت في نظم كان لا محالة معجزة للخلق، لا سيما [إذا] وجد فيه طلاقة الوحي؛ فالنظم مطلق التركيب، وقد يكون ركيكاً، ويكون رفيعاً، ولهذا يُقال:

* يزين اللآلئ في النظام ازدواجها*^(٥)

(١) في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ آية: ٨٨.

(٢) جاء في لسان العرب: والألدُّ: الخصمُ الجدُّ الشَّحِيحُ الذي لا يَزِغُ إلى الحق، وجمعه لدٌّ ولدادٌ.

(٣) في الديوان: كفى.

(٤) شطر بيت للمتنبي وتماهه:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وَحَسْبُ الْمَنَابَا أَنْ يَكُنْ أَمَانِيَا

(٥) جاء في كتاب (الجماهر في أخبار الجواهر) للبيروني: وقال البحرى:

يدلك عندي قد أبر ضياؤها على الشمس حتى كاد يخبو سراجها =

ثم للنظم درجات:

أولها: كلام^(١) البذلة في المحاورات، وفوقه المكاتبات، والمراسلات. وفوقه الخطب، والمواعظ، والأمثال، والمزدوج. وفوق ذلك نظم الشعر، وليس للعرب فوقها درجة للنظم ألبتة، فإذا اجتمعت الفصاحة والجزالة والنظم أطلق عليها لفظ البلاغة؛ لأن للكلام بها درجة الكمال، وتحقيق هذا الكلام أن تعلم أن الفصاحة دلالة اللفظ على المعنى مع الإفصاح والإيضاح.

والجزالة: دلالة اللفظ على المعنى، مع قلة الحروف والاختصار وتناسب مخارجها. فإذا اجتمع المعنيان، يقال له لفظ فصيح جزل. كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والنظم:

ترتب الأقوال بعضها على بعض، ويكون الحسن فيه على قدر تناسب الكلمات في أوزانها، وأوزان حركاتها، وسكناتها، ودلالاتها على المعنى.

وبلاغة:

عبارة عن اجتماع هذه المعاني الثلاثة: أعني الفصاحة، والجزالة، والنظم. فبذلك^(٢) بلوغ الكمال، وبه فاق القرآن على كلام العرب، كما فاقت العربية^(٣) على سائر اللسان، وعجز العرب عن الإتيان بمثله، كما عجز المفحّم^(٤) عن نظم الشعر. فالقرآن معجز من حيث البلاغة التي هي مجموع هذه المعاني الثلاثة، والعرب قد

= فإن تتبع النعمى بنعمى فإنما يزين اللآلئ في النظام ازدواجها
وقد ورد في (ز): يزيد الآلئ في النظام ازدواجها. وفي (ح): نزيد اللآلئ في النظام ازدواجها. وفي (ل): يزيد.
(١) في (ز): كلامة.
(٢) في (ز، ل، ح): فبذلك في.
(٣) في (ط): العرب.
(٤) هكذا في كل النسخ، وفي (ط): المعجم.

أَحَسَّتْ^(١) من نفسها أن القرآن خارج من حيث البلاغة عن جنس كلامهم جملة. كما أن سحرة فرعون أحسوا من أنفسهم أن [انقلاب العصا ثعباناً ليس من جنس السحر وأحس الأطباء من أنفسهم أن]^(٢) إحياء الموتى ليس من جنس الطب.

وجاء في الأخبار أن «وليد بن المغيرة المخزومي» جاء إلى النبي ﷺ، فسمع منه «حم» السجدة، فرجع إلى قريش، وكان من أفصحهم وأبلغهم.. فقال:

- أيها القوم، إني عارضت كلام «محمد» بالرجز والمديد والسريع، وسائر النظم، فما أراه بشيء منها، وإن في كلامه حلاوة، وعليه طلاوة، وإن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمُعَدَّق، وإنه ليعلو ولا يعلو [عليه]، وما أراه بكلام البشر.

فقال له أبو لهب: لقد صبوت، فأفسدت قريشاً بهذا القول، فارجع عنه.

فقال: إنه سحر يؤثر.

وذكر «علي بن طباطبا العلوي»^(٣) في عروضه، أن تأليفات العرب ثمانية: السجع، والخطب، والرسائل، والمزدوج، والأمثال، والشعر، والمسمط.

فالنثر ما يجري في كلامهم البذلة من المخاطبات، والسجع في الأوصاف والحكايات، وهو نثر مقيد بقوافيه.

والخطب، هو النثر خالط السجع على طول الكلمات، وتباين الأسجاع، والرسائل كالخطب، غير أن أسجاعها مختلفة. والأمثال: قصار الكلمات المودعة حكماً. والمزدوج: هو المثنوي على قوافٍ مختلفة. والشعر: ما ينطوي على العروض.

والمسمط: شعر ألفت خمس مصاريع منه على سجع، والمصراع السادس مقفى

(١) في (ز): أحسنت.

(٢) سقط في (ط).

(٣) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن طباطبا من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولد ابن طباطبا هذا في أصبهان ونشأ فيها ولم يغادرها قط، وأخذ العلم والأدب عن أئمتها. وكانت وفاته في أصبهان سنة ٣٢٢ هـ.

بقافية يدور عليها الشعر.

فجميع تأليفات العرب هذه الثمانية فقط، والقرآن جنس تاسع من التأليفات، خارج عن هذه الثمانية. فهي فيه بنوع من هذه التأليفات [وجدته مخالفاً ولا يُوقف على مخالفته إياها إلا بفهم أجناس هذه التأليفات] ^(١) كلها، وهي ما ذكرته، فمن هذا، تبين أنه مباين لكلام البشر، ومن تكلف من المعارضين له، وأجهد نفسه أن يخترع كلاماً يخالف هذه التأليفات الثمانية أعجزه الله عن تجاوز ذروة هذه الثمانية، علواً وارتفاعاً، فينحط إلى حضيض العي، والركاكة التي هي أخس منازل الكلام، فيأتي بما يضحك عليه العقلاء مثل «مسيلمة الكذاب» ^(٢)، وغيره من المعارضين، فافتضحوا بما تقولوه، وانسلخت عن طباعهم بلاغة كانوا عهدوها قبل تعرضهم للمعارضة، وهو الذي سماه بعضهم الطرفة.

فقال «مسيلمة»:

[يا ضفدع بنت ضفدع، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين ولا تمنعين].

فسمع الصديق، رضي الله عنه، قوله، فقال: هذا كلام لم يخرج من إل؛ أي من ربوبية.

والإل: بالكسر هو الله تعالى ^(٣).

(١) سقطت من (ط).

(٢) اختلفت الروايات باسمه فقليل هو مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب، وقيل هو مسيلمة بن ثمامة بن كثير ابن حبيب الحنفي، وُلِدَ وترى في اليمامة، في قرية معروفة اليوم باسم الجبيلة، وهي قرية من قرى وادي حنيفة، ويكنى أبو ثمامة وقيل: أبو هارون، وتقول الروايات في وصفه: كان قصيراً أخشن الأنف أفتس، شديد الصفرة، وهو أحد الكذابين الذين ادّعوا النبوة بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد قُتِلَ في معركة اليمامة على يد جيش المسلمين الذي بعثه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عام ١٢ للهجرة.

(٣) جاء في لسان العرب لابن منظور: ابن سيده: والإل الله عز وجل، بالكسر.

وفي حديث أبي بكر، رضي الله عنه، لما تلى عليه سَجْعُ مُسَيْلِمَةَ: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا جَاءَ مِنْ إِلٍّ وَلَا بَرٍّ فَأَيْنَ ذُهِبَ بِكُمْ، أي من ربوبية.

وقال «العنسي»^(١):

«ألم تر كيف فعل ربك بالجبل، أخرج من بطنها نسمة تسعى، من بين شراسيف، وحشى».

وقال «نضر بن الحارث»^(٢)، وكان من فصحاءهم:

«والزراعات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، واللاقمات لقمًا».

وقال: «قد أفلح من هينم»^(٣) في صلاته وأطعم المسكين من مخلاته، وأخرج الواجب من زكاته».

وقال آخر: «والنجم إذا سما، والبحر إذا طما، ما زاغ منذركم وما طغى». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فصارت تلك المعارضات فضائح لهم إلى يوم الدين. ومن جملة ذلك «الفصول والغايات»^(٤) لبعض المتأخرين. فأصبحت بعد بلاغة صاحبها في النظم، والنثر ضحكة للعالمين.

هيهات.. هيهات.. ما أبعد الثريا من الثرى! تبصر خليلي بعين البصرة فصاحة

(١) اختلفت النسخ الثلاث في كتابة هذا الاسم ففي (ز): القيني، وفي (ح): العنتبي، وفي (ل): القيني. والعنسي هو عبلة بن كعب بن غوث العنسي المذحجي المعروف باسم "الأسود" و"ذي الخمار. وهو مدح للنبوة، ولقد كان سيداً على مذبح وبعض قبائل اليمن ولذلك سُمي بالأسود.

(٢) هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً وتلا فيه القرآن خلفه في مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم السنديد، واسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين. وفيه نزلت الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَنَادَّ عَلَيْهِ إِتْنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ [القلم: ١٥].

(٣) في (ط): هم. وهينم بمعنى: تكلم وأخفى كلامه.

(٤) كتاب ينسب لأبي العلاء المعري.

القرآن كيف نسخت ديوان الإعجاز أينما توجه من القصص، والأخبار، والحكم، والأمثال، وبيان الحلال والحرام، والأمثال، في بيان الحلال والحرام، وأدلة التوحيد، وترديد الوعد والوعيد، والترهيب، والتهديد والترغيب، وتبيين الفرائض والأحكام في أحسن السياقة والنظام، وانظر كيف يخرج ويتخلص من فن إلى فن، وكيف ينتقل من معنى إلى معنى من غير خلل يقع خلال البلاغة، ولا نقص يأخذ من المعاني، ولا مقطع ينبو الطبع عنه، ولا مطلع يكل^(١) السمع منه، وتأتيك اعتباراً من القصص سورة يوسف بكمالها، وقف بفكرك عند قوله: ﴿ فَلَمَّا أَسْنَيْتُسُوا مِنْهُ خَلَصُوا حَيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]، ترى ماء البلاغة يترقق من تحاسين نظمه، ومن أدلة التوحيد تأمل قوله تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

كيف يلعب بالعقول من وجازة لفظه، ومتانة معناه، ومن باب الوعد والترغيب فتصفح قوله:

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. الآية.

وقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقوله: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ومن باب الوعيد: قوله ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

وأما من قسم الفرائض والأحكام، فتأتي في عشر:

﴿ يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء: ١١].

كيف بين حظوظ الورثة من غير إخلال بالفصاحة؟

(١) في (ز، ل): يكد.

ومن باب الطب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

ومن باب أحكام الحلال والحرام، فتفحص قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

[البقرة: ٢٧٥].

ومن قبيل الحكم والأمثال، فتأمل قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧].

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

﴿ضَعُفَ الظَّلَالُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وامتص بفكرك مصاص البلاغة، وطرأوة الفصاحة من أفانين النظم، قوله تعالى:

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: ٥].

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿وَأَشْتَلَ الرُّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

﴿فَأَصْدَعُ يَمًا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

وقد سمعها أعرابي فسجد لفصاحتها.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥].

﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١].

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠].

هذه وأمثالها إذا طرقت الأسماع تلذذها، وإذا لاقت الطباع تمازجها، وإذا وردت

القلوب تروّحها وتصفّيها، وإذا هبت على الأرواح تصقلها بل تنورها، وتخلّقها بأخلاق مكلمها، ولو عرجت إلى فواصل آياته بالحروف المتقاربة المخارج حتى لا تشبه أسجاع الكهان، ولا توافق قوافي الشعر، قضيت منها العجب، بل لو أطرت فكرك حول الحروف المفصّلة في أوائل السور لرأيتها كيف ترمز بإيجازها، وإعجازها إلى بحار المعاني، والحقائق، وأفنان الحكم والدقائق. فأَيُّ كتاب احتوى على هذه اللطائف، واختص بمجامع هذه المعارف، وانتظم في سلكه الدرر، واليوافيت انتظام العقد المفصل!.

كما قال بعضهم:

من^(١) اللؤلؤ النض المؤلف نظمه فما خانهُ سلك ولا شأنه ثقب
واعلم أن التوراة مقسومة على خمسة أسفار، كل سفر منها مفرد بمعنى.
السفر الأول: لذكر بدء الخلق.

والسفر الثاني: لخروج بني إسرائيل من مصر.

والسفر الثالث: لأمر القرايين.

والسفر الرابع: لإحصاء موسى بني إسرائيل.

والسفر الخامس: لتكرير النواميس، وكان اختلاف معانيها موجّباً لتفاصيلها.

والنواميس عندهم الملائكة، والناموس الأكبر «جبريل» عليه السلام، قد سموا بذلك لخفائهم عن الأبصار.

والنمس: دابة تخفي نفسها عن الرائيين.

وكان أفضل ما في التوراة العشر آيات. وأفضل ما في الإنجيل الصحف الأربعة المنسوبة إلى تلاميذ المسيح وهي المخصوصة بالقراءة في صلواتهم، وأعيادهم.

(١) في (ح): هو.

والزبور: أدعية، وتحاميد، وتساييح. وأفضله ما اتفق أهل الكتابين على اختياره. وهذه الكتب كلها أُوحيَت معانيها إلى أصحابها، فعبر كل نبي عنها بعبارته، فلم تكن أساليب نظمها معجزة لهم بخلاف القرآن، فإن «جبريل» عليه السلام، أنزله على المصطفى ﷺ بلفظه ونظمه، ومعناه معاً، فكان له معجزة من هذه الوجوه، وهي مما يتعلق بظاهر نظم القرآن، وعباراته التي تطلع عليها الفصحاء، والبلغاء، دون ما يتعلق بباطنه من الإشارات واللطائف، والأسرار والحقائق، والأنوار التي لا يطلع عليها إلا القلوب المحررة عن رق الكونين، والأرواح المنورة بنور ربها. فإن للقرآن ظاهراً وباطناً، فهي المعجزة الحقيقية المودعة فيه بالحكمة البالغة الأزلية، ليمسك طلاب الحق بها في الارتقاء من حضيض البشرية إلى ذروة الربوبية ليعتصموا بالله. وقد ضاق نطاق الروحانيين عن إدراكها فضلاً عن إيداعها في كلامهم المحدث، ما أودع الله تعالى في كلامه القديم، وهو كتاب ينابيع الحكم فواره في درجه وشموس الغيوب طالعة من برجه، فمن جملتها قوله:

﴿ قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فكان كما أخبر عن الغيب. والحمد لله حمداً كثيراً.



الفصل العاشر

في فضل نبينا ﷺ على سائر^(١) الأنبياء - عليهم السلام -

وختم النبوة به

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

[النساء: ١١٣].

اعلم أن الله تعالى فضل الأنبياء بعضهم على بعض، بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فأعطى لكل نبي فضلاً، ثم جمع الفضل كله، وزاد عليه حتى صار فضلاً عظيماً، فأعطاه نبينا ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ثم بين النبي ﷺ فضل الله عليه، وما زاد في فضله على الأنبياء بقوله ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ: أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(٢) والحديث صحيح.

(١) - في (ز، ل): جميع.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٣١٣). ورواية البخاري: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ».

وفي رواية أخرى: «وأعطيت الشفاعة».

فأما تحقيق هذه الفضائل الستة فهو قوله: «أوتيت جوامع الكلم» يشير إلى أن الله تعالى لما أراد أن يظهر كنز مخفي ذاته، وصفاته، اتخذ عبده ونبيه المصطفى ﷺ على العالمين حبيباً بمقتضى حكمته البالغة، وإرادته القديمة السابقة وقدر له روحاً نورانياً لطيفاً من عالم الأمر، وهو ما خلق بأمر «كُنْ» من غير مادة مستعداً لقبول فيض^(١) الألوهية بلا واسطة وجسداً جسمانياً ظلمانياً كثيفاً من عالم الخلق، وهو ما خلق من المواد المختلفة مستعداً لقبول فيض الروح المستفيض من الحضرة بالوسائط؛ ليكون جسده مستفيضاً من روحه ومظهرًا لصفاته^(٢).

وإذا تعلق الروح بالجسد تعلقاً تاماً، وعصم الروح من آفات الجسد الظلماني، وخواص صفاته المنتشأة منه، كما سيجيء شرحها إن شاء الله تعالى. لئلا يحتجب عن قبول الفيض من الحضرة بما يكون قابلاً لتجلي ذات الألوهية، وصفاتها مظهرًا للكنز المخفي كالمرآة في إظهار الكنز المخفي من صورة الشخص عن غيره.. على ذلك الغير تفهم إن تشاء الله تعالى.. ولما كان للروح اللطيف حاجة في المرآة بجسد كثيف ليقبل العكس بلطافته الروحانية، ويحفظ بكثافته الجسمانية شرع في تدبيره بتقدير العزيز الحكيم، فكان مثال تدبيره في إنشاء الجسد، مثال تدبير البذر في الثمرة، التي هي جسده، والبذر روح الثمرة، فيحتاج أولاً بتدبير إنشاء الشجرة التي هي منشأ الثمرة، ومكانها، كلب اللوز مثلاً، فإنه لم يكن كاملاً في اللوزية، ولا مكماً لجنسه بلا قشر، فهو يحتاج لتحصيل القشر إلى آلات، وأسباب، وهي الشجرة المودعة في نفس اللب بالقوة، وليس له مرب يستخرجها من القوة إلى الفعل؛ أي من

(١) في (ل): الفيض.

(٢) في (ح، ل): ومظهرًا لصفات وروحه، وروحه مستفيضاً من الحضرة الربوبية ومظهرًا لصفاتها.

الغيب إلى الشهادة، إلا الذي هو واهب وجوده المستعد لقبول^(١) فيضه، فلا سبيل له [إلى كمال اللوزية إلا بطريق الاستفاضة منه وهو]^(٢) النفس النامية، فيستفيض اللب من النفس النامية لاستخراج الشجرة الكاملة المودعة فيه بالقوة إلى الفعل، فيستخرجها منه بالتدرج شيئاً بعد شيء.

فأول ما يستخرج منه أصل الشجرة، ثم جذعها، ثم فروعها وأغصانها، ثم أوراقها، ثم أزهارها، ثم قشر اللوز، ثم اللب، ليتم اللوز الكامل المكمل.

فالروح النبوي المشرف^(٣) بتشريف «أول ما خلق الله روعي» بمثابة لب اللوز الموهوب من واهب وجوده، وهو الله الخالق البارئ المصور، الذي أودع شجرة الموجودات في لب روحه بالقوة، وهو المربي ليستخرج منه إلى الفعل، فأول ما أخرج^(٤) منه أصل الشجرة، وهو عالم الأرواح.

كما قال -عليه السلام-: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»^(٥)، وهو الملكوت العلوي والسفلي، ثم الجذع، وهو عالم الملك من الأجسام الكثيفة واللطيفة من المركبات^(٦) والبسائط، ثم الفروع والأغصان، وهي الأفلاك، والأنجم، ثم الأوراق، وهي الحيوانات المتنوعة، ثم الأزهار، وهي الملائكة المقربون، ثم صورة اللوز، أي قشره، وهو جسد النبي ﷺ، ثم حصول اللب في قشر اللوز، وهو تعلق روحه اللطيف بقلبه وجسده الشريف.

(١) في (ح): الذي هو مستعد لقبول.

(٢) سقطت من (ط).

(٣) في (ز): المشرق.

(٤) في (ز): خرج.

(٥) أخرجه الإمام أبو عبد الله بن منده من حديث عمرو بن عيسى رضي الله عنه مرفوعاً أن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف.

(٦) في (ح): والمركبات.

فتربى بتربية مربيه، وواهب وجوده. كما قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»^(١).
إلى أن بلغ واستوى، بإفاضة فيض الوحي بتوسط «جبريل» (عليه السلام). كما قال
تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

ثم أدبه ربه وعلمه بغير واسطة. كما قال: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾.

[الرحمن: ١-٢].

إلى أن خلصه عن رق وجوده، ووجوده شجرة الموجودات، بجذبة «ادن مني»
فقربه إلى هويته بعد أن أبعدته عن أنانية نفسه، فأجلسه على بساط القرب، ثم بجذبة
﴿ أو أدنى ﴾^(٢) أفناه، ثم حياه «بالسلام عليك» فأحياه^(٣). و«برحمة الله وبركاته»
أبقاه، ثم في إظهار الكنز المخفي تجلّى له بذاته^(٤)، وجميع صفاته، وبـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى
رَبِّكَ ﴾ [الفرقان: ٤٥] ناجاه، ثم في سر ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] جوامع
الكلم أناه. وهو كما أن للنفس النامية في تربية لب اللوز إلى أن يصير شجرة كاملة
ثمرة في كل حال، ومقام كلاماً في تكوينها مثل أن تقول أولاً مع أصلها «كن» أصلاً
على هذه الصورة، والصفة، والطبيعة، والخاصية.

وكذلك مع الجذع، والفروع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، بحسب أحوالها
إلى أوان تكوين اللوز الكامل في ذاته المكمل لغيره، فيكون له معه جوامع الكلم
التي كانت مع جميع أجزاء الشجرة، بل على الحقيقة كانت جوامع الكلم التي قالها

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: المعنى صحيح، لكن لا يعرف له إسناد ثابت. وقال الزركشي في اللآلئ
المنشورة: لم يأت من طريق يصح. وقال ابن حجر العسقلاني في أسئلة وأجوبة: إسناده غريب. وقال السخاوي
في الأجوبة المرضية: لا يعرف له إسناد ثابت. وروي عن علي وابن مسعود بسند لا يصح. وضعفه الألباني
في ضعيف الجامع... فعلى هذا لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز نسبه للرسول صلى
الله عليه وسلم.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٩].

(٣) في (ز): ثم بالسلام عليك أحياه.

(٤) في (ز): ذاته.

للشجرة من أولها إلى آخرها معه؛ لأن المقصود من الشجرة ثمرتها.. كما قال «لولاك لما خلقت الكون»^(١). والله أعلم.

- وأما تحقيق قوله: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»:

فهو إشارة إلى أن جوهره تخلص عن وصمة تصرفات الكونين لما عبر بالسير عن الخافقين، وجاوز بالطير عن قرب قاب قوسين، فما عوقه الزمان، ولا المكان، حتى سار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن ثمة إلى «قاب قوسين» أو طار منه إلى قرب «أو أدنى»، بل أُسْرِيَ به، وأُطِير، فإنه أخذ منه، وكان هو بلا هو. فكان سيره ورجوعه بأقل من ساعة، ولما كان غيره متعلقًا بالزمان والمكان كان رعبهم ونصرتهم متعلقًا بمواجهة العدو، ومباشرة الأسباب الظاهرة، وهو ﷺ، كان بقوة الولاية يقذف الرعب في قلوب الأعداء^(٢)، ويهزمهم بقوة الهمّة بلا مباشرة الأسباب الظاهرة، كما قذف الله في قلوبهم الرعب بلا أسباب ظاهرة، بل هو بقدرة قاهرة؛ إذ هو ﷺ كان متخلقًا بأخلاق الله تعالى، كما أشار بأصبعه إلى القمر في السماء فانشق فلقطين، والمسافة إلى السماء مسيرة خمسمائة عام لم يحجبه الزمان^(٣)، ولا المكان. والله أعلم.

- وأما قوله: «وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي»:

فهو أن الأمم المتقدمة منهم من لم يكن أبيح لهم جهاد الكفار، فلم يكن لهم الغنائم^(٤)، ومنهم من أبيح لهم الجهاد، ولكن لم يبيح لهم الغنائم، فكانت غنائمهم توضع فتأتي نار فتحرقها، فأباحها الله تعالى لهذه الأمة؛ وذلك لأن قوة ولاية نبوة

(١) ذكره الشوكاني في "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" (ص ٣٢٦) بلفظ (لولاك ما خلقت الأفلاك) وقال: قال الصاغاني: موضوع. قال الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٢٨٢): موضوع.

(٢) في (ط): الكفار.

(٣) في (ط): لا لحجبه الزمان.

(٤) في (ز، ل): المغانم.

النبي ﷺ قد بلغت نهاية كمالها^(١)، فكان تطهر ما لم تطهره قوة ولاية نبوة نبي آخر، وتحل ما لم تحل، كالماء إذا بلغ حد كماله، وهو قلتان تطهر ما لم يطهر ماء دونه.

ولهذا المعنى قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً».

وذلك أن أهل الكتاب ما أبيحت لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا. ولم يكن أبيع لأمة التيمم بالتراب بدلاً من الوضوء بالماء، والغسل، فأبيع لهذه الأمة التيمم عند إعواز الماء، فبقوة نور ولاية نبوته ﷺ، تقدست الأرض، فصارت مسجداً، وانقلب التراب في الحكم ماء.

- وقوله: «وأرسلت إلى الخلق كافة» هذا أيضاً مما يتعلق بقوة ولاية النبوة، [وذلك أن كل نبي أرسل إلى قوم بحسب قوة ولايتهم في النبوة]^(٢) والرسالة. وإن مثلهم كمثّل الدجاجة توضع تحتها البيضة بقدر قوتها في التصرف فيها، وعلى حسب اشتمال جناحيها عليها، وألاً تفسد البيضة إذا كانت خارجة من تحت جناحيها. فأرسل كل نبي إلى قوم خاص، وبعث النبي ﷺ إلى الأحمر والأسود من أهل الشرق والغرب؛ لأن لجناحيه طولاً وعرضاً يبلغ المشرق والمغرب، فبعث إلى أهل المشرق والمغرب، والذي يدل على هذا قوله ﷺ:

«زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها»^(٣).

ولولا أنه ﷺ خوطب وأمر بقوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وإلاً أي مؤمن كان قادراً على أن يطير إلى تحت جناحيه، وهما محيطان بالدنيا والآخرة، وهو يطير بهما إلى الرفيق الأعلى.. ولما كان ﷺ ثمرة شجرة المكونات، وأرسله الله بالهدى ودين الحق، وهي خروجه عن أغصان قاب قوسين بالثمرة ليظهره على الدين كله؛ أي على أديان الأنبياء ظهور غلبة واستيلاء، ونسخ، ختم به النبيون

(١) في (ز): ولايتها.

(٢) سقطت من (ط).

(٣) رواه مسلم في الفتن (١٩) وأحمد بن حنبل في مسنده (٤/١٢٣، ٥/٢٧٨، ٢٨٤).

لأنهم بمثابة الأزهار والأنوار على شجرة المكونات وهو الثمرة، فبعد خروج الثمرة عن الشجرة لا يخرج شيء آخر منها، فيكون خروج الثمرة ختمًا على الشجرة.

فلهذا قال ﷺ: «وختم بي النبيون»، وقوله: «أعطيت الشفاعة» إشارة إلى أنه كان بذر شجرة الموجودات، والبذر هو المستفيض من فيض النفس النامية، لاستخراج أركان الشجرة من بذرية نفسه، فإذا أنعمت النظر وجدت البذر شافعًا مشفعًا عند النفس النامية بطريق الاستفاضة منها لاستخراج أركان الشجرة، شريفها وخسيسها، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»^(١).

ولهذا قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢).

وقال: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر»^(٣).

لأن لواءه خصوصية ثمريته، ولا ريب أن الشجرة بما فيها تحت لواء الثمرة، وليس للثمره بهذا فخر، ولكن للشجرة فخرًا وافتخارًا بأن تكون تحت لواء الثمرة؛ لأنها مفتقرة إليها، وكل مفتقر إلى شيء فمفتخر به، فلما لم يكن النبي ﷺ مفتقرًا إلا إلى الله تعالى وشجرة الموجودات كانت مفتقرة إليه؛ لأنه كان بذرها في البداية وثمرتها في النهاية، فكان لكل نبي بقدر افتقاره إليه، افتخار به، وهو مفتقر إلى الله تعالى بكليته ومفتخر به، وكان يقول: «الفقر فخري»^(٤).

لأنه بالفقر عن وجوده توسل إلى الغنى به، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾

[الضحى: ٨].

أي وجدك عائلًا عن الوجود فأغناك بالوجود.

والله أعلم.

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده (٣/ ١١، ٢٥) والدارمي في الرقاق (٩٦).

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٣٧) وأبو داود في السنة (١٣) وأحمد بن حنبل (١/ ٥).

(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده (١/ ٢٨١، ٢٩٥).

(٤) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ١١٧): كذب موضوع.

الباب الرابع في مقام الولاية

وهو يشتمل على ستة فصول :

الفصل الأول : في مراتب مقامات الولي .

والفصول الخمسة : في مقامات هي دعائم مقامات الولاية وهي :

التقوى ، والزهد في الدنيا ، والصبر على البلوى ، والرضى بالقضاء ، ومحبة المولى .

وسنذكر شرح كل مقام من هذه المقامات في فصله إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول

في مراتب مقامات الولي

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وقال رسول الله ﷺ حكاية عن جبريل، قال:

«يقول الله، عز وجل، من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإنني لأغضب لأوليائي، كما يغضب الليث الحرد^(١)، وما تقرب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما زال عبدي المؤمن يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت له [سمعاً، وبصراً، ولساناً، ويداً، ومؤيداً]^(٢)؛ إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته^(٣)، ولا بد له منه^(٤)» الحديث بتمامه.

(١) في (ح، ل، ط): لجروه وفي (ز): الحرد. معنى حَرَدَ عَلَيْهِ: غَضِبَ عَلَيْهِ، وَوَجَدْتُهُ حَرْدًا: غَضِبًا.

(٢) ما بين قوسين مكرر في (ز).

(٣) في (ز): ما به.

(٤) أخرجه البغوي في تفسير سورة الشورى عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله يقول عز وجل: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإنني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد، وما تقرب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وما ترددت في شيء أنا =

اعلم أن مراتب مقامات الولي ثلاثة: بداية، ووسط، ونهاية.

فأهل البداية: هم المؤمنون الصالحون، وهم ضد الكفار الفجار، فلما سُمي أهل الكفر بالعدو، سُمي أهل الإيمان والصلاح بالولي.

كما قال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

لأن المؤمن يتولى الله بالعبادة، والطاعة، فيتولاه الله بالهداية، وتوفيق الطاعة، وهم الذين يتقربون إلى الله تعالى تارة بأداء ما افترض الله عليهم، وأخرى لا يزالون يتقربون إليه بالنافل حتى يحبهم. فإذا أحبهم الله، وبلغوا مقام المحبة، فهل أهل الوسط في الولاية، ولكنهم غير واقفين على ولايتهم، ولهذا اختلفوا في أن الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا؟

فكثير من المشايخ لا يجوزون^(١) ذلك. وقالوا: إن الولي يلاحظ نفسه بعين الصغار^(٢)، وإن ظهر عليه شيء من الكرامات، خاف أن يكون مكرراً، وهو مستشعر الخوف دائماً، يخاف سقوطه عما هو فيه، وأن تكون عاقبته بخلاف حالته. وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل.

وقد جوز جماعة منهم أن يعلم الولي أنه ولي، وليس من شرط تحقيق الولاية في الحال الوفاء في المآل، ثم إن كان ذلك من شرطه أيضاً، فيجوز أن يكون هذا الولي مخصوصاً بكرامة هي تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة.

= فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم؛ إني أعلم خبيراً.

(١) في (ح): يجوز.

(٢) في (ز، ح): الصغارة.

إذ القول [بجواز]^(١) كرامة الأولياء واجب، وهو وإن فارقه خوف العاقبة، فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال في الحال، أتم وأشد. فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدي للقلوب من كثير من الخوف. على أنه لا يأمن مكر الله تعالى بحال من الأحوال.

ولما قال النبي ﷺ: «عشرة في الجنة من أصحابي»^(٢).

فالعشرة لا محالة صدقوا الرسول ﷺ، وعرفوا سلامة عاقبتهم، ثم لم يقدح ذلك في حالهم، ولأن شرط صحة المعرفة بالنبوة، الوقوف على حد المعجزة، ويدخل في جملته العلم بحقيقة الكرامات، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه لا يمكنه ألا يميز بينها وبين غيرها. فإذا رأى شيئاً من ذلك علم أنه [في الحال]^(٣) على الحق، ثم يجوز أن يعلم أنه في المآل يبقى على هذه الحالة فيكون هذا التعريف إياه كرامة له، ثم اعلم أنه ليس من شرط الولاية الكرامات^(٤) الظاهرة، فقد يمكن أن يكون للمؤمن الصادق كرامة ظاهرة؛ وأنه لم يبلغ حد الولاية بعد، فإن ظهور الكرامات أكثرها في مقام الروحانية عند غلبات صفات الروح، وصفاء القلب، وتزكية النفس، ورياضة البدن بقلّة الطعام، وقلة النوم، وكثرة الذكر، والمراقبة، والعزلة؛ إذا لم تفتح عليه أبواب شواهد الحق ليخرجه من ظلمات الخلقة الروحانية، إلى نور القدم الربانية، بترشح

(١) سقطت من (ط).

(٢) في (ز): عشرة في الجنة من أصحابه. وقد نص الرسول - صلى الله عليه وسلم - نصّاً صريحاً على أن عشرة من أصحابه من أهل الجنة، ففي (مسند أحمد)، و(سنن الترمذي) عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». وإسناده صحيح. رواه الترمذي (٣٧٤٧) وأحمد ١/ ١٩٣، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي: صحيح.

(٣) زيادة في (ح).

(٤) في (ز): الكرامة.

آثار صدق معاملاته من باطنه إلى ظاهره كمابع^(١) في آنية لم يجد منفذاً يخرج منه فيترشح منها، فهذا النوع من الكرامة مما يظهر على غير الولي. لأن من شرط الولي أن يخرج الله من ظلمات الخلقة إلى نور القدم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذه هي الكرامة الحقيقية التي لا يشاركه فيها أحد من المخلوقات سوى الأنبياء. فإن نهاية مقام الأولياء بداية مقام الأنبياء. والكرامة التي هي مشتركة بينه وبين المخلوقات هي الكرامة الظاهرة، مثل المشي على الماء، فإنه مشترك بين الحيتان والضفادع، والمشي على الهواء مشترك بين الطيور، والمشي في النار مشترك بين السمندر^(٢)، والمشي من المشرق إلى المغرب مشترك بين إبليس، والعروج إلى السماء مشترك بين الملائكة، والتكلم على الخواطر مشترك بين الرهبان والكهنة، فاعتبر الفرق بين هذه الكرامات، وكرامات لم يشترك فيها ملك مقرب. فبداية هذا المقام أعني الخروج من ظلمات الخلقة إلى نور القدم مقام أهل الوسط من الولاية، وهو بين تلوين الستر والتجلي^(٣) متردد بين القبض والبسط إلى أن يستولي سلطان الذكر على ولاية الوجود، ويتعزى عن كسوة الحرف والصوت، فيتجوهر القلب بنور الذكر، ويصير قابلاً لتجلي صفات الجمال والجلال، فيتجلى الرب له بجميع صفات الكمال، وأشرقت أرض الوجود بنور ربها فانسلخت عن جلد الأنانية بسطوة الأنوار الربانية، وانتزعت مادة الخوف والرجاء، وانقطع عنه القبض والبسط تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. فهذا مقام الولي من أهل النهاية في الولاية؛ الذين أخرجهم الله من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بإفنائهم عن وجودهم إلى نور تجلي صفات القدم لهم؛ ليبقيهم به، وهذه

(١) في (ط): كماء.

(٢) في جميع النسخ (السمندر) والصواب ما أثبتنا، و السَّمْنَدَلُ: طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا.

(٣) في (ح): وهو بعد في الستر والتجلي. وفي (ز): وهو بعد في تلون الستر والتجلي.

كرامة حقيقية قد كرم الله بها بني آدم وخصهم بها في تحقيق قوله:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فمن كان مكرماً بأدنى شيء من هذه الكرامة خير له من جميع كرامات ظاهرة، أظهرها الله تعالى على [جميع]^(١) أهل الكرامات وأصحابها، فإنه ممن آمن بالله إيماناً عيانياً، لا بيانياً وكفر بالطاغوت الخلقية، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. وهذا المقام يتلو النبوة، وهذا الولي [الذي]^(٢) قد تولى الله أمره، وهو الذي يصلح أن يتولى أمر عباد، ويدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

كما قال ﷺ: «علماء أمتي كأنباء بني إسرائيل»^(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤].

فإن من أهل الولاية من يصلح لتولية أمر العباد، ومنهم من يتولى أمر نفسه فحسب. كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وحكم الولاية كحكم السباحة، فمن أهل السباحة من ينجي نفسه من البحر وغيره بقوة السباحة، ومنهم من ينجي نفسه ولا يقدر على إنجاء غيره بالسباحة، ومن لا يقدر على إنجاء نفسه لجهله بعلم السباحة، فليأخذ بيد غيره لينجيه بالجهل، فجهله مركب، يهلك نفسه ونفس غيره، كأكثر مدعي أهل زماننا هذا، فضلوا وأضلوا كثيراً.

(١) سقطت من (ط).

(٢) سقطت من (ح).

(٣) لا أصل له. قال الطرابلسي في اللؤلؤ المرصوع: «قال الترمذي، والدميري، وابن حجر: لا أصل له، وكذا قال الزركشي»^١ هـ. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: «قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي إنه لا أصل له، زاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر»^١ هـ.

وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٤٦٦: «لا أصل له باتفاق العلماء، وهو مما يستدل به القاديانية الضالة على بقاء النبوة بعده صلى الله عليه وسلم، ولو صح لكان حجة عليهم كما يظهر بقليل من التأمل»^١ هـ.

عصمنا الله من غرور أنفسنا وشرورها برحمته، وهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

ورزقنا كمال التقوى الذي نال به الكرامة من كان من أهل الكرامة، بقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فإنه ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

وسنذكر بعد هذا فصلاً في شرح التقوى [إن شاء الله تعالى]^(١).



(١) سقطت هذه العبارة من (ز، ل).

الفصل الثاني

في مقام التقوى

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله أوصني.

قَالَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا^(١) جَمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْمُسْلِمِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ...»^(٢).

اعلم أن لمقام^(٣) التقوى ثلاث مراتب:

- مرتبة العوام في التقوى: وهي التحرز عن المخالفات بتعرض الموافقات، والتجنب عن الشبهات بتوقي المتورعات، والتطهر عن السيئات بماء الحسنات.

(١) في سائر النسخ: فإنه.

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط) برقم ٩٤٧ وتاممه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا جَمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهَا رَهْبَانِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ، وَآخِرُ لِسَانِكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ»، لَا يُرَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ يَعْقُوبُ الْقُمِّيُّ.

(٣) في (ز): مقام.

• ومرتبة الخواص في التقوى: المجانبة عن الشهوات بملازمة الرياضات، والتحفظ عن الفترات بمراقبة الخطرات، والاحتراز عن الوقفات بترقب المشاهدات.

• ومرتبة أخص الخواص في التقوى: الإعراض عن وفق هواه ببذل الروح لمن^(١) يهواه، والخروج عن حظوظ دنياه وعقباه برعاية حقوق مولاه، والاتقاء بالله عما سواه، فحينئذ يكون هو الذي اتقى الله حق تقواه.

فمن شرط الولي أن تكون التقوى شعاره، والتفويض دثاره، والإخلاص عياره^(٢).
فإن قال قائل: إن من شرط الولي أن يكون متقيًا محفوظًا عن الذنوب، فإن جرى عليه شيء من المخالفات. هل يقدح في تقواه، أو يخل بالولاية؟

قلنا: إن كان الولي في مقام التلوين، فتارة يترضع من ثدي المواهب، وتارة من ثدي المكاسب، فلا شك أن الرضاع يغير الطباع، فإن لم يكن محفوظًا عن الإصرار ومتدركًا^(٣) بالاعتذار، والاستغفار، يكون على خطر الإضرار، بل يكون بصدد أن يكور ليله على النهار، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور. وإن كان في مقام التمكين، وقد يتولى^(٤) الله أمره، فله الحكمة^(٥) البالغة، فيما يجري على أوليائه وأحبائه من الزلات وبعض الآفات، ابتلاء واختبارًا، فالمعتقد من كمال رأفته أن يكون من قبيل البلاء الحسن.

كما قال: ﴿وَلِيَسْبِلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

كما كان في حق آدم عليه السلام، كانت زلته موجبة للاجتماع والاهتداء.

(١) في (ط): لما.

(٢) في (ز): عبارة.

(٣) في (ل، ز): متدركًا. والنصيب من (ح).

(٤) في (ح): تولى.

(٥) في (ز): الحجة.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»^(١).

يشير به إلى أن المحب لا يحب [إلا ما يحب]^(٢) محبوبه، فالذنب إذا لم يكن محبوباً محبوبه، فيكون المحب نادماً على صدور شيء منه غير محبوب محبوبه. والندم توبة «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(*) فإذاً لا يضره ذنب.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٨].

يشير إلى أن الله لا يعذب أحباءه بذنوبهم، فإنه يوفقهم للتوبة، أو لما يكفرها من الطاعات والحسنات.

وفيه إشارة أخرى، وهي: أن الذنوب لا تسقطهم عن مقام المحبة، وقد قيل «للجنيد»: «العارف يزني يا أبا القاسم؟».

فأطرق ثلاثاً، ثم رفع رأسه، وقال:

- «وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وإن الماء مهما كان عيناً أو نهراً يمكن تغييره، فإذا كان بحرًا والبحر طهور ماؤه وحل ميتته».

ثم اعلم أن من أوصاف الولي: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله في جميع أحواله. والزهد أحد دعائم ولايته كالتقوى، وسنذكر فصلاً في شرح مقام الزهد. إن شاء الله تعالى.

(١) رواه السيكي (الابن) في طبقات الشافعية الكبرى (٣٧٥ / ٦) وقال: لم أجده له إسناداً. وأخرجه الديلمي في (الفردوس) (٢٤٣٢). وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ٦١٥ بلفظ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب».

(٢) سقطت من (ط).

(*) أخرجه الحكيم الترمذي في (نواذر الأصول) (٣٤٩ / ٢) باختلاف يسير، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) للهيتمي (٢٠٢ / ١٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٣٩٨ / ١٠) واللفظ لهما.

الفصل الثالث

في مقام الزهد

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١).

اعلم أن الزهد في الدنيا رأس كل طاعة كما أن حبها رأس كل خطيئة.

قال ﷺ: «يا طالب الدنيا لتبر فتركها أبر، وأبر»^(٢).

وقال سهل^(٣): «أعمال البر كلها في موازين الزهاد، وثواب زهدهم زيادة لهم».

(١) رواه الشوكاني في الفتح الرباني (١٧٩٢/٤) وقال: مرسل قوي، ومعناه صحيح وقد ورد ما يشهد له ويقويه.

(٢) ذكره صاحب إحياء علوم الدنيا في كتاب ذم الدنيا ونسبه إلى عيسى عليه السلام.

(٣) سهل بن عبد الله التستري واحد من أعلام العلماء، وأئمة التصوف، الزاهد الورع، والعابد المتقشف، من مصابيح الأمة في القرن الثالث الهجري، ذلك القرن الذي حفل بالأئمة الكبار في كل فن من الفنون. نسبه: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رافع التستري. ولد بمدينة تستر في سنة ٢٠٠هـ، وقيل: ٢٠١هـ. وإلى هذه المدينة ترجع نسبه (التستري).

من أقواله: «اعلموا إخواني أن العباد عبدوا الله على ثلاثة أوجه: على الخوف، والرجاء، والقرب».

وقال: «لا يصح الإخلاص إلا بترك سبعة: الرندقة، والشرك، والكفر، والنفاق، والرياء، والوعيد».

وقال: «الدنيا كلها جهل إلا ما كان منه العلم، والعلم كله حجة إلا ما كان العمل به، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص فيه، وأهل الإخلاص على خطر عظيم».

وقال سهل: «لا يصح التوكل إلا لمتني، ولا تتم التقوى إلا لمتوكل، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]».

جاء في سير أعلام النبلاء للذهبي: قيل: توفي سهل بن عبد الله في سنة ثلاث وسبعين وليس بشيء، بل الصواب: موته في المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين ويقال: عاش ثمانين سنة أو أكثر.

وقيل: «من سُمى باسم الزهد^(١) في الدنيا، فقد سمي بألف اسم محمود، ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم».

وكان «الفضيل بن عياض»^(٢) يقول: «جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد».

وقال «سهل بن عبد الله»: «للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأول كل اسم منه ترك الدنيا».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا، ومنطقاً، فاقربوا منه، فإنه يلقي الحكمة»^(٣).

وقيل: «إذا زهد العبد في الدنيا، وكلَّ الله به ملكاً يغرس الحكمة في قلبه». وذلك لأن الحكمة مودعة في القلب من جملة ما خمر الله تعالى في طينة آدم بيده ونفخ روحه فيه من أنواع العلوم في سرٍّ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. على مثال كنز في الأرض، فلا يظهر الكنز إلا بكشف التراب عنه، وتراب كنوز العلوم كلها حب الدنيا، ولا يخرج حب الدنيا من القلوب إلا باستعمال الذكر الدائم، وتجريد الظاهر، وتفريد الباطن عن التعلقات الدنيوية، وإخلاص العمل لله تعالى.

(١) في (ح): الزهاد.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي البربوعي الخراساني. ولد في سمرقند سنة ١٠٧ هـ ونشأ بأبيورد.

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء قال: كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تالياً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع، فأواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى [نصبح] فإن فصيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا، يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

(٣) أورده الحافظ العراقي بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً...» الحديث. وقال: رواه ابن ماجه.

كما قال عليه السلام: «من أخلص لله أربعين صباحًا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(١).

ثم اعلم أن للزهد ثلاث مراتب:

- زهد المبتدئ: وهو ترك الفضول من الحلال.
 - وزهد المتوسط: وهو ترك ما لا يعنيه، وهذا المعنى الذي يتولد منه • زهد المنتهى: وهو ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى.
- وهذا هو الزهد الحقيقي حتى تزهد في نفسك، فإنها الشاغلة عن الله المشغولة بهواها، وإنك مهما زهدت فيها حق الزهادة، تخلصت عن حجب الكونين؛ لأن الحجب لتعلق بنفسك بهواها في الكونين، ولا تبلغ نهاية الزهد في نفسك إلا بالصبر على قطع تعلقاتها عما سوى الله تعالى.
- وكذلك بالصبر تظفر بكل مقام وحال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ يَا مَرْغَبًا لِمَا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]. وسنذكر فصلًا في الصبر إن شاء الله تعالى.
- والله أعلم.



(١) ذكره ابن الجوزي في موضوعاته (٣/ ٣٨٨)، وقال: لا يصح.

الفصل الرابع

في مقام الصبر

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»^(١).

اعلم أن الآية والحديث يشيران إلى أن الصبر من صفات الله، عز وجل، وليس من صفات الإنسان وطبعه؛ لأن الله تعالى لما أمر الإنسان بالصبر والمصابرة نسبة إلى الإيمان فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ أي بقوة الإيمان اصبروا؛ لأن الصبر نصف الإيمان، والذي يؤكد هذا المعنى أنه تعالى لما أمر النبي ﷺ مع جلالة قدره بالصبر، نفى الصبر عنه، وأحاله إلى^(٢) نفسه، وقال:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

ولما سئل النبي ﷺ «أي الإيمان أفضل؟» قال: «الصبر والسماحة»^(٣).

(١) أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١٥٩)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٩٧١٥)، والديلمي في (الفردوس) (٣٧٨).

(٢) في (ح): على.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في (مكارم الأخلاق) (٦١)، وأبو يعلى (١٨٥٤) مختصراً، ومحمد بن نصر المروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (٦٤٧) واللفظ له مطولاً.

جعل الصبر من الإيمان، والإيمان الحقيقي نور الله، وصفته، وقد سمي الله تعالى نفسه بالصبور.

وقال النبي ﷺ: «ليس أحد أصبر على الأذى من الله تعالى» فجعل الصبر من صفته تعالى، والذي يدل أيضاً على أن الصبر ليس من صفة الإنسان قوله تعالى: ﴿حُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فإن قيل إن الله وصف الإنسان في مواضع من القرآن بالصبر كقوله:

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وكقوله: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً﴾ [الإنسان: ١٢] وغير ذلك من الآيات، قلنا: ما وصف الإنسان المطلق بالصبر، وإنما وصف الإنسان المقيد بالإيمان، كقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ يعني من المؤمنين، لا منهم وهم كافرون؛ لأن المؤمنين حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وكذلك قوله: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي صبروا على الإيمان والطاعة، وصبروا عن الكفر والمعصية بقوة الإيمان.

فإن الله بالنصر والتأييد مع الصابرين من المؤمنين، وإن نصيب الإنسان من الصبر والتصبر بالتكليف ليصبره الله تعالى صبراً حقيقياً كقوله ﷺ: «من يصبر يصبره الله»^(١) فحينئذ يكون متخلفاً بخلق الله بحسب قوته في الصبر.

فإن للصبر ثلاث مراتب:

صبر المبتدئ: وهو متصبر تحت حمل الأوامر والنواهي.

وصبر المتوسط: وهو صابر تحت أحكام الأزل^(٢) في الشدة والرخاء من البلاء والابتلاء.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٤٦٩) ونصه: «إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ لِعَفْوِ اللَّهِ، وَمَنْ يَسْتَعِنْ بِغَنَةِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

(٢) في (ط): الأحكام الأزلية.

وصبر المنتهي: وهو صبار مع الله تعالى بالله.

فالمتصبر: صبره في الله، ولا يخلو من الجزع.

والصابر: صبره بالله فلا يجزع، ولكن لا يخلو من بعض الشكوى.

والصبار: صبره مع الله، فلا جزع ولا شكوى، بل صبره مقرون بالرضا، ولو ببذل

الروح في مواطن اللقاء.

قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ أي عند لقاء العدو، يبذل الروح راضين به، وإن العبد إذا وفق للتخلق في الصبر بخلق الله، وجاوز صبره حد صبر الإنسانية، تؤول مرارة صبره إلى ضدها من الحلاوة، ثم تبدل المرارة بالحلاوة، ويكون على قدر تخلقه بأخلاق الحق.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود -عليه السلام-: «تخلق بأخلاقى، ومن أخلاقى أنى أنا الصبور».

وقيل: الصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة.

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلاء في الله. ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله تعالى.

[وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله].

قلت^(١):

- اصبروا على مجاهدة النفوس بنهيها عن هواها، وأمرها بطاعة سيدها ومولاها.

- وصابروا على مراقبة القلوب مع الله بالتسليم والرضا لأحكامه الأزلية عند نزول البلاء، والابتلاء.

- ورابطوا بمرابطة الأرواح إلى الوصول بالله، والانقطاع عما سواه.

(١) في (ز): قال الإمام المصنف رضي الله عنه. وفي (ل): قال الإمام الرباني المصنف رحمه الله.

- واتقوا الله بمحافظة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار لعلكم تفلحون عن حجب الوجود بالفناء في الله، وتفوزون بالبقاء بالله.

فاعلم: أن الفلاح الحقيقي موقوف على هذه الخصال الأربع. والله ولي التوفيق.

وقيل: وقف رجل على الشبلي^(١)، فقال: أي الصبر أشد على الصابرين؟

فقال: الصبر في الله.

فقال: لا.

فقال: الصبر لله.

فقال: لا.

فقال: الصبر مع الله.

فقال: لا.

فغضب الشبلي.

فقال: ويحك فأني شيء^(٢)؟

فقال: الصبر عن الله.

فصرخ الشبلي صرخة كاد أن تتلف روحه.

وعندي، أن لمعنى الصبر عن الله ثلاثة أوجه:

(١) شيخ الطائفة أبو بكر، الشبلي البغدادي. قيل: اسمه دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس. وقيل: جعفر ابن دلف. أصله من الشبلية قرية، ومولده بسامراء. وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق ثم لما عزل أبو أحمد من ولاية، حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين، فتأب ثم صحب الجنيد وغيره، وصار من شأنه ما صار. وقد أخذ العلم على يد علماء عصره وخدم الحديث الشريف، وغلبت عليه نزعة الزهد، والتعلق بالتصوف، وكان يعرف الزهد بقوله: (تحول القلوب من الأشياء إلى رب الأشياء).. (سير أعلام النبلاء: ١٦ / ٣٦٧).

(٢) في (ز، ل): فيأش.

أحدها: صبر أهل الأهواء، والبدع، والمستغرقين في بحر الغفلات والشهوات الراغبين في التمتع^(١) الحيوانية النفسانية، الصابرين عن الله، وطلبه بالجهالة والضلالة.

وثانيها: صبر صاحب تلوين في مقام المشاهدة، تارة يكون في ضوء نهار التجلي، وتارة يكون في ظلمة ليل الستر.

ففي ظلمة ليل الستر لا بد له من الصبر عن الله، فهو أشد صبراً على الصابرين. وثالثها: صبر صاحب تمكين؛ هو فان في الله، باق به، مستغرق في بحر الوحدة، غائب عن وجوده بالكلية، بحيث لا إحساس له عن نفسه، ولا عن غيره، متحير، تائه بين الأنانية والهوية. فإن جذبته الطبيعة إلى الأنانية جذبته بطشة الربوبية إلى الهوية. وإن جذبته سطوة العناية إلى الهوية، جذبته الطبيعة إلى الأنانية، فهو منجذب عن كلا الوصفين مذبذب، لا من الأنانية، ولا من الهوية، فإن طلبته في الأنانية وجدته في الهوية، وإن طلبته في الهوية وجدته في الأنانية، وقد دندن حول هذا من قال^(٢):

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنا أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ثم إن فتح البصيرة ليشاهد نفسه تبعده الغيرة عن الهوية. ولو فتح البصيرة لرؤية الهوية يستدعي رؤية الهوية وجود الرائي، وهو اثنية، فلنفي الاثنية يلزمه الصبر عن الله ورؤيته، وهو أشد صبراً على الصابرين، وهذا مقام الحيرة التي كانت كمالته

(١) في (ط): النزعات.

(٢) ينسب هذان البيتان للحلاج. وفي الديوان:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

مخصوصة بالنبي ﷺ، حين يقول: «ربي زدني تحيراً»^(١) ومن اختصاصه ﷺ بهذا المقام، خصه الله تعالى بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

[محمد: ١٩].

يعني لما أفنيتك عن أنايتك، فأبقيتك بهويتي، فلم يبق لك ولغيرك وجود في نظرك إلا وجودي، فعلمت أنه لا إله إلا أنا، ولا وجود إلا وجودي.

كما قال «الجنيّد»: «ما في الوجود سوى الله».

استغفر لذنبك؛ أي لذنب علمك؛ لأن العلم يستدعي العالم والمعلوم، والعلم.. ثلاثة، فذنب علمك أنه أثبت لك وجوداً، ووجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

ثم اعلم أن لكل عمل من مكسب الإنسان وصفته جزاءً متناهياً ككسب الإنسان وصفته. ولكل عمل من مواهب الله والتخلق بخلقه جزء غير متناهٍ.

فالصبر لما كان من مواهب الله، والتخلق بخلقه كان له جزاء غير متناهٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولهذا كان جزاء الصبر أحسن الجزاء؛ لقوله تعالى:

(١) قال ابن تيمية: هذا حديث كذب والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤] (انظر فتاوى ابن تيمية (١١/ ٣٨٤).

ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل، ولا الشك، ولا الحيرة، ولا الضلال، وإنما يحب الدين والعلم واليقين. وقد ذم الحيرة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧١ - ٧٢]. وقد أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وكمال الصبر في الرضا بالصبر على ما يكره طلباً لرضى مولاه كما أنشد «ابن عطاء» لنفسه:

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري
وسأخبر عن مقام الرضا إن شاء الله تعالى.



الفصل الخامس

في مقام الرضا

قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، وسور أخرى].

وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا، وسعديك، والخير في يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدًا من خلقك. فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قال: فيقولون: ربنا، فأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»^(١).

اعلم أن الله تعالى جعل الرضا قسمين:

رضا الله عن العبد، ورضا العبد عن الله.

وقدم رضا نفسه تعالى على رضا العبد، فقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

وذلك لأنه تعالى كل ما كان من أعمال البدن قدم فيه العبد. كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وكل ما كان من أعمال القلب قدم فيه نفسه تعالى، كقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثم إن الرضا لما كان من أعمال القلب، قدم فيه نفسه تعالى، ولهذا اختلف العراقيون، والخراسانيون في الرضا.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

هل هو من الأحوال، أو من المقامات؟.

فأهل خراسان قالوا: هو من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، ومعناه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه.

وأما العراقيون: فإنهم قالوا: الرضا من جملة الأحوال، وليس ذلك كسباً، بل هو نازلة [تحل]^(١) بالقلب كسائر الأحوال.

قلت^(٢): فإذا نظرنا إلى رضا الله عن العبد، فهو من الأحوال، وإذا نظرنا إلى رضا العبد عن الله، فهو من المقامات، وإن كان من نتائج رضا الله في الأصل، ولكن للعبد فيه اكتساب بطريق المجاهدة، وكسر النفس، وتبديل أخلاقها حتى تبدل السخط بالرضا، والشك باليقين.

قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً»^(٣).

وقال ﷺ: «إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الغل والحسد في الشك والسخط»^(٤).

فقد صرح أن الرضا هو مكتسب للعبد.

وقال الجنيد: «الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب، فإذا باشر القلب حقق العلم أدائه إلى الرضا».

وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء؛ فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة.

(١) سقطت من (ط).

(٢) في (ل): قال الإمام الرباني رحمه الله. وفي (ز): قال الإمام الرباني رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٣٤) من حديث العباس رضي الله عنه، ونصه: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً».

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (١٧٦/١) وقال فيه محمد بن مروان ضعيف، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩): ضعيف.

وقد جاء في حديث ربّاني: «من لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلائي، فليطلب ربّاً سواي»^(١).

فلو لم يكن الرضا من المكاسب لم يعاقب العبد بتركه.

ولما أمر النبي ﷺ بإتيانه بقوله: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»^(٢).

وقد أورد الأستاذ «أبو القاسم القشيري»^(٣) في رسالته:

«اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به؛ إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين».

قلت: بلى [لا]^(٤) يجوز للعبد أن يرضى بالمعاصي والمحن، قولاً أو فعلاً^(٥).

(١) أخرجه ابن حبان في (المجروحين) (٣٦٤/١)، والطبراني (٣٢٠/٢٢) (٨٠٧) واللفظ له، وأبو نعيم في (معركة الصحابة) (٧٠٥٤). والهشمي في مجمع الزوائد (٢١٠/٢) وقال: فيه سعيد بن زياد بن هند وهو متروك.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وأحمد (٨٠٨١). وأورده الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٣٣) ولفظه: «يا أبا هريرة! كُنْ وَرِعاً تَكُنْ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ، وَاکْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَجَاوِزَ مَنْ جَاوَزَتْ بِإِحْسَانٍ تَكُنْ مُسْلِماً، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ فَسَادُ الْقَلْبِ».

(٣) جاء في سير أعلام النبلاء (١٨/٢٢٧ - ٢٢٨): الإمام الزاهد، القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسر، صاحب «الرسالة». ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. وتعالى الفروسية والعمل بالسلح حتى برع في ذلك، ثم تعلم الكتابة والعربية، وجوّد. ثم سمع الحديث من: أبي الحسين أحمد بن محمد الخفاف؛ صاحب أبي العباس الثقفي، ومن أبي نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني، وأبي الحسن العلوي، وعبد الرحمن بن إبراهيم المزكي، وعبد الله بن يوسف، وأبي بكر بن فورك، وأبي نعيم أحمد بن محمد، وأبي بكر بن عبدوس، والسلمي، وابن باكويه، وعدة.

وتفقه على أبي بكر محمد بن أبي بكر الطوسي، والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وابن فورك. وتقدم في الأصول والفروع، وصحب العارف أبا علي الدقاق، وتزوج بابنته، وجاءه منها أولاد نجباء.

قال القاضي ابن خلكان: كان أبو القاسم علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة. صنف «التفسير الكبير» وهو من أجود التفاسير، وصنف «الرسالة» في رجال الطريقة.

وتوفي الأستاذ أبو القاسم صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر، سنة خمس وستين وأربعمائة.

(٤) سقطت في (ط). وفي (ح): بل لا.

(٥) في (ح، ل): وقوعاً وفعلاً.

ولكن يجب عليه الرضا بقضاء الله فيما قضى من الخير والشر، كما يجب عليه الإيمان بما قدر الله من الخير والشر.

كما قال ﷺ: «وَأَنْ تَوْمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

ولا يجوز له مباشرة الشر، وإن الله تعالى لم يقض بشيء من الخير والشر عبثاً، بل قضى بما قضى لحكمة بالغة، وله الرضا فيما قضى وقد رضينا بما له فيه الرضا [من القضاء]^(٢).

وقد قال المشايخ: «الرضا باب الله الأعظم».

قيل: يعني من أكرم بالرضا، فقد لُقي بالترحيب الأوفى وأكرم بالتقريب الأعلى.

وقال الأستاذ «أبو القاسم»^(٣): «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَكَادُ يَرْضَى عَنْ الْحَقِّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ الْحَقُّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

قلت: رضي الله عنهم في الأزل، بلاهم بأن يرضوا عنه إلى الأبد برضاه، فرضوا.

وقيل: قال «موسى» عليه السلام: «إِلَهِي دَلْنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتَهُ رَضِيتَ عَنِّي.

فقال: إِنَّكَ لَا تَطِيقُ ذَلِكَ.

فخر موسى ساجداً متضرعاً، فأوحى الله تعالى إليه: يَا بَنَیَّ عِمْرَانَ إِنَّ رِضَائِي فِي رِضَائِكَ لَقِضَائِي.

وقال «النصرابادي»^(٤): «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّ الرِّضَا فَلْيَلِزْ مَا جَعَلَ اللَّهُ رِضَاهُ فِيهِ».

(١) أخرجه أحمد (٢٩٢٤) واللفظ له، والحاثر في ((المسند)) (٩)، والبيزار (٤٨٣٢).

(٢) ساقطة في (ط).

(٣) أبو القاسم القشيري وقد سبقت الإشارة إليه.

(٤) هو الإمام المحدث القدوة الواعظ شيخ الصوفية أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمود الخراساني النصرابادي النيسابوري الزاهد، ونصراباذ: محلة من نيسابور. سمع أبا العباس السراج، وابن خزيمة، وأحمد ابن عبد الوارث العسال، ويحيى بن صاعد، ومكحول البيروتي، وابن جوصا، وعدداً كثيراً بخراسان، والشام، والعراق، والحجاز، ومصر.

من أقواله: إِذَا أَعْطَاكَ حَبَاكُم، وَإِذَا مَنَعَ حَمَاكُم، فَإِذَا حَبَاكَ شَغْلُكَ، وَإِذَا حَمَاكَ حَمْلُكَ.

وقال: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع.

وقال «السري»^(١): «خمس من أخلاق المقربين: الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحب له بالتحب من الله [إليه]^(٢)، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه».

وقال «ابن شمعون»^(*): «الرضا بالحق، والرضا له، والرضا عنه، والرضا به مريداً ومختاراً، والرضا عنه قائماً ومعطياً، والرضا له إلهاً ورباً».

وعن «ذي النون المصري»^(٣) قال: ثلاثة من أعلام الرضا:

- ترك الاختيار قبل القضاء.
 - وفقدان المرارة بعد القضاء.
 - وهيجان الحب في حشو البلاء.
- قلت: ما بلغ أحد حقيقة الرضا إلا بالصبر على البلاء، والشكر عند النعماء، والتوكل على رب السماء، واستحلاء مر القضاء، وسلطان المحبة في السراء

(١) هو الإمام الهمام المعروف بطبيب الغذاء وتصفية القلوب، السري بن المغلس السقطي الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو الحسن البغدادي خال الجنيّد وأستاذه، وهو تلميذ معروف الكرخي. كان وحيد زمانه وفريد دهره في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد. ولد في حدود السنين ومائة. حدث عن: الفضيل بن عياض وغيره، واشتغل بالعبادة، وصحب معروفاً الكرخي، وهو أجل أصحابه. روى عنه: الجنيّد بن محمد، والثوري أبو الحسين، وأبو العباس بن مسروق، وغيرهم. قال أبو عبد الرحمن السلمي: كان السري أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد، وتكلم في علوم الحقائق، وهو إمام البغداديين في الإشارات.

(*) ابن شمعون: لم أعر له على ترجمة.

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) ذو النون المصري الزاهد، شيخ الديار المصرية، ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي يكنى أبا الفيض، ويقال: أبا الفياض. ولد في أواخر أيام المنصور، وروى عن: مالك، والليث، وابن لهيعة، وفضيل بن عياض، وسلم الخواص، وسفيان بن عيينة، وطائفة. ويروى أن أهل ناحيته كانوا يسمونه الزنديق فلما مات، أظلت الطير جنازته، فاحترموا بعد قبره أي دفنه. انظر سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٣ - ٥٣٦).

والضراء، فإن كل أفعال المحبوب محبوبة.

وسنذكر طرفاً من مقام المحبة إن شاء الله تعالى. وبالله التوفيق.



الفصل السادس

في مقام المحبة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال رسول الله ﷺ في حديث رباني:

«ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً، وبصراً،
ولساناً، ويداً. فبني يسمع، وبني يبصر، وبني ينطق، وبني يبطش»^(١) الحديث.

اعلم أن المحبة محبتان: محبة العبد لله، ومحبة الله للعبد.

– فمحبة العبد لله مودعة في الإيمان، ومحبة الله للعبد مودعة في متابعة المحبوب

ﷺ.

وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

والسرّ فيه أن المؤمن من يكون أشدّ حباً لله عما سواه، وازدياد المحبة بحسب
ازدياد الإيمان. فالمحب على قدر محبته يتبع النبي ﷺ، وعلى قدر اتباع المحب
يحبّه الله تعالى. فللاتباع ثلاث درجات، ولمحبة المحب ثلاث درجات، ولمحبة الله
للمحب المتابع على حسب اتباعه، ثلاث درجات.

(١) سبق تخريجه.

فأما درجات الاتباع:

- فالأولى: درجة عوام المؤمنين، وهي متابعة أعماله ﷺ.

- والثانية: درجة الخواص، وهي متابعة أخلاقه ﷺ.

- والثالثة: درجة أخص الخواص، وهي متابعة أحواله ﷺ.

وأما درجات محبة المحب:

- فالأولى: محبة العوام، وهي مطالعة المنة من رؤية إحسان المحسن، وبرّه، وأياديه، ونعمه المتقدمة التي ابتدأنا بها من غير عمل استحققناها به، وستره معايينا بكرمه. فإنه جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وهذا حب يتغير بتغير الإحسان. فإن زاد الإحسان زاد الحب، وإن نقص الإحسان نقص الحب، وهو من باب الأفعال لمتابعي الأعمال، وهم يطمعون أجرًا على ما يتحملون من تباريح الحب.

قال أبو الطيب:

وما أنا بالبأغي على الحب رشوة ضعيف هوى يُرجى^(١) عليه ثواب

- والثانية: محبة الخواص:

وهي محبة تنشأ من مطالعة شواهد الكمال عند تجلي صفات الجمال. وهذه محبة المقربين؛ يحبونه إعظامًا وإجلالًا له لاطلاعهم على كمال جماله، وعظمة صفة كماله. وهذا حب التعظيم والإجلال لوجهه - تعالى وتقدس - فذلك هو الباقي إلى الأبد^(٢) لبقاء الصفات إلى السرمد، ويزيد بازدياد المعرفة.

قالت رابعة العدوية^(٣):

(١) في الديوان: يُبغى).

(٢) في (ط): أبد الآباد.

(٣) حاولت بعض المصادر والروايات التي تناولت حياة رابعة العدوية أن تجعل منها أسطورة فمن هي رابعة؟ هي رابعة بنت إسماعيل العدوية وتكنى (أم عمر)، اشتهرت بأنها واحدة من أتباع التابعين، وهي إنسانة مُتعبدة =

أحبك حبين: حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاك

وهذه المحبة تبعث على إثارة الحق تعالى على غيره لما يتجلى له من معاني صفاته في مدارج آياته. وهي لمتبعي أخلاقه ﷺ فيضطر هذا المحب في هذه الدرجة إلى طرح ذكر غير الله عن قلبه متقلّباً بين النظر إلى جماله مرة، وإلى جلاله أخرى، لهجاً لسانه بذكره، موقوفة أعضاؤه على تعبدته إجلالاً وإعظاماً.

كما قالوا:

سأعبد الله لا أرجو مثوبته لكن تعبدُ إعظام وإجلال^(١)

- والثالثة: محبة أخص الخواص:

وهي الغاية^(٢) القصوى للعبد، ولا غاية لها. وهي محبة خاطفة تقطع العبارة، وتدفع الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت، وهذه بخلاف المحبتين الأوليين؛ إذ ليست هي منتشأة من رؤية النعم والإحسان التي هي من باب الأفعال، ولا من رؤية الصفات من الجمال والجلال، بل جذبة من جذبات الحق المنتشأة من المحبة القديمة في سر «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»^(٣). وأهل هذه المحبة

= وزاهدة، كما أنّ شهرتها كانت كبيرة جداً؛ حيث ذكرت سيرتها في أحد الأجزاء الخاصة بكتاب ابن الجوزي، إذ ذكر أنّ ابن أبي الدنيا قال عنها: (حدّثنا محمد بن الحسين حدّثني عبيس بن ميمون العطار حدّثني عبدة بنت أبي شوال وكانت تخدم رابعة العدوية قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول: يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا ليوم النشور)، وقد اختلف العلماء في تحديد تاريخ وفاة رابعة العدوية، فقال ابن خلكان إنّها توفيت في العام ١٣٥ هـ، كما أورد هذا ابن الجوزي في كتابه (شذور العقود)، وهناك من ذكر بأنّها توفيت في عام ١٨٥ هـ، إضافة إلى أنّ ابن العماد الحنبلي ذكر أنّها من وفيات عام ١٣٥ هـ، ويبدو أنّ هذا التاريخ هو الأقرب إلى الصواب؛ وذلك لأنّ المصادر ذكرته كخبر صحيح، في حين تمّ التشكيك في الروايتين الأخريين، إذ ورد أنّ الحسن البصري تقدّم إلى خطبتها، علماً بأنّه توفّي في عام ١١٠ هـ؛ وذلك يعني أنّها كانت تبلغ من العمر عشر سنوات عند وفاته؛ لذا فالأقرب إلى الصحة وفاتها في عام ١٣٥ هـ.

(١) ينسب هذا البيت لأبي العلاء المعري.

(٢) في (ل، ز): غاية.

(٣) سبق تخريجه.

هم المستعدون لكمال المعرفة بسبق العناية.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقد أنعم الله عليهم بمحبته لهم في الأزل بلا علة، بل بالحسنى منهم في حقهم. وقال مخبراً عن محبته الأزلية لهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ إشارة منه إلى [أنهم]^(١) ما أحبوه حتى أحبهم هو أولاً. فمحبته لهم أيضاً، نعمة منه بالتوفيق لهم لمحبته؛ وذلك أن محبته لهم كانت في الأزل من غير علة^(٢)، فلما استخرجهم من ظهر آدم، تجلت محبته على قلوبهم، فجذبتها إليه، وأفنتهم عن أنفسهم، فدخلوا الدنيا على تلك الصفة.

قال بعضهم:

غذينا^(٣) بالمحبة يوم قالت له الدنيا أتينا طائعيناً

وحقيقة المحبة أن يفنى المحب بسطواتها، وتبقى المحبة منه بلا هو. كما أن النار تفني الحطب بسطوتها، وتبقى النار منه بلا هو. فإن المحبة نار لا تبقى ولا تذر. وأما درجات محبة الله للعبد:

فاعلم أن كل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى من العلم والقدرة والإرادة، وغيرها، وإن اتفقت في أسماء صفات خلقه، فلا تشبه حقيقتها حقيقة أوصاف الخلق ألّبتة، حتى الوجود الذي يعم الخالق والمخلوق جميعاً؛ وذلك أن وجود الخلق مسبوق بالعدم، ووجود الخالق واجب لنفسه، ووجود كل ما سواه مستفاد منه. ومن دقق النظر علم أن ليس في الكون إلا الله، وأفعاله منه، فكأنه ليس في الوجود شيء ثابت إلا هو وحده.

(١) سقطت من (ط).

(٢) في (ز): علمهم.

(٣) في (ز): عذبنا.

قرأ القارئ^(١) بين يدي الشيخ «أبي سعيد بن أبي الخير»^(٢) قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فقال:

- بحق يحبهم؛ لأنه لا يحب إلا نفسه على معنى أنه ليس في الكون إلا هو، وما سواه فهو من صنعته، والصانع إذا مدح صُنْعَهُ، فقد مدح نفسه، فإذا لا تتجاوز المحبة نفسه؛ لأن نفسه قائمة بنفسها، وما سواه قائم به، فهو لا يحب إلا نفسه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن محبة الله للخلق عائدة إليه بالحقيقة، إلا أنه لما كان ممرها على الخلق فبحسب تعلقها بالعام والخاص والأخص، أثبت لكل صنف منهم سعادة يحظى بها عند مرورها عليه، إلى أن ينتهي إلى محلها الذي صدرت منه، فتكون المحبة، والمحب، والمحبوب واحداً، فصدرت المحبة عن محل «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»^(٣).

(١) في (ح): قارئ.

(٢) أبو سعيد بن أبي الخير شاعر وصوفي فارسي أسهم بشكل بارز في تطور الصوفية، ولد في ٧ من ديسمبر سنة ٩٦٧ في ميهنة من أعمال خراسان وتوفي في يناير ١٠٤٩ م..

في كتاب «المعرفة عند صوفية الإسلام... أبو سعيد بن أبي الخير نموذجاً»، للدكتور د. أحمد محمود الجزار، دراسة عن أبي سعيد بن أبي الخير كنموذج لشخصية صوفية بارزة، ومن أشهر علماء النيسابوريين ومن أعلام التصوف، فإنه يرجع الفضل في إنشاء فكرة المدارس و«الخانقاوات»، وهي أماكن تجمع المتصوفين وأهل الطرق الصوفية للعبادة وللذكر، كما يرجع له الفضل في إنشاء ما يُعرف بـ«الرتب الصوفية». ومن خلال عرض لشخصية أبي سعيد بن أبي الخير يعرض المؤلف لقضايا شائكة تتصل بالحالة الصوفية نفسها، ومنها بمعرفة الأولياء، ومقام الولاية ومسألتي الشفاعة والكرامة، بالإضافة إلى ما يتعلق بأوصاف الأولياء العارفين. ويشير المؤلف إلى أن أبي سعيد بن أبي الخير يعتبر أن الولاية ملازمة للمعرفة، لكن مع ذلك فإن أبي سعيد بن أبي الخير يعتبر أن الولاية منة من الخالق يمنحها لمن يشاء بدون قيد أو شرط، وأن الله تعالى يختار من بين عباده من يمنحهم مقام الولاية بدون جهد منهم، أو حتى قصد بذلك.

وحتى يوفق أبو سعيد بين الوصول لدرجة الولاية، باعتبارها فضلاً ومنحة من الخالق، وبين تلازم هذه الولاية مع معرفة الولي بالله تعالى، على اعتبار أن المعرفة تستلزم جهداً يبذل من جانب من يقصد المعرفة، فإن أبي سعيد يعتبر أن الشخص لن ينال هذه المعرفة بالخالق (شهوداً وكشفاً)، حتى وإن سعى لها وبذل من أجلها الجهد، إلا بمنحة ربانية بأن يقرّبه الخالق منه ويمنحه المعرفة به.

(٣) سبق تخرجه.

فما تعلقت إلا بأهل المعرفة، وهم المخصوصون بالإنعام، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية، فتعلقت بالعام من أهل المعرفة بالرحمة، ومشربهم الأعمال، فقليل لهم ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بالأعمال الصالحة ﴿يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾ يخصصكم بالرحمة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] التي صدرت منكم على خلاف المتابعة ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لمن أطاعه ﴿رَجِيمٌ﴾ بمن^(١) لا يعصيه.

• وتعلقت بالخاص من أهل المعرفة بالفضل ومشربهم الأخلاق، فقليل لهم ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بمكارم الأخلاق ﴿يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾ بالفضل ويخصصكم بتجلي صفات الجمال ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ ستور^(٢) بصفاته صفات أهل رحمته^(٣).

• وتعلقت بالأخص من أهل المعرفة، بجذبات الإلهية، ومشربهم الأحوال، فقليل لهم ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ببذل الوجود ﴿يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾ بجذبات المحبة الأزلية، يخصصكم بتجلي صفات الجلال فيجذبكم عنكم به إليه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويستتر بجوده ذنوب وجودكم، فيمحوكم عنكم، ويثبتكم به كما قال تعالى: «فإذا أحببته كنت له سمعاً، وبصراً، ولساناً، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى ينطق، وبى يبطش»^(٤).

فيكون العبد في هذا المقام مرآة صفات لطفه وقهره، فكما أن الرائي في المرآة يشاهد صفاته بصفاته، وذاته بذاته، فيكون الرائي والرؤية والمرئي واحداً.

(١) في (ل): لمن.

(٢) كتبت بهذا الرسم في كل النسخ، وفي (ط): منور، والستور جمع ساتر، ولعله يقصد ستير وهو اسم من أسماء الله الحسنی، ومعناه: الذي من شأنه وإرادته حبُّ السَّتر والصَّون، فالله سَتِير للعيوب.

(٣) في (ز): الرحمة.

(٤) سبق تخريجه.

فكذلك يكون في هذا المقام المحب، والمحبة، والمحجوب واحدًا. والعارف، والمعرفة، والمعروف واحدًا. فهو المحب العارف المحجوب المعروف؛ أي الذي أحب أن يعرف فأحب نفسه بمحبته، وعرف نفسه بمعرفته ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، جعل مرآة وجود المحبين، والعارفين برحمته [ممر قوافل] ^(١) خيال جمال صفاته، ومقرّر نوال ^(٢) جلال ذاته، فهم في كل وادٍ يهيمنون، وكل بارق ^(٣) يشيرون، يدور رحي الحزن على دموعهم، وتفور نار الشوق بين ضلوعهم، قد فنوا عن أنفسهم ببقاء المحجوب، وفقدوا طلبهم بوجدان المطلوب، فهم بين روض المحو وغدير الإثبات أموات غير أحياء، أحياء غير أموات، فطورًا يرونه فيطربون عند الكشف والتجلي، وتارة يخشونه فيهربون عند الحجب والستر، وكيف الطرب ولا مقرب؟ وإلى أين الهرب، ولا مهرب؟.

فإن قيل ما المحبة؟ قلنا: بدايتها موافقة المحجوب وترك مخالفته.

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هذا محالٌ في القياس بديعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ بِيْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لَشَكْرٍ ذَاكَ مُضِيعُ ^(٤)

ووسطها، أن لا يؤثر على الله غير الله، ونهايتها، نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، نار وقودها الناس والحجارة، نار لا تبقي ولا تذر، نار تحرق في الدنيا قلوب العاشقين، وفي الآخرة جلود الفاسقين، نار ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ

(١) في (ط): ممن توقفوا.

(٢) في (ط): وتقربوا إلى.

(٣) في (ح): بارقة.

(٤) من شعر الإمام الشافعي.

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[النور: ٣٥].

فإن قيل من المحب؟ وما علامته، وحاله؟

قلنا: من وصفهم الله في بعض الروايات.

«إن الله يقول: كذب من ادعى محبتي وإذا جنّه الليل نام عني. أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، هأنذا مطلع على أحبابي إذا جنهم الليل جعلت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت نفسي بين أعينهم فخطبوني عن مشاهدة، وسألوني على حضوري، فلم يجمل بي إلا أن أروح أبدانهم يوم القيامة. الناس في هم وكر، وهم على كراسٍ من نور تحت عرشي»^(١).

وقال الحسن صاحب الفضيل بن عياض:

(١) لا يعرف هذا الكلام في الأحاديث القدسية التي يرويها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل، ولم نطلع عليه بسند صحيح ولا ضعيف، وإنما هو شيء يروي عن فضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، رحمهما الله.

فروى أبو نعيم في «الحلية» (٩٩/٨)، والدينوري في «المجالسة» (١٣٢)، وابن العديم في «بغية الطلب» (ص ١٤٥٥) عن فضيل بن عياض قال: «يُنْزَلُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ الرَّبُّ: مَنْ ادَّعَى مَحَبَّتِي إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي؟ أَلَيْسَ كُلُّ حَبِيبٍ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ؟ هَا أَنَا ذَا مُطَّلِعٌ عَلَى أَحِبَائِي، إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ مَثَّلْتُ نَفْسِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ، فَخَاطَبُونِي عَلَى الْمُشَاهَدَةِ، وَكَلَّمُونِي عَلَى حُضُورِي غَدًا أَفَرُّ أَعْيُنَ أَحِبَائِي فِي جَنَّاتِي».

وكذا نسبه الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم» (ص ١٠٨٧) للفضيل.

وقال في «لطائف المعارف» (ص ٤٤): «وفي الأثر المشهور: ... فذكره».

ورواه أبو الحسين الطيوري - كما في «الطيوريات» - انتخاب السلفي (ص ١٠٣٤) - وابن عساكر في «تاريخه» (١٣٨/٣٤) عن أحمد بن أبي الحواري قال: (سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ يَقُولُ: يَا أَحْمَدُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «إِذَا نَامَتِ الْعُيُونُ كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّتِي، إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي، أَوَلَيْسَ كُلُّ مَحِبٍّ يُحِبُّ لِقَاءَ حَبِيبِهِ؟ هَا أَنَا مُطَّلِعٌ عَلَى أَحِبَائِي إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ، جَعَلْتُ أَبْصَارَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَثَّلْتُ نَفْسِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ، فَخَاطَبُونِي عَلَى مُشَاهَدَةِ، وَسَأَلُونِي عَلَى حُضُورِ، النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي كَرْبٍ وَجُهِدٍ، وَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَرَّاسِي فِي ظِلِّ عَرْشِي»).

ومثل هذا إنما يذكر من باب الإشارة، للموعظة والاعتبار، لا أنه كلام الله حقيقة، أو كلام رسوله، أو أنه حجة قائمة بنفسه.

«دخلت على فضيل وهو يبكي. قلت: ما يبكيك؟

قال: ويحك يا حسن! إنه إذا جن الليل، وهدأت العيون واختلط الظلام، افترش أهل المحبة لله أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وتسمع لدموعهم وقعا على أقدامهم، وقد أشرف الجليل سبحانه وتعالى عليهم فنأى: بعيني^(١) من تلذذ من كلامي^(٢) واستراح إليّ، فإني مطلع عليهم في خلواتهم؛ أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم. فلم لا تنادي^(٣) فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء الذي أسمع منكم؟ هل أخبركم أحد أن حبيبا يعذب أحبابه؟ وهل يجمل بي أن أعذب أقواما، وعند الباب أحدهم يطلب مرضاتي؟ فبي حلفت، أنهم إذا وردوا عليّ يوم القيامة جعلت هديتي لهم أن أكشف لهم عن وجهي حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم».

فإن قيل: من المحبوب، وما علامته^(٤)؟

قلنا: المحبوب من وقع في شبكة الهاء والميم من قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قبل وجوده، وهو مأخوذ عنه بحدود مشهوده، مجذوب بجذبات العناية الأزلية، لكفاية الأبدية. هم قوم في العدم، [أبلاهم بالمحبة مولاهم، فخرجوا إلى الوجود]^(٥) بلا هم ثم ابتلاهم بالوجود، ثم ناداهم لما عمّت بلواهم وناجاهم، وعن حضيض الوجود رقاهم، ثم فاجأهم، وبهويته عن أنانيتهم أفناهم، ثم بنور جماله أحياهم، ثم بسطوات تجلي جلاله أفناهم ثم أرداهم، ثم ببقائه أبقاهم، وبألطافه رباهم، وبوجود وجوده أغناهم.

وأما علامتهم، فإنهم مخصصون بعلوم المكاشفات متلذذون بنعيم المشاهدات،

(١) في (ل): بعزتي.

(٢) في (ح): تلذذ بكلامي.

(٣) في (ط): قم فنأى.

(٤) في (ز، ح): علامتهم.

(٥) ما بين قوسين سقط في (ز).

قلوبهم مرآة شواهد الجمال، وأسرارهم مرماة عوايد الجلال، وأرواحهم في غيب الغيب سيّارة، وبجناحي الأنس والهيبة طيارة. تولى الله سياسة نفوسهم فانقطعت عن الشهوات، وانتبهت عن نومة الغفلات، وتسارعت في الخيرات والمبرات. هم رعاة الليل والنهار، وأصحاب الذكر والاعتبار، وأرباب المحن والاختبار، ممن أسعدهم الله بطاعته وحفظهم برعايته. يستقلون الكثير من أعمالهم، ويستكثرون^(١) القليل من نعم الله عليهم. إن أنعم الله عليهم شكروا، وإن مُنعوا صبروا. فالحسرات في قلوبهم تتردد، وخوف الفراق في صدورهم يتوقد^(٢). أذاقهم الله طعم محبته ونعمهم بدوام العذوبة في مناجاته. أسرار الغيوب عندهم مكشوفة، وهمهم عما سوى الله مصروفة، حوائجهم من الله مأمولة، وأمورهم إلى الله موكولة.

كما قال بعضهم:

وَكَلْتُ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَمْرِي كُلَّهُ فَإِنْ شَاءَ أَحْيَانِي وَإِنْ شَاءَ أَتْلَفَا^(٣)

فإن قيل: هل إلى المحبة بالاكْتِسَاب^(٤) سبيل، وللسبيل إليها دليل؟

قلنا: الآيات والأخبار تدل على السبيل، والدليل ظاهر كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالسبيل إلى الاكْتِسَاب هو المتابعة، والدليل إلى المحبة وسبيلها محمد رسول

الله ﷺ حكاية عن ربه تعالى:

«لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»^(٥) الحديث.

(١) في (ز): وستذكرون.

(٢) في (ز): يتوسد.

(٣) هذا البيت ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٣ / ٣٦٨) ولم ينسبه لأحد.

(٤) في (ز): الاكْتِسَاب. وفي (ل، ط): للاكْتِسَاب. والتصويب من (ح).

(٥) سبق تخريجه.

ونحن مأمورون بالتقرب، وهو الكسب، فلا بد^(١) لنا من امتثال الأمر في الظاهر الذي يحكم الشرع به. والله يتولى السرائر، التي هي مبذرة بذر المحبة الأزلية، بدهقته يحبهم، ولا شك في وقوع هذا البذر أنه من المواهب [الإلهية]^(٢) الأزلية، ولا مدخل للاكتساب فيه، ولكن من سنة كرم الله تعالى أن يجعل لتربية بذر المحبة مدخلا للعباد لسر الخلافة إلى أن تثمر بثمرة: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له القبول في الأرض»^(٣). فإذا استوت هذه الثمرة، وبلغت مبلغها ذوقت المعية مع الله في الدارين، كما قال ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٤).

فإن قيل: هل يوصف الرب تعالى بالعشق أم لا؟ وهل يوصف العبد بعشق الحق تعالى أم لا؟

قلنا: إذا فسرنا العشق بأنه مجاوزة الحد في المحبة، فالحق لا يوصف بأنه يجاوز الحد، فلا يوصف بالعشق، ولو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد، لم يبلغ ذلك استحقاق قدر محبة الحق سبحانه، فلا يقال: إن عبداً [واحداً]^(٥) جاوز الحد في محبة الله، ولا يوصف الحق بأنه يُعشق لهذا المعنى، وهذا قول المشايخ. ولكن إذا فسرنا العشق بأنه مجاوزة حد العبد في المحبة لله فهو حق.

(١) في (ط): ولا بد.

(٢) سقطت من (ز).

(٣) متفق عليه. ورواية مسلم: «إن الله - تعالى - إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه. فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

(٤) متفق عليه. رواه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) سقطت في (ط).

[وكذلك لو فسرناه بأنه مجاوزة حد العبد في محبة الله له فهو حق] ^(١) أيضًا، فيوصف الرب تعالى بالعشق بهذا المعنى، ويوصف العبد به لما ^(٢) ذكرنا.

وقد ورد في الأثر، أن النبي ﷺ، لما حُب إليه الخلاء، وكان يتحنث إلى حراء أسبوعًا أو أسبوعين، قالوا إن محمدًا قد عشق ربه، وكذلك رُوي عن بعض الكتب المنزلة: «لا يزال العبد يذكرني حتى عشقني وعشقتة» ^(٣).

وقول الشبلي في المحبة قريب مما قررنا، يقول:

«المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك؛ يعني تغار على مجاوزة حدك في المحبة حتى يحب مثلك محبوبًا مثله، فإن من حَقَّ أن تحب من يكون مثلك، وكذلك من حق جلال الله وعظمته أن تحب مثله، فلما لم يكن له مثل، وأحب عبدًا، فقد جاوز حد العبد في محبته له».

والله أعلم.



(١) سقطت في (ز).

(٢) في (ز): كما.

(٣) ذكره أبو نعيم في الحلية عن الحسن مرسلًا وإسناده ضعيف لإرساله ولا أظن متنه إلا باطلًا منكراً. ونصه: (يقول الله عز وجل: إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولذته في ذكري، فإذا جعلت بغيته ولذته في ذكري عشقتي وعشقتة فإذا عشقتي وعشقتة رفعت الحجاب فيما بيني وبينه، وصيرت ذلك تغالبًا عليه، لا يسهر إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقًا، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابًا، ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم). وذكر الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري في الرسالة القشيرية ج ١ ص ٢٥٧ ط: دار الكتب العلمية - بيروت: «وعن الجنيد قال: سمعت السري يقول: مكتوب في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى: (إذا كان الغالب علي عبي ذكري عشقتي وعشقتة)».

الباب الخامس
في مقام الإنسان
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في أن الإنسان هو العالم الكبير بالروح

وذلك لأن منشأ العالم بما فيه الروح الإنساني كما بيّنا من روح النبي ﷺ. وأنه أول شيء تعلقت القدرة به بأمر «كُنْ»، ثم سرى^(١) الأمر بإيجاد المكونات بعضها من بعض، كما مرّ شرحه. فإذا أمعنا^(٢) النظر وجدنا اتصال أجرام الموجودات بعضها ببعض والكل واحد، إذا أخذنا من مركز الأرض إلى أن ينتهي إلى السطح الأقصى من العرش، وأنه حيوان واحد، ذو أجزاء مختلفة، وهو حي بالروح الإنساني؛ إذ منه بدأ وإليه يعود، فثبت أنه هو العالم الكبير.

وأما تقسيم أجزاء هذا الكل، فإنه ينقسم إلى قسمين:

- إلى عالم الكون والفساد، وهو عالمنا السفلي.

- وإلى العالم الذي لا كون فيه ولا فساد، وهو السماء والأفلاك، بما فيها من الكواكب والعرش والكرسي.

فأما اتصال أجرام الأفلاك التسعة بعضها ببعض، وأفلاك الكواكب المتحيزة فيها وتركيبها، وهيئتها، وأنه لا فرجة هناك، فهو مشروح في كتب الهيئة، مبرهن ببراهين

(١) في (ل): يسري.

(٢) في (ز): أنعمنا. وكلاهما بمعنى واحد كما بيّنا من قبل.

لا يعترضها شك، ولا يمكن فيها قدح. وأما اتصال الأجرام التي في عالمنا هذا، فهو مشاهد إلا ما اختلف فيه قوم من وجود الخلاء؛ أي البعد^(١) [في]^(٢) غير حامل، وهذا أيضاً مشروح ظاهر في كتاب «السماع الطبيعي»^(٣).

فأما اتصال الموجودات التي قلنا إن الحكمة سارية^(٤) فيها حتى أوجدتها بالأمر، وأظهرتها، وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها، حتى اتصل آخر [كل نوع بأول]^(٥) نوع آخر، فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزاً كثيرة على تأليف صحيح، حتى جاء من الجميع عقد واحد، فهو الذي نريد تبينه، والدلالة عليه بمعونة الله عز وجل^(٦).

إن أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأربعة أثر حركة النفس في النبات؛ وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة، والاعتداء. وللنبات في قبول^(٧) الأثر عرض كثير ومراتب مختلفة لا تحصى. إلا أنا نقسّمه إلى ثلاث مراتب: وهي: الأولى، والوسطى، والأخرى؛ ليكون الكلام عليه أظهر.

وإن كان لكل مرتبة من هذه المراتب عرض كثير، وبين المرتبة الأولى والوسطى مراتب كثيرة، وبين المرتبة الوسطى والأخرى مراتب كثيرة. إلا أنه بهذا التدبير يمكننا أن نشرح ما قصدنا إليه من إظهار هذا المعنى اللطيف فنقول: إن مرتبة النبات

(١) في (ز): العبد.

(٢) سقطت في (ط).

(٣) كتاب السماع الطبيعي أو الطبيعة هو كتاب من تصنيف أرسطوطاليس، ويعتبر كتابه الرئيسي في الطبيعيات. يقع في ثماني مقالات. نُقل الكتاب إلى العربية ضمن حركة الترجمة من قبل إسحق بن حنين. كما شرحه عدد من الفلاسفة المسلمين، منهم أبو نصر الفارابي وابن الهيثم.

(٤) في (ز): سائرة.

(٥) ساقطة في (ز).

(٦) في (ز): تعالى.

(٧) في (ز): (وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة، والابتداء بالنبات في قبول...).

في قبول هذا الأثر الشريف هو لما^(١) نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذر، ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش؛ وذلك أنه في أفق الجماد. والفرق بينهما هو هذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة في قبول أثر^(٢) النفس. ولا يزال هذا الأثر يقوى في نبات آخر يليه في الشرف إلى أن يصير له من القوة في الحركة إلى أن يتفرع، وينبسط، ويتشعب، ويحفظ نوعه بالبذر ويظهر فيه أثر الحكمة^(٣) أكثر مما ظهر في الأول. ولا يزال هذا المعنى يزداد في شيء بعد شيء ظهوراً، إلى أن يصير إلى الشجر الذي له ساق، وورق، وثمر يحفظ نوعه، وغواش يصونه بها بحسب حاجته إليها، وهذا هو الوسط من المنازل. إلا أن [أول هذه المرتبة]^(٤) متصلة بما قبله، وهو في أفقه، وهو ما كان من الشجر على الجبال وفي البراري المنقطعة، وفي الغياض، وجزائر البحار، لا يحتاج إلى غرس، بل ينبت لذاته، وإن كان يحفظ [نوعه]^(٥) بالبذر وهو ثقل الحركة، بطيء النشوء، ثم يتدرج من هذه المنزلة، ويقوى هذا الأثر فيه، ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهي إلى الأشجار الكريمة التي يحتاج إلى عناية من استطابة التربة، واستعذاب الماء، والهواء؛ لاعتدال مزاجها، وإلى صيانة ثمرتها إلى أن تحفظ بها نوعها؛ كالزيتون، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والتين، والعنب، وأشباهاها. ويتدرج أيضاً في قبول هذا الأثر، وظهور الشرف إلى أن ينتهي إلى رتبة الكرم والنخل. فإذا انتهى إلى ذلك، صار في الأفق الأعلى من النبات، وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر، لم يبق له صورة النبات، وقَبْلَ حينئذ صورة الحيوان، وذلك أن النخل قد بلغ من شرفه على النبات إلى أن حصلت فيه نسبة قوية من الحيوان ومشابه كثيرة منه.

(١) في (ز): ما.

(٢) في (ط): أصر.

(٣) في (ط): الحركة.

(٤) سقطت في (ط).

(٥) سقطت في (ط).

أولها: أن الذكر منه متميز من الأنثى، وأنه يحتاج إلى التلقيح ليتم حمله، وهو كالسِّفاد في الحيوان. وله مع ذلك مبدأ آخر غير عروقه وأصله؛ أعني الجَمَّار^(١) الذي هو كالدماغ من الحيوان، فإن عرضت له آفة تلف، وليس كذلك سائر الأشجار؛ لأن لتلك مبدأً واحدًا وهو الأصل الثابت في الأرض، فما دام ذلك الأصل ثابتًا على حاله، لم يتعرض له آفة، فهو باقي الحياة، ونور النخل المسمى طلعا، وبه تلقح النخلة شبيه الرائحة ببذر الحيوان. وقد أحصيت للنخل خصلا آخر كثيرة ليشابه بها الحيوان، ليس هذا موضع إحصائها، وإلى هذا المعنى يتوجه قول النبي ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من بقية طينة آدم»^(٢).

فقد تبين بلوغ النخلة غاية الموضوع^(٣) للنبات مبلغه، حتى صار في أفق الحيوان، وهذه الرتبة الأخيرة من النبات، وإن كانت غاية شرفه، فإنها أول أفق الحيوان، وهي أدون مراتبه، وأخسها؛ وذلك أن أول ما يرتقي النبات من منزلته الأخيرة ويتميز به من مراتبه^(٤) الأوّل هو أن ينقلع من الأرض، ولا يحتاج إلى إثبات العروق فيها بما يحصل له من التصرف بالحركة الاختيارية، وهذه الرتبة الأولى من الحيوانية ضعيفة لضعف أثر الحس فيها، وإنما يظهر فيها بجهة واحدة؛ أعني حسًا واحدًا، وهو الحس العام الذي يقال له حس اللمس؛ وذلك كالصدف الذي يوجد في شاطئ الأنهار، وأسياف البحار، وإنما تعرف حيوانيته، ويعلم أنه ذو حس واحد من أجل أنه إن استلب من موضعه بسرعة وعلى عجلة وخفة فارق موضعه، واستجاب للأخذ، وإن أخذ بإبطاء،

(١) الجمار (لب النخيل) هو القمة النامية في النخلة تكون في أعلى الجذع، تستخرج بعد قطع النخلة، وهي مادة سليلوزية بيضاء اللون تقطع كشرائح رقيقة وتؤكل.

(٢) أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (١/ ٣٥٣)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم في ((ال تفسير)) (٧/ ٢٤٠٦) واللفظ له. خلاصة حكم المحدث: فيه مسرور بن سعيد التميمي قال ابن عدي منكر الحديث، وقال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج بمن يرويه. وذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (٤٨٩) وقال: في إسناده منكر الحديث.

(٣) في (ح): غاية الموضوع.

(٤) في (ز): مراتب.

وعلى الترتيب لزم موضعه وتمسك؛ وذلك لأنه يحس بأن لاساً يريد أخذه، فيصعب حيثئذ جذبه وتناوله من مكانه لتشبثه به، وهو يضعف عن التنقل وإن كان قد يقلع من الأرض، وصارت له حياة ما؛ لأنه في الأفق القريب من النبات، وفيه مناسبة منه، ثم يرتقي عن هذه الرتبة إلى أن ينتقل، ويتحرك، ويقوى فيه قوة الحس، ويظهر أثر النفس، فينتقل ويلتمس منافع ويصير له حسان كالوددة، وكثير من الفراش والديب، ثم يرتقي عن هذه الرتبة أيضاً، ويقوى أثر النفس فيه إلى أن يصير منه الحيوان الذي له أربع حواس كالخُلْد^(١) وما أشبهه، ثم يرتقي من ذلك إلى أن يصير له من حس البصر شيء يسير ضعيف كالنمل، والنحل، والحيوان الذي على عيونه شبه الخنزف، وليست لها أجفان، ولا ما يستر أحداقها^(٢)، ثم يقوى ذلك إلى أن يصير منه الحيوان الكامل ذو الحواس الخمس، وهي مع ذلك متفاوتة المراتب، فمنها الجافية الحواس البليدة، ومنها الذكية المطيعة التي تستجيب للتأديب، وتقبل الأمر والنهي، وتستعد لقبول أثر النطق، والتميز، كالفرس من البهائم، والبازي من الطيور، ثم يعزب من آخر مرتبة البهائم، ويصير في أفقه الأعلى، وفي أول^(٣) مرتبة الإنسان.

وهذه الرتبة، وإن كانت شريفة من مراتب الحيوانات وهي أعلاها وأفضلها، فهي رتبة خسيصة من مرتبة الإنسان وهي مراتب القردة وأشباهها من الحيوانات التي قاربت الإنسانية، وليس بينها وبينها إلا اليسير الذي إن تجاوزته صارت إنساناً، فإذا بلغه انتصبت قامته، وظهر فيه من قوة التميز الشيء اليسير الذي يناسب حالته، وقربه من أفق البهائم، ولكنه على حال يهتدي فضل اهتداء إلى المعارف، ويقوى فيه أثر النفس، ويقبل التأديب بالفهم والتميز. وهذا الأثر وإن كان شريفاً بالإضافة

(١) الخُلْد أو أكل البق أو الفأر الأعمى: حيوان صغير من الثدييات آكلة الحشرات والديدان، وهو من الحيوانات مدركة الأنف. حجمه صغير حيث يصل طوله إلى حوالي ١٤ سم، له رقبة قصيرة جداً ورأس غائص بين كتفيه.

(٢) في (ط): ولا ما ينستر في أحداقها.

(٣) في (ل): الأول.

إلى ما دونه من رتب البهائم فهو خسيس دني جداً، بالإضافة إلى الإنسان الكامل النطق، وهذه المرتبة الأدنى من مرتبة الإنسانية، هي في أفق البهيمية، وهي في أقصى المعمورة^(١) من الأرض في أطرافها من الشمال والجنوب كالترك والزنج فإن هؤلاء ليس بينهم وبين الرتبة الأخيرة من البهائم التي ذكرناها كثير [فرق]^(٢)، وليس يهتدون بالتمييز إلى كثير شيء من المنافع، وليس يُؤثر فيهم حكمة^(٣)، ولا يقبلونها أيضًا من الأمم التي تجاورهم، فلذلك ساءت أحوالهم، فقل تنعمهم، وحصلوا غير مغبوطين ولا مستصلحين لغير العبودية، والاستخدام فيما يستخدم فيه البهيمية، ثم لا يزال أثر النطق يظهر ويزيد إلى وسط المعمورة في الإقليم الثالث والرابع، [فحينئذ يكمل هذا الأثر ويصير بحيث يراه من الذكاء]^(٤) والفهم والتيقظ في الأمور من الكيس في الصناعات واستخراج غوامض العلوم، والاتساع في المعارف، ثم يقع التفاوت في هذه الرتبة، حتى يبلغ منها إلى حيث يومي إلى الواحد الواحد في سرعة الهاجس وقوة الحدس، واستقامة النظر، وصحة الفكر، وجودة الحكم على الأمور الكائنة، والإخبار بالأحوال المستقبلية حتى يقال: فلان ألمعي، فلان محدس، وكأنما ينظر من وراء ستر رقيق.

كما قال الشاعر^(٥):

الألمعي الذي يظن لك الظَّ
نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

(١) في كل النسخ: (المعمورة).

(٢) سقطت في (ط).

(٣) في (ح): وليس يؤثر فيهم شيء من الحكمة.

(٤) سقط في (ط).

(٥) يريد الشاعر الأوس بن حجر، فإن البيت من قصيدة له يرثي بها فضالة بن كعب بن كلفة، أولها:

أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعَا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
إِنَّ الَّذِي جَمَعَ السَّمَاةَ وَالنَّ جُدَّةَ وَالْحَزْمَ وَالْقَوَى جُمَعَا
الألمعي الذي يظن لك الظَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

فإذا بلغ الإنسان هذه الرتبة، فقد قارب البلوغ إلى أول أفق الملائكة، ولم يبق بينه وبين مرتبتهم الأعلى إلا درجات يسيرة. فإذا رتبنا قوى العالم الصغير أي شخص الإنسان، وشرحنا اتصال قواه بعضها ببعض مع ما شرحنا من كيفية ارتقاء قوة الحواس منه، إلى ما هو أعلى منها ومنها إلى ما بعدها حتى يجاوز الملك، ويناسبه ويستمد منه، هناك يتبين مقام الإنسان ونهاية شرفه وكيفية مرتبته، في اتصال الروح القدس به، وقابليته لتجلي صفات الجمال والجلال، واستعداده في قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، واستحقاقه مسجودية الملائكة إن شاء الله تعالى.



الفصل الثاني

في أن [شخص] ^(١) الإنسان عالم صغير

اعلم أن شخص الإنسان بالنسبة إلى العالم بما فيه عالم صغير؛ لأنه نسخة العالم الكبير، بأن يوجد فيه جميع ما في العالم من العناصر الأربعة، ومثال من المعمور والخراب وأشباه من البر والبحر والجبال، ونظائر من الجماد والنبات والحيوان، وكأنه مختصر من الجميع، ومؤلف من الكل، بعضه ظاهر وبعضه خفي غامض، ونحن بتوفيق الله ومعونته، نورد من ذلك جملاً بقدر ما يطلع منه المتأمل على صحة ذلك، ولا يخرجنا من حد الإيجاز، فإن الكلام في شرح ما ادعينا طويل عريض.

فنقول:

إن الإنسان لما كان مُركَّباً لم يجز أن توجد العناصر فيه بسيطة؛ لأنها لو وجدت فيه بسيطة لحلَّلتها سريعاً، يعني الجزء من النار البسيط ^(٢) بعينه إذا جاوز المركب منه ومن غيره حلَّله وردَّه بسيطاً، وكذلك حال الباقيات، وإن كانت النار أظهر فعلاً، فلما لم يكن ذلك، وجب أن توجد فيه مركبة، وإذا نظرنا في ذلك وجدنا في الإنسان ما يجري مجرى النار في الحر واليبس، ومجرى الأرض في البرد واليبس، ومجرى الهواء في الحر والرطوبة، ومجرى الماء في البرد والرطوبة.

(١) سقطت في (ز).

(٢) في (ح): البسيطة. وفي (ل): والبسيطة.

أمّا ما يجري مجرى النار منه، فالمرارة المعلقة بالكبد؛ لأنها حارة يابسة، وهو مستقر هذا الخلط، ومفيضة من جميع البدن، وأمّا ما يجري مجرى الأرض، فالطحال؛ لأنه بارد يابس، وهو أيضًا مستقر هذا النوع من الأخلاط ومفيضة من البدن، وأمّا ما يجري مجرى الهواء، فالدم الذي في العروق؛ لأنه حار رطب، وأمّا ما يجري مجرى الماء، فهو البلغم ولم يفرد له وعاء يخصّه كما عمل له في الثلاثة الأركان الأخر من أجل أنه مستعد لأن ينهضم، وإذا انهضم صار غذاءً تامًّا، ولم يكن فضلة كتلك الأخر. وبنوع آخر من الاعتبار قلنا القلب معدن الحرارة واليبس وهو بطبع النار، والكبد معدن الحرارة والرطوبة، وهو بطبع الهواء، والدماغ معدن البرودة والرطوبة، وهو بطبع الماء، والعظام معدن البرد واليبس [وهي بطبع الأرض. وكان هذه الأربعة الأصول أوائل الملك الأربعة]^(١) وتلك فروعها.

فأمّا مثالات أجزاء ما في العالم الكبير، فإن الرطوبات^(٢) التي تخرج من العين والفم، تجري مجرى العيون في الأرض، وبخار البدن يجري مجرى السحاب، والعرق يجري مجرى المطر.

فأمّا عروق البدن، فإن كبارها تجري مجرى الأودية، وصغارها يجري مجرى الأنهار والجداول.

وأمّا الشعر فهو جاري مجرى النبات، والحيوان الذي يتولد من ظاهر البدن يجري مجرى حيوان البر، والحيوان الذي يتولد في باطنه يجري مجرى حيوان البحر، ونصف البدن المقدم الذي فيه الوجه يجري مجرى العامر من الأرض الذي فيه البلدان، ونصفه المؤخر الذي فيه القفا يجري مجرى الخراب الذي فيه البوادي.

فأمّا العين فتجري مجرى كوكب بناظرها وشعاعها، وطبقات العين تجري مجرى

(١) سقطت في (ط).

(٢) في (ز): الرطوبة.

أفلاك الكواكب، ويحدث في البدن جميع ما يحدث في العالم من الرياح والزلازل والظوفان، والرجفة أعني العطاس، والزكام، والحميات، وغيرها من أنواع مرض البدن. فلما كان في العالم الكبير أربع رياح: الريح الربيعي، والريح الصيفي، والريح الخريفي، والريح الشتوي.

• فالربيعي يلقيح الأشجار ويثمرها.

• والصيفي يطبخ الأثمار ويربها.

• والخريفي يصفر الأوراق ويجففها.

• والشتوي يسقطها.

فكذلك في العالم الصغير أربع رياح:

الجاذبة، والهاضمة، والماسكة، والدافعة.

فالجاذبة، تجذب الطعام إلى الحلق، وتؤديه إلى الهاضمة لتطبخه، وتهضمه، وتؤديه إلى الماسكة لتأخذ منافعه وتؤديه إلى كل موضع في البدن ما هو محله، وتؤدي ثقله^(١) إلى الدافعة لتخرجه.

فكما أن في العالم الكبير، لو لم يكن [فيه]^(٢) ريح من الرياح الأربع لخرب، كذلك لو لم يكن ريح من هذه الرياح في العالم الصغير لخرب. وكما أن في العالم الكبير أربعة مياه: مالح، ومر، وممتن، وعذب، كذلك في العالم الصغير أربعة مياه.

• مالح: وقد وضعه في العين بالحكمة؛ لأن في العين الشحم وعلاج الشحم بالملح.

• ووضع المر في الأذن ليصونها من الحشرات.

(١) في (ط): نقله. والثقل: ما يتبقى من المادة بعد عصرها.

(٢) سقطت في (ط).

• ووضع المتن في الأنف ليحفظ ما يتولد من الدماغ؛ لئلا يخرج منه، وليتميز به الروائح.

• ووضع العذب في الفم ليطيبه، ويقلب به اللسان في التكلم، ويتذوق الطعام للبلع.

وكما أن في العالم الكبير السماوات السبع، وفي كل سماء كوكب سيار، كذلك في العالم الصغير الرأس بمثابة السماوات، وهو مبني على الطبقات السبع، في كل طبقة منها قوة بمثابة كوكب سيار كالمتخيلة، والمتوهمة، والمتفكرة، والحافظة، والذاكرة، والمدبرة، والحس المشترك.

وكما أن في السماوات سكاناً من الملائكة، كذلك في الرأس سكان من الحواس: البصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس. ثم إن في البدن ما يتحرك من ذاته بالطبع ولا يسكن ألبته، كالقلب. ومنه ما هو ساكن بذاته بالطبع، ومنه ما يتحرك بالقهر وبالعرض كما في العالم الكبير. وإن القلب بمثابة العرش. والسرّ بمثابة الكرسي. واستواء الروح على عرش القلب بمثابة استواء الصفة الرحمانية على العرش.

فأما ما يختص من البدن بالروح الاثني عشر، والكواكب السبعة لما فيه من طبائعها، وأمثلتها، فقد ذكره المنجمون واستقصوه، وأما شكل البدن كله، وما كان يجب من استدارته لتشبهه بالعالم الكبير، وتشاركه في شرف هذا الشكل، وفضله على جميع الأشكال. وإن كان حاصلًا بأن طوله وعرضه من حيث يبسط يديه، متساويان.

فالمقصود من جميع بدن الإنسان هو الرأس الذي خُلق مستديرًا وهو تام كامل، فيه الحواس الخمس. وفيه يظهر آثار الإنسانية؛ من التمييز، والفهم، والذكر، والفكر، وبالجملة جميع قوى النفس. إلا أنه لو أفرد خلقه ولم يوصل بسائر أجزاء البدن لما تمت حياته مدة طويلة، ولعرضت له الآفات الكثيرة في الزمان اليسير؛ وذلك لحاجته

إلى الانتقال والسعي، وتناول الحاجات، ودفع الأذيات، وليس له تميم^(١) ذلك إلا بالحركة، وحركة المستدير نحو حاجاته تكون بالتدحرج، وفيه من التعرض للآفات ما لا خفاء فيه. وهو مع ذلك يحتاج إلى حرارة تحفظ عليه اعتدالاً خاصاً، ومزاجاً مفروضاً، وتلك الحرارة لطيفة جداً. وكان ينبغي أن تكون [في]^(٢) الوسط كالمركز لتنتشر إلى أطراف الكرة بالسواء، وتحفظ عليه مزاجه، وجوهر الدماغ بارد رطب لا يصلح إلا بذلك. فلو جُعِلَت تلك الحرارة اللطيفة في وسطه لأطفأها سريعاً، وتلف الإنسان. وأيضاً إن الحرارة إذا جاورت^(٣) الرطوبة أحدثت البخارات الكثيرة، والبخارات إذا لم تجد منافذ إلى الهواء عادت على الحرارة فأطفأتها للوقت، فوجب من هذه الأشياء، ومن غيرها، مما يطول ذكرها أن تبعد تلك الحرارة، ولما أبعدت احتجنا^(٤) أن يوصل بينهما وبين جوهر الدماغ بمجارٍ ومنافذ تجري مجرى الكوى^(٥) وهي الشريانات التي بين القلب وبينه، ولما فعل ذلك احتيج إلى زيادة في الحرارة، وقوتها؛ إذ كانت تصل إلى هناك في مسافة طويلة، وقد نقص بعض سورتها فجعل في القلب حرارة أزيد ليصل إلى الدماغ منها قدر الحاجة منها، والكفاية لحفظ مزاجه، ولما زيدت هذه الحرارة احدثت فحصل فيها مما يجاوزها^(٦) من جوهر القلب بخار دخاني، فاحتاج إلى نافخ ينفي عنها أبداً بالنفخ البخار الدخاني ويجتلب إليها الهواء الموافق لها، الذي يبقى فيه، فلذلك خلقت الرئة وآلة النفس لتروح الحرارة، وتخدمها في أسباب البقاء. ولما احتاج إلى الغذاء الموافق لرد العوض عما تحلل منه بالحرارة خلقت له آلات الغذاء وتوابعه، وما يخدمه في جميع ذلك من الرجلين للسعي إلى

(١) في (ز، ل): يتم.

(٢) سقطت في (ط).

(٣) في (ل، ح): جاوزت. والتصويب من (ز).

(٤) في (ل): احتجبت. وفي (ز): احتجت.

(٥) الكوى: مفرد الكوة وهي خَرَقٌ فِي الجدار، ثَلَمَةٌ، فَتْحَةٌ، نافذة للتهوية والإضاءة ونحوهما.

(٦) في (ح): يجاورها.

المؤثر والهرب من المكروه، واليدين لتناول المنافع ودفع المضار وجميع ما بُيِّن في كتاب «منافع الأعضاء»^(١) من جليلها^(٢)، ودقيقها، ظاهرها وباطنها التي دلت على حكمة بالغة وقدرة تامة وتدبير غامض، وصنع لطيف. وهذا القدر من الكلام كافٍ في أن الإنسان عالم صغير؛ إذ قد ظهر ذلك، وقد ظهر أن قواه متصلة كاتصال العالم الكبير وأنها مرتقية من أدنى مراتبها إلى أقصاها كما بيّنا في فصل كيفية ارتقاء الحواس.

ثم اعلم أن تسوية قلب الإنسان إذا تمت وتعلق الروح بالقلب بالتمام، واستعد لقبول الفيض الإلهي كما سنبينه في فصل التسوية إن شاء الله تعالى، ليظهر مقام الإنسان، وأنه هو العالم الكبير.

والله ولي الهداية والتوفيق.



(١) كتاب (منافع الأعضاء) لجالينوس.

(٢) في (ز): جليها. وفي (ل): جليها. والتصويب من (ح). والجليل من الأشياء هو العظيم ويقابل الدقيق منها.

الفصل الثالث

في تسوية القالب وتعلق الروح به

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله خَمَرَ طينة آدم بيده أربعين صباحًا»^(١).

اعلم أن الحكمة في خلقه العالم بما فيه، كانت لخلق الإنسان؛ لأنه هو المخلوق المستعد لقبول الفيض الإلهي، الذي به يكون عارفًا لله عز وجل؛ فإنه مرآة صفات جمال الله وجلاله، ومظهر صفات لطفه وقهره، وهو الناظر في مرآة نفسه، ومشاهد جمال الله وجلاله فيها بنور الفيض الإلهي، فيكون عارفًا نفسه بالمرآتية، وربّه بذِي الجمالية والجلالية. وأنه هو الناظر والمنظور إليه، كما قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٢).

فالإنسان هو المحبوب المخلوق للمعرفة في قوله تعالى: «فأحببت أن أعرف

(١) قال الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي. وإسناده ضعيف جدًا.. ثم قال: وهو باطل.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، والخاري في (التاريخ الكبير) (٣٥٤/٧)، والعقيلي في (الضعفاء الكبير) (١٢٩/٤). وقال العقيلي في الضعفاء الكبير (١٢٩/٤): فيه محمد بن كثير الكوفي قال البخاري: منكر الحديث.

فخلقت الخلق لأعرف»^(١).

ثم اعلم أن بدء^(٢) تسوية قالب الإنسان، من حين أن الله تعالى نظر إلى الجوهرة التي خلقها أولاً فجمدت وصارت حمراء، ثم نظر ثانياً، فذابت وارتعدت من خوفها فصارت ماءً، ثم نظر إليها نظر الرحمة فجمد نصفها فخلق منه العرش، فارتعد العرش فكتب الله عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فسكن العرش، وترك الماء على حالته يرتعد إلى يوم القيامة. وفي العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى، هكذا جاءوا بالحقيقة، أن تلك الجوهرة المخلوقة أولاً، هي روح النبي ﷺ الذي خلق منه جميع الموجودات كما مر ذكره عن حديث جابر، وإنما سكن العرش لما كتب الله عليه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ لأنه خلق من نوره، وبقدرة الله. فبنور اسم الله عليه، واسم محمد ﷺ سكن؛ ولأن العرش وما دونه خلق لتهيئاً مرآة صفات الألوهية وتسويتها، وهي قالب (محمد ﷺ) وقلبه المعبأة بالقوة في العرش. ولهذا قال: وفي العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى؛ أي فيه بالقوة، ثم يخرج منه إلى الفعل بالتدريج، فسكن العرش بتلك الكتابة؛ لنيل كمال أعده الله تعالى له. فمن بدء^(٣) النظرات إلى الجوهرة، وتغير أحوالها، في أطوار مختلفة، كان الله تعالى وتبارك في تهيئ أسباب القالب الإنساني، وتسويته ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] كما مر بعض شرحها في الفصول المتقدمة، [فلما أتى]^(٤) أو أن تخمير طينة القالب الإنساني، بعث إلى الأرض «عزرائيل» عليه السلام بعدما رجع «جبريل» و«ميكائيل» عليهما السلام، كما جاء في الحديث: فأخذ عزرائيل قبضة تراب سلّها من جميع وجه الأرض، وطرحها وسط الأرض، وهو بين مكة والطائف؛ لأنه جذبها من أطراف

(١) سبقت إفاضة إليه، وأنه من قول داود عليه السلام.

(٢) في (ل): بدوء. وفي (ز): بدو.

(٣) في جميع النسخ: بدو.

(٤) إضافة من المحقق.

الأرض ونواحيها إلى وسطها وسرّتها، وكان عزرائيل يومئذ يتولى القبضه، ولم يعبأ بشكاية الأرض مما نقص منها في الحديث. كذلك هو يتولى قبض الأرواح من أجسادها إلى القيامة، حتى يرد جميع ودائع الأرض إليها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] الآية.

فما من أحد إلا ويدفن في التربة التي خلق منها، على ما جاء في الحديث، ولما نظر الله سبحانه إلى الأرض بعد خلقها نظر الرحمة كان الذي قبضه عزرائيل من الذرات بمواقع نظرة الله تعالى، وهي أديم الأرض كلها، ولجلدة الأرض ظاهر وباطن يسمى ظاهرها بشرة، وباطنها أدمة يُسمى المخلوق منها آدم باعتبار خلقه من أدمة الأرض، وهي طرف جلدها بما يلي الباطن، وسمي بشراً باعتبار خلقه من بشرتها الظاهرة، فقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

وفيه نكتة، وهي أن [ذرات] ^(١) بشرة الأرض ظاهرة، وذرات أدمتها باطنة، فكانت البشرية من الإنسان عبارة عن صورته ^(٢) الظاهرة، وآدميته عبارة عن أخلاقها الحميدة في الباطن.

وقال «محمد بن عبد الله الترمذي» ^(٣) في كتاب «غور الأمور»:

«إن إبليس كان يمشي على وجه الأرض فبعض مواضع الأرض مس قدميه، وصار

(١) سقطت في (ح).

(٢) في (ز): صورة.

(٣) الإمام، الحافظ، العارف، الزاهد أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، الحكيم الترمذي. حدث عن: أبيه، وقتيبة بن سعيد، وعلي بن حجر، وصالح بن عبد الله الترمذي، وعتبة بن عبد الله المروزي، وسفيان بن وكيع، وعباد بن يعقوب الرواجني وطبقتهم. وكان ذا رحلة ومعرفة، وله مصنفات وفضائل، وله حكم ومواعظ وجلالة، لولا هفوة بدت منه.

من كلامه: ليس في الدنيا حمل أثقل من البرِّ، فمن برِّك، فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك.

وقال: كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره.

وقال: من جهل أوصاف العبودية، فهو بنعوت أوصاف الربانية أجهل. (انظر سير أعلام النبلاء: ١٣ / ٤٤٠).

موطئ رجله، وبعضها صار بين قدميه، وبعضها لم يصل إليه قدمه، ولا ظله. فالنفس الباطنة خلقت من تراب قدميه، والنفس الظاهرة، يعني القلب، خلقت مما بين قدميه حيث سامت^(١) ظله. وخلق القلب من تراب لم يصل إليه قدم إبليس، [لعنه الله]^(٢)، ولا ظله. وهو التراب المنظور إليه نظر الرحمة».

قال: «وهذا مثل آدم، عليه السلام، لما أهبط إلى الأرض جال جميع الدنيا فما وطئ عليه قدمه نالته رحمة وبركة، فصار بلدة، ومدينة، وما كان بين قدميه من الأرض صار قرى وسبلاً، وما لم تصل إليه من الأرض صار مفاوز».

وروي عن بعض الكبراء أن محل المعرفة من الإنسان هو الذرة التي نظر إليها الرحمن يوم جمد الماء أرضاً وباقي جسده توابعها، وذلك مما لم يصبها قدم إبليس وظله، وهو لب القلب في الحبة السوداء، وعلى تلك يدور العود والإنشاء.

قلت^(٣): وهي الذرة التي استخرجت من ظهر آدم، وخوطبت بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأخذ منها الميثاق على جواب ﴿بَلَى﴾ [البقرة: ٨١].

واعلم أن جميع الذرات المأخوذة من بشرة الأرض أودعت ظهر آدم، عليه السلام، وكذلك كانت جثته أعظم الخلق وقامته أطول، حتى روي أن رأسه كان يصطك^(٤) بالسحاب فصلع لذلك، ثم تصاغر أولاده شيئاً فشيئاً.

ولما أودعت ذرات الذرية في طينة آدم وهي في التخمير، ومعنى التخمير تعجينها بما أودع وأشرب في جبلتها من الأخلاق والمعاني والخواص التي هي مودعة في الملائكة المقربين، والشياطين المتمردين، والحيوانات المتنوعة، والنباتات المختلفة، والسموات والأرضين، وما فيهن من الأفلاك، والأنجم، والبروج،

(١) في (ز، ل): سامته.

(٢) سقطت في (ز).

(٣) في (ز، ل): قال الشيخ المصنف رضي الله عنه.

(٤) في (ط): رأسه يحتك.

والمعادن، والفلزات^(١)، والجنان بما فيها من أنواع النعيم، والنيران بما فيها من العذاب الأليم. ولهذا كرم ظاهر آدم، عليه السلام، عند تخمير طينته بمباشرة يديه، وهما صفتا اللطف والقهر، ليودع في طينته ما هو من نتائج لطفه وقهره، ليجعله مظهرًا لصفات لطفه وقهره، الذي هو مختص به، من بين سائر الموجودات في بدء الخلافة. وسيجيء شرحها في موضعها إن شاء الله تعالى، خصه بأربعين صباحًا؛ لأنها نهاية كمال الأعداد، وذلك أن كمال مراتب الأعداد أربعة: الواحد، والعشرة، والمائة، والألف.

والعشرة عدد كامل من الأحاد لقوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فإذا كرر أربع مرات بلغت النهاية في الكمال. وقوله: أربعين صباحًا، فيه سر عجيب، وهو أن الله تعالى رش في مدة التخمير كل صبيحة رشة من نوره على طينة آدم عليه السلام، والصبيحة وقت ظهور الأنوار، وهبوب نفحات الأسحار. وكانت ذرات أولاده مختلطة مختمرة بطينته، والطينة مظلمة، فمن أصابه من ذلك النور في صباحه اهتدى وهم السعداء، والذين لم يصبهم من رشاش ذلك النور بقوا في ظلام طينتهم، ولم يسفر لهم صبح قط، وهم الأشقياء.

وفي المثل السائر: «ليس للعمى صباح».

ومما يدل على هذه الجملة قول النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن لم يصبه ضل وغوى...»^(٢).

وفي بعض الروايات أن أربعين صباحًا كانت أربعين ألف سنة، يعني كل يوم منها ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

(١) في (ز): الفلوات.

(٢) رواه الترمذي، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢)، ورواه البيهقي، كتاب السير، باب مبتدأ الخلق (١٧٧١٠).

فكما قررنا دارت مراتب التسوية، من بدء النظرات إلى الجوهرة في أطوارها المختلفة، إلى أن بلغت بتدبير الصانع الحكيم إلى أفق الجماد، ثم ترتقي في قبول أثر النفس إلى رتبة أثر النباتية، ثم إلى أفق الحيوانية، ثم إلى أفق الملكية، ثم إلى أفق الإنسانية، بعد تمام التسوية، وذلك بأن يجعله قابلاً للفيض الإلهي بلا واسطة عند تعلق الروح بالقلب تعلقاً تاماً بالنفخة الخاصة. وإنما قلنا تاماً لأن تعلق روح ذريات^(١) آدم يكون بالتدرج على قدر تسوية قلوبهم من حين وقوع النطفة في الرحم، إلى أن تصير جنيناً، إلى أن تبلغ حد البلاغة. وكان تعلق روح آدم عليه السلام بقلبه بعد كمال التسوية بمرة واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فصار قابلاً للفيض الإلهي، بأن يتجلى فيه كما قال ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم فتجلى فيه»^(٢).

ولهذا بلغ رتبة المسجودية، التي من صفات الربوبية بقوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

وقد نال هذه الرتبة بسر الخلافة، وهذا كمال مقام الإنسان الذي خلق للمعرفة، وخلق ما سواه بتبعيته، كما خلقت الشجرة بتبعية الثمرة، ولئن أمعنت النظر وجدت الشجرة بأسرها الثمرة؛ لأنها كانت في الثمرة مخبأة بالقوة، فخرجت بالتربية إلى الفعل، فكذلك شجرة الموجودات، كانت معبأة بالقوة في ثمرتها وهي الروح الإنساني فخرجت بالتربية إلى الفعل، فإن أمعنت النظر وجدت الإنسان عالماً كبيراً، ووجدت العالم إنساناً كبيراً.

(١) في (ز): بذريات.

(٢) لم أجد بهذا اللفظ، وفي البخاري (٦٢٢٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤١): «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: أَذْهَبَ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَدِكَ، النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحْيِيَّتُكَ وَنَحْيَةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَادَوْهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَ حَتَّى الْآنَ».

كما قلت هذا المعنى في رباعية بالأعجمية^(١):

يا من أنت صورة الأمر الإلهي ويا من أنت مرآة الجمال الإلهي
كل شيء موجود في العالم ليس إلا أنت فاطلب في ذاتك كل شيء تريد أن تكون
فإن قيل: إذا بلغ كل إنسان حد بلاغته هل يستحق أن يتجلى الله فيه، كما تجلى في
آدم، عليه السلام، أم لا؟.

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما:

أن من سنة الله تعالى أنه جعل حد بلاغ الرجال البالغين المستحقين لتجلي صفات
ربوبيته أربعين سنة.

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وفي هذا السن تتم التسوية للقلب، ويتعلق به الروح بالكمال، فإن لم تكن مرآة قلبه
مصدأة^(٢) برين الشرك والمعاصي، ومكدرة بظلمة صفات بشريته، وخواص أو صاف
طبيعته، بل تكون مصقولة بمصقل لا إله إلا الله، مصفاة عن دنس تعلقات الكونين
فتستحق لتجلي ذات الله وصفاته فضلاً منه ورحمة، وإن شرف أحد بهذا الشرف قبل
بلوغ أربعين سنة، فذلك من النوادر، ولا حكم للنادر^(٣). والله أعلم.

والجواب الثاني:

أن آدم، عليه السلام، خلق حين خلق خلقاً تاماً، وتسويته كانت تامة، وتعلق روحه
بقالبه بالكمال، ولم تصدأ مرآة قلبه برين المكاسب الحيوانية، وأنه لما صعد روحه
إلى دماغه عطس، فأول فعل صدر منه كان نورانياً، وهو قوله: «الحمد لله»، فتنورت

(١) كتب المؤلف هذين البيتين باللغة الفارسية، وقد ترجمتهما لنا مشكورة د. منال اليميني عبد العزيز، أستاذ
الأدب الفارسي بكلية الآداب.

(٢) في (ز): مصفاة.

(٣) في (ح): والنوادر لا حكم لها.

مرآة قلبه، بنور ثناء الحق تعالى، [وهو]^(١) مخ الشرع. فبنور الشرع زالت ظلمة الطبع^(٢)، فاستحق لتجلي ربوبية الحق على مقتضى سنن^(٣) كرمه.

كما قال: «من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»^(٤)، فلما تقرب آدم عليه السلام إلى الله تعالى بالحمد والثناء، تقرب إليه الله بقوله: «يرحمك ربك».

فبرحمته عليه تجلى فيه بربوبيته وجميع صفاته، وهذا حقيقة قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وبنيل هذه الرتبة جاوز أفق الملائكة؛ لأنهم بمعزل عن هذه المرتبة؛ إذ قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

ومن هنا وجد رتبة مسجودية الملائكة، وأيد بروح القدس، واختص باستحقاق الخلافة دون الملائكة المقربين.

كما نشرح في مقام الخلافة، إن شاء الله تعالى.



(١) ساقطة في (ز).

(٢) في (ز): طبع.

(٣) في (ز): سنة.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) ولفظ مسلم: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهُ لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْقَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُؤُلُ».

الباب السادس

في مقام الخلافة المختصة بالإنسان

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ماهية الخلافة.

الفصل الثاني: في اختصاص الإنسان بالخلافة.

الفصل الثالث: في تفاوت الخلافة ودرجاتها.

الفصل الأول

في ماهية الخلافة

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاث وثلاثون سنة، وبعدها ملك وجبروت»^(١).

اعلم أن حقيقة الخلافة مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها: الفناء، وثانيها: البقاء، وثالثها: الثبات على قدم التسليم والرضى.

– فأمَّا الفناء: فبأن يكون فانيًا عن أقواله، وأفعاله، وأحواله.

– وأمَّا البقاء: فبأن يكون باقيًا بأفعال مستخلفه، وأقواله، وأحواله^(٢)، فلا يفعل إلَّا

ما يؤمر، ولا يقول إلَّا ما يؤذن، ولا يتحرك في حال من أحواله إلَّا فيما يناسب أحوال مستخلفه.

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، وعند أبي داود بلفظ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء أو ملكه من يشاء». وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: حسن صحيح. وفي سنن الترمذي (٢٢٢٦): «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك».

(٢) في (ز): وأفعاله.

- وأما الثبات على قدم التسليم والرضا: فبأن يخالف هواه في طلب رضا مستخلفه ومولاه.

ثم اعلم أن هذه الأصول الثلاثة لا تتيسر للخليفة إلا بتيسير المستخلف بأن يجعله فائياً عنه، باقياً به، وبثباته على قدم التسليم، وترضيه عن نفسه برضاء نفسه عنه لتحقيق قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

أي لما رضي المستخلف عن الخليفة بالأصالة رضي المُستخلف بالخلافة، لتحقيق خلافته^(١).

والله أعلم بالصواب.



(١) كان في هذه العبارة اضطراب في النسخة (ل، ز) والنسخة المطبوعة، والضبط من النسخة (ح).

الفصل الثاني

في اختصاص الإنسان بالخلافة

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] الآية.

اعلم أن الله تعالى لاختصاص الإنسان بالخلافة، قال:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ليعلم أن المختص بالخلافة من يكون أرضياً سماوياً مثل الإنسان، لا سماوياً كالملائكة، ولا أرضياً كالحيوانات، وإنما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ وما قال: إني خالق لمعنيين:

أحدهما: لأن الجاعلية أعم من [الخالقية]^(١)، فإن الجاعلية هي [الخالقية]^(١)، وشيء آخر، وهو أن يخلقه موصوفاً بصفة الخلافة؛ إذ ليس لكل مخلوق اختصاص بالخلافة، كما قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] [أي]^(٢) خلقناك مستعداً للخلافة، وأعطيناك مرتبتها.

والثاني: أن للجعلية^(٣) اختصاصاً بعالم الأمر وهو الملكوت وهو ضد عالم الخلق لأنه هو عالم الأجسام والمحسوسات، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ

(١) في (ط): الخلقية.

(٢) سقطت في (ط).

(٣) في (ط): للجاعلية.

الْخَلْقُ وَالْآخِرَةُ ﴿ [الأعراف: ٥٤] أي: الملك والملكوت، وأنه تعالى حيث ذكر ما هو مخصوص بعالم الأمر، ذكره بالجعلية^(١) لامتياز الأمر عن الخلق.

كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

[الأنعام: ١].

فلما كانت السماوات والأرض من الأجسام والمحسوسات، ذكرها بالخلقية، ولما كان الظلمات والنور من الملكوتيات ذكرها بالجعلية.

وإنما قلنا: إن الظلمات والنور من الملكوتيات لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وإنها من الملكوتيات لا من المحسوسات؛ لأن النور هو نور الروح أو نور الهداية والإيمان، والظلمات هي ظلمات صفات البشرية، أو ظلمات الكفر والضلالة، كما جاء في التفسير. وأما^(٢) الظلمات والنور المحسوسة، فإنها داخلة في خلق السماوات والأرض، فافهم جداً.

فكذلك لما أخبر الله تعالى عن جسمانية آدم، عليه السلام، ذكرها بالخلقية، كما قال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ولما أخبر عما يتعلق بروحانيته ذكره بالجاعلية، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وفي اختصاص الإنسان باسم الخلافة كرامة له لم توجد في شيء آخر من الموجودات.

وإنما سمي خليفة لمعنيين:

أحدهما: أنه يخلف عن جميع المخلوقات، ولا تخلفه المخلوقات بأسرها. وذلك لأن الله جمع فيه ما في العوالم كلها من الجسمانيات، والروحانيات، كما مر ذكره، فهو بالحقيقة خليفة كل شيء وأكرمه باختصاص كرامة نفخ روحه فيه، كما

(١) في (ط): الجاعلية.

(٢) في (ط): أو.

قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وما أكرم بهذا^(١) أحد من العالمين، وأشار إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فلهذا الاختصاص ما صلحت الموجودات بأسرها أن تكون خليفة لآدم عليه السلام، ولا للحق تبارك وتعالى.

والثاني: أنه يخلف وينوب عن الله تعالى، صورةً ومعنىً.

أما صورة: فوجوده في الظاهر يخلف عن وجود الحق في الحقيقة؛ لأن وجود الإنسان يدل على وجود موجدته، كالبناء يدل على [وجود]^(٢) الباني. وتخلف وحدانية الإنسان عن وحدانية الحق، وذاته عن ذاته، وصفاته عن صفاته، فتخلف حياته عن حياته، وقدرته عن قدرته، وإرادته عن إرادته، وسمعه عن سمعه، وبصره عن بصره، وكلامه عن كلامه، وعلمه عن علمه، ولا مكانية روحه عن لا مكانيته، ولا جهتيته عن لا جهتيته. وليس لنوع من المخلوقات أن يخلف عنه كما يخلف آدم. وإن وجد في بعضها بعض هذه الصفات؛ لأنه لا تجتمع صفات الحق في أحد كما تجتمع في الإنسان، ولا تتجلى صفة من صفاته لشيء كما تتجلى لمرآة قلب الإنسان وصفاته.

وأما معنى: فليس في العالم مصباح يستضيء بنار نور الله تعالى فتظهر أنوار صفاته في الأرض خلافةً عنه إلا مصباح الإنسان؛ فإنه مستعد لقبول فيض نور الله؛ لأنه أُعطي مصباح السرّ في زجاجة القلب، والزجاجة في مشكاة الجسد، وفي زجاجة القلب زيت الروح، يكاد زيتها يضيء من صفاء العقل، ولو لم تمسسه نار النور في مصباح السرّ فتيله الخفي، فإذا أراد الله أن يجعل في الأرض خليفة، يتجلى بنور جماله لمصباح السرّ الإنساني فيهدي الله لنوره فتيله الخفي^(٣) من يشاء فيستنير مصباحه بنار

(١) في (ز): بها.

(٢) سقطت في (ط).

(٣) في كل النسخ بدون ألف ولام.

نور الله، فهو على نور من ربه فيكون خليفة^(١) الله في أرضه، فيظهر^(٢) أنوار صفاته في هذا العالم، بالعدل والإحسان، والرأفة، والرحمة لمستحقها، وبالعزة، والقهر، والانتقام لمستحقها، كما قال تعالى في حق النبي ﷺ وأصحابه: ﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ولا تظهر هذه الصفات لا على الحيوانات، ولا على الملك. ناهيك عن هذا، حالة هاروت وماروت، لما أنكرا على ذرية آدم اتباع الهوى والظلم والقتل والفساد، وقالوا: لو كنا بدلاً عنهم خلفاء الأرض ما كنا نفعل مثل ما يفعلون، فאלله تعالى أنزلهما إلى الأرض وألبس^(٣) عليهما لباس البشرية، وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير حق، والزنا، وشرب الخمر.

قال «قتادة»^(٤): فما مر عليهما شهر حتى افتتنا، فشربا الخمر، وسفكا الدم، وزنيا، وقتلا، وسجدا للصنم.

(١) في (ز): خليف.

(٢) في (ل): ليظهر.

(٣) في (ز، ط): وليس. والتصويب من (ح).

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة أبو الخطاب السدوسي البصري رحمه الله. روى عن أنس بن مالك وأبي الطفيل وصفية بنت شيبه وسعيد بن المسيب وعكرمة وأبي الشعثاء جابر بن زيد وحמיד ابن عبد الرحمن بن عوف والحسن البصري وغيرهم.

وروى عنه أيوب السختياني وسليمان التيمي وجريز بن حازم وشعبة ومسعر ويزيد بن إبراهيم وهشام الدستوائي ومطر الوراق وهمام بن يحيى وسعيد بن أبي عروبة وخلائق.

ولد أكمه (مطموس العين)، لكنه كان آية في الحفظ، إماماً في الحديث والتفسير والفقه.

قال بكير بن عبد الله المزني: ما رأيت الذي هو أحفظ منه ولا أجدر أن يؤدي الحديث كما سمعه. وقال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس.

وقال أبو حاتم: سمعت أحمد ابن حنبل وذكر قتادة فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه وقال قلما تجد من يتقدمه.

وقال له سعيد بن المسيب: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك. وعن سفيان الثوري قال: وهل كان في الدنيا مثل قتادة. (انظر: تهذيب التهذيب: ٨ / ٣١٥-٣١٨) و(سير أعلام النبلاء: ٥ / ٢٧٥)

فثبت أن الإنسان مخصوص بالخلافة، وقبول فيض^(١) نور الله تعالى، فلو كان للملائكة هذه الخصوصية لم يفتتنا بهذه الأوصاف الذميمة الحيوانية والسبعية^(٢)، كما كان الأنبياء عليهم السلام معصومين عن مثل هذه الآفات، والأخلاق، وإن كانت البشرية لازمة لهم، ولكن بنور التجلي تنور مصباح قلوبهم واستنار بنور قلوبهم جميع مشكاة جسد^(٣) ظاهرًا، وباطنًا، وأشرقت أرض البشرية بنور ربها، فلم يبق لظلمات هذه الصفات مجال الظهور مع استعلاء النور.

فلما أفنى نور هوية الحق، تعالى، ظلمة أنانية وجودهم المجازي، وأبقاهم ببقائه تحقق لهم أنهم خلفاء الله في الأرض. وما لهم وجود حقيقي ولا لغيرهم، بل وجودهم وجود كل شيء قائم بخلافة وجود الحق، وما يصدر منهم من الأعمال، والأقوال، صادر بخلافة الحق تعالى، وبمشيئته^(٤)، وإرادته، وتقديره، وما لهم بالأصالة وجود، ولا فعل، وأنهم مختصون بهذه الخلافة، وليس للملائكة استحقاق هذه الخلافة؛ لأنهم محجوبون عن رؤية الحق بهذا النظر بحجاب رؤية وجود الأغيار وأفعالهم أصالة لا خلافة؛ وذلك لأن الله تعالى لما امتحنهم بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فلو لم يكونوا محجوبين، لما اعترضوا على الله، ولما أسندوا الأفعال إلى آدم، وإلى أنفسهم أصالة واستبدادًا^(٥)، بل أسندوها إلى الله تعالى، كما قال «موسى» عليه السلام: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِئْتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أسند

(١) سقطت في (ط).

(٢) سقطت في (ز).

(٣) في (ط): جسد^{هم}.

(٤) في (ط) بمشيئته بدون واو.

(٥) في (ل): واستعدادًا.

فعل^(١) الأغيار إلى الله تعالى؛ لأنه رأى الأغيار بنظر الخلافة.
والله أعلم.

* * *

(١) في (ز): أفعال.

الفصل الثالث

في تفاوت الخلافة ودرجاتها

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

اعلم أن الله تعالى أثبت الخلافة لعموم بني آدم بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ ثم جعلها على التفاوت فيما بينهم، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الخلافة، وذلك لأن حقيقة الخلافة هي التصرف في الملك والملكوت بنبابة الحق تعالى. ولما كان لله ملك وهو ظاهر الكون من الدنيا، وما فيها، وهو متصرف فيها، وله ملكوت، وهو باطن الكون من الآخرة وما فيها، وهو متصرف فيها، وجب أن يكون للخليفة آلات من الملكيات والملكوتيات ليتصرف بها في الملك والملكوت بالخلافة، كما يتصرف مستخلفه فيها بلا آلات، بل بقدرة كاملة [وإرادة شاملة، وقد منحه الله تعالى هذه الآلات تامة كاملة]^(١).

- وأما الآلات^(٢) الملكيات، فهي الأعضاء، والجوارح، والحواس الخمس، وما يتعلق بالجسد.

- وأما الآلات الملكوتيات، فهي القلب، والعقل، والسرّ، والروح، والخفي، والقوى البشرية، وما يتعلق بالروح.

(١) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٢) ساقطة في (ز).

ثم اعلم أن طبقات الخلفاء ثلاث طبقات: منهم [من]^(١) يستعملون الآلات الجسدانية فحسب وهم على صنفين:

- **صنف:** يستعملون بالخلافة على وفق أوامر مستخلفهم ونواهيهم في الخالقية بالنكاح^(٢)، وفي الرازقية بالزراعة والإنفاق^(٣). وفي الصانعية بالصنائع والحرف، وغير ذلك، فهؤلاء الذين سعيهم مشكور ولهم في حركاتهم أجور.

- **وصنف آخر:** يستعملون آلاتهم على وفق الطبع وهوى النفس خلافاً لأوامر مستخلفهم ونواهيهم، فهؤلاء ما لهم من الخلافة إلا الخسارة، وأولئك كالأنعام بل هم أضل.

والطبقة الثانية: يستعملون الآلات الجسدانية، وبعض الآلات الروحانية، وهم أيضاً، على صنفين:

- **صنف:** يستعملون الآلات على وفق أوامر مستخلفهم ونواهيهم، وهم خواص المؤمنين، فيستعملون العقل، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، ويتبين لهم الحق، ويزداد إيمانهم، ومعرفتهم، ودرجاتهم، وقربهم.

ومنهم من يستعمل القلب بعد التصفية وتزكية النفس، فيتخطى من شواهد الحق، وكشف الحقائق بحسب استعمال القلب وغيره من المدركات الروحانية، فيزيد في كمالاتهم.

- **وصنف آخر:** يستعملون هذه الآلات بالطبع لا بالشرع على خلاف أوامر^(٤)

(١) إضافة.

(٢) في (ز): وبالنكاح.

(٣) في (ز): بالاتفاق.

(٤) في (ح): أمر.

مستخلفهم ونواهيهم، فيستعملون العقل المشوب بالوهم والخيال، وفيما^(١) ليس له فيه مجال التصرف من الإلهيات، فيقعون في شبهات أهل البدعة والضلالة من المتكلمين والمتفلسفين^(٢)، فيحرمون من سعادة الخلافة، وكرامتها.

والطبقة الثالثة:

يستعملون جميع الآلات الجسدانية والروحانية على وفق أوامر مستخلفهم ونواهيهم، وهم الأنبياء، والأولياء، ولهم المرتبة العليا في الخلافة، ولهذا فضل الله آدم عليه السلام، على الملائكة عليهم السلام بالخلافة؛ لأنه ليس لهم هذه الآلات بجميعها لاستعداد الخلافة. وكان فضل آدم على الملائكة بفضائل جمّة منها: اختصاصه بتعليم علم الأسماء كلها، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ذكر الأسماء بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس، فيقتضي ألا يكون شيء إلا وآدم يعلم اسمه. وقوله ﴿كُلَّهَا﴾ أي بكليتها، وهي حقائق المسميات معناه. وعلم آدم الأسماء والمسميات وحقائقها، مثاله أن الله علمك اسم الغنم.. فما اقتصر منه على علم مجرد هذا الاسم، بل علمك علم أسمائه كلها بأن علمك ببصرك اسم لونه أبيض أم أسود، وعلمك بسمعك اسم صوته، واسم رائحته بشمك، واسم طعمه بذوقك، واسم لينه وخشونته بلمسك. وكذلك جميع أسماء صفاته، وأخلاقه، وخواصه، ومنافعه، ومضاره. علمك بقواك وعقلك وعلمك بإيمانك اسم خليقته، فلكل جزء من أجزائه اسم، وطعم، ورائحة، وصفة، وخاصية^(٣)، وماهية، وحقيقة أخرى لا يعلمها إلا الإنسان؛ لأنه خلق في أحسن تقويم لإدراك صور الأشياء، ومعانيها، وحقائقها. وإن له بحسب كل شيء من الجملة المذكورة آلة مدركة لذلك الشيء، كما هي خلافة عن مستخلفه الذي هو مدرك حقائق الأشياء بلا آلة مدركة، وليس

(١) في (ل، ط): فيما.

(٢) في (ز): والمتفلسين.

(٣) في (ط): وخاصة.

للملائكة هذه المدركات كلها إلا ما يتعلق بالقوة المدركة العقلية الملكية، فلهذا لما ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

إن لكم فضيلة على آدم بالتسبيح والتقديس والحمد والثناء ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ إقرارًا بالعجز واعتذارًا عن الاعتراض، واعتراضًا باستحقاقه للخلافة ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بالأسماء وحقائقها ﴿إِلَّا مَا عَلَّمَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] منها بما أعطيتنا من النظر الملكي الملكوتي، فظهرت فضيلة آدم عليهم بفنون هذه العلوم، وبعجزهم عن الإتيان بمثلها. فكما أن القرآن كان دليلًا على نبوة محمد ﷺ وفضيلته على الكافرين بإعجازهم عن الإتيان بمثله، كذلك علم الأسماء كان دليلًا على خلافة آدم عليه الصلاة والسلام، وفضيلته على الملائكة بإعجازهم عن إتيان^(١) مثله، ثم كمالية استعداده للخلافة واستحقاقه للسجود، إنما كان بتعلمه علم أسماء الله تعالى، وصفاته بتعليم الله إياه بأن جعل ذاته وصفاته في التسوية مرآة قابلة لتجلي صفات جلاله وجماله تبارك وتعالى.

كما قال -عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم فتجلي فيه»^(٢).

فبالتجلي علمه التخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته، وهذا هو سر^(٣) الخلافة على الحقيقة؛ لأن المرأة تكون خليفة للمتجلي فيها.

- ومن دلائل فضيلة آدم على الملائكة، واستحقاقه للخلافة احتياج الملائكة إليه بأنباء الأسماء لقوله تعالى:

﴿يَكَادُمْ أَنِئْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فكان آدم عليه السلام أول الأنبياء، وأول ما بدأ بالنبوة بدأ بإنباء الملائكة بأمر الحق وبخلافته، فكانوا بمثابة الأمة له. فالفضيلة

(١) في (ز): الإتيان.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سقطت في (ز).

مختصة بالنبى على الأمة، لا بالأمة على النبى، وإنما كان آدم مختصاً بعلم الأسماء دون الملائكة، وهم محتاجون إليه بأنباء أسمائهم، وأسماء غيرهم؛ لأن آدم كان بالحقيقة أصل العالم، وخلاصته، فكان روحه بذر شجرة العالم وشخصه ثمرة شجرة العالم، ولهذا خلق شخصه بعد تمام العالم بما فيه كخلق الثمرة بعد تمام الشجرة. فكما أن الثمرة تعبر على أجزاء الشجرة كلها حتى تظهر على أعلى الشجرة، كذلك آدم عبر^(١) على أجزاء الموجودات علوها وسفلها، وكان في كل جزء من أجزائها له منفعة ومضرة ومصلحة ومفسدة، فسمي كل شيء منها باسم يلائم تلك المنفعة، والمضرة، والمصلحة، والمفسدة بعلم علمه الله تعالى. واختص به من دون^(٢) الملائكة وغيرهم. وهذا من جملة ما كان الله يعلمه^(٣) من آدم والملائكة لا يعلمون؛ فكان من كمال حال آدم أن أسماء الله تعالى جاءت على وفق منفعته ومضرته ومصلحته ومفسدته فضلاً عن أسماء غيره؛ وذلك أنه لما كان مخلوقاً، كان الله خالقاً، ولما كان مرزوقاً، كان الله رازقاً، ولما كان عبداً كان الله رباً، ولما كان عابداً كان الله معبوداً، ولما كان معيوباً، كان الله ستاراً، ولما كان مذنباً، كان الله غفاراً، ولما كان تائباً، كان الله تواباً، ولما كان منتفعاً كان الله نافعاً، ولما كان متضرراً كان الله ضاراً، ولما كان فقيراً كان الله غنياً، ولما كان ضعيفاً كان الله قوياً، ولما كان ظالماً كان الله عدلاً، ولما كان مظلوماً كان الله منتقماً، ولما كان محبباً كان الله جميلاً، فعلى هذا قس الباقي.

ثم اعلم أن الإنسان لهذا المعنى بكل صفة من صفاته كان قابلاً كالمرأة لتجلي صفة من صفات الله تعالى باللفظ والقهر عند تقرب العبد إليه، وتمرده^(٤) عنه

(١) سقطت في (ط).

(٢) هذه الكلمة موجودة في النسخة (ح) فقط.

(٣) في (ح): يعلمه. وباقي النسخ: يعلم.

(٤) في (ط): وتجرده.

ومثاله: إن تقرب العبد إلى الله تعالى بتزكية نفسه عن الصفة المذنبية^(١) تجلى الله له بالصفة الغفارية في الأرض، وإن تقرب إلى الله بتزكية نفسه عن صفة الظلم تجلى الله له بصفة العدل، فيتجلى العبد بالعدل، فيكون خليفة الله يحكم بالعدل في الأرض، وهذا سر قوله: «من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»^(٢) فقس على هذا خلافته في جميع الصفات، ولهذا الاستحقاق قال الله عز وجل في بعض الروايات: «عبدني: أنا ملك حي لا أموت أبدًا، فإذا قلت لشيء كن فيكون. أطعني أجعلك ملكًا حيًا لا تموت أبدًا، فإذا قلت لشيء كن فيكون»^(٣)، فمن يطع الله باستعمال جميع الآلات الجسدانية والروحانية، يكون في الخلافة بهذه المرتبة، وسنبين كيفية استعمالها في باب مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه إن شاء الله تعالى.



(١) في (ط): المذنبية.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ذكره نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري في كتابه (تفسير غرائب القرآن وغرائب الفرقان) عند تفسيره لآيات سورة القصص، الآيات ٧١-٨٨، ص ٣٦٦، وذكر قبل هذا الكلام: كما قال في بعض الكتب المنزلة: «عبدني: أنا ملك حي....» ولم ينسبه للنبي صلى الله عليه وسلم.

الباب السابع
في مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه
وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في كيفية رد الروح إلى القالب^(١)

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤ - ٦].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن خلق أحدكم؛ يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة^(٢)، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك بأربع كلمات، قال يقول: اكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقيًا أم سعيدًا، فيكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقيًا أم سعيدًا، ثم ينفخ فيه الروح. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يبقَى بينه^(٣) وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيُختم له بعمل أهل النار، فيدخلها. وإن أحدكم

(١) في (ل): القلب.

(٢) الإضافة من (ط).

(٣) في (ز، ل): حتى ما بينه وبينها.

ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها^(١) إلا ذراع فيُختَم له بعمل أهل الجنة فيدخلها^(٢)»^(٣).

اعلم أن الروح الإنساني لما خلق في أحسن تقويم، وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وإنه متفرد بهذه الرتبة من بين سائر المخلوقات؛ وذلك لأنه أول شيء تعلق به أمر «كُنْ» في الإيجاد بلا واسطة^(٤)، وما سواه من المخلوقات، فقد تعلق الأمر به بالوسائط^(٥)، ولهذا السر قال تعالى في تعريف الروح:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولما كان الروح أول مقدور^(٦) تعلقت به القدرة، كان أقرب الموجودات إلى الحضرة، وكان في جوار رب العالمين، إلى أن رده الله إلى أسفل سافلين القالب الإنساني، أي أمره بالتعلق به، ولا تظن أن كيفية تعلق الروح بالقالب، ككيفية تعلق^(٧) جسم بجسم، أو تعلق عرض بجسم ليكون له الدخول والخروج، والصعود والنزول، كما هو معتاد الأجسام اللطيفة، والكثيفة، بل تعلقه بالقالب بنفخ الحق فيه بلا كيفية ولا تشبيه، كما نطق به القرآن والحديث.

(١) في (ز، ل): حتى ما بينه وبينها

(٢) في (ز): فيدخل.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، حديث رقم (٣٢٠٨) ومسلم في كتاب القدر باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، حديث رقم (٢٦٤٣) بلفظ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عُلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بَارِيعَ كَلِمَاتٍ، وَيَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

(٤) في (ز): بلا واسط.

(٥) في (ز): بالواسط.

(٦) في (ط): مقدر.

(٧) سقطت في (ط).

فأما حقيقة رد الروح إلى أسفل سافلين القلب، بأن رد وجهه^(١) الناظر الذي كان به ناظرًا إلى الحضرة إلى جهة تربية النطفة في الرحم ليقبلها بالأربعينيات علقه، ثم مضغة ثم عظامًا^(٢)، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم يتم نفخ الروح فيه، فصار بهذا الاعتبار مقبلًا على القلب وحظوظه مدبرًا عن الحضرة وحقوقها، فباعتبار توجه الروح إلى القلب بالأمر وشغله بتربية القلب عبر عن قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، وإلا الروح^(٣) ما تحرك من مكانه في جوار الحق تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

فلو نظرنا إلى أصل فطرته، وأنه أول مقدور تعلق به القدرة، فهو أقرب الأقربين إلى الحضرة. ولو نظرنا إلى رده بالتوجه إلى أسفل سافلين القلب لشغل رتبته، فهو أبعد الأبعدين عن الحضرة. وإنه لما رد القلب عبر نور نظره على عالم الأرواح ثم على العرش، والكرسي، والسموات السبع، وما فيهن من الملائكة الروحانيين، والكروبيين، وحملة العرش، والبروج، والأنجم، والكواكب السيارة، والثوابت، والأجرام والنفوس السماوية، ثم على الأثير، والنار، والجن، والشياطين، ثم على الهواء، والماء، والأرضين السبع، ثم على المركبات من الأجزاء العنصرية، كأصناف الجمادات، والنباتات، والحيوانات إلى القلب الإنساني وهو أسفل السافلين على الحقيقة؛ إذ ليس تحته شيء هو^(٤) أبعد منه إلى الحضرة؛ لأنك إذا اعتبرت الموجودات وجدت أبعدها عن الحضرة عالم الأجسام.

وإذا اعتبرت عالم الأجسام بأسره وجدت أبعد عن العرش الذي هو أقرب شيء من عالم الأجسام إلى الحضرة، أصناف المركبات من الجواهر العنصرية، التي منها

(١) في (ح): وجه.

(٢) سقطت في (ل، ز، ط) والإضافة من (ح).

(٣) في (ط): فالروح.

(٤) سقطت في (ط).

قالب الإنسان، ومن أصناف المركبات كل ما كان [أبعد عن الاعتدال الحقيقي، وهو استعداد قبول الفيض الإلهي، كان أقرب إلى الطبيعة العنصرية. وكل ما كان أقرب إلى الاعتدال الحقيقي كان]^(١) أبعد عن الجواهر العنصرية. وقالب الإنسان أقرب إلى الاعتدال الحقيقي؛ فإذاً هو أبعد عن الجواهر العنصرية، فصورة قالب الإنسان أبعد المركبات عن الحضرة، فهو أبعد الأبعدين، وروحه أقرب الأقربين إلى الحضرة، وما كان شيء في عالم الأجسام علويها وسفليها إلا وقد ركب في قالب الإنسان ما هو زبدته، وما كانت خاصيته في عالم الأرواح علويها وسفليها إلا وقد حصَّلها في روح الإنسان بتدبير العزيز الحكيم، ثم جمع بينهما ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. فبعزته بعد المقرب للابتداء، وبمغفرته قرب المبعد للاصطفاء والاجتباء.

ثم اعلم أن الروح حين تعلقه من أعلى عليين القرب إلى أسفل سافلين القالب، فُسِّرَ بنفخة الحق تعالى حيث ما بلغ من منازل اجتذب منه خاصية أودعت فيه، وخلق^(٢) فيه من نوره وصفائه ولطافته بحسب ما اجتذب من ظلمة ذلك المنزل، وكدورته، وكثافته فاحتجب الروح بما اجتذب من كل منزل من منازل الروحانيات والجسمانيات، إلى أن تعلق بقالب الإنسان فصار محجوباً عن الحضرة، محبوساً في أسفل سافلين القالب، إلى أن يخلص الله تعالى روح من يشاء من عباده بجذبة ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٨].

كما سنبينه إن شاء الله وحده.



(١) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٢) في (ط): وحل.

الفصل الثاني

في رجوع الروح إلى الحضرة

قال الله تعالى:

﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۚ فَأَدْخُلْ فِي عِبَادِي ۝٢٨ وَأَدْخُلْ جَنَّتِي ۝﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

اعلم أن الله تعالى لما أراد أن يجعل في الأرض خليفة لذاته وصفاته، خلق له روحاً في أحسن تقويم ثم رده^(١) إلى أسفل سافلين القلب وحجبه بحجب النورانيات الروحانيات، وحجب الظلمات الجسمانيات، وهما عالما الغيب والشهادة. وعدد الحجب ما قال رسول الله ﷺ: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة»^(٢).

فالحجب النورانية من عوالم الغيب الروحانية، والحجب الظلمانية من عوالم الشهادة الجسمانية، وأعطى الخليفة بحسب تلك العوالم مدركات روحانية وجسمانية يدرك بها العوالم المختلفة كلها ليكون بخلافته عالم الغيب والشهادة؛ وذلك حين يتخلص من حبس^(٣) القلب، ويرجع إلى ربه بجذبات عنايته، وإن الله

(١) في (ز): رددها.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده عن سهل بن سعد بلفظ: دون الله سبعون ألف حجاب نور وظلمة، وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب إلا زهقت نفسها حديث رقم (٧٥٢٥) (١٣ / ٥٢٠) ورواه الطبراني في المعجم الكبير حديث رقم (٥٨٠٢) (٦ / ١٤٨).

(٣) في (ز، ل): جنس.

تعالى سماه روحاً عند نفخه في القلب فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وسماه نفساً عند رجوعه إلى الحضرة فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، أراد بالنفس هاهنا ذاته وحقيقة وجوده، كما قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي في ذاتك، فإن النفس للإنسان اسم جامع لقلبه ونفسه الأمانة، وقلبه، وروحه، ولها خاصية لا توجد في الروح، ولا في القلب (١)، ولا في النفس الأمانة ولا في قلبه، ويوجد فيها ما يوجد في كل فرد من أفرادها، كما أن «السكنجيين» اسم جامع للمطبوخ من السكر، والخل، والماء، وله خاصية في دفع الصفراء لا توجد في السكر ولا في الخل، ولا في الماء، ويوجد فيه ما يوجد في تلك الأفراد. فبهذا الاعتبار يوجد في رجوع النفس إلى الحضرة رجوع القلب (٢) والروح وجميع وجوده، ولا يوجد في رجوع فرد من هذه الأفراد رجوع الجميع. ثم إذا أظهر الحق سبحانه تعالى آثار ألطافه وعنايته في حال العبد، وأسمعه خطاب ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٨]، وإن كان هو غير مُشعر بسماعه، فيرزقه حس الإنابة، والتوبة، التي هي الرجوع إلى الحق بعد التماذي في الباطل، فعليه في الرجوع العبور على تلك الحجب، التي هي سبعون ألف حجاب من نور وظلمة، ولا يسلم له العبور على كل مقام من هذه المقامات إلا بأن يرد إليه ما أخذ منه حين تعلقه بالقلب، ويسترد منه ما حل فيه من النور والصفاء واللطافة، فإنه (٣) يحتاج هذه الأوصاف ليطير إلى عشّه الأصلي الذي طار منه، ثم بتصرفات الجذبات من حقيقة أمر ﴿أَرْجِعِي﴾ يصير إلى الحضرة، فأول مقام يعبر عنه السالك من بدء سلوكه مقام الترابية.

كما سيجيء شرحه إن شاء الله تعالى.

(١) في (ط): القلب.

(٢) في (ط): القلب.

(٣) في (ط): وأنه.

الفصل الثالث

في العبور عن مقامات خواص الجواهر^(١) العنصرية^(٢)

وهي أربع مقامات: (الترابية، والمائية، والهوائية، والنارية).
اعلم أن الروح في حبس^(٣) القلب مقيد بقيود هذه الأربعة، فلا يتخلص منها إلا بالإيمان، والأعمال الصالحة الشرعية، كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

[التين: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠].

والعبور عنها، بأن يرد إلى كل مقام عبر عليه حين تعلقه بالقلب ما أخذ منه من مذمومات خواصه، ويبقى معه ما أخذ من محمودات خواصه، فما أخذ من خواص الترابية المذمومة هي الخسة، والركاكة، والدناءة، والذلة، والإمساك، فردها إليه بتزكية النفس عن هذه الصفات، وتبديلها بأضدادها، وهي علو الهمة، ورفعة الدرجة، والمروءة، والعزة، والسخاوة.

فأمّا محمودات خواصها، فالتواضع، والقناعة، والانكسار، والحلم، والثبات، والسكون، والوقار.

(١) في (ل): جوهر.

(٢) في (ز): العنصرة.

(٣) في (ز): جنس.

وأما المائية، فمذمومات خواصها: طلب الشهوات، والتنعمات، والمستلذات، والأنوثة في الطبع، والخنوثة والكسل.. فردّها بالتزكية عنها، والتحلية بأضدادها، وهي العفة، والأنفة، والرجولية، والصلابة.

فأما محمودات خواصها: فاللين، والركة، والشفقة، والرحمة، ولطافة الطبع، والظرافة.

وأما الهوائية، فمذمومات خواصها: التكبر، والتجبر، والعجب، والغرور، والحسبان، والرياء، والغل، والحق، والعداوة.

فردّها بالتزكية عنها والتحلية بأضدادها، وهي: التواضع، والتسليم، والرضا، والامثال، والانقياد، والانتباه، والصدق، والإخلاص.

فأما محمودات خواصها: فالنخوة، والهمة، والعظمة، والأمانة، وسلامة الصدر، والوفاء^(١)، والتودد.

وأما النارية، فمذمومات خواصها: الغضب، والترفع، والحدة، والإباء، والاستكبار، والحرص، والشره، والطمع، والحسد.

فردّها بالتزكية عنها، والتحلية بأضدادها، وهي: التحمل، والصبر، والسكون، والوقار، والإيثار، والاستسلام.

فأما محمودات خواصها: فالجلادة، والكفاية، والذهن، والذكاء، والفهم، والإدراك، والشجاعة، وأمثالها.

وأما الوقائع التي ترى في العبور عن هذه المقامات، فأكثر ما يرى في العبور عن الترابية: الخرابات^(٢)، والآثار، والطلل، والدمن والرسوم، والحيطان المكسورة، والآبار، والأخاديد، وأمثالها.

(١) في (ح): والوقار.

(٢) في (ل): الخرابات.

وفي العبور عن المائية: المياه الجارية، والدائمة، والأمطار، والأنهار، والعيون، والبحار، والأودية، وأمثالها.

وفي العبور عن الهوائية: المشي على الهواء، والطيران، وهبوب الرياح، والعروج إلى السماء، ونحو ذلك.

وفي العبور عن النارية: رؤية النيران المشتعلة، والمواضع المحترقة، ووقوع النار في الأجمة، والدخول في النار، والبروق، واللوامع، والصواعق، وأشباهاها. وإذا عبر عن الجواهر العنصرية، وهي مفردات العناصر، يقع عبوره في المركبات، والمعادن، والنباتات.

كما سيجيء شرحه إن شاء الله تعالى.



الفصل الرابع

في العبور عن خواص الجواهر المركبات والنباتات في الرجوع

اعلم أن مفردات العناصر إذا صارت مركبة، صارت ظلمات خواصها مركبة، وكلما ازداد ترقبها إلى المعادن والنباتات، ازدادت ظلماتها ﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا السر لما رأت الملائكة قالب آدم، عليه السلام، ملقى بين مكة والطائف مركباً من العناصر الأربعة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وإنما قالوها لأنهم نظروا إلى جسد آدم مركباً من العناصر الأربعة المتضادة قبل نفخ الروح فيه، فشاهدوا بنظر الملكي في ملكوت جسده صفات بشريته البهيمية السبعية، التي تولد من تركيب أضداد العناصر، كما شاهدوها في أجساد الحيوانات والسباع الضاريات، بل عاينوها، فإنها خلقت قبل آدم، فقاسوا عليها أحواله بعد أن شاهدوها، وحققوها، وهذا لا يكون غيباً في حقهم، وإنما يكون غيباً لنا، إذا نظرنا بالحس والملكوت يكون لأهل الحس غيباً. ومنا^(١) من ينظر بالنظر الملكوتي فيشاهد الملكوت والملكوتيات كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فحيث لا يكون غيباً، فإن الغيب ما غاب عنك، وما شاهده فهو

(١) سقطت في (ز). وفي (ط): وهنا.

شهادة. فالملكوت للملائكة شهادة والحضرة الإلهية لهم غيب، وليس لهم الترقى إلى تلك الحضرة، وإن للإنسان قالباً من عالم الشهادة المحسوسة، وروحاً من عالم الغيب الملكوتي غير المحسوس، وسراً مستعداً لقبول فيض النور الإلهي.

فالسالك بالعبور عن خواص مفردات العناصر يرتقي إلى المركبات، ومن المركبات يرتقي بالعبور عن خواصها إلى المعادن والنباتات، ومنها بالعبور عنها يرتقي إلى أفق الحيوانات، ومنها يرتقي إلى الأفق الإنساني، ومنه يرتقي من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وهو الملكوت، كما سيجيء شرحه في موضعه، إن شاء الله تعالى. وبسر المتابعة وخصوصيتها يرتقي من عالم الملكوت إلى عالم الجبروت والعظמות، وهو غيب الغيب، فيشاهد بنور الله تعالى، المستفاد من سر المتابعة، أنوار الجمال والجلال، فيكون في خلافة الحق عالم الغيب والشهادة، كما أن الله تعالى هو ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، أي الغيب المخصوص به وهو غيب الغيب ﴿أَحَدًا﴾ يعني من الملائكة ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] يعني من الإنسان، فهذا هو السر المكنون المركوز في استعداد الإنسان الذي كان الله يعلم منه والملائكة لا يعلمون به حين قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ حتى قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والذي قالت الملائكة لما نظروا بنظر الملكي في ملكوت جسد آدم أنطقهم الله تعالى بهذا القول ليتحقق لنا أن هذه الصفات الذميمة في طينتنا مودعة، وفي جبلتنا مركوزة، فنجتهد في تزكية نفوسنا عن هذه الصفات، ونسعى في العبور عن هذه الظلمات بتوفيق الله تعالى وعونه إن شاء الله وحده، كما نشرح في مقامات النفس ومعرفتها إن شاء الله وحده.

الباب الثامن

في مقامات النفس ومعرفتها

وفيه عشرة فصول

الفصل الأول

في معرفة النفس وماهيتها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك»^(١).

اعلم أن النفس عين لطيفة هي معدن الأخلاق الذميمة مودعة بين جنبي الإنسان، أي جميع جسده، وهي أمارة بالسوء، وهي مجبولة على ضد الروحانيات المخلوقة عن^(٢) الملكوت الأعلى، فإنهم يأمرون بالخير وينهون عن الشر، وهي مخلوقة من الملكوت السفلي كالشياطين، وهم لا يأمرون إلا بالشر، ومن طبعهم التمرد والإباء والاستكبار.

وفي بعض الروايات: «إن الله تعالى لما خلق النفس قال لها أقبلي فأدبرت، وقال لها أدبري فأقبلت»^(٣) على ضد العقل.

(١) أخرجه البيهقي في (الزهد الكبير) (٣٤٣)، أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٢٢) عن سعيد بن أبي هلال. وقال: مرسل.

(٢) في (ط): من.

(٣) جاء في مجموع فتاوى ابن تيمية: وَسُئِلَ عَنْ أَحَادِيثَ: هَلْ هِيَ صَحِيحَةٌ؟ وَهَلْ رَوَاهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَبِّرِينَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ؟ وَهِيَ قَوْلُهُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ. ثُمَّ قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ: بِكَ أَخَذُ وَبِكَ أُعْطِي؛ وَبِكَ أُثِيبُ وَبِكَ أُعَاقِبُ».

فأما منشأ خلقه النفس، فإن الله تعالى لما نفخ الروح في جسد آدم عليه السلام، خلق من ازدواج الروح والجسد ولدين^(١) ذكرًا، وهو القلب يشبه والده الروح العلوي فيأمر بالخير وجعل موضعه المضغة الصنوبرية في الجانب الأيسر من الصدر وأنثى

= أَمَّا الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ فَهُوَ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ لَيْسَ هُوَ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْإِسْلَامِ الْمَعْتَمَدَةِ وَإِنَّمَا يَرَوِيهِ مِثْلُ دَاوُدَ ابْنِ الْمُحَبَّرِ وَأَمثَالِهِ مِنَ الْمُصَنِّفِينَ فِي الْعَقْلِ وَيَذْكُرُهُ أَصْحَابُ «رِسَائِلِ إِخْوَانِ الصَّفَا» وَنَحْوُهُمْ مِنَ الْمُتَفَلِّسَةِ وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو حَامِدٍ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ وَابْنُ عَرَبٍ وَابْنُ سَبْعِينَ وَأَمثال هؤلاء، وهو عند أهل العلم الحديث كَذِبٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كما ذكر ذلك أبو حاتم الرازي وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما من المصنفين في علم الحديث.

ومع هذا فلفظ الحديث: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ وَقَالَ لَهُ أَذْبِرْ فَأَذْبَرَ قَالَ مَا خَلَقْتَ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، فَبِكَ أَخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي وَبِكَ الثَّوَابُ وَبِكَ الْعِقَابُ»، وفي لفظ «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: كَذَلِكَ»، ومعنى هذا اللفظ أنه قال للعقل في أول أوقات خلقه: ليس فيه أن العقل أول المخلوقات، لكن المتفلسفة القائلون بقدم العالم أتباع أرسطو هم ومن سلك سبيلهم من باطنية الشيعة والمتصوفة والمتكلمة رَوَوْهُ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ بِالضَّمِّ لِيَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً لِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّ أَوَّلَ الْمُبْدِعَاتِ هُوَ الْعَقْلُ الْأَوَّلُ وَهَذَا اللَّفْظُ لَمْ يَرَوْهُ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، بل اللفظ المروي مع ضعفه يدل على نقبض هذا المعنى، فإنه قال: «مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ»، فدل على أنه قد خلق قبله غيره، والذي يُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ الْعَقْلَ الْأَوَّلَ لَيْسَ قَبْلَهُ مَخْلُوقٌ عِنْدَهُمْ.

وأيضًا فإنه قال: «بِكَ أَخُذُ وَبِكَ أُعْطِي وَبِكَ الثَّوَابُ وَبِكَ الْعِقَابُ» فجعل به هذه الأعراض الأربعة وعنده أولئك المتفلسفة الباطنية أن جميع العالم صدر عن العقل الأول وهو رب السموات والأرض وما بينهما عندهم وإن كان مربوبًا للواجب بنفسه وهو عندهم متولد عن الله لازم لذاته، وليس هذا قول أحد من أهل الملل لا المسلمين ولا اليهود ولا النصارى إلا من ألحد منهم، ولا هو قول المجوس ولا جمهور الصابئين ولا أكثر المشركين ولا جمهور الفلاسفة، بل هو قول طائفة منهم.

وأيضًا فإن العقل في لغة المسلمين عَرَضٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ قائم بغيره وهو غريزة أو علم أو عمل بالعلم؛ ليس العقل في لغتهم جوهرًا قائمًا بنفسه فيمتنع أن يكون أول المخلوقات عَرَضًا قائمًا بغيره فإن العَرَضَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِمَحَلٍّ فَيَمْتَنِعُ وُجُودُهُ قَبْلَ وُجُودِ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْيَانِ، وأما أولئك المتفلسفة: ففي اصطلاحهم أنه جوهر قائم بنفسه وليس هذا المعنى هو معنى العقل في لغة المسلمين والنبي ﷺ خاطب المسلمين بلغة العرب لا بلغة اليونان، فعلم أن المعنى الذي أرادته المتفلسفة لم يقصده الرسول لو كان تكلم بهذا اللفظ، فكيف إذا لم يتكلم

به. (فتاوى ابن تيمية (١٨/٣٦٦-٣٦٨)

(١) في (ط): والدين.

وهي النفس تشبه والدته الجسد السفلي فتأمر بالشر وجعل موضعها جميع الجسد، وقد خلقها على صورة جهنم، وخلق بحسب كل دركة فيها صفة لها، وهي باب من أبواب جهنم يدخل فيها من هذا الباب إلى دركة من دركاتها السبع وهي سبع صفات: الكبر، والحرص، والحسد، والشهوة، والغضب، والبخل، والحق.

فمن زكى نفسه عن هذه الصفات، فقد عبر عن هذه الدرجات السفلية، ووصل إلى درجات الجنات العلوية، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ومن لم يزك نفسه عن هذه الصفات، بقي في دركات جهنم خائبًا خاسرًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠].

ثم اعلم أن هذه الصفات من مقامات النفس، يتولد منها صفات أخرى، ومنشأ جميع الصفات النفسانية صفتان مركوزتان في جيلة كل حيوان، ولا بد له منهما في التعيش، وهما: الشهوة، والغضب.

فبالشهوة يجذب المنافع إلى نفسه.

وبالغضب يدفع المضار عن نفسه.

فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه تولد منها الحرص.

وإذا استعمل الغضب في دفع مضرة عن نفسه تولد منه الحق.

وإن رأى شيئاً مما يحتاج إليه مع غيره، ولم يدفعه إليه، تولد منه الحسد، وإن كان معه شيء طلبه منه محتاج إليه فيمنعه عنه تولد منه البخل. فإن كان معه ما يحتاج إليه جمع كثير فيتواضعون^(١) له، ويتضرعون إليه في طلب مقاصدهم وهو ينظر إليهم بنظر الحقارة وإلى نفسه بنظر العزة يتولد منه الكبر والعجب. وإن كان لغيره ما يحتاج هو إليه، ولم يدفعه إليه، وهو قادر على أن يأخذ منه بالقوة، وحمله الحرص على

(١) في (ز): متواضعون.

أخذه منه، يتولد منه الظلم والتعدي، وكذلك جميع الأخلاق الذميمة يتولد بعضها من بعض ما لم تُحسم مادتها، وحسم مادتها بتزكية النفس على قانون الشريعة والطريقة عن صفاتها، كما نبينه إن شاء الله وحده.



الفصل الثاني

في تزكية النفس عن صفاتها الذميمة

قال الله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى النفس، قال لها^(١): من أنت، ومن أنا؟. قالت: أنا أنا، وأنت أنت. فأمر بها^(٢) أن تعذب في النار ألف سنة، ثم أخرجها. وقال لها: من أنت، ومن أنا؟. قالت: أنا أنا، وأنت أنت. فأمر بها أن تعذب في النار ألف سنة أخرى، ثم أخرجها. فقال لها: من أنت، ومن أنا؟ قالت: أنا أنا، وأنت أنت. فأمر بها أن تعذب في النار^(٣) ألف سنة أخرى، ثم أخرجت^(٤). فقال لها: من أنت، ومن أنا؟ قالت: أنا أنا، وأنت أنت. فأمر أن تحبس في النار ألف سنة أخرى، وتضرب كل يوم بألف سوط من الجوع، وألف سوط من العطش، ثم أخرجت. فقال لها: من أنت، ومن أنا؟ قالت: أنا العبد الضعيف العاجز المسكين، وأنت الإله الملك الجبار، لا إله إلا أنت^(٥). أو كما جاء.

(١) الإضافة من (ح).

(٢) في (ز): فأمرها. وفي (ط): فأمر. ويتكرر طوال الحديث.

(٣) في (ط، ز): بالنار.

(٤) في (ط): أخرجها.

(٥) ليس له وجود في كتب الحديث.

اعلم أن تزكية النفس واجبة على كل مسلم ومسلمة لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٩ - ١٠].

والواجب ما يثاب على فعله، ويعاقب على تركه، ولا تظن أن تزكية النفس تيسر بطريق العقل، كما ظنت الفلاسفة والبراهمة وغيرهم من الجهال، وشرعوا في تزكية نفوسهم بالرياضات والمجاهدات، على العمياء^(١)، فوقعوا في الشبهات، والآفات، والضلالات؛ فإن تزكية النفوس كمعالجة الأبدان، فكما لا يجوز للمريض استعمال الأدوية برأيه إلا بنظر طبيب حاذق^(٢) ذي تجربة في المعالجة، كذلك تزكية^(٣) النفس لا تيسر إلا بنظر نبي، أو ولي ذي تجربة في هذا الشأن، وهذا أحد أسرار بعثة الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم الحذاق^(٤) في علم^(٥) تزكية النفوس، ولهذا بعثهم الله تعالى ليزكوا بعلاج الشرائع نفوس الأمم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] الآية.

فأما تزكية النفس الأمارة ففي إزالة الصفة الأمارية عنها، وكذلك إزالة الصفات السبع التي مر ذكرها عنها، وتحليتها بأضدادها من الصفات القلبية، فإن العلاج بالأضداد.

واعلم أن صحة النفس وحياتها في استيلاء هذه الصفات السبع، وما يتولد منها، ومرض القلب وموته فيها وصحة القلب وحياته في إزالة هذه الصفات السبع، واستيلاء صفات هي أضدادها، وفيها مرض النفس وموتها.

فأما الصفات السبع التي من^(٦) صفات النفس، أولها الكبير، فيعالج بالتواضع، كما نبينه إن شاء الله تعالى.

(١) في (ط): العميان.

(٢) سقطت في (ح).

(٣) سقطت في (ط).

(٤) في (ل): حذاق.

(٥) سقطت في (ح).

(٦) في (ح): هي.

الفصل الثالث

في صفة الكبر وعلاجها بالتواضع

قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة [من كان في قلبه]»^(١) مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار [من كان في قلبه]»^(١) مثقال ذرة من إيمان.

فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً.

قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: من بطر الحق وغمط^(٢) الناس.

قال «ابن الأعرابي»^(٣): البطر: سوء احتمال الغنى.

(١) ما بين قوسين سقط في (ز، ل) وليس في (ح): كان.

(٢) في (ز): غمض، وفي (ح): غمص، وفي (ل): غميض. وقد وردت هذه الكلمة بروايات ثلاث: غمض، وغمص، غمط. ففي رواية مسلم (٩١) عن عبد الله بن مسعود: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس». وفي صحيح الترمذي والذي حققه الألباني (١٩٩٩): «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار يعني من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. قال: فقال له رجل إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة قال إن الله يحب الجمال ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس».

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، كان أبوه عبداً رقيقاً سندياً من أهل الكوفة ثم مولى للعباس بن محمد بن علي بن العباس الهاشمي (ت ١٨٦ هـ).

ولد ابن الأعرابي في رجب من سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) ونشأ ربيياً للمفضل الضبي، لأن المفضل كان قد تزوج أمه. وأخذ ابن الأعرابي علومه عن المفضل وأبي معاوية الضرير و ثعلب والكسائي وابن السكيت. وكانت وفاته في سامراء في ١٤ شعبان ٢٣١ هـ (٨٤٦ م).

وبطر الحق ها هنا: أن يجعل الحق باطلاً.

ويقال: هو أن يتكبر عند الحق فلا يقبله، كما كان لإبليس، وغمط^(١) الناس أن يحتقرهم فلا يراهم شيئاً. فدلّت الآية والحديث، أن الكبر كفر، ألا ترى أنه قابله في نقيضه بالإيمان في الحديث.. وقال في القرآن: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أي صار من الكافرين بالإباء والاستكبار.

وإني^(٢) قد رأيت النبي ﷺ جالساً وهو يذم الكبر والتكبر، فتذكرت حديثه الذي قاله ﷺ: «ما أنا من ددٍ، ولا الدد مني»^(٣)، فقلته.

ولكن جرى على لساني «ما أنا من الدد (بالألف واللام) فلما سمع^(٤) النبي ﷺ مني الحديث أعاده، وقال: ما أنا من الدد، ولا الدد مني.

قلت: يا رسول الله. هذا حديثك؟

قال: هذا حديثي.

قلت: أروه عنك؟

= كان ابن الاعرابي عالماً باللغة و رأساً (مقدّماً على أنداده) في الكلام الغريب. و كان عالماً بأنساب العرب، راويةً لأشعار القبائل، غزيرَ الرواية، واسعَ المعرفة بالنحو خاصّة. و هو كوفيّ المذهب، ولكنّه مع ذلك يقارب البصريّين. و لم يكن ابن الاعرابي يجيب السائلين من كتاب، بل كان يملّي عليهم من حفظه. و أكثر كتبه في اللغة، فله: كتاب النوادر، كتاب الألفاظ، كتاب الأنواء، كتاب النبات، كتاب النبت و البقل، كتاب صفة الزرع، كتاب صفة النخل، كتاب الخيل، كتاب نسب الخيل، كتاب الذباب، كتاب صفة الدرع، كتاب تفسير الأمثال.. وغيرها. قال عنه الأزهري: ابن الاعرابي صالح زاهد ورع صدوق، حفظ ما لم يحفظه غيره، وسمع من بني أسد، وبني عقيل فاستكثر، وصحب الكسائي في النحو (انظر سير أعلام النبلاء: ٦٨٨/١٠).

(١) في (ح): وغمص.

(٢) في (ز): وقال المصنف رضي الله عنه وإني. وفي (ل): وقال المصنف رحمه الله.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٤ / ١)، والطبراني في الأوسط (١٣٢ / ١ رقم: ٤١٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠ / ٢١٧) وغيرهم. والدَّد: اللَّهُوُّ واللَّعِبُ، وقولُه: «ولا الدَّد منّي» معناه ليس من خصّالي.

(٤) أي سمع منه في منامه.

فقال: نعم، ارو عني.

فقلت: يا رسول الله أعطني يدك لأقبلها، فأعطاني يده، فصافحني، فقبلت يده ﷺ. ثم انتبهت، فأولت تذكري^(١) هذا الحديث في معرض أنه ﷺ كان يذم الكبر والتكبر، أنه إشارة إلى أن العبد لا ينبغي أن يكون متكبرًا كثير النخوة، ولا كثير اللعب واللهو قليل النخوة، فإنهما مذمومان، بل يكون متواضعًا منبسطًا مع الإخوان متحرزًا^(٢) عن الذلة والهوان، ممازحًا من غير لعب ولهو، كما كان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا الحق.

والدد: اللهو واللعب.

وقيل معنى تنكير الدد في الأول: الشياخ والاستغراق، وأن لا يبقى شيء منه إلا وهو منزعه عنه، أي ما أنا في^(٣) شيء من اللهو واللعب.

وتعريفه في الجملة الثانية لأنه صار معهودًا بالذكر كأنه قال: ولا ذلك النوع مني. وأما علاج الكبر^(٤) بالتواضع، فالتواضع: الاستسلام للحق، وترك الاعتراض على حكم الله، ولا سبيل إليه إلا من وجهين:

أحدهما: أن ينظر إلى النفس بعين الحقارة، فيرى خسة طبعها، وركاكة نظرها، ودناءة هممتها، وأنواع عيوبها، وتمرداها عن الحق، وتعلقها بالباطل، وخباثة ذاتها، [ودمامة صفاتها]^(٥)، وتعديها وظلمها على نفسها، ومع ذلك يرى عجزها، وفقرها، وذلها، وضعفها، ومسكنتها.

(١) في (ط): بذكري.

(٢) في (ز): محترزًا.

(٣) في (ط): من.

(٤) في (ط): الكبرياء.

(٥) سقطت في (ز).

والوجه^(١) الثاني: أن ينظر إلى عظمة الله، وعزته، وكبريائه، وجلاله، وجبروته، وشدة عذابه، وألم عقابه، فيها به ويتحقق أن بطشه للمجرمين شديد، وعقوبته للمتمردين عظيمة، فيصغر نفسه عند نفسه باللوم لمعرفة قدرها، ويتواضع لله بالعجز، لمعرفة قدره، خائفاً من عذابه، راجياً لثوابه، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فيبدل الله سيئة كبرها بحسنة تواضعها، كما قال ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله»^(٢).

وكان من تواضع النبي ﷺ أنه يعلف البعير ويقم البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معه إذا أعيأ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئاً، ولا يحقر ما دُعي إليه، ولو إلى حشف التمر، وكان هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، لم يتجشأ قط من شبع، ولا يمد يده إلى طمع.

فمن استعمل هذه الخصال فقد تواضع لله بالكمال، وهو بريء من الكبر بكل حال.

والله الموفق.



(١) سقط في (ط).

(٢) ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (١٢٩٥) وقال: موضوع.

الفصل الرابع

في صفة الحرص وعلاجها^(١) بالقناعة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

أي: حريصًا على المال شحيحًا به.

وقال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(٢).

اعلم أن الحرص أكبر آفة للسائرين إلى الله تعالى، وأعظم قاطع يقطع الطريق على الطالبين لله؛ لأن الحرص هو عين الطلب، فإذا استعمل في مطلوب غير الله، لا يمكن استعماله في الله، لا سيما صرف^(٣) الحرص على مال الدنيا، وجاهها، فإنه يستوعب كماله. كما قال النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(٤).

وقال المشايخ: «آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة»^(٥) والجاه».

وليس للإنسان صفة لا نهاية لها إلا الحرص؛ لأنه عين الطلب، وهو من نتائج

(١) في (ح): وعلاجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (١٥٧٩٤). أي أن طلبه للمال والشرف أفسد لدينه من هذين الذئبين إذا أطلقا في الغنم.

(٣) في (ح): يصرفه. وفي (ز): بصرف.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) واللفظ له. وفيه: (مال) بدلًا من (ذهب).

(٥) الإضافة من (ح).

المحبة، وهي صفة من صفات الله تعالى كرم الله بها الإنسان وخصه^(١) بها من بين^(٢) سائر المخلوقات في سرٍّ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].. بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه كرامة مخصوصة بالإنسان، فالمحبة تنشئ الطلب، وغاية الطلب الحرص، فكل صفة من صفات الإنسان متناهية إلا الحرص على طلب الله تعالى، فإنه يزداد إلى الأبد، فكما أن المطلوب، وهو الله، غير متناهٍ، كذلك الطلب غير متناهٍ، ولهذا لو يُصرف وجه الحرص على الطلب إلى مطلوب غير الله^(٣) لا يزال يزداد الحرص عليه.

كما قال ﷺ: «يهرم ابن آدم، ويشبُّ معه^(٤) اثنان: الحرص، والأمل^(٥)». وقال ﷺ: «قلب الشيخ شاب على حب اثنين: على جمع المال، وطول الحياة^(٦)». وعلى الحقيقة، الحرص نار وحطبها مال الدنيا وجاهها، كلما ازداد حطبها ازدادت النار، ولا يطفئها إلا ماء القناعة، ولهذا قال ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى^(٧)»^(٨). لأن نار الحرص [لما كانت نافذة فما يطفئها ينبغي أن يكون غير نافذ، وبالحقيقة إن الحرص]^(٩) نار أوقدها الله تعالى، فلا تنطفئ إلا بماء القناعة، قنع الله الحريص به؛

(١) في كل النسخ: (وخصه) والتصويب من (ط).

(٢) سقطت في (ح).

(٣) سقطت في (ط).

(٤) في (ز، ل): منه.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧)، وابن ماجه (٤٢٣٤) بمعناه مطوّلًا، وأحمد (١٢١٤٢) باختلاف يسير، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٨/ ١٦٠) واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦)، والترمذي (٢٣٣٨)، وابن ماجه (٤٢٣٣)، وأحمد (٩٧٢٠) واللفظ له.

(٧) في (ز، ح): ينفذ.

(٨) أخرجه البيهقي في (الزهد الكبير) (١٠٤) واللفظ له، والطبراني في (المعجم الأوسط) (٦٩٢٢)، وابن شاهين في (الترغيب في فضائل الأعمال) (٣٠٦) بنحوه.

(٩) سقطت في (ز، ل).

لأن القناعة ليست من طبيعة الإنسان وهي من مواهب الحق تعالى، وهي من أسباب الفلاح، وبها ينجي الله الحريص في الدنيا من نار الحرص، وفي الآخرة من نار جهنم. كما قال رسول الله ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(١)، وإن الله جعل العز في القناعة، والذل في الطمع. كما قيل: عز من قنع، وذل من طمع. والقانع من قنع بما رزقه الله تعالى يومًا بيوم من غير إسراف بنفس وحرص طلب، ويقتصر منه على غداء أو عشاء^(٢)، وينفق ما فضل منه فيكون مستغنيًا بغنى الله تعالى. كما قال ﷺ: «استغنوا بغنى الله. قالوا: وما هو؟ قال: غداء يوم، وعشاء ليلة»^(٣). وقال «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه: «طوبى لمن كانت له قصعة يأكل منها كل يوم مرة».

وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن كان رزقه كفافًا»^(٤).

وقال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»^(٥).

أي ما يمسك رmqه. وما نال من نال مقام الحرية إلا بالقناعة، والقانع هو الفقير الصابر على فقره، والشاكر عن ربه في فقره. كما قال ﷺ: «كُنْ قَنَعًا»^(٦) تكن أشكر الناس»^(٧).

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤).

(٢) في (ط): غدائه وعشائه.

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريجه لهذا الحديث: روي في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا: ما يغنيه؟ قال: «ما يغديه أو يعيشه» ولأحمد من حديث علي بإسناد حسن: قالوا: وما ظهر غني؟ قال: «عشاء ليلته».

(٤) أخرج ابن حبان في صحيحه (٧٠٥): «طوبى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِهِ». وأخرجه الترمذي (٢٣٤٩)، وأحمد (٢٣٩٤٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له.

(٦) في (ط): قانعًا.

(٧) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وأحمد (٨٠٨١).

الحياة الطيبة في الدنيا: القناعة.

وقيل: الفقراء أموات إلا من أحياء الله بعز القناعة.

وقال «بشر الحافي»^(١): القناعة ملك، لا يسكن إلا في قلب مؤمن.

وقال «وهب»^(٢): «إن العز والغنى خرجا يجولان، فلقيا القناعة فاستقرّا ثمَّ»^(٣).

وقال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(٤).

وفي الزبور: القانع غني، وإن كان جائعاً.

قال «إبراهيم المارستاني»^(٥): انتقم من حرصك بالقناعة، كما تنتقم من عدوك

بالقصاص.

(١) أبو نصر بشر بن الحارث الحافي، أصله من مرو وسكن بغداد، ومات بها، وهو ابن أخت علي بن خشرم. ولد

سنة اثنتين وخمسين ومائة، ومات سنة سبع وعشرين ومائتين، وكان كبير الشأن.

من أقواله: ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها، أحب لقاء مولاه. وعنه: ما اتقى الله من

أحب الشهرة. وعنه قال: لا تعمل لتذكر، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة.

قيل: جاء رجل إلى بشر، فقبله، وجعل يقول: يا سيدي أبا نصر. فلما ذهب، قال بشر لأصحابه: رجل أحب

رجلاً على خير توهمه، لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدري ما حاله. (انظر: الرسالة القشيرية، وسير

أعلام النبلاء ١٠/٤٦٩ - ٤٧٦).

(٢) الإمام وهب بن منبه (٣٤هـ - ١١٤هـ) هو تابعي جليل، له معرفة بكتب الأوائل وإخباري قصصى وهو يشبه

كعب الأحبار. يُعد أقدم من كتب في الإسلام. كان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد

للزهد. وعده أصحاب السير من الطبقة الثالثة من التابعين. روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي

والنسائي وابن ماجه في التفسير.

من أقواله: احفظوا عني ثلاثاً: إياكم وهوى متبعاً، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه.

وعنه: دع المراء والجدل؛ فإنه لن يعجز أحد رجلين: رجل هو أعلم منك، فكيف تعادي وتجادل من هو أعلم

منك؟! ورجل أنت أعلم منه، فكيف تعادي وتجادل من أنت أعلم منه ولا يطيعك؟! (انظر سير أعلام النبلاء

٤/٥٤٩).

(٣) سقطت في (ل). وفي (ط): لم يدرجها المحقق في كلام وهب.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٥) الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الواحد البغدادي، المارستاني، الصوفي، قيم

جامع المنصور، ولد سنة خمس وأربعين وخمس مائة، ومات في ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وست مائة. من

أقواله: انتقم من حرصك بالقناعة، كما تنتقم من عدوك بالقصاص. (سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٧٨).

وقال «ذو النون المصري»: من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وقيل في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، يعني هو القناعة في الدنيا.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]، هو الحرص في الدنيا.

وقيل «لأبي يزيد»:

- بم وصلت إلى ما وصلت؟

قال: جمعت^(١) أسباب الدنيا، فربطتها بحبل القناعة ووضعيتها في منجنيق الصدق،

ورميتها في بحر اليأس فاسترحْتُ.

فمن لم يعالج مرض الحرص بالقناعة، يتولد من حرصه داء الحسد، وهو أدوى

الأدواء.



(١) في جميع النسخ ما عدا (ح): فجمعت.

الفصل الخامس

في صفة الحسد وعلاجها بالنصيحة والرحمة والشفقة

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

وقال رسول الله ﷺ:

«ثلاث هن أصل كل خطيئة فاتقوهن، واحذروهن:

- إياكم والكبر، فإن إبليس حملة الكبر على ألا يسجد لآدم.

- وإياكم والحرص، فإن آدم حملة الحرص على أن أكل من الشجرة.

- وإياكم والحسد، فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً»^(١).

اعلم أن الحسد داء معضل، ودواؤه مُشكل؛ لأن صاحبه يعارض الله فيما يحب ويكره، وذلك لأن الله أحب أن أنعم على عبده^(٢) بنعمة من نعمه، وكره زوالها عنه، وما أحب أن تكون هذه النعمة للحاسد وكره أن تكون له، والحاسد أحب أن تكون النعمة له وتزول عن صاحبها، فقد أحب ما كره^(٣) الله، وكره ما أحب الله، وهذا داء مزيل للإيمان؛ لأن صاحبه لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير^(٤).

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٦٦٩): ضعيف جداً.

(٢) على عبد من عبده.

(٣) في (ح): يكره.

(٤) (من الخير) سقطت من (ز، ل).

وقد قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

وقال بعضهم: «إن الحاسد جاحد؛ لأنه لا يرضى بقضاء الواحد».

وفي بعض الكتب المنزلة: «الحاسد عدو لنعمتي».

وقيل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قيل: ما بطن: هو^(٢) الحسد.

وقيل: أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك، ومنه قوله ﷺ:

«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٣)، يشير به إلى أن الحسد يشارك

الشرك في إحباط الأعمال.

وفي بعض الآثار: «إن في السماء الخامسة ملكاً يمر به عمل عبد له ضوء كضوء

الشمس، فيقول: قف فأنا ملك الحسد أضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد».

وقيل: إذا أراد الله أن يسلط على عبد عدواً لا يرحمه سلط عليه حاسده^(٤).

وأنشدوا في هذا المعنى^(٥):

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحميناً^(٦)

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك (١٣) ورواه الترمذي في سننه (٢٥١٥) وقال: حديث صحيح.

(٢) إضافة من (ح).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠)، والبخاري (٦٢١٢)، وأبو يعلى (٣٦٥٦). وقال الألباني في ضعيف الجامع

(٢٧٨١): ضعيف.

(٤) في (ح): حاسداً.

(٥) (في هذا المعنى): إضافة من (ح).

(٦) جاء في كتاب (الجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي) لابن طرار الجريدي النهرواني (ص:

٥٦٥): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْأَنْبَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمَارَةَ الْمُسْتَمْلِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا قَعْنَبُ بْنُ مُحَرَّرٍ، قَالَ:

حَدَّثَنَا الْأَصْمَعِيُّ، قَالَ: رَأَيْتُ أَعْرَابِيًّا بِمَكَّةَ يَصِيحُ وَابْنُ الْوَيْلِاهِ وَابْنُ الْكَلَاهِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا تُكَلِّكُ يَا أَعْرَابِي؟ قَالَ: تَسْعَةُ

مِنَ الذُّكُورِ فِي تَسْعَةِ مِنَ الشُّهُورِ كَأَنَّهُمُ الْبُدُورُ، قُلْتُ: لَا إِخَالَكَ إِلَّا وَقَدْ قُلْتَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا، قَالَ: أَجَلٌ، ثُمَّ

أَنشَدَنِي:

= ألا يزجر الدهر عنا المنونا يوقي البنات ويفني البنينا

وهذا المعنى يدل على أن دواء الحسد في استعمال الرحمة.

وقيل: رأى «موسى»، عليه السلام، رجلاً عند العرش فغبطه، فقال: ما صفته؟

ف قيل: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وعن «أنس» رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فقال:

«يطلع عليكم الآن من هذا الفج، رجل من أهل الجنة».

قال^(١): فطلع رجل من الأنصار، تنطف^(٢) لحيته من وضوء، قد علق نعله في يده

الشمال فسلم، فلما كان من الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل مرته

الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته الأولى أيضاً. فطلع الرجل

مثل حاله الأولى.

فلما قام النبي ﷺ، تبعه «عبد الله بن عمرو بن العاص»، فقال: إني لاحت^(٣) أبي،

فأقسمت ألا^(٤) أدخل عليه ثلاثاً. قال أرأيت أن تؤويني إليك حتى تنقضي الثلاث

فعلت. قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال. قال^(٥): فلم يره يقوم من

الليل شيئاً غير أنه إذا تعارّ في الليل، وتقلب على فراشه، ذكر الله وكبر حتى يقوم

وكنتم أبا تسعة كالبـدور	قد فقأوا أعين الحاسدينَا
فمروا على حادثات الزمان	كمر الدراهم بالناقدينَا
أضر بهم ريب هذا المنون	حتى أبادهم أجمعينَا
وحتى بكاهم حسادهم	فقد أقرحوا بالدموع الجفونَا
وحسبك من حادث بامرئ	ترى حاسديه له راحمينَا

(١) سقطت في (ط).

(٢) تنطف: تنظر ماءً. وفي (ط): ينظف.

(٣) لاحت: خاصمت.

(٤) في (ح): لا.

(٥) سقطت في (ح).

لصلاة الفجر، غير أنه لا يقول إلا خيراً.

قال: فلما مضت الثلاث ليل، وكدت أحقر عمله، قلت: يا عبد الله، إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة^(١)، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟.

فقال: ما هو إلا ما رأيت.

[قال: فانصرفت عنه، فلما وليت دعاني]^(٢).

فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً، ولا أحسده^(٣) على خير أعطاه الله إياه.

فقال عبد الله: فهذه التي بلغت بك، وهي التي لا تنطق^(٤).

وعن رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا يعجزهن^(٥) ابن آدم: الطيرة وسوء الظن والحسد»^(٦) فينجيك من الطيرة، ألا تعمل بها، وینجيك من سوء الظن ألا تتكلم، وینجيك من الحسد ألا تبغي أخاك سوءاً.

أي ترحم عليه وتشفق، وتحب له ما تحب لنفسك، وتصاحبه بالنصح، فإن علاج

(١) في (ح): هجر.

(٢) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٣) في (ح): ولا حسداً.

(٤) رواه أحمد بن حنبل بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له سعداً، وفيها ابن لهيعة.

(٥) في (ط): يعجزهم.

(٦) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (١١٧٢) وقال: إسناده منقطع.

الحسد وإزالته عن القلب وتزكية النفس عنه باستعمال الرحمة، والشفقة، والنصيحة، فإنه من دأب المؤمنين، كما قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمنين في تراحهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(١).

وفي رواية أخرى قال: «المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً»^(٢)، ثم شبك بين أصابعه.

وقال ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، والدين النصيحة».

قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولنبيه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣).

قال «أبو سليمان الخطابي»^(٤): النصيحة كلمة جامعة يعبر بها عن جملة هي إرادة

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٦، ٦٠٢٧) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥) مختصراً.

(٣) رواه البخاري معلقاً قبل حديث (٥٧) ورواه مسلم موصولاً (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه. ويروى: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب الخطابي البُستي يكنى بأبي سليمان. ولد بمدينة بُست في أفغانستان، سنة بضع عشرة وثلاثمائة، وقيل: ولد في رجب سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

قال الذهبي: «وعني بهذا الشأن متناً وإسناداً، ورحل في طلب العلم، وسمع من: أبي سعيد بن الأعرابي بمكة، ومن إسماعيل بن محمد الصفار وطبقته ببغداد، ومن أبي بكر بن داسة وغيره بالبصرة، ومن أبي العباس الأصم، وعدة بنيسابور». ولقد صنف التصانيف وألف كتاباً في شرح الأسماء الحسنى سماه «شأن الدعاء»، وشرح سنن أبي داود في معالم السنن، وله شرح لكتاب صحيح البخاري اسمه «أعلام السنن» وله كتاب ينهى فيه عن علم الكلام اسمه «الغنية عن الكلام وأهله»، وكتاب «غريب الحديث» وكتاب «اصطلاح غلط المحدثين»، وغيرها من الكتب والتصانيف، وكان لغوياً له قصائد شعر، توفي سنة ٣٨٨هـ بمدينة بست. (سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢٣).

الخیر، وليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناها^(١) غيرها.

وأما نصيحة المسلمين، فجماعها إرشادهم إلى مصالحهم من تعليم ما يجهلون من أمر الدين، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والترحم على صغيرهم.

وقال ﷺ: قال الله تعالى: «أحب ما تعبد به عبدي إليّ: النصح لي»^(٢).
فمعالجة الحسد بالرحمة، والشفقة، والنصيحة للمحسود عليه من أهم المهمات، حتى يكون من المرحومين.

فإن النبي ﷺ قال: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٣).
وقال: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء»^(٤).
ولا يكون من الأشقياء بالحسد الذي هو نازع الرحمة عن قلب الحاسد.
فإن النبي ﷺ يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٥).
فمن شرط المؤمنين أن يكونوا عباد الله إخواناً.

كما قال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٦).

(١) في (ح): معانيها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٩١)، وابن المبارك في ((الزهد)) (٢٠٤)، والرويان في ((المسند)) (١١٩٣) عن أبي أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: «أحب ما تعبدني به عبدي إليّ النصح لي. قال الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٤٢): إسناده ضعيف.

(٣) ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٨٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٦٤٩٤).

(٥) رواه أبو داود في صحيحه (٤٩٤٢) وحسنه الألباني.

(٦) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن الحسد ما هو محمود، وهو الاغتراب في الخير، كما قال رسول الله ﷺ:
«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وأطراف النهار،
ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآثار النهار»^(١).
فيتمنى العبد مقامه، ولا يحب أن يزول عنه، ويحب أن يعمل بعمله.
والله أعلم.



(١) رواه الترمذي (١٩٣٦) وابن ماجه (٣٤١٢) وصححه الألباني. ورواية البخاري (٥٠٢٦): «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيته مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيته مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل».

الفصل السادس

في صفة الشهوة وعلاجها بالعفة والاجتناب عن الشهوات، والجوع

قال الله تعالى:

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «دعا الله جبريل فأرسله إلى الجنة. فقال: انظر إليها، وما أعددت لأهلها فيها.

فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها.

قال: فحُجبت^(١) بالمكاره.

فقال له: ارجع فانظر إليها. فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد يسمع بها^(٢).

ثم أرسله إلى النار.

فقال: اذهب فانظر إليها وما أعددت لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يدخلها أحد يسمع بها.

قال: فحُجبت^(٣) بالشهوات. ثم قال له: عد إليها فانظر.

(١) في (ح): فحفت.

(٢) إضافة من (ح).

(٣) في (ح): فحفت.

فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها^(١).

اعلم أن الشهوة مادة كل فتنة، ومنبع كل فساد، وهي بذر شجرة الحيوانية، وثمرتها، وهي حبُّ حبائل الشيطان، وهي الدركة السفلى من صفات البشرية، فما تحتها دركة تكون^(٢) منزل الروح الإنساني من بدء عبوره من أعلى عليين القرب على العرش، والأفلاك، والأنجم، والسموات والأرضين، وعلى مفردات العناصر، والمركبات، والمعادن، والنباتات، والحيوانات إلى أن تعلق بالنطفة في الرحم فمر بها إلى أن بلغ المولود حد البلوغ، فهو في العبور من دركات صفات القلب إلى دركة الشهوة، وهي أسفل السافلين، «فليس وراء عبّادان قرية»^(٣) فيبقى فيه محبوساً مقيداً بقيود الحواس، والقوى، والأوصاف إلى أن تداركته العناية الأزلية بجذبة ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ في الباطن، ودعوة الأنبياء، وتكاليف الشرع في الظاهر، فيرجع بالإيمان والعمل الصالح من أسفل سافلين دركة الشهوة متوجّهاً إلى الحضرة بقدمي العفة، وقلع مواد الشهوة بالجوع، وترك الملاذ والشهوات، وملازمة الذكر. فالجوع أحد أركان المجاهدة، وإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع، والإمساك عن الأكل، فوجدوا ينابيع الحكمة في الجوع.

وقال بعضهم:

جُعل الخير كله في بيت، وجُعل مفتاحه الجوع.

وجُعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه الشبع.

وفي الجوع اختصاص بالمشاهدة.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٦٣)، وأحمد (٨٨٦١) واللفظ له.

(٢) في (ط): تكون دركة.

(٣) عبادان: جزيرة تحت البصرة قرب البحر الملح، فإن دجلة إذا قاربت البحر تفرقت فرقتين عند قرية تسمى المحرزي: فرقة تذهب إلى ناحية البحرين وهي اليمنى، واليسرى تذهب إلى عبادان وسيراف والحنابة، وعبادان في هذه الجزيرة هي مثلثة الشكل، ولهذا قالوا: ليس وراء عبادان قرية، لأن وراءها البحر. (انظر: آثار البلاد وأخبار العباد، زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، تحقيق رحماه الله ولد السالم، كلية الآداب، نواكشوط).

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى الله تعالى إلى عيسى، عليه السلام، فقال: يا عيسى تَجَوَّعْ تراني. تجرَّد تصل إليَّ»^(١).

وقال «يحيى بن معاذ»^(٢): «لو كان الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره».

وقال «سهل بن عبد الله»: لما خلق الله الدنيا، جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

وقيل: من أدب الجوع أن لا ينقص من عادته كل يوم إلّا مثل أذن السنور.

وقد بالغ بعضهم في الجوع، حتى كان «سهل بن عبد الله» لا يأكل الطعام إلّا في كل خمسة عشر يومًا، فإذا دخل شهر رمضان، لم يأكل حتى يرى الهلال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح.

ورُوي عن «أبي تراب النخشي»^(٣) وغيره، أنهم بالغوا في الإمساك عن الأكل من

(١) لم أقف عليه.

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، وصفه الذهبي بأنه «من كبار المشايخ له كلام جيد ومواعظ مشهورة». خرج إلى بلخ وأقام فيها، ثم رجع إلى نيسابور ومات فيها يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٢٥٨ هـ. من أقواله: - لا يفلح من شملت رائحة الرياسة منه.

- مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار.

- لا تستبطئ الإجابة وقد سَدَدَتْ طريقها بالذنوب.

- الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وهو يسألك عن جناح بعوضة.

(٣) الإمام القدوة، شيخ الطائفة، أبو تراب عسكر بن الحصين النخشي. ومدينة نخشب من نواحي بلخ، تسمى أيضًا نسف.

صحب حاتمًا الأصم. وحدث عن: نعيم بن حماد، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وغيرهما.

حدث عنه: الفتح بن شخرف، ورفيقه أبو بكر بن أبي عاصم، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، ويوسف بن الحسين الرازي، وأحمد بن الجلاء، وطائفة. وكتب العلم، وتفقه، ثم تأله وتعب، وساح وتجرد.

وسئل عن صفة العارف، قال: الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء.

وعنه قال: إذا رأيت الصوفي قد سافر بلا ركوة، فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة.

وعنه: ثلاث من مناقب الإيمان: الاستعداد للموت، والرضى بالكفاف، والتفويض إلى الله. وثلاث من مناقب الكفر: طول الغفلة عن الله، والطيرة، والحسد.

ثلاثين إلى أربعين يوماً، وأقل وأكثر.

قلت^(١): هذا وإن كان مستحسنًا عند القوم، ولكنه ليس بمقصود أصلي، ولعل يتولد من الإفراط فيه آفات مخلة بالمقصود الأصلي، وإنما المقصود من التقليل كسر النفس، وتقوية القلب وتبييضه، فإن الجوع يذيب شحم القلب، ويقلل دمه فيبيض، ويرق، ويصفو، فيستعد بصفائه لقبول نور الذكر، وأنوار المعاملات الشرعية والواردات الغيبية، ثم تنعكس الأنوار من مرآة القلب إلى أرض النفس، فأشرقت الأرض بنور ربها، وتلاشت ظلمات صفات النفس، وانشق صدف ظلمة الشهوة عن درة المحبة، فإن الشهوة مطية المحبة وهي المطلوب من الإنسان، وبها فاق على الملائكة المقربين، وسجدوا له، فافهم جدًا.

فالإمساك المحمود عن الطعام ما يكون محميًا عن طرفي الإفراط والتفريط، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

فالمحامي من الإسراف نصف رطل إلى رطل كل يوم، أو قريب^(٢) من هذا، فيزيد وينقص منه كل طائفة على قدر قوتهم، وصحة مزاجهم، وعلى هذا المعنى مبني أمر صومهم فمنهم من يسرد الصوم، ومنهم من يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وهو أفضل الصيام.

قال ﷺ: «أفضل الصيام صوم أخي داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»^(٣). وهو اختيار النبي ﷺ يقول: «أجوع يوماً وأشبع يوماً»^(٤). وهو لاستجماع الصبر والشكر.

(١) في (ز): وقال الشيخ الرباني المصنف رحمه الله.

(٢) في (ح): وأقرب.

(٣) رواه البخاري (٥٠٥٢) ومسلم (١١٥٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٢٢١٩٠) باختلاف يسير، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٠٤١٠) واللفظ له.

ومنهم من يصوم يوماً، ويفطر يومين.

ومنهم من يصوم يوم الإثنين، ويوم الخميس، وهو سنة النبي ﷺ.

ومنهم من يصوم أيام البيض، أو من كل شهر ثلاثة أيام.

وحُكي عن الجنيد^(١) أنه كان يصوم على الدوام، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر

معهم، ويقول:

- ليس فضل المساعد مع الإخوان بأقل من فضل الصوم.

غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم، فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لانية الموافقة، وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب.

ويستحب صيام رجب وشعبان إلى النصف وبعد النصف مكروه، وفي الحديث: «لا تستقبلوا رمضان بيوم ولا بيومين»^(٢).

وقال: «من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم»^(٣).

ويستحب صوم العشر من ذي الحجة، والعشر من المحرم.

ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن تصام من الأشهر الحرم، وقد ورد في الخبر: من صام ثلاثة أيام من شهر حرام، الخميس، والجمعة، والسبت، بعد من النار سبعمئة عام.



(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) رواه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢) وابن ماجه (١٣٤٦) ولفظ الشيخين: «لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ، فَلْيَصُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ».

(٣) رواه أبو داود (٢٣٣٤) والترمذي (٦٨٦) والنسائي (١٥٣/٤) واللفظ له، وصححه النسائي (٢١٨٧) وهو من كلام عمار بن ياسر: فعن صِلَةَ بْنِ زُفَرٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ، فَأَتَانِي بِشَاةٍ مَصْلِيَةٍ فَقَالَ: كُلُوا، فَفَتَحَنِي بَعْضُ الْقَوْمِ، فَقَالَ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ عِمَارُ: مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ بِهِ النَّاسُ، فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ.

الفصل السابع

في صفة الغضب وعلاجه بالحلم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

وقال ﷺ: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»^(٢).

اعلم أن الغضب صفة شيطانية، سبعية، نفسانية.

- فأما شيطانية: فكما قال ﷺ: إن الغضب من الشيطان.

- وأما سبعية: فظاهرة في الأسد، والفهد، والنمر، وأنواع السباع.

- وأما النفسانية: فإنها خلقت من تراب وله غريزة.

فللنفس بحسب ذلك طبع، وخلقت من صلصال ولها بحسب ذلك طبع، وهكذا من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، فبحسب تلك الأصول التي هي مبادئ تكونها استفادت صفات من البهيمية، والسبعية، والشيطانية، وإلى صفة الشيطنة في الإنسان إشارة بقوله تعالى: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] لدخول النار في

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) قال الألباني في ضعيف الجامع (١٥١٠): ضعيف.

الفخار، والشيطان خلق من نار.

فنحن نحتاج في علاج الغضب إلى معجون مثلث؛ لتسكين نائرة مواد الغضب، وهو المثلث من الحلم، وكظم الغيظ، والصبر على احتمال الأذى، معجون بماء الرفق.

فبالحلم: ينطفئ من الغضب ما تولد من صفة الشيطنة.

وبكظم الغيظ: يندفع ما تولد من الصفة السبعية.

وبالصبر على احتمال الأذى: يتنفي ما تولد من الصفة^(١) النفسانية.

وبماء الرفق: تنقلع مواد الغضب كلها^(٢).

كما قال ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خيري الدنيا والآخرة، ومن حُرِمَ حظه من الرفق حُرِمَ حظه من خير الدنيا والآخرة»^(٣).

وقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»^(٤).

وقال ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٥).

وقال: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(٦).

ولما كان الغضب مُبطل الحسَنات، ومنشئ السيئات، فلما جاء رجل إلى رسول

(١) في (ط، ل): صفة.

(٢) سقطت في (ح).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩)، وعبد بن حميد في (المسند) (١٥٢١) مطوّلًا، والعقيلي (الضعفاء الكبير) (٣٢٤/٢) واللفظ له. وقال البغوي في شرح السنة (٤٧٢/٦): فيه عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة المليكي يضعف.

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣) واللفظ له.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم عن عائشة أن المؤمنين (٢٥٩٤).

(٦) رواه البخاري (٢٩٣٥) ومسلم (٢١٦٥).

الله ﷺ، قال:

يا نبي الله.. أوصني، ولا تكثر عليّ لعلّي أحفظ.

فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب»^(١).

فقد علم رسول الله ﷺ أن العبد إذا لم يغضب فلا بد له أن يحلم عن الجاني، ويعفو عن المسيء، ويحتمل^(٢) عن الجافي، ويتجاوز عن الخاطيء، ويصبر على الأذى، وبهذا تحسن أخلاقه.

وقال النبي ﷺ^(٣) «لأشج»^(٤) عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة»^(٥).

وقال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٦).

وكما أن الغضب مبطل الحسنات المعمولة، فحسن الخلق مُثبت الحسنات غير المعمولة.

كما قال النبي ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة القائم الصائم»^(٧).

وقال «ابن عباس»، رضي الله عنهما، في قوله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا

(١) حديث صحيح، رواه البخاري برقم (٦١١٦).

(٢) في (ح): ويتحمل.

(٣) في (ز، ل): وقال رسول الله.

(٤) في جميع النسخ: (ابن عبد القيس) والتصويب من كتب الحديث. يقال له أشج بن عصر، مشهور بلقبه هذا، واسمه المنذر بن عمرو أو ابن الحارث ويقال: عبد الله. ذكر الواقدي أن قدومه ومن معه من عبد القيس على النبي ﷺ سنة عشر من الهجرة، وقيل: سنة ثمان قبل فتح مكة، وحين وصل إليه تريت في لبس ملابسه ونفض غباره في حين تسابق القوم يسلمون ويقبلون رسول الله ﷺ؛ فقال له ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله هما: الحلم والأناة». انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: (١/ ٣١٤، ٧/ ٨٥).

(٥) أخرجه مسلم (١٧) مختصراً، وابن حبان في صحيحه (٧٢٠٤) وصححه الألباني في الترمذي (٢٠١١).

(٦) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٧) رواه الألباني في صحيح الجامع عن السيدة عائشة (١٩٣٢) وقال: صحيح.

فعلوا عصمهم الله تعالى، وأخضع لهم عدوهم: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].
وإن الغضب لما كان من أعظم الأخلاق الذميمة، لا بد في علاجه من استعمال
الأخلاق الحسنة.

وقد أوصى رسول الله ﷺ «معاذًا» بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق، فقال له:
«يا معاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة،
وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن
العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من
الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تسب حكيماً، أو تكذب صادقاً، أو تطيع أثماً،
أو تعصي إماماً عادلاً، أو تفسد أرضاً».

أوصيك باتقاء الله عزل وجل عند كل حجر، وشجر، ومدر، وأن تُحدث لكل
ذنوب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الأدب
والخلق.. وإن صاحب حُسن الخلق ليلعب به درجة الصوم والصلاة»^(٢).



(١) أخرجه أحمد في (الزهد) (١٤١)، والطبراني (١٥٩/٢٠) (٣٣١) مختصراً، والبيهقي في (الزهد الكبير) (٩٥٦) واللفظ له. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٨٤١). وليس فيه: ومدر.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٣) واللفظ له، وأحمد (٢٧٥٥٧). قال الترمذي: غريب من هذا الوجه وحسن إسناده البزار في (البحر الزخار) (٣٦/١٠).

الفصل الثامن

في صفة البخل وعلاجه بالسخاء

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال رسول الله ﷺ: «السخيُّ قريب من الله، قريب من الناس، بعيد من النار. والبخلُ بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، [قريب من النار]»^(١). والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخل»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ:

«في الجنة شجرة تُسمى السخاء، منها يخرج السخاء، وفي النار شجرة تسمى الشح، منها يخرج الشح، ولن يلج الجنة شحيح»^(٣).

اعلم أن البخل من دركات جهنم، ولا يخرج البخل منها إلا بقدّم السخاء، والبخل من لم يؤد حق الله من ماله بلسان العلم، والبخل^(٤) بلسان الطريقة من لم يؤد الدنيا

(١) الإضافة من (ز).

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط) (٢٣٦٣)، وابن شاهين في (فضائل الأعمال) (٢٦٦)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٠٣٥٢).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٠٨٧٦). وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٩٧١): موضوع.

(٤) في (ط): البخل. وهي ثابتة في النسخ الثلاث: البخل.

بأسرها في طلب الآخرة، والبخيل بلسان الحقيقة من لم يبذل الدارين، وروحه في طلب الله تعالى.

والسخاء عند القوم هو المرتبة الأولى، ثم الجود، ثم الإيثار، فمن أعطى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن بذل الكل فهو صاحب إيثار، وقد يوصف الحق تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء والإيثار. وقيل:

لما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم. فأما «الجنيد» فإنه قد تستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب «أبي ثور». وأما «الشحام» و«الرقام» و«النوري»^(١)، وجماعة، فقبض عليهم فبسط النطع لضرب أعناقهم. فتقدم «النوري»، فقال له^(٢) السيّاف:

– تدري إلى ماذا تبادر؟

فقال: نعم.

فقال: وما يعجلك؟

فقال: أوتر على أصحابي بحياة ساعة.

فتحير السيّاف، وأنهى الخبر إلى الخليفة، فردّهم إلى القاضي ليتعرف حالهم، فألقى القاضي على «أبي^(٣) الحسين النوري» مسائل فقهية، فأجابه عن الكل، ثم أخذ يقول:

(١) هو الشيخ الزاهد أبو الحسين أحمد بن محمد البغوي النوري، وهو من مشايخ الصوفية، وكان مشهوراً بكثرة الاجتهاد، وحسن العباد، وكان الجنيد البغدادي يعظم شأنه وروى حديثاً نبوياً واحداً عن سري السقطي. ولد أبو الحسين النوري في بغداد، وبها نشأ، وتوفي عام ٢٩٥هـ.

(٢) الإضافة من (ح).

(٣) في (ز): ابن.

وبعد^(١)، فإن لله عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا من الله، وسرد ألفاظًا أبكى القاضي، فأقبل القاضي إلى الخليفة، وقال: إن كان هؤلاء زنادقة، فما على وجه الأرض مسلم، فخلّى سبيلهم.

وقيل: بعث رجل إلى جيلة بشارية، وكان بين أصحابه، فقال: قبيح أن أتخذها نفسي، وأنتم حضور، وأكره أن أخص بها واحدًا، وكلكم له حق وحرمة. وهذه لا تحتل القسمة. وكانوا ثمانين، فأمر لكل واحد بشارية أو وصيف^(٢).

وقيل: عطش «عبيد الله بن أبي بكرة»^(٣) يومًا في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت كوزًا، وقامت بخلف الباب، وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذ بعض غلمانكم، فإني امرأة من العرب مات خادمي منذ أيام.

فشرب «عبيد الله» الماء، وقال لغلامه:

احمل إليها عشرة آلاف درهم.

فقال: سبحان الله! تسخر بي.

فقال: احمل إليها عشرين ألفًا.

فقال: أسأل الله العافية.

فقال: يا غلام، احمل إليها ثلاثين ألف درهم.

فردّت الباب، وقالت: أف لك.

(١) سقطت في (ح). وفي (ز) العبارة مضطربة حيث كتب الناسخ: وبعد قاموا فإن الله عباد إذا قاموا...

(٢) تنسب هذه القصة في البداية والنهاية لابن كثير الجزء التاسع في أحداث سنة تسع وسبعين إلى عبيد الله بن أبي بكرة.

(٣) في (ط، ل): عبد الله والصحيح عبيد الله، وهو أمير الجيش الذي دخل بلاد الترك وقاتل رتبيل ملك الترك، وقد قتل من جيشه خلق كثير، وقد دخل عبيد الله بن أبي بكرة على الحجاج مرة وفي يده خاتم فقال له الحجاج: وكم خنمت بخاتمك هذا؟ قال علي أربعين ألف ألف دينار. قال: ففيم أنفقتها؟ قال: في اصطناع المعروف، ورد الملهوف، والمكافأة بالصنائع، وتزويج العقائل.

فحمل إليها ثلاثين ألف درهم، فما أمست حتى كثر خطابها.

وقيل: دخل «أبو عبد الله الروذباري»^(١) إلى دار بعض أصحابه فوجده غائبًا، وباب بيت له مقفل.

فقال: صوفي، وله باب بيت مقفل! اكسروا القفل، فكسروا، وأمر بجميع ما وجد في البيت^(٢) وأنفذه إلى السوق، وباعوه، وأصلحوه وقتًا^(٣) من الثمن، وقعدوا في الدار، فدخل صاحب المنزل، ولم يمكنه أن يقول شيئًا. فدخلت امرأته^(٤) بعدهم الدار وعليها كساء، فدخلت بيتًا^(٥) ورمت بالكساء، وقالت: يا أصحابنا، هذه أيضًا من جملة المتاع فبيعوها.

فقال الزوج: لم تكلفت هذا باختيارك؟

ف قالت: اسكت، مثل الشيخ ييا سطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شيء ندخره عنه.

وقيل: خرج «عبد الله بن جعفر» إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يعمل فيها؛ إذ أتى الغلام بقوته ودخل كلب الحائط^(٦)، ودنا من الغلام، فرمى

(١) في (ط): أبو عبيد الله. وفي النسخ الثلاث (عبد الله) كما في تاريخ بغداد لابن عساكر (١٦/٥) وفي سير أعلام النبلاء البداية والنهاية: (أبو علي) وقال ابن كثير: وقيل اسمه أحمد بن محمد، ويقال: الحسين بن الهمام، والصحيح الأول.

أصله من بغداد وسكن مصر، وكان من أبناء الرؤساء والوزراء والكتبة، وصحب الجنيد وسمع الحديث وحفظ منه كثيرا، وتفقه بإبراهيم الحربي، وأخذ النحو عن ثعلب، وكان كثير الصدقة والبر للفقراء، وكان إذا أعطى الفقير شيئا جعله في كفه تحت يد الفقير، ثم يتناوله الفقير، يريد أن لا تكون يد الفقير تحت يديه. قال أبو نعيم: سئل أبو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي ويقول: إنه وصل إلى منزلة لا يؤثر فيه اختلاف الأحوال. فقال: نعم وصل، ولكن إلى سقر. (انظر البداية والنهاية ١١/٣٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٦).

(٢) في (ز): الدار والبيت.

(٣) وردت في (ز، ل): وقيا. والكلمتان غير واضحتين المعنى في سياقهما ولكن (وقيا) ربما تكون جمع (وقية) وهي وزن من أوزان الدَّهْنِ وجمعها أَوَاقٍ وَأَوَاقٍ أي أنهم اشتروا بثمن الأثاث ما يطعمون به.

(٤) في (ح): المرأة.

(٥) سقطت في (ط).

(٦) الحائطُ: البستانُ والجمع: حيطانٌ، وحوائط.

إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني فأكله، والثالث فأكله، و«عبد الله» ينظر، فقال:

- يا غلام كم قوتك كل يوم؟

قال: ما رأيت.

قال: فلم آثرت هذا الكلب؟

قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت رده.

قال: فما أنت صانع اليوم؟

قال: أطوي يومي هذا.

قال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء. إن هذا أسخى مني.

فاشترى الحائط، والغلام، وما فيها من الإناث، فأعتق الغلام ووهبها منه.

وكان من دأب من يعالج^(١) البخل بالسخاء، أن لو أغلق عليه يوماً باب المعالجة لكان يبكي كالثكلى.

قيل:

بكى أمير المؤمنين «علي» رضي الله عنه، يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

ثم اعلم أن دواء البخل من أهم المهمات، وهو^(٢) من المهلكات لا سيما قال النبي ﷺ: «أي داء أدوى من البخل»^(٣).

(١) في (ز، ل): معالج.

(٢) الضمير (هو) يعود على البخل.

(٣) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (٢٩٦) واللفظ له، والبزار كما في (مجمع الزوائد) للهيتمي (٣١٨/٩)، والطبراني في (المعجم الأوسط) (٨٩١٣). وفي هذا الحديث يسأل النبي ﷺ بني سلمة: «مَن سيّدكم؟» أي: مَن رئيسكم، فأجابوه أنه «الجدُّ بنُ قيسٍ»، وقد كان الجدُّ بنُ قيسٍ أحد السادة القدماء المطاعين في بني قيلة =

وقال ﷺ: «لا يكون المؤمن بخيلاً ولا جباناً»^(١).



= من الأوس والخزرج، وقد كانت سبيله في التفاق سبيل عبد الله بن أبي بن سلول، فقالوا للنبي ﷺ: «على أنا نبخله»، أي: نصفه بصفة البخل؛ يمنع حقوق الله، وحقوق آدميين، ويمنع معروفه، ويسيء عشرة أهله وأقاربه.

فقال النبي ﷺ: «وأي داء أذوى من البخل؟!» بمعنى: أي عيب أقبح من أن يصاب الإنسان بصفة البخل، فاختار لهم النبي ﷺ سيداً آخر غير هذا السيد البخل، فقال: «بل سيدكم عمرو بن الجموح»، وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية سادناً وخادماً لها، ولكنه أسلم وحسن إسلامه، ومن كرمه أنه كان يؤلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا تزوج، أي: يقوم بعمل الوليمة عنه.

(١) روى الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٠) (١٩) عن صفوان بن سليم أنه قال: «قيل لرسول الله ﷺ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟ فَقَالَ: (لَا)».

ومن طريقه رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٥٦) (٤٤٧٢). وضعفه الألباني في ضعيف «الترغيب والترهيب» (١٧٥٢). وهو حديث ضعيف؛ لأنه مرسل أو معضل، إذ أن صفوان بن سليم لم يدرك النبي ﷺ، فهو من التابعين، فيحتمل أن يكون سقط من الإسناد راوٍ أو راويين غير الصحابي.

الفصل التاسع

في صفة الحقد وعلاجه بالعفو، وسلامة القلب

قال الله تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وعن «جابر بن عبد الله» قال: لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ:

«يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال: حتى أسأل. فصعد ثم نزل، فقال: يا محمد، إن الله تعالى يأمرك أن تصفح عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

فقال النبي ﷺ: ألا أدلكم على أشرف أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟

قلنا: وما ذاك يا رسول الله؟

قال: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك...»^(١).

ثم اعلم أن الحقد من أخس أخلاق النفس، وأن علاجه من أشرف أخلاق القلب، وهو العفو، بل هو خلق من أخلاق الحق تعالى.

كما قال ﷺ: «إن الله عفو يحب العفو»^(٢).

والحقد من أخلاق إبليس؛ فإنه لما أمر بالسجود لآدم، فلم يسجد له، فلعن وطُرد،

فاحتقد^(٣) من آدم، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب إسناده ضعيف.

(٢) ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٣٨).

(٣) في (ز): فأحقد.

فالحاقد متخلق بأخلاق إبليس، والعَفُوُّ متخلق بأخلاق الحق تعالى، فشتان بين الخُلُقَيْن.

والحاقد المتشاحن، متروك من رحمة الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ:

«تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر الله لكل عبد مؤمن لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فقال: اتركوا هذين حتى يفيتا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»^(١).

وقال «أنس»: قال رسول الله ﷺ:

«يا بني، إن قدرت أن تصبح وتمسي، وليس في قلبك غش لأحد، فافعل، ثم قال: يا بني، وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة»^(٢).

ثم اعلم أن الحقد قيد على أقدام السائرين إلى الله، فلا يمكنهم السير إلا برفع القيد، ولا يمكن رفع القيد إلا بتصفية القلب، والركن الأعظم في معنى تزكية النفس، وتصفية القلب، وتحلية الروح: ملازمة الذكر، ودوامه، كما يجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى وحده.

ثم لا تنظر إلى هذه الصفات الذميمة بعين الحقارة، فإن كل صفة من هذه الصفات الذميمة الحيوانية صدف درة من الصفات الحميدة الروحانية، وهو أن الكبر صدف درة علو الهمة، والحرص صدف درة الطلب، والحسد صدف درة الغبطة، والشهوة صدف درة المحبة، والغضب صدف درة الصلابة، والبخل صدف درة الإمساك عن تعاطي المهلكات، والحقد صدف درة الانتقام، ثم هذه الصفات الروحانيات أصداف

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥)، وأبو داود (٤٩١٦) واللفظ له، والترمذي (٢٠٢٣)، وأحمد (٧٦٢٧). وليس في الحديث: (اتركوا هذين حتى يفيتا).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨) واللفظ له، وأبو يعلى (٣٦٢٤)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٩٩١) مطوًلاً.

درر الصفات الربانيات.. فعلو الهمة صدف درة الكبرياء والعظمة، والطلب صدف درة الإرادة والمشية، والغبطة صدف درة الغيرة، والمحبة صدف درة الرحمة والكرم، والصلابة صدف درة القهر والمهابة، والإمساك صدف درة القبض، والانتقام صدف درة العدل والنصفة.

وكذلك جميع الصفات النفسانيات والروحانيات، كلها أصداف درر الصفات الربانيات، وليس لله صفة إلا ومرآة استعداد الإنسانية قابلة لعكسها بالخلافة. وهو أحد أسرار قوله ﷺ:

«إن الله تعالى خلق آدم على صورته»^(١)، أي على صورة صفاته، ولما لم تكن هذه الصفات مجموعة في الملائكة لم يستحقوا الخلافة، وهو أحد معاني قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وهي أسماء صفات الله تعالى، علمه بالتجلي فيه. وقال «أبو القاسم الكركاني»^(٢): إن الأسماء التسعة والتسعين تصوير أوصافاً للعبد السالك، وهو بعد في السلوك غير واصل.

لعل «الكركاني» أراد أن السائر في الصفات لم يكن واصلًا، حتى يكون سائرًا في الذات، وهو السير في الله بجذبات الألوهية عند فناء البشرية، واضمحلال الروحانية. ثم اعلم أن الأصل في تزكية النفس ترقيقها من مقاماتها، ولها أربع مقامات: مقام

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره محقق النسخة (ط) أنه أبو القاسم الجرجاني، والصحيح ما ورد في النسخ الثلاث (ح، ز، ل): أبو القاسم الكركاني، وهو الشيخ القدوة عالم الزهاد أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الله الطوسي الطابري الكركاني، ويعرف بكركان. كان شيخ الصوفية والمشار إليه بالأحوال والمجاهدة. سمع حمزة بن عبد العزيز المهلب، وعبد الله بن يوسف الأصبهاني، وأبا بكر الحيري. وبمكة من محمد بن أبي سعيد الإسفراييني. ذكره السمعاني، فعظمه وفخمه، وقال: حدثنا عنه ابن بنته عبد الواحد بن الشيخ أبي علي الفارمذي، وعبد الجبار بن محمد الخواري. توفي في ربيع الأول سنة تسع وستين وأربعمائة من الهجرة. (انظر سير أعلام النبلاء: ١٨ / ٤٠٥).

الأمارية، قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

ومقام اللوامية، قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

ومقام الملهمية، قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَالْهَمَّهَا جُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

[الشمس: ٧-٨].

ومقام المطمئنة، قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾.

[الفجر: ٢٧-٢٨].

وأن ترقى النفس من مقاماتها على حسب مراتب التوبة.

كما سنبينه إن شاء الله وحده.



الفصل العاشر

في مراتب التوبة على حسب مقامات النفس

وهي أربع مراتب:

المرتبة الأولى: وهي للنفس الأمارة^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٢).

وهذه مرتبة عوام المؤمنين، وهي بترك المنهيات، والقيام بالمأمورات وقضاء الفوائت، ورد الحقوق، والاستحلال عن المظالم، والندم على ما جرى، والعزم على ألا يعود إلى ما منه انتهى، وهذه توبة عن الأفعال والأقوال.

المرتبة الثانية: الإنابة، وهي للنفس^(٣) اللوامة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، وهذه مرتبة خواص المؤمنين من الأولياء، والإنابة إلى الله بترك الدنيا، والزهد فيها^(٤) وفي ملاذها، وتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس بمخالفة هواها والمداومة على جهادها ف ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

(١) سقطت في (ل).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ط): النفس.

(٤) سقطت في (ز، ل).

يشير به إلى أن التوبة، وتطهير النفس عن دنس الأوصاف الذميمة من نتائج محبة الله الأزلية بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ وهذا كما قال رجل «الرابعة»: «إني قد أكثر من الذنوب والمعاصي، فلو تبّت هل يتوب عليّ؟

فقلت: لا، بل لو تاب عليك لتبّت.

وذلك لأن العصيان من صفة الإنسان.

كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

والتوبة، من صفة الحق تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، وسُئِلَ «أبو حفص» عن التوبة، فقال: ليس للعبد في التوبة شيء؛ لأن التوبة إليه لا منه. كما أن الله تعالى نسب العصيان إلى آدم فقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ﴾ ونسب التوبة إلى نفسه تعالى فقال: ﴿ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وقيل: أوحى الله تعالى إلى آدم: يا آدم، ورثت ذريتك التعب والنصب، وورثتهم التوبة. من دعاني منهم بدعوتك لبيته كما لبيتك.

يا آدم، أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب. فالنفس إذا تحلت^(١) بالإنابة دخلت في مقام القلب، واتصفت بصفته؛ لأن الإنابة من صفة القلب.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

المرتبة الثالثة: الأوبة.

وهي للنفس الملهمة. قال الله تعالى: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وهذه مرتبة خواص الأولياء، والأوبة إلى الله من آثار الشوق إلى لقاءه، فمن تاب خوفاً من عقابه فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في ثوابه، فهو صاحب إنابة، ومن

(١) في (ح، ط): تجلت.

تاب شوقاً إلى لقائه فهو صاحب أوبة.

فالنفس إذا تحلت بالأوبة دخلت في مقام الروح، وهو مقام العبودية الملكية، كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِذِّي ۖ (٢٩) وَادْخُلِي جَنِّي﴾ [الفجر: ٢٩ - ٣٠].

ومن أمارات الأواب المشتاق أن يستبدل المخالطة بالعزلة، ومنادمة الإخوان بالخلوة، واستوحش عن الخلق واستأنس بالحق، وجاهد نفسه في الله حق جهاده، ساعياً في قطع تعلقاتها عن الكونين، كما قال «أبو يزيد»^(١): كنت ثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين كنت مرآة قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا في وسطي زنار^(٢)، فعملت في قطعه ثنتي عشرة سنة، ثم نظرت، فإذا في باطني زنار، فعملت في قطعه خمس سنين، أنظر كيف أقطع، فكشف لي، فنظرت إلى الخلق، فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

والمرتبة الرابعة: الرجوع. وهو للنفس المطمئنة.

قال الله تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ (٣٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

وهذه مرتبة أخص الأولياء والأنبياء، وقوله: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ صورة جذبة العناية الربوبية إلى نفوس الأنبياء، والأولياء، تجذبها أنانيتها إلى هوية ربوبية راضية، أي طائعة تلك النفوس شوقاً إلى لقاء ربها مرضية، أي على طريقة مرضية في السير لربها، كما قال تعالى للسماء والأرض:

﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

بخلاف نزع نفوس الكفار بجذبة القهر، وهي كارهة غير راضية على طريقة مكروهة من الكفر والفسق^(٣) والجحود، غير مرضية لربها، كما قال عليه الصلاة والسلام:

(١) أبو يزيد البسطامي وقد سبقت الإشارة إليه.

(٢) زنار: حزام يُشدُّ على الوسط، والجمع: زَنَانِيرُ.

(٣) في (ح): والفسوق.

«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(١).

فمن تاب مجذوباً، فهو صاحب رجوع بالجمدة، فالنفس إذا تحلت بحلية الجمدة في صورة الرجوع، أدخلت في مقامات الروحانيات، بقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾.

ثم أخرجت عنها بالعبور عليها مجذوبة عن أنانيتها.

ثم أدخلت في جنة هويته المخصوصة المضافة إليه بقوله: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ دخولاً خالداً أبداً لا خروج منها أبداً لا باد^(٢).

ثم اعلم أن التوبة تدور مع السائرين^(٣) إلى الله، حيث يدور السائر من أول منزل من منازل الرجوع إلى ربه في جميع المنازل والمقامات على حسب كل مقام بمعنى مناسب لذلك المقام، كما شرحنا، إلى أبد الآباد، لا بد له منها كل ساعة ولحظة.

كما قال ﷺ: «توبوا إلى الله فإنني أتوب إليه في كل يوم مائة مرة»^(٤).

وقال: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»^(٥).

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

[النصر: ٣].



(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٨٥) عن أبي هريرة.

(٢) سقطت في (ط).

(٣) في (ط، ل): السائر.

(٤) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٦٢١) واللفظ له، وابن حبان (٩٢٩) باختلاف يسير.

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢)، ومعنى (إنه ليغان على قلبي): أنه يتغشى القلب ما يلبسه. والمراد: الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عذ ذلك ذنباً واستغفر منه الاستغفار من التقصير في أداء الحق الذي يجب لله تعالى، وغير ذلك مما يحجب عن الاشتغال بذكر الله والتضرع إليه ومُشاهدته ومُراقبته، فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي.

الباب التاسع

في معرفة القلب ومقاماته في التصفية

الفصل الأول

في معرفة القلب

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت بها سائر الجسد، ألا وهي القلب»^(١).

وقال ﷺ: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(٢). وفي رواية أخرى: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه».

اعلم أن للقلب صورة، وهي التي أثبت النبي ﷺ لجميع أولاد آدم بقوله: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد»^(٣) الحديث.

وله روحاً وهو الذي أثبت الله تعالى لبعضهم دون بعض بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

(١) ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٨)

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٠٧) باختلاف يسير.

(٣) سبق تخريجه.

وقد سمى الله تعالى من لم يكن له روح القلب ميتاً بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْنَ﴾.

[النمل: ٨٠].

وقال: ﴿أَوْمَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فأما منشأ صورة القلب التي هي المضغة، فهي الذرة التي استخرجها الله من ظهر آدم يوم الميثاق.

وأما منشأ روحه الذي هو حي به، فهو الذي استفادت الذرة عند استماع خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ من الفيض الإلهي، فكما أن تلك الذرة المستخرجة صارت بذر شجرة القلب، وثمره القلب، كذلك صار ذلك الفيض، المستفاد من الفيض الإلهي بذر شجرة روح القلب، وثمره روح روحه، وهو الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهو الإيمان الفطري عند خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كتبه بقلم توفيق الإقرار بربوبيته؛ إذ قالوا ﴿بَلَىٰ﴾ وأيدهم بروح منه وهو ثمرة شجرة الإيمان الكسبي، إذا آمنوا وعملوا الصالحات، فلما أُيدت شجرة روح القلب، فأثمرت بروح منه استعدت للتوصيل من الشجرة الطيبة، التي هي الكلمة الطيبة، وهي كلمة لا إله إلا الله، فتثمر ثمرة الوحدة، كما أثمرت لقائل: «سبحاني ما أعظم شاني»^(١)، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، يعني يوم الرجوع إلى الحضرة لا ينفعه للوصول إلى الحضرة المال الذي هو المكتسب من أفعاله، ولا البنون الذين هم المكتسبون^(٢) من ذاته إلا أن يأتي إلى الله بقلب مستفيض سليم من آفات تعلق الكونين، ذي سلامة من انحراف المزاج القابل للفيض الإلهي بلا واسطة.

(١) ينسب البعض هذه العبارة لأبي يزيد البسطامي، وينسبها البعض للحلاج، وينسبها فريق آخر لإبراهيم بن أدهم.

(٢) في (ط): مكتسبون.

وإنما سُمي القلب ^(١) قلباً؛ لأنه سريع التقلب بتقلب مقلب القلوب.
 كما قال ﷺ: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» ^(٢).
 ولأنه خلق في ^(٣) قلب عالمي الغيب والشهادة، وهما الروح والجسد، وقد تولد القلب من ازدواجهما، فصورته متصلة بالجسد، وروحه متصلة بالروح.
 وقد عبر النبي ﷺ عن عالمي الغيب والشهادة بالإصبعين؛ لأنهما صورتا صفتي لطف الله تعالى، وقهره.

قوله: «فإن شاء أقامه» أي باستيلاء صفات الروحانية عليه، أقامه متوجّهاً إلى حضرة العزة، «وإن شاء أزاعه»، أي بغلبات صفات الحيوانية عليه أزاعه مُعرضاً عن الحق متوجّهاً إلى الدنيا وشهواتها، واستيفاء لذاتها، وطلب جاهها، فإن من سنته تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يزيغ القلب إلا بعد أن يزيغ العبد أعماله الجسدانية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

[الصف: ٥].

أي زاغوا بإيذاء رسول الله أزاع الله قلوبهم عن الإيمان، فكذلك إقامة القلوب إنما يكون بإقامة شرائط العبودية في تصفية القلب، وتنقيته، وتربيته في الترقى إلى مقامات مخصوصة به، كما سيجيء شرحه إن شاء الله وحده.



(١) في (ز): قلب.

(٢) سبق تخرجه.

(٣) في (ح): من.

الفصل الثاني

في مقامات القلب

اعلم أن للقلب أوصافاً خلقه الله تعالى عليها بالقوة، ومقاماته سَيْرُهُ في أطواره المختلفة على قانون استخراج تلك الأوصاف من القوة إلى الفعل، وله صحة ومرض، كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، فمرضه بانحراف مزاجه عن تلك الأوصاف الجبلية، واعتداله^(١) بعوارض الأوصاف النفسانية المجبولة عليها، كما مر شرحها، وصحته في إزالة الأوصاف النفسانية العارضة^(٢) له عنه وسلامته عن آفاتهما، وخصائصهما، واستقامته على أوصافها التي هو مجبول عليها بعد استخراجها من القوة إلى الفعل [بالسير والعبور على]^(٣) مقاماته، فنحن نذكر في هذا الفصل مقاماته المختصة به، وطريق العبور عليها على سبيل الإيجاز والاختصار، إن شاء الله تعالى على الترتيب^(٤).

(١) في (ح، ط): واعتداله.

(٢) في (ز): العارضية.

(٣) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٤) في (ح، ز) بعد هذا الكلام: (فاعلم أن أول مقام القلب الذي هو صفته المجبولة عليه).

المقام الأول: الزهد^(١)

وهو عدم الالتفات إلى الدنيا بحذافيرها: مالها، وجاهها، وشهواتها، وزينتها، وزخارفها؛ رغبةً في الآخرة، ونعيمها الباقية، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

وهذا أول مرتبته في الزهد التي جُبل عليها، وهذا النوع من الزهد كالبذر في أرض القلب، فبالترية بماء الشريعة وآداب دهقنة الطريقة تنبت منه شجرة الزهد فيما يشغله عن الله وتثمر ثمرة الزهد فيما سوى الله.

فالزهد رأس مال السائرين إلى الله تعالى، ولهم في كل مقام ربح منه إلى ما لا نهاية له، كما قال «ذو النون»^(٢):

«من علامة الزهد المشروح صدره ثلاث^(٣): تفريق المجموع، وترك طلب المقصود، والإيثار عند القوت».

قلت^(٤): وصحة الزهد بالورع، والتوكل، والتقوى، والصدق.

المقام الثاني: الورع

اعلم أن الورع: ترك الشبهات.

قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٥)، أي ترك الفضلات.

(١) في (ز) قسمها إلى فصول فقال: فصل في الزهد، وفصل في الورع.. إلخ. وسنكتفي هنا بما ورد من تقسيم في (ل).

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) في (ز، ط، ل) ثلث. والتصويب من (ح).

(٤) في (ز): قال الشيخ الرباني المصنف رضي الله عنه.

(٥) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ورواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن الحسين بن علي، ورواه الحاكم في الكنى عن أبي بكر، وفي تاريخه عن علي بن أبي طالب، ورواه الطبراني في الأوسط عن زيد بن ثابت، ورواه ابن عساكر عن الحارث بن هشام وصححه السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم (٨٢٤٣).

وقال عليه السلام لأبي هريرة: «كن ورعاً تكن أعبد الناس»^(١).

قال «أبو بكر الصديق»، رضي الله عنه: «كنا ندعُ سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام»^(٢).

قلت^(٣): المتورّع: من يتورّع في الطعام، والشراب، واللباس، والمنطق، والنظر، والخواطر، والأفعال الظاهرة، والأحوال الباطنة، حتى لا يتحرك في الظاهر إلا لله، ولا يقصد في الباطن إلا الله، ويتورع عما سوى الله.

قال «يحيى بن معاذ»^(٤): من لم ينظر في دقيق من الورع، لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقال «الحسن»^(٥): مثقال ذرة من الورع، خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة. وقيل: أوحى الله تعالى إلى «موسى» عليه السلام، لم يتقرب إليّ المتقربون بمثل الورع.

وقال «أبو هريرة»، رضي الله عنه: جلساء الله غداً أهل الورع والزهد. وقيل: حُمل إلى «عمر بن عبد العزيز» مسك من الغنائم، فقبض على مشامه، وقال: - إنما ينتفع من هذا بريحه، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

وقال «كهمس»^(٦): أذنبت ذنباً أبكي عليه من أربعين سنة، وذلك أنه زارني أخ، فاشتريت بدائق سمكة مشوية، فلما فرغ، أخذت قطعة طين من جدار جار لي حتى

(١) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٥٨.

(٣) ستتوقف عن الإشارة عن الاختلاف بين النسخ عند ورود هذه الكلمة وأن في بعض النسخ تأتي قال المصنف رضي الله عنه، وفي بعضها: قال الشيخ الرباني المصنف رضي الله عنه.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

(٥) يقصد الحسن البصري.

(٦) كهمس: من رجال الفرقة القديرة وهي فرقة كلامية من فرق المعتزلة كما ذكر صاحب المعارف ص ٦٢٥.

غسل يده ولم أستحله.

وكان رجل يكتب رقعة في بيت بكراءٍ فأراد أن يترّب الكتاب من جدار البيت، فخطر بباله أن البيت بالكراء، ثم خطر بباله أنه لا خطر لهذا التراب، فترب الكتاب من جدار البيت، فسمع هاتفاً يقول: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه من طول الحساب.

المقام الثالث: التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «أريت الأمم بالموسم، فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم، وهيئتهم.

فقبل لي: أرضيت؟

قلت: نعم.

قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً فيدخلون الجنة بغير حساب لا يكتون، ولا يتطيرون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام «عكاشة بن محصن الأسدي»، فقال:

يا رسول الله، ادع الله لي أن يجعلني منهم.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعله منهم»، فقام آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال النبي ﷺ: «سبقك بها عكاشة»^(١).

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم.

اعلم أن أصل^(١) التوكل أن يتخذ الله العبد^(٢) وكيلاً في أمور دينه ودنياه [كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾] ^(٣) [الطلاق: ٣] وينخلع عن تصرفاته بالطبع كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، ثم يكون راضياً بما قسم الله له في الأزل، مستسلماً لما يجري الله عليه إلى الأبد.

فتوكل العوام، باتخاذ الله وكيلاً في رعاية مصالح دنياهم وأخراهم.

وتوكل الخواص، بالتسليم لله فيما أحبوا، وكرهوا^(٤)، لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وتوكل أخص الخواص، بالتفويض إلى الله مفدياً^(٥) بوجوده لموجده^(٦)، متبرئاً إلى الله تعالى من النظر إلى صلاح حاله، أو فساد مآله، لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله منه في إيجاد بحكمته، كما قيل:

وَكَلْتُ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَمْرِي كُلَّهُ فَإِنْ شَاءَ أَحْيَانِي وَإِنْ شَاءَ أَتْلِفَا

قال «سهل بن عبد الله»^(٧): أول مقامات التوكل^(٨) أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد^(٩)، ولا يكون له حركة، ولا تدبير. وقال أيضاً: العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب

(١) سقطت في (ط).

(٢) في (ط): العبد ربه.

(٣) سقط في (ز).

(٤) في (ز): وأكرهوا.

(٥) هكذا في النسخ وأظنها (مفضيّاً) كما قال محقق (ط) من الإفضاء.

(٦) في (ز): لموجده.

(٧) سبقت الإشارة إليه.

(٨) في (ط): أول المقامات أن يكون.

(٩) في (ز): يشاء.

من الزهد، والزهد كله^(١) باب من التوكل.

وقال «حمدون القصار»^(٢): التوكل هو الاعتصام بالله.

ثم اعلم أن كمال التوكل الرضا بما قسم الله له، ثم:

المقام الرابع: الرضا

قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

وقال رسول الله: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»^(٣).

اعلم أن الرضا عن الله ليس من شأن الإنسان؛ لأن الإنسان ظلوم كفار، وإنما رضاه عن الله تعالى من نتائج رضا الله عنه، مهما رضي الله عن العبد يوفقه للرضا عنه، ولهذا المعنى اختلف المشايخ في أن الرضا من المقامات أو من الأحوال.

فقال بعضهم: الرضا من الأحوال؛ لأنه من مواهب الله تعالى، والمقامات من المكاسب، والأحوال من المواهب.

وقال بعضهم: الرضا من المقامات، وهو نهاية التوكل، يتوصل إليه العبد باكتسابه^(٤).

ويحتمل الجمع بين القولين، بأن يقول: بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من المقامات.

لقوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان، مَنْ رضي بالله ربًّا»^(٥).

(١) سقطت في (ط).

(٢) هو حمدون بن أحمد القصار النيسابوري، شيخ الملامتية بنيسابور ومنه انتشر مذهب الملامتية أو الملامية. كان عالما ورعا من علماء هذا المذهب ولم يأخذ به أحد من أصحابه. توفي سنة ٢٧١ بنيسابور. من أقواله: جمال الفقير في تواضعه، فإذا تكبر فقد زاد على الأغنياء في الكبر.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ط): بالاكْتِسَاب.

(٥) سبق تخريجه.

وقال: «إن الله بحكمته تعالى جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»^(١).

ونهايته من جملة الأحوال، ليست بمكتسبة.

قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في مجلس لهم، إذ سطع لهم نور على باب الجنة، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف.

فقال: يا أهل الجنة سلوني.

فقالوا: نسألك الرضا عنا.

فقال: رضاي أحلكم داري، وأنا أحل لكم كرامتي، هذا أوانها، فسلوني.

قالوا: نسألك الزيادة.

قال: فيؤتون بسحائب من ياقوت أحمر إذ منها زمرد أخضر وياقوت أحمر، فجاءوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها، فيأمر الله بأشجار عليها الثمار، وتجيء جوار من الحور العين، وهن يقلن نحن الناعمات فلا نبؤس، ونحن الخالدات فلا نموت، أزواج قوم مؤمنين كرام. ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر، فيثير عليهم ريحًا يقال لها المثيرة حتى ينتهي بهم إلى جنة عدن، وهي قصبة الجنة.

فتقول الملائكة: يا ربنا قد جاء القوم.

فيقول الله تعالى: مرحبًا بالصادقين، مرحبًا بالطائعين.

قال فيكشف عنهم^(٢) الحجاب، فينظرون إلى الله عز وجل، فيتمتعون بنور الرحمن، حتى لا يبصر بعضهم بعضًا.

ثم يقول: أرجعوههم إلى القصور بالتحف^(٣).

(١) سبق تخريجه مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) في (ح): لهم.

(٣) في (ز): أرجعوهم بتحف.

قال: فيرجعون، وقد أبصر بعضهم بعضًا.

فقال رسول الله ﷺ: فذلك قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَا مِنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٢] (١).

وقال المشايخ: الرضا باب الله الأعظم، يعني من أكرم بالرضا فقد لقي بالترحيب الأوفى، وأكرم بالتقريب الأعلى.

قال «عبد الواحد بن زيد» (٢): الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا.

وقيل: قال «موسى»، عليه السلام: «إلهي، دلني على عمل إذا عملته رضيت عني؟ فقال: إنك لا تطيق ذلك.

فخر «موسى» عليه السلام، ساجدًا، متضرعًا، فأوحى الله تعالى إليه: يا ابن عمران إن رضاي في رضاك بقضائي».

وقال «النصرابادي» (٣): من أراد أن يبلغ محل الرضا، فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقيل ليحيى بن معاذ (٤): متى يبلغ العبد مقام الرضا؟

قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، يقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبت، وإن دعوتني أجبت.

وقال «الجنيد» (٥): الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب، فإذا باشر القلب

حقيقة العلم، أداه إلى الرضا، وليس الرضا والمحبة، كالخوف والرجاء؛ فإنهما حالان

(١) ورد في الأحاديث القدسية عن جابر بن عبد الله وأخرجه ابن ماجه في سننه حديث رؤية المسلمين ربهم بلفظ آخر.

(٢) عبد الواحد بن زيد: كان له باع في التصوف وأدرك الحسن البصري، ومن أقواله: أحسن أوقات العبد مع الله موافقته، فإن أبقاء في الدنيا لطاعته كان أحب إليهن وإن أخذه كان أحب إليه.

(٣) النصرابادي (وقد ورد في (ز): (النصرعبادي): هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمود النصرابادي، شيخ خراسان في وقته، أصله ومولده في نيسابور. صحب أبا بكر الشبلي والروذباري وغيرهما. مات سنة ٣٦٧هـ.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

(٥) سبقت الإشارة إليه.

لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة؛ لأنه في الجنة لا يستغني عن الرضا والمحبة.
وقال «ابن عطاء»^(١): الرضا: سكون القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد، إنه اختار له الأفضل فيرضى له، وهو ترك السخط.

وقال «السري»^(٢): خمس من أخلاق المقربين: الرضا عن الله تعالى فيما تحب النفس وتكره، والحب له بالتحبب من الله إليه، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه.

وقال «ابن شمعون»^(٣): الرضا بالحق، والرضا عنه، [والرضا له]^(٤)، والرضا به مدبرًا ومختارًا، والرضا عنه قاسمًا ومعطيًا، والرضا له إلهًا وربًا.
وقال «سفيان»^(٥) عند «رابعة»^(٦):

- اللهم ارض عنا.

فقلت: أما تستحي أن تطلب رضا من لست منه براض.
وقال سهل^(٧): إذا اتصل الرضا بالرضوان، اتصلت الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مأب.

وسئلت «رابعة»: متى يكون العبد راضيًا؟

فقلت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة.

وقيل: قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) ورد في كل النسخ (سري) والصحيح هو السري. وقد سبقت الإشارة إليه.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) سقط في (ح).

(٥) في (ز، ح): سفين، والمقصود هو سفيان الثوري.

(٦) سبقت الإشارة إليها.

(٧) هو سهل بن عبد الله وقد سبقت الإشارة إليه.

فقال الجنيد: قولك هذا ضيق صدر، وضيق الصدر بترك الرضا بالقضاء.

فما قاله الجنيد تنبيه منه على أصل الرضا؛ وذلك أن الرضا يحصل بانسراح الصدر، وانفساحه، وانسراح القلب من نور اليقين. قال الله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

فإذا تمكن النور من الباطن، اتسع الصدر، وانفتح عين البصيرة، وعاین حسن تدبير الله تعالى، فيتنزع التسخيط^(١) والتضجر؛ لأن انسراح الصدر يتضمن حلاوة الحب، وفعل المحبوب بموقع الرضا عند المحب الصادق؛ لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه.

كما قيل: وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

فالرضا على ثلاثة أقسام:

- رضا العوام بما قسم الله لهم من الأرزاق.
- ورضا الخواص بما قضى الله لهم، وعليهم بالوفاق.
- ورضا الأخص بالمولى من غير النفاق.
- وبالرضا يوجد برد اليقين.

المقام الخامس: اليقين

اعلم أن اليقين نور قذفه الله تعالى في قلوب المؤمنين والأولياء، والأنبياء عليهم السلام، بحسب مقاماتهم في المعرفة، وذلك أن الله تعالى إذا اطلع على قلوب عباده المخصوصين بالعناية اطلع الكرم عند توجههم إلى الحضرة بالصدق، وتولاهم بالشوق راجعين بقطع التعلقات سطعت أنوار الغيب فيملاً القلوب المصفاة شروق الأنوار التي بها كشف الأسرار، فكل قلب يرى بإراءة الحق تعالى إياه ما يراه بنور

(١) سقطت في (ط).

اليقين حقيقة غير مشوبة بالريب.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم: ١١].

وكما قال: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾.

[الأنعام: ٧٥].

ولليقين زيادة ونقصان، وضعف وقوة، يزيد بقدر تصفية القلب عن كدورات صفات النفس وتطهيره عن تلوثات^(١) الأخلاق الذميمة.

وتنوره بنور الذكر، وإشراق أنوار تطلع المذكور الذاكر^(٢).

فبدايته: علم اليقين بكشف الأسرار.

ووسطه: عين اليقين بشواهد الآثار.

ونهايته: حق اليقين بتتابع الأنوار.

قيل لرسول الله ﷺ: إن عيسى ابن مريم، عليه السلام، كان يمشي على الماء.

قال: «لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء»^(٣).

ونقصانه بقدر تدنس القلب بلوث الشهوات، وتكدره بشوب الغفلات، وقوته

في الرضا بالقضاء والصبر على البلاء، والتوكل على رب السماء، وضعفه بفقد هذه الأشياء.

(١) في (ز): تلويثات.

(٢) في (ط): والذاكر.

(٣) قال الحافظ العراقي: وهذا حديث منكر لا يُعرف هكذا. والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم، فقيل لهم: توجه نحو البحر. فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء. فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة لمشى على الماء.

وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل: «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور، ولزالت بدعائكم الجبال».

قال «إبراهيم الخواص»^(١): لقيت غلاماً في التيه كأنه سبيكة فضة. فقلت له: إلى أين يا غلام؟ فقال: إلى مكة. فقلت: بلا زاد ولا راحلة، ولا نفقة!. فقال لي: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض لا يقدر على أن يوصلني إلى مكة بلا عَلاَقَة^(٢)!. قال: فلما دخلت مكة، فإذا أنا به في الطواف وهو يقول:

يا عين سحي أبداً يا نفس موتي كمداً
ولا تحبي أحداً إلا الجليل الصمداً

فلما رأيته قال: يا شيخ، أنت على ضعف من اليقين بعد.

ثم اعلم أن اليقين من مقامات لا ينقطع السير فيها إلى الأبد؛ لأنه ثمرة شجرة المعرفة، وهي غير متناهية، فثمرتها تكون غير متناهية، فكما أن للعارف في مقام السير في الله تتجدد المعرفة، ويزيد مع لحظاته إلى الأبد، كذلك يتجدد للموقن السائر في مقام حق اليقين بحسب المعرفة مزيد في اليقين إلى الأبد، وقد خص الله حبيبه المجتبي ونبه المصطفى ﷺ بهذه المرتبة السنية.

فقال: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أي كن ثابتاً على قدم العبودية إلى الأبد؛ ليزداد لك المعرفة واليقين بلا نهاية. وإنما فسر علماء الظاهر، اليقين ها هنا بالموت؛ لأن اليقين بالآخرة، وسؤال المنكر والنكير، والثواب والعقاب، يحصل بالموت، فإن فيه كشف الغطاء، كقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].. وقد كشف غطاء السائرين إلى الله تعالى في حياتهم، ووصلوا إلى مقام الإيقان بعد الإيمان، بل حصلوا في مقام

(١) إبراهيم الخواص: هو أبو إسحق إبراهيم بن إسماعيل الخواص، كما جاء في الطبقات الكبرى (ص ٨٣). وقال صاحب الرسالة القشيرية (ص: ٢٥): هو أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الخواص. له مؤلفات كثيرة في التصوف وبلغ درجة عالية في التوكل وله آثار باهرة وكرامات ظاهرة.

(٢) جاء في القاموس المحيط: العَلاَقَة: ما يُكْتَفَى به من العيش.

العيان حتى قال بعضهم: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، واليقين يورث الصبر، وقد مر الكلام على الصبر، وما بلغ من بلغ هذه المراتب، وما عبر عن هذه المقامات إلا بالصدق.

المقام السادس: الصدق

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

[التوبة: ١١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١).

اعلم أن على الصدق مدار جميع المقامات في السير إلى الله، ولا يمكن الوصول إلى الحضرة إلا بقدوم الصدق، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

[يونس: ٢].

وقال بعضهم: الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه.

الصدق ما^(٢) ينافي الكذب في الأقوال، والأعمال، والأحوال.

فمن صدق في الأقوال، فهو صادق.

ومن صدق في الأعمال، فهو صدوق.

ومن صدق في الأحوال، فهو صديق.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على المقال.

والصدق في الأعمال: استواء الأركان على الشرع في الأفعال، وهما من المكاسب.

(١) أورده صاحب اللؤلؤ والمرجان بلفظ قريب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث (١٦٧٥) وقال أخرجه البخاري في كتاب الأدب ومسلم باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

(٢) سقطت في (ط).

وصدق الأحوال: استواء الجنان على الفضل والنوال من فيض ذي الجلال، وهو من المواهب، وذلك تالي درجة النبوة، لقوله تعالى:

﴿قُلُوبُكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

وعلى الحقيقة، لا يلزم الصدق أحداً في الأقوال، والأعمال، والأحوال إلا بحسن التوفيق من الله تعالى، كما قال تعالى: إن الله مع الصادقين^(١)، أي معهم بالتوفيق للصدق.

ومنشأ الصدق هو المعرفة؛ لأنك إذا عرفت ممن تخاطب أنه واقف على صدقك، وكذبك، وهو قادر على مجازاتك، وأنه لا ينجيك من عقوبته إلا صدقك، فقد صدقت معه.

والصدق أصل لسائر أعمال البر، وعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر، وهو موهبة من الله، فإذا وقع في القلب سطع لذلك نور، وله هياج في القلب، وأخذ في الرأس، وانتشر في سائر الجسد، فيأخذ كل جارحة منه قبساً^(٢) من الصدق، على قدر الكثرة والقلة^(٣) من هيجان الصدق، وعلى قدر ما وافق من ذلك رقة القلب، وصحة العقل، وربما هاج الصدق في القلب فولهه، وربما حيره، وربما أذهله، وربما أبكاه وأحزنه، وربما غص عليه^(٤) الطعام والشراب، وربما دام منه البكاء والنحيب، وربما زعق وشهق، وربما زال عنه العقل ساعة، وربما سقط عنه التمييز ساعة ويوماً، ويومين وأكثر، على قدر هيجان الصدق من القلب، وربما يوحش من الخلق إلى أنس الوحدة، وربما دام به الحزن واقشعر منه الجلد، وربما لم ينتفع به أهل ولا ولد، فهذا

(١) ليس في القرآن الكريم مثل هذه الآية. وقد وردت في النسخ الثلاثة مسبوقه بقوله (كما قال الله تعالى).

(٢) في (ز): تقبلاً.

(٣) في (ز): والقاه.

(٤) في (ز): نقص على.

الذي وصفناه كله وأكثر من هذا بهجة^(١) من القلب صدق الحياء، أو صدق الخوف، أو صدق المحبة.

وإن من أمارات الصادق الصديق ما قيل: أن لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب^(٢) الخلق من أجل إصلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيئ من عمله؛ لأن كراهيته لاطلاع الناس على عمله دليل منه على حب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين. اللهم إلا أن يكون قصدهم في ذلك صلاح الناس، وحسن إرادتهم لينتفعوا بها، ولم ينكروا، فإن إنكارهم يضرُّ بهم.

ومن علامة الصديق أن يكون بصواب القول ناطقًا، ولسانه مخزونًا^(٣)، فإذا نطق فكلامه بالحق موزون، وإنه طاهر القلب من كل دنس، يصابي مولاه في كل نفس، وإنه متمن الموت شوقًا إلى لقاء محبوبه، قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، والصدق يورث الخوف، والرجاء.

المقام السابع: الخوف

قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(٤).

اعلم أن الخوف من شرائط الإيمان، وقد فرضه الله على المؤمنين في القرآن فقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

(١) في (ز، ح): بهيجة.

(٢) في (ح): صدور.

(٣) في كل النسخ ما عدا (ح): مخزونًا، والصواب مخزونًا. جاء في القاموس: خَزَنَ لسانه: حفظه، منعه الكلام.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وعبد بن حميد في (المسند) (١٤٥٨)، وابن أبي الدنيا في (قصر الأمل) (١١٥).

وقد مدح المؤمنين على الخوف، فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وللخوف مقامات ومراتب:

فمقام عوام^(١) المؤمنين: أن يخافوا^(٢) الله في تعذيبهم بالنار.

ومقام خواص المؤمنين: الخشية، وهم العلماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وإنما يخشون أن تكون طاعتهم مشوبة بالرياء، كما قالت «عائشة» رضي الله عنها:

قلت: يا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الرجل يسرق، ويزني، ويشرب الخمر؟

قال: لا، ولكن الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه^(٣).

ومقام أخص الخواص، الهيبة: وهم أهل المعرفة من الأنبياء، والأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠] فمن ازداد المعرفة ازداد الهيبة، وإنما يفزعون عن الحجاب والقطيعة.

قال رسول الله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه»^(٤).

وهذا النوع من الخوف ينشأ من القرب والمحبة [فيزداد إلى الأبد لأنه لا نهاية

(١) في (ز): العوام.

(٢) في (ز): تخاف.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد (٢٥٧٠٥) باختلاف يسير.

(٤) أخرجه مسلم (١١١٠) باختلاف يسير. وفيه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ وهو واقف على الباب وأنا أسمع: يا رسول الله! إني أصبح جنباً وأنا أريد الصيام؟ فقال ﷺ: وأنا أصبح جنباً وأنا أريد الصيام، فأغتسل وأصوم، فقال له الرجل: يا رسول الله! إنك لست مثلاً، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب رسول الله ﷺ وقال: والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي.

للقرب والمحبة^(١)، وضد هذا النوع من الخوف الأمن من المكر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والخائف الحقيقي، من لا يخاف إلا الله.

فإن قيل: ما قولكم في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] هل يخاف الولي أم لا؟

قلنا: أما الخوف الذي يتعلق بزمان مستقبل من مكروه يصيبه من مخلوق أو محبوب يفوته فلا؛ لأنه ليس للولي ماض ولا مستقبل وهو ابن وقته؛ ولأنه مُشاهد للحق تعالى، فلا يرى في الدارين غير الله، وفي نظره: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وأما خوفه في ذات الله تعظيماً وإجلالاً فنعم؛ لأنه يزداد بازدياد القرب والمعرفة.

قال الواسطي^(٢): الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج على^(٣) رعوناتها.

وقال: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف.

قال الأستاذ «أبو القاسم»^(٤): وهذا فيه إشكال، ومعناه إذا اصطلمت شواهد الحق بالأسرار ملكتها، فلا يبقى منها مساغ لذكر حدثان.

(١) ما بين قوسين سقط في (ط).

(٢) أبو بكر محمد بن موسى الواسطي، وكان يُعرف بـ «ابن الفرغاني»، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي بأنه: «من علماء مشايخ القوم (الصوفية)، لم يتكلم أحد في التصوف مثل ما تكلم هو، وكان عالماً بالأصول، وعلوم الظاهر» وقال عنه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء بأنه: «عالم بالأصول والفروع، ألفاظه بديعة، وإشاراته رفيعة». من أصحاب الجنيد وأبي الحسين التوري، أصله من خراسان من فرغانة، واستوطن «كورة مرو»، ومات بها بعد عام ٣٢٠ هـ.

(٣) في (ح): عن.

(٤) هو أبو القاسم القشيري وقد سبقت الإشارة إليه.

فالخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية.

المقام الثامن: الرجاء

قال الله تعالى: ﴿فَنَكانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «قال جبريل، عليه السلام: قال الله عز وجل: عبي ما عبدتني، ورجوتني، ولم تشرك بي شيئاً، غفرت لك على ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا، وذنباً، استقبلتك بملئهن مغفرة. وأغفر لك ولا أبالي»^(١).

اعلم أن الرجاء أحد جناحي قلب المؤمن، والخوف ثانيهما، بهما يطير عوامهم إلى الجنات، وخواصهم إلى القربات، وأخص خواصهم إلى مقامات في الموصلات. ثم يتبدل اسم الخوف والرجاء [للخواص بالقبض والبسط، والأخص بالهبة والأنس]^(٢). الرجاء انعكاس ضياء أنوار الجمال على مرآة القلب، والخوف انعكاس ضياء أنوار الجلال على مرآة القلب.

وأمانة^(٣) صحة الخوف والرجاء، ترك ما يبعده عن الحضرة، واستعمال ما يقربه إليها. فمن كان خوفه من النار ورجاؤه إلى الجنة، فليباشر أعمال الشريعة بالتقوى. ومن كان خوفه من^(٤) قبول الطاعات وردّها^(٥)، ورجاؤه إلى القربات، ومن كان خوفه من القطيعة ورجاؤه من^(٦) الموصلات، فليعمل عملاً صالحاً للحقوق، صافياً عن

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٦٠٣٠) ورواه عن أبي الدرداء وقال: حسن.

(٢) سقط في (ط).

(٣) في (ح): وأما.

(٤) في (ط): عدم.

(٥) سقطت في (ط).

(٦) في (ط): الموصلات.

الحفظ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، بالالتفات إلى الدارين.

قال «أبو خبيق»^(١):

الرجال ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها.

ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة.

ورجل كاذب يتمادى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة.

والفرق بين الرجاء والتمني:

- أن التمني يورث الكسل لصاحبه، ولا يسلك طريق الجهد والجد.

- وبعبارة صاحب الرجاء.

فالرجاء محمود، والتمني معلول^(٢).

وقال «يحيى بن معاذ»^(٣): إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام

على لساني ثناؤك، وأحبُّ الساعات إليَّ الساعة التي يكون فيها لقاءك.

وفي بعض التفاسير: أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه من باب «بني شيبة»

فرآهم يضحكون، فقال: «أنضحكون، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم

كثيراً»^(٤).

(١) هو أبو محمد عبد الله بن خبيق من زهاد الصوفية، كوفي الأصل وسكن أنطاكية وصحب يوسف بن أسباط.

من أقواله: «أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكر بقية عمرك،

وأنفع الرجاء ما سهل عليك العمل». وقال: «طول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب».

(٢) في (ط): مذموم.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) أخرج ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٥٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٥٨٣) واللفظ له عن عمر

ابن الخطاب وفيه: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرَّ بقومٍ من الأنصار يضحكون ويلعبون، فقال:

«أنضحكون ووراءكم جهنم؟ فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما أسغتم الطعام والشراب

ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ تجأرون إلى الله عز وجل. فتودي يا محمد لا تقتنط عبادي إنما بعثتك ميسراً ولم

أبعثك معسراً! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سدّدوا وقاربوا.

ثم رجع القهقري، وقال: نزل عليّ جبريل، عليه السلام، وأتى بقوله تعالى:
﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ .
[الحجر: ٤٩ - ٥٠].

وقيل: إنما أوقعهم في الذنب حين سمى نفسه عفوًّا.
وقيل: لو قال: لا أغفر الذنوب لم يذنب مسلم قط.
كما أنه لما^(١) قال تعالى: ﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾، لم يشرك مسلم قط، ولكن لما
قال: ﴿ وَنَعَفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. طمعوا في مغفرته.
ويُحكى عن «إبراهيم بن أدهم» أنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو
المطاف لي، فكانت ليلة ظلماء يجيء المطر الشديد^(٢) فخلا المطاف، فدخلت
الطواف، وكنت أقول:

- اللهم اعصمني، اللهم اعصمني، فسمعت هاتفاً يقول لي:
- يا ابن أدهم، أنت تسألني العصمة، وكل الناس يسألوني العصمة، فإذا عصمتكم
فعلى من أرحم.
ثم اعلم أن تصحيح المقامات كلها بمحل الإخلاص على الحقيقة، فمن لم
يصحبه الإخلاص في كل مقام، لا يسلم له الخلاص منه.
والله أعلم وأحكم.

المقام التاسع: الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].
وقال رسول الله ﷺ: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة

(١) سقطت في (ط).

(٢) في (ح): فكانت ليلة مظلمة فيها مطر شديد.

من قلبه على لسانه»^(١).

اعلم أن الإخلاص خلوص النظر من الخلق إلى الحق.

وهو على ثلاثة أقسام: إخلاص العوام: وهو خلوص الأحوال عن شوب الرياء. قال عليه السلام: «اليسير من الرياء شرك»^(٢).

وإخلاص^(٣) الخواص: وهو خلوص النية عن شوب النظر إلى الدارين، قال عليه [الصلاة] السلام: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى»^(٤) من عمله.

وإخلاص الأخص: وهو خلوص جوهر الإنساني عن شوب الوجود وشينه، قال عليه السلام: «سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟

قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سر من أسراري استودعته قلب من أحببته من عبادي»^(٥)، [وهو سر الفناء من سر البقاء، أودعته قلوب المحبين]^(٦). فإن المحبة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، وهذا معنى قوله تعالى: «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً»^(٧)، وقد جاء في رواية أخرى: «الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل».

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والطبراني (١٥٤ / ٢٠) (٣٢١)، والحاكم (٤) باختلاف يسير. وقال الألباني في ضعيف الترغيب (٢٠): خلاصة حكم المحدث: ضعيف جداً.

(٣) في (ز): والإخلاص.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧) باختلاف يسير.

(٥) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٢ / ٩٢): ضعيف. وذكره الغزالي في «الإحياء» (٤) / (٣٢٢) عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ. وقال الحافظ العراقي في تخريجه: «روناه في جزء من «مسلسلات القزويني» مسلسلاً يقول كل واحد من رواه: سألت فلاناً عن الإخلاص؟ فقال:.....، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى. وأحمد بن عطاء وعبد الواحد بن زيد كلاهما متروك».

(٦) ما بين قوسين ليس من متن الحديث.

(٧) سبق تخريجه.

والفرق بين المخلص والمخلص:

أن المخلص: من أخلص في العبودية للربوبية.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ [البينة: ٥].

والمخلص: من أخلصه الحق عن حبس^(١) الوجود ببذل الجود.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠].

فلما تخلصوا عن حبس الوجود، آيس الشيطان أن يصيبهم بسوء وانقطع عنهم

سلطانه.. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال «ذو النون المصري»^(٢): من علامات الإخلاص، استواء المدح والذم من

العامة ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال «يوسف بن الحسين»^(٣): «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، فكم أجتهد في

إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر».

ثم اعلم أنه لا يتم الإخلاص إلا بالمراقبة.

المقام العاشر: المراقبة

قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال رسول الله ﷺ: «الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه

يراك»^(٤).

(١) في (ح): جنس.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، وصفه الذهبي بـ «الإمام العارف شيخ الصوفية»، وقال عنه أبو عبد الرحمن السلمي بأنه «شيخ الرِّيِّ والجبال في وقته، كان أَوْحَدَ في طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص».

مات سنة ٣٠٤ هـ.

(٤) سبق تخريجه.

اعلم أن المراقبة محافظة الأسرار عن الأستار^(١).

فكما أن الله كان على كل شيء رقيباً^(٢)، ينبغي أن يكون العبد على كل شيء من الأشياء ظاهره وباطنه، رقيباً؛ لئلا يجري عليه سوى الأمور به، ويعلم أن الله رقيب عليه ما يفعله ويتمناه، فيكون رقيباً على بدنه، سياسيس الشريعة عن المخالفات ولزوم الموافقات، رقيباً على نفسه سياسيس الطريقة ولزوم المجاهدات، وترك الشهوات، رقيباً على قلبه سياسيس المحبة عن ملاحظة الأغيار، ولزوم الأذكار، رقيباً على سره سياسيس الأنوار عن الأستار في كشف الأسرار، رقيباً على روحه بطوالع شمس الشواهد عن الالتفات إلى الدارين في بذل الوجود لنيل المقصود، رقيباً على سره الخفي بسلطان الهوية، وسطوات الألوهية عن وصمة أنانية الإنسانية في إفناء الصفات بالصفات، والذات في الذات، وهذا حقيقة قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]؛ أي رقيباً على كلية أشياء الموجودات ليستعملها لما خلق له، محفوظة عن استعمال غير ما خلق له، فمن تحقق له قبول الحق، فله دوام المراقبة.

والمراقبة، من باب المفاعلة، وهو ما يكون بين الاثنين.

فالرب تعالى يراقب جميع حركات العبد وسكناته ظاهراً وباطناً، مراقبة الحفظ والعناية، وألطف الربوبية.

والعبد يراقب جميع أوقاته، وحالاته، بظاهره وباطنه، رضا ربّه، وإرادته، وأحكامه، وقضاءه، وقدره، وإشاراته وإلهاماته، ووارداته، وطوالعه، وشواهد.. وتجلي صفاته وذاته، مراقبة التقوى، والوفاء، والحياء، والشوق، وأصناف العبودية، كما أنشدوا:

كان رقيباً منك يرعى خواطري وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك منظرًا يسـوُّك إلا قلت قد رمقاني

(١) في (ط): الاستتار.

(٢) في (ز): قديرًا رقيبًا.

ولا بدرت من فيّ دونك لفظة بغيرك إلّا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السرّ بعدك خطرة لغيرك إلّا عرجا بعناني
وإخوان صدق قد سمعت حديثهم فأمسكت عنهم ناظري ولساني
وقيل: قوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى حال المراقبة؛ لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب، سبحانه وتعالى، عليه، واستدامة هذا العلم مراقبة لربه، عز وجل، وهذا أصل لكل خير، ولا يكاد يصل إلى هذه المراقبة إلا بعد فراغه من المحاسبة.

فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله في الوقت، فلازم طريق الحق، أحس بينه وبين الله عز وجل، مراعاة القلب، وحفظ مع الله الأنفاس، راقب الله تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قريب، يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة.

وقال «الجري»^(١): من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة. ومن أعلى مراتب المراقبة الحياء؛ فإن الحياء من الإيمان، والإيمان من نور الجمال، فمن كان رقيه^(٢) نور الجمال كان محفوظاً من سطوات الجلال إلى أن يبلغه إلى أعلى مراتب الوصول والوصال.

ثم اعلم أنه لا يبلغ السالك إلى هذه المسالك، ولا منجى له من هذه المهالك مثل حسن الخلق.

المقام الحادي عشر: الخلق

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) سقطت في (ح).

وقال رسول الله ﷺ، حين سُئِلَ: أي المؤمنين أحسنهم إيماناً؟
قال: «أحسنهم خلقاً»^(١).

اعلم أن الخُلُقَ صورة الروح، كما أن الخَلْقَ صورة القلب، وأن الله قَدَّرَ بكمال حكمته لكل شخص خُلُقًا وخُلُقًا، كما قال ﷺ:

«إن الله فرغ من الخلق والخلق، والرزق والأجل، وكما جعل الأشباح قوالب الأرواح، جعل الصور قوالب الأخلاق، فمن حسنت صورته غالباً حسن خلقه»^(٢).
فكان النبي ﷺ من أحسن الناس خُلُقًا وخُلُقًا، وكما أنه تعالى جعل الصور قوالب الأخلاق، جعل الأخلاق قوالب الإيمان، كما سُئِلَ النبي ﷺ:

- أي المؤمنين أحسنهم إيماناً؟^(٣)

قال: أحسنهم إيماناً أحسنهم خُلُقًا.

فاستقامة الأخلاق في استقامة الإيمان، واستقامة الإيمان في استقامة القلب، كما قال ﷺ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه»^(٤).

والقلب المستقيم هو السليم من الأمراض والعلل والآفات، والتعلقات، فإذا صقلت مرآة القلب عن صدأ تعلقات الكونين وتنورت بنور الذكر، وتواترت عليها شواهد التجليات، انعكس تلالؤها على الأخلاق فتحسنها بحسب قوة التلألؤ، والشواهد، فمن تجلى له الرب تبارك وتعالى بجميع صفاته، صار متخلقاً بأخلاق الحق، ومن تجلى له بأخلاقه يفني كينونيته ويبقيه بكينونيته تعالى. كما قال: «كنت له سمعاً، وبصرًا، ولساناً ويدًا، ومؤيدًا» الحديث. ومن تجلى له الرب تعالى بذاته

(١) رواه ابو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢) وأحمد (٢/ ٢٥٠) (٧٣٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال أبو عيسى: حديث أبي هريرة هذا حديث حسن وهو ما ذهب إليه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) في (ز): أكملهم.

(٤) أورده الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٥٤) وقال: حسن.

وصفاته لم يبق له وجودًا ولا خلقًا، فإن الخلق تبع للوجود، فيكون خلقه خلق الحق كما كان حال النبي ﷺ «كان خلقه القرآن»^(١) والقرآن هو خلق الله وصفته، فلما كان على خلق الله كان على خلق عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ومن علامة عظم خلقه ﷺ: أنه كسرت رباعيته، وشج وجهه، وهو يقول: اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون^(٢).

ثم اعلم أن كمالية الخلق الحسن والعبور على المقامات كلها وحصول الأحوال السنية، إنما يتيسر بملازمة الذكر، ورعاية حقوقه.

المقام الثاني عشر: الذكر

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ولا يضربوا أعناقكم.

قالوا: يا رسول الله، وما ذاك؟

قال: ذكر الله..^(٣)

اعلم أن الذكر عدة السائرين إلى الله، وعمدة طالبيه، ولا يصل أحد إلى الله إلا

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٨٦٢) مطولاً، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) (٤٤٣٥) باختلاف يسير، وأحمد (٢٤٦٠١).

(٢) ما ورد هو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشَجَّ وَجْهُهُ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَالَ: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ ﷺ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ) فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (رواه شعيب الأرنؤوط في تخريج مشكل الآثار (٥٧٠) وقال صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٢١٧٠٢).

بذكر الله؛ لأنه منه بدأ وإليه يعود.

كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأن الذكر يوصل الذاكر إلى المذكور، بل يجعل الذاكر مذكوراً بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والذكر على ثلاثة أقسام: ذكر بالأقوال، وذكر بالأعمال، وذكر بالأحوال. فاذكروني بالأقوال بلفظ الاستغفار عن العصيان أذكركم بالرحمة والغفران، بيانه قوله:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فاذكروني بأعمال الأركان^(١) من خلوص الإيمان، أذكركم بحياة الجنان، ودخول الجنان، بيانه قوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. الآية.

فاذكروني كثيراً^(٢) بالأشباح والأرواح أذكركم بالنجاح والصلاح، بيانه، قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فاذكروني بالأحوال وهي الشوق والمحبة، أذكركم بالقبول والقربة، بيانه قوله: «من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»^(٣).

فاذكروني بالتضرع والابتهاال، أذكركم بالتفضل والاستقبال، بيانه، قوله: «ومن أتاني يمشي تلقيته هرولة».

(١) في (ط): بأعمال الأذكار.

(٢) سقطت في (ط).

(٣) سبق تخريجه.

فاذكروني بالتعظيم أذكركم بالتكريم.

فاذكروني ذكرًا فانيًا، أذكركم ذكرًا باقيًا.

فاذكروني بصفاء السر، أذكركم بخالص البر.

فاذكروني بترك الجفاء، أذكركم بحفظ الوفاء.

فاذكروني بترك الخطأ، أذكركم بأنواع العطاء.

فاذكروني من حيث أنتم، أذكركم من حيث أنا.

فاذكروني ببذل الوجود والفناء، أذكركم بنيل الشهود والبقاء.

وهذا حقيقة قوله تعالى: «وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»، وهذا هو الذكر الحقيقي الذي يجعل الذاكر مذكورًا، والمذكور ذاكرًا، بل يكون الذكر، والذاكر، والمذكور، واحدًا.

كما قال تعالى: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقال قائلهم^(١):

رَقَّ الرُّجَا جُ وَرَقَّتْ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
فَكَانَهَا^(٢) خَمْرٌ وَلَا قَدَحَ وَكَانَهُ^(٣) قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

ويحل هذا المشكل في مثل حال الفراش مع الشمع، فإن الشمع^(٤) يقول للفراش اذكرني في نفسك، أذكرك في نفسي، فذكر الفراش للشمع في نفسه أن يبذل نفسه لشعلة الشمع فيذكر شعلة الشمع في نفسه بالحرقة عليها، ويذكره الشمع باشتعال نفس الفراش في نفسه، فلا يبقى التمييز بين الشمع والفراش، فإن طلبت الفراش

(١) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم. شهاب الدين السهروردي (١١٥٤ - ١١٩١ م).

(٢) في (ح): وكانما.

(٣) في (ح): كأنما، وفي (ز): كأنها.

(٤) سقطت في (ط).

وجدت الشمع، وإن طلبت الشمع وجدت الفراش.

كما قيل:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(١)

وإن للذكر شرائط وآداباً ليكون مثمرًا مفيدًا، فمن شرطه أن يواظب على أفضل ذكر من الأذكار، وهو ما قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»^(٢).

ومن شرطه أن يأخذ هذا الذكر بالتلقين من أهل الذكر كما أخذ الصحابة، رضي الله عنهم، بالتلقين من رسول الله ﷺ، فيما روى «شداد بن أوس» و«عبادة بن الصامت» حاضر يصدقه، قال إنا لعند رسول الله ﷺ؛ إذ قال: «هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب.

قلنا: لا يا رسول الله.

فأمر بغلق الباب، فقال: ارفعوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ، ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني^(٣) عليها الجنة، إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: أبشروا، فإن الله قد غفر لكم...»^(٤).

وقد لقن الصحابة التابعين من المشايخ، شيخاً بعد شيخ إلى زماننا هذا، كل من كان أهل الذكر منهم، كما كان الصحابة بقوله تعالى: ﴿وَلَزِمْتَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [وهي لا إله إلا الله، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

(١) ينسب هذان البيتان للحلاج، وقد سبقت الإشارة إليهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في (السنن الكبرى) (١٠٦٦٧) وابن حبان في صحيحه (٨٤٦) عن جابر بن عبد الله.

(٣) في (ط): فوعدتني.

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤ / ١) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٩٢٤).

وإن أهل الذكر من غرس بالتلقين في أرض قلبه غرس الكلمة الطيبة، وربى بماء الأعمال الصالحة بدهقنه المتابعة، ونظر شمس الولاية في هواء الإرادة إلى أن تؤتي أكلها من المكاشفات والمشاهدات كل حين بإذن ربها، ولتلقين أهل الذكر في هذا المعنى شأن عظيم وخاصة عزيزة، ولهذا شبه النبي ﷺ النخل بالرجل المسلم في حديث «عبد الله بن عمر» أن النبي ﷺ قال:

«إن من الشجر شجرة لا تسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، قال «عبد الله» فوقع في نفسي أنها النخلة. ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله، قال: «هي النخلة»^(١).

وذلك أن النخلة لا تثمر ألبته ما لم تؤبر^(٢)، فكذاك المريد الصادق، ما لم يلقي من شيخ كامل لا تثمر شجرة وجوده من الثمار المودعة فيها بحدود موجدتها والله أعلم. فأما آداب الذكر، فإن أراد المريد الطالب أن يشرف بتلقين الذكر يصوم ثلاثة أيام بأمر الشيخ، ويكون فيها دائم الوضوء دائم الذكر، قليل الطعام، قليل المنام، قليل التردد والاختلاط، ثم يغتسل وينوي^(٣) غسل الإسلام، فإنه يبدل الإسلام التقليدي الميراثي بالإسلام الحقيقي الكسبي، الإرادتي^(٤)، ثم يجلس بين يدي الشيخ على ركبته، ويحضر قلبه، ويراقب سرّه حتى يقول الشيخ مرة تامة: لا إله إلا الله، مادًا بها صوته^(٥) وهو يأخذ بقلبه متفهمًا معانيها بحيث ينفي بـ «لا إله» الخواطر كلها، ويثبت بإثبات «إلا الله» الحضرة الإلهية والمطلوبية^(٦) والمقصودية، والمعبودية،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٢٤٦).

(٢) تؤبر: أٌبر النَّخْلَةُ: أبرها، لَقَّحها أو أصلحها. وقد ورد في (ح): (وذلك أن النخلة لا يتفتح بشمرها ما لم تذكر) وكتب الناسخ أمامها في الهامش: (لا تثمر البتة). وجاءت في (ز): (وذلك أن النخلة لا يثمر الثمر ما لم تؤبر).

(٣) سقطت في (ط).

(٤) في (ح): الإرادي.

(٥) في (ط): بأداء صوته.

(٦) في (ط، ل): بالمطلوبية.

والمحبة؛ أي لا مطلوب، ولا مقصود، ولا معبود، ولا محبوب إلا الله، ثم يقول المريد رافعاً صوته ماداً نفسه حاضراً قلبه عند النفي، والإثبات، كما مرّ ذكره، ثم يقول الشيخ مرة [أخرى ثم يقول المريد، ثم يقول الشيخ] ^(١) ثالثة، ثم يقول المريد، ثم يرفع الشيخ يديه، ويدعو له ^(٢) ويقول: «اللهم خذ منه، وتقبل منه، وافتح عليه أبواب كل خير فتحت على أنبيائك، وأوليائك، وأهل طاعتك أجمعين، واهد به إلى سراطك المستقيم، وكن له عوناً ومعيناً برحمتك يا أرحم الراحمين»، ثم يقوم المريد، ولا يكلم أحداً، ويدخل بيت خلوته لا يزاحمه أحد، [ولا يجلس معه] ^(٣)، ويقعد متربّعاً ^(٤) متوجّهاً للقبلة، واضعاً يديه على فخذه ويكرر: «لا إله إلا الله» بقلب حاضر، خافضاً صوته ويخرج «لا إله» من صميم قلبه بقوة شديدة مع قطع كل تعلق في قلبه نافياً جميع خواطره، ويدخل «إلا الله» بالقوة في قلبه مثبتاً توجه قلبه إلى الله تعالى ليكون جوامع معنى ذكره أن ما في الوجود سوى الله، مداوماً على الذكر مواظباً عليه ليلته مراقباً لقلبه فيما يرى ويسمع ولا ينام إلا قليلاً، بقدر الضرورة ولإجمام الحواس. ومن آدابه ^(٥) أن يكون جميع أوقاته مستغرقاً للذكر ^(٦)، بحيث لا يخلو لسانه، وقلبه، من الذكر ومعناه، حتى يتجوهر القلب بجوهر الذكر، وترتفع حجب الاثنينية بين الذاكر والمذكور ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ يَنْهَمَا بَرْحٌ لَا يَتَّعِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٠].

ثم اعلم أن الذريعة إلى وصول المقاصد في المقامات كلها هي الخلوة، والعزلة، والانقطاع عن الحق.

(١) ما بين قوسين سقط في (ط).

(٢) سقط في (ط).

(٣) إضافة من (ح).

(٤) في (ز): مربّعاً.

(٥) في (ح): آدابهم.

(٦) في (ط): بالذكر.

المقام الثالث عشر: الخلوة والعزلة^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

وقال لنبية وحبيبه: ﴿وَبَقِلْ إِلَيْهِ بُتَيْلًا﴾ [المزمل: ٨].

أي انقطع إليه في العبادة وإخلاص النية انقطاعاً يختص به، وإلى هذا المعنى أشار بقوله عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وعن «عائشة» رضي الله عنها، أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو تعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء..»^(٢). الحديث.

اعلم أن الخلوة من موجبات السلوة، وهي على نوعين:

- خلوة الاعتزال عن الخلق.

- وخلوة الأربعينية مع الحق.

• فأما خلوة الاعتزال عن الخلق:

فالجلوس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجلوس السوء^(٣). قاله رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ:

«إن من خير معاش الناس لهم: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله إن يسمع

(١) في (ط): الخلوة فقط وسقطت كلمة العزلة.

(٢) أخرجه البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

(٣) نسب المصنف هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى السيوطي في الجامع الصغير (٩٦٤٧): (الوحدة خير من جلوس السوء، والجلوس الصالح خير من الوحدة وإملاء الخير خير من السكوت والسكوت خير من إملاء الشر) وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٤٢٢).

فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانه، أو رجل في غنيمة له رأس شعفة من هذه الشعاف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين. ليس من الناس إلا في خير»^(١).

وقد قيل: العزلة من أمارات الوصلة.

وقال «الجنيد»: من أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار في الوحدة.

وقال «أبو يعقوب السوسي»^(٢): الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء، ولأمثالنا الاجتماع أوفق.. يعمل بعضه على رؤية بعض.

وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»^(٣).

فالضابط لمثل هذه العزلة، والخلوة، أنه لو وجد صحبة من يعاونه على الدين ويرافقه في العبودية أن ينتفع به، ويعتزل عن غير أهل الصحبة.. وإن لم يجد، فالوحدة له خير من الجليس السوء.

• وأما خلوة الأربعينية مع الحق:

فله شرائط وآداب، سنورد شرائطها كما أوردها شيخنا «السعيد الشهيد الرباني

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني (٣٢٢٧) وفيه: (خير معاش النَّاسِ لَهُمْ، رجلٌ مُمسِكٌ بعِنانِ فرسِهِ في سبيلِ الله، وَيَطِيرُ على مَنَتِهِ، كُلِّما سَمِعَ هِيعَةً أو فزعةً، طارَ عليه إليها، يَبْتَغِي الموتَ أو القتلَ مَظانَهُ، ورجلٌ في غُنيمةٍ في رأسِ شُعْفَةٍ من هذه الشُّعافِ، أو بطنِ وادٍ من هذه الأودية، يقيمُ الصَّلَاةَ، ويؤتي الزَّكاةَ، ويعبدُ رَبَّهُ حتَّى يَأْتِيَهُ اليقينُ، ليسَ مِنَ النَّاسِ إلَّا في خيرٍ).

(٢) اسمه يوسف بن حمدان، من أكابر المشايخ، كان عالماً صاحب تصانيف. أقام في البصرة ثم الأبلّة، وهي بلدة كبيرة على أربعة فراسخ من البصرة، ولكنها كانت تضمحل شيئاً فشيئاً لكنها أقدم من البصرة، وهي التي مات فيها رحمه الله في القرن الرابع الهجري. (انظر: مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار في طبقات الصوفية ٩٨/٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٢٢) باختلاف يسير، والبخاري في (الأدب المفرد) (٣٨٨) واللفظ له. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٩).

صفوة الله «أبو سعيد شرف بن المؤيد البغدادي»، رضي الله عنه، وقدس روحه، في الباب الخامس من كتاب [تحفة البررة]^(١) الموسوم به تبركاً بأنفاسه الشريفة، وتيمناً بألفاظه اللطيفة. قال، رضي الله عنه: العزلة والخلوة، من لوازم هذه الطريقة في أوائل ظهور أنوار الإرادة، وتباشير صبح السعادة وعنوان الطلب.

روت «عائشة» رضي الله عنها، عن بدء الوحي للنبي ﷺ فقالت في حديثها «حُبب إليه الخلاء، وكان يتحنث إلى غار حراء أسبوعاً، وأُسبوعين»^(٢).

وروى «جابر بن عبد الله» رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في بيان أول ما أنزل عليه من القرآن، قال:

«جاورت بحراء، فلما قضيت جوارِي، فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أَرِ شيئاً، فنوديت، فنظرت فوقِي، فإذا أنا به قاعد على عرش بين السماء والأرض. قال: فخشيت منه، فانطلقت إلى خديجة فقلت: دثروني.. فدثروني، وصبوا عليّ ماءً بارداً، فَأُنْزِلَ عَلَيَّ ﴿بِأَيِّهَا الْمَدْرُورُ﴾^(١) قُرْ فَأَنْذِرْ^(٢) وَرَبِّكَ فَكَذِّبْ^(٣) [المدر: ١-٣].

فسرُّ الطلب كان مستورا في النبي ﷺ في ابتداء الأمر. حتى أمكنه الاشتغال بغير هذا الأمر. فكان أجير «خديجة» ثم التمس تزويجها فنكحها. وكان ذلك قصارى همِّه وهمِّته في ذلك الوقت. إلى أن ظهر الله تعالى في قلبه سر طلب الحق، فرغب عن مخالطة الأغيار، واستبشع ملاذ الدنيا ونعيمها، وحُبِّب إليه الخلاء، ففارق الأهل

(١) هو كتاب (تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة). ذكره صاحب كشف الظنون (١/ ٣٦٤) وقال: هو لمجد الدين شرف بن مؤيد البغدادي المتوفى سنة ٦١٦ مختصر أوله: الحمد لله الذي اطلع نور العبودية.. إلخ. ذكر أنه سأله بعض إخوانه عن عشر مسائل في الحقيقة وهي معظم ما يحتاج إلى معرفتها الطالب فرتبه على نسق السؤال والجواب مقتصرًا في كل مسألة على لب جوابه والمسائل هو أحمد بن علي بن المهذب الحواري من تلامذته.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١).

والولد. وقنع بما يسد رمقه، ويسكن جوعته، وواظب بعد التجريد على التفريد، وداوم على التوجه إلى الحضرة الربوبية إلى أن أغناه الله تعالى عن طعام الخلق وشرابهم.

فقال: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١) فأيده بروح منه وأكرمه بإنزال الوحي عليه. وتجلي له جبريل عليه السلام وقال له: اقرأ. فقال: لست بقارئ.

وكان ظهوره فجأة فما شعر بحقيقة الأمر وخاف على نفسه وترك الخلوة، وذهب إلى خديجة وقال: زملوني.. زملوني. فرملته خديجة. حتى ذهب عنه الرّوع فأخبر بواقعة خديجة. وقال: لقد خشيت على نفسي.. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. فما استقر قلبه حتى انطلقت به خديجة إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل».. فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال «ورقة»: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى عليه السلام^(٢).. فاطمأن قلبه عند ذلك.. وفتر الوحي إلى أن جاور في حراء على ما روى «جابر بن عبد الله» رضي الله عنه... فاتصل به جبريل عليه السلام وما كان يعرفه. فأمره بالقراءة فحسب دون الإبلاغ والإنذار إلى أن بالغ في الرياضة وزاد في مدة الخلوة. فاستعلى أمره، وعلا شأنه واستأهل التبليغ والإنذار، وترقى إلى ذورة الكمال، فهذه هي السنة الإلهية في هداية العباد، وتربية الطالبين؛ فالمرید إذا هبت في قلبه لوائح العناية، واخضرَّ شجر طلبه وانتفتحت أنواره، وأزهاره، استبشع شهوات الدنيا ولذاتها، واستقبح^(٣) نعيمها، وزخارفها، فاستوحش عن الخلق ورغب عن مخالطتهم وغلب عليه هم الآخرة، وتحرّى رضا الحق حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت اختار الخلوة، وآثر العزلة، فإذا استسعد بخدمته شيخ عارف بحقيقة الأمر. سالك لطريق الحق، واقف على دقائق التربية، فلقنه ذكرا، ويعوّده التحلي والمواظبة

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٣٢٦٥)، وأحمد (٧٥٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦٩٨٢).

(٣) في (ز): واستفتح.

على الذكر ليؤيد بذلك طلبه، وشوقه، فيستأنس بالخلوة، ويستوحش عن الخلق فيجلسه في الخلوة.

وطريق الخلوة على ما لخصه «الجنيد» رضي الله عنه، ورتبها على أقرب الطرق إلى حصول المقصود وقاعدتها مبنية على ثمانية شرائط^(١).

الشرط الأول:

دوام الخلوة، فلا يخرج من خلوته^(٢) لتفرج ولا لإزالة قبض، ولا لسآمة وملالة، ولا لداعية من دواعي الهوى والنفس. بل يكون خروجه عن^(٣) ضرورة في الدين كالتوضؤ وصلاة الجماعة.

الشرط الثاني:

دوام الوضوء. فليحافظ على الوضوء ولا يمكث سويعة ما^(٤) على الحدث. قال النبي ﷺ:

«استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٥). فإذا غلبه النوم، واستيقظ تعاراً وجدد الوضوء، ويستحب تجديد الوضوء عند غلبة النوم، وإن كان على موضع لا ينقض النوم طهارته^(٦) على بعض المذاهب.. فإن الوضوء على الوضوء نور على نور، فأما إذا توضأ من غير علة بل من كسل النفس، وطلب الاستراحة فذلك مكروه يجتنب عنه.

(١) في (ز): شروط.

(٢) في (ز): عن خلوة.

(٣) سقطت في (ط).

(٤) في (ح): حيناً ما.

(٥) ذكره ابن ماجه في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصححه الألباني (٢٢٦).

(٦) سقطت في (ز).

الشرط الثالث:

دوام الصوم، والتقليل مستحب للمريد وغيره فإنه ما مُلئ وعاء شر من بطن آدمي^(١).

قال «عيسى ابن مريم» للحواريين: أجيئوا بطونكم لعلكم ترون ربكم بقلوبكم. ولا شك أن القلب يستمد من الغذاء والقوى الطبيعية المودعة في الكبد لأمر^(٢) الغذاء هي جند الشيطان وحزبه. فإذا وجد حظاً وافراً من الغذاء قويت بذلك دواعي النفس، واستولت ظلمتها على القلب، واستتبعت القوى الطبيعية القوى النفسانية فيلزم منها استيلاء النوم، وظهور كلاله الحواس وكدورتها، وإذا قلل الغذاء ذبلت قوى النفس ودواعيها فلا تحتاج القوى الطبيعية في هضمها الغذاء إلى استتباع غيرها، فلا يمنع الفكر والعقل عن التصرف في مدركاتهما^(٣).. والسر في ذلك أن أمر التغذية للإنسان هو المرتبة النباتية، والاشتغال بالشهوات هي المرتبة الحيوانية.

[فالمقبل على الغذاء لأجل الزيادة في البدن هو الغالب عليه النباتية]^(٤)، والمقبل على الشهوات لأجل قضاء الوطر الغالب عليه الحيوانية. وكلاهما اندرجا تحت قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف ١٧٩].

قال الله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [الحجر: ٣].
فالعاقل الطالب الذي خاض في هذا الأمر، ورام نحو الكمال لا يأكل إلا للضرورة سد الرمق، وبقاء المهجة، فإذا سكن كلب^(٥) جوعه بنخالة اغتذى بها، واقتصر عليه،

(١) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم أكلات يُقِمَنَ صُلْبُهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتَلْتُ لَطْعَامِهِ وَتَلْتُ لَشْرِبِهِ وَتَلْتُ لِنَفْسِهِ». أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٦٧٦٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (١٧١٨٦) باختلاف يسير.

(٢) في (ح): لأمن.

(٣) في (ز، ط): مدركاتها.

(٤) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٥) سقطت في (ط).

وما التفت إلى شيء فيه حظ النفس، وشغل الباطن. فإذا علمت أن تقليل الطعام أصل مُعَظَّم في^(١) هذا الباب فاعلم أن الإفراط في التقليل أيضًا مضر جدًا فإنه يؤدي إلى ضعف يمنعه عن مزاولة الأعمال، ووظائف العبادات، والذكر القوي.

وإن التقليل إذا كان مقرونًا بنية الصوم كان أحسن، فإن الصوم قد اختص من الله سبحانه وتعالى بفضيلة امتاز بها عن سائر أركان الاسلام والعبادات.

قال ﷺ: حكاية عن الله تعالى^(٢): «الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، ولخَلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»^(٣).

الشرط الرابع:

دوام السكوت عن غير الذكر^(٤). فلا يتكلم ألبتة إلا مع الشيخ^(٥)، ويقتصر فيما يكلمه على حكاية الوقائع التي يريد حلها، وأحوال قلبه في البسط والقبض، وما ابتلي في الخلوة، وما فتح عليه من المواهب.

قال رسول الله ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »^(٦).

(١) سقطت في (ط).

(٢) في (ز): قال اله تعالى.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، والترمذي (٧٦٤)، والنسائي (٢٢١٦)، وأحمد (٧٦٩٣) باختلاف يسير، وابن ماجه (١٦٣٨) واللفظ للبخاري: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصَّيَّامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزِفْتُ وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي أَمْرُؤُ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ».

(٤) في (ز) عند غير ذكر.

(٥) في (ح): شيخ.

(٦) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨)، وأبو داود (٣٧٤٨)، والترمذي (١٩٦٧)، وابن ماجه (٣٦٧٥)، وأحمد (٢٧١٦١).

الشرط الخامس:

دوام الذكر، فإن من شرائط الخلوة المداومة على الذكر المعين، بحيث لا يفتر عنه ألبته، ولا يتركه إلا عند غلبة النوم، وفي أثناء الصلاة، وفي المبرز، فإنه يُكره ثمة ذكر اللسان. فيذكر الله بقلبه، ولا يذكر على غفلة من حقيقة الذكر. فإن الذكر المعبر هو الذي يوافق فيه القلب اللسان، ولا يذكر أيضًا كيف اتفق بل بقوة يظهر^(١) أثره في جميع الأعضاء؛ لأن ذلك أقوى على نفي الخواطر وتحصيل الجمعية، ويُخفي الصوت فيه، ويتجنب^(٢) الألحان، ويبالغ في التعظيم. فإنه إذا واظب على الذكر اللساني مدة على حضور تام، وتعظيم وافر، يؤدي الذكر اللساني إلى الذكر القلبي، فيطمئن القلب بالذكر.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويغتذى به، ويستأنس بالله وبذكره، ويستوحش عن الخلق كلهم، وعن مخالطتهم المانعة عن الخلوة. وإذا تمكن في الذكر القلبي، وعرف الشيخ ذلك منه أمره بترك الذكر اللساني وشغله بمجرد التوجه إلى الله، والحضور ومراقبة الحق أو القلب^(٣) إلى أن يتبدل الذكر الإنسي بالذكر القدسي، ويشغله الفكر الحقيقي بالمذكور ويلهيه عن صورة الذكر فيعرف حقيقة قول السادة: إن ذكر اللسان هذيان، وذكر القلب وسوسة.

الشرط السادس:

نفي للخواطر بأسرها، برعاية صورة الذكر في معناه، ولا يلتفت إلى تميز الخواطر بعضها عن بعض. فإنه، وإن كان بعض الخواطر من قبل النفس، وبعضها من إلقاء

(١) في (ز): أظهر.

(٢) في (ط): ويحب.

(٣) في (ح): والقلب.

الشياطين، وبعضها من إلقاء الملائكة، وبعضها من قبل الإلهامات، إلا أنه يضره الاشتغال بتميز الخواطر مضرّة ظاهرة، ويصيره^(١) الشيطان من جملة وساوسه، وخواطره بل الواجب [اجتناب الخواطر كلها، ولا يتيسر ذلك إلا برعاية ظاهر]^(٢) الذكر، ومعناه والمبالغة في تعظيمه، وتعظيم جلسته مع الله تعالى. قال الله تعالى: «أنا جليس من ذكرني»^(٣).

ومراقبة القلب، ومحافظة، وظيفّة الإحسان. فإن الإحسان، على ما قاله النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤).

فإن التجريد يتيسر لمن أُيد بالصدق في الإرادة والطلب في طرفة عين، ولن^(٥) يتيسر التفريد بمدة مديدة، ومشقة تامة. بواسطة نفي الخواطر. فإن جميع الأشياء المحسوسة التي استأنس بها المريد في ابتداء أمره، وجاهليته، والتي شاهدها، ولم يستأنس بها مُرسمة في خياله. فإذا جلس في الخلوة، واشتغل بالذكر، شوشت عليه الأمر والوقت: تارة بنسخ الخواطر وإنشائها، وتارة بمخالطتها بالمشاهدات الغيبية، ومزاحماتها^(٦) إيّاها. وكذلك هواجس النفس ودواعي هواها على كثرتها، ووساوس العدو على اختلافها وكثرتها بوسيلة الهوى تكدر ينبوع القلب وتفرق حقيقة جمعية الباطن، وتسلب عن المريد حلاوة الذكر [ولذة مناجاة قلبه، فإذا واظب على نفي الخواطر وهو المهم الأعظم والشرط]^(٧) الأكبر، بل هو خلاصة أمر الخلوة وزبدة

(١) في (ط): ونصيره. وفي (ل): ويضره. وما أثبتناه من (ح، ز).

(٢) ما بين قوسين سقط في (ط).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠٨/١) من قول كعب الأحبار، قال السمهودي في (الغماز على اللماز) (٤٢): طرقه ضعيفة. وشعيب الأرنؤوط في تخريج سير النبلاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها (٥١٠/١٦) وقال لا يصح.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في (ز) و(ط): وأن.

(٦) في (ز): ومزاجاتها.

(٧) سقط في (ط).

حقيقة المعاملة، وصل إلى حقيقة التفريد والأنس بالله. [و] تبدل إلقاء الشيطان بإلهام الرحمن، وحديث النفس بمكالمة القلب والروح والحق سبحانه أو بمناجاة القلب مع الله على اختلاف المراتب.

والله أعلم.

الشرط السابع:

ربط القلب بالشيخ، وهو عبارة عن تعلق قلب المريد بالشيخ من جهة الإرادة التامة الكاملة، حتى يتيقن أنه هو الذي يوصله إلى الله تعالى، وأن هذه المرتبة والخاصية أعني أيضًا، له إلى الله، [غير ثابتة لأحد من مشايخ. وإن كان كل واحد منهم موصوف بهذه الخاصية في حق غيره، فإنه لو خطر ببال المريد أن في العالم أحدًا يوصله إلى الله تعالى غير شيخه]^(١) تصرف فيه الشيطان، وأزعجه عن الخلوة، لا سيما عند ظهور القبض والابتلاء، وانسداد روزنة القلب، وربما يبلغ هذا التصرف إلى أن يتمثل بصورة شيخه فيريه أشياء يفسد بها اعتقاده، وإرادته. فأما إذا استحكمت إرادته في حق شيخه، كما قلنا، يستحيل للشيطان التمثل بصورة الشيخ. فإن الشيخ في قومه كالنبي في أمته، وكما أن الشيطان لا يمكنه التمثل بصورة النبي ﷺ على ما قال رسول الله ﷺ:

«من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»^(٢). فذلك لا يمكنه التمثل بصورة الشيخ، فيبقى المريد محفوظًا. وإذا تعلق المريد بشيخه على هذا الشرط، وجب عليه أن يتيقن أيضًا أن روحانية الشيخ غير متحيزة، وكل ما لا يكون متحيزًا يستوى إليه نسب الأمكنة كلها. ففي أي موضع يكون المريد لا تفارقه روحانية الشيخ، وإن كانت تفارقه شخصيته، والبعد إنما يتعلق بالمريد، فإذا تذكر المريد

(١) ما بين قوسين ثابت في (ط) فقط.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٩٤) باختلاف يسير، ومسلم (٢٢٦٤) مختصرًا، وأحمد (١٣٨٤٩) واللفظ له.

بقلبه^(١) عن الشيخ قرب إليه، فيتعلق به قلبه، واستفاد منه. وهذه الاستفادة يطلع عليها المريد في أوقات ثلاثة:

أحدها:

أوان ما يريه الله تعالى شيئاً من آياته فيشاهده بعين القلب، ولا يقف على حقيقة معناه. فيحتاج إلى الشيخ ليحل واقعه. فيستحضر الشيخ بقلبه ويسأله عن حقيقة معنى الصورة المشاهدة، لا باللسان الظاهر. بل بلسان القلب فيلهمه روح الشيخ بحقيقة معنى الواقعة وفحواها عقيب السؤال، وإنما يتيسر له الاستحضار بواسطة ربط القلب به ومن هذا الوجه [يفصح له لسان القلب]^(٢) وينفتح له طريق القلب إلى الحق انفتاحاً يجعله محدثاً.

قال النبي ﷺ: «قد كان في الأمم الماضية^(٣) محدثون. فإن كان في هذه الأمة فعمر ابن الخطاب»^(٤). رضي الله عنه.

وثانيها:

عندما يقصده الشيطان، إمّا ظاهراً من حيث الصورة، وإما أن يلقي في قلبه الرعب من غير أن يظهر نفسه، ففي هاتين الحالتين، إذا تذكر عن الشيخ، واستعاذ به كالطفل إذا استعاذ بوالديه عند رؤية شيء خاف منه، أو يجرى اسمه على اللسان فيشاهد اضمحلال صورة الشيطان عند ذكر اسمه، أو زوال الخوف والرعب من قلبه، وبطلان كيد الشيطان.

(١) في (ط): تعلقه.

(٢) ما بين قوسين سقط في (ز) وفي (ط): يصبح.

(٣) إضافة من (ح).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣٦٨٩) بلفظ: «قَدْ كَانَ فِيهَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ، فَإِنَّهُ عُمَرُ. زَادَ زَكْرِيَاءُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ، يُكَلِّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ».

وثالثها:

إذا استعد المريد لفيضان أنوار الغيب عليه، وتوجه الواردات إليه وجدَّ في المجاهدة ربما يبلغ أمره إلى أن يفيض عليه الوقت أكثر من مقدار قوته، وتحمله. فإذا زاد عن استطاعته يعجز عن [قبولها فيستمد حينئذ عن ولاية الشيخ فيفيض عليه قوة يمكنه بها قبول] ^(١) الواردات. ولا يمكن أن يقول قائل: إنا قد رأينا المشايخ استفادوا من غير شيخ واحد مثل «أبي عثمان الحيري» ^(٢) فإنه كان في الابتداء متمسكاً بحبل متابعة «يحيى بن معاذ الرازي» ^(٣). ثم بعد ذلك رغب في صحبة «شاه الكرمانى» ^(٤) ولازم عتبه إلى أن قبله. ثم بعدها ورد مع الشاه نيسابور، ورأى الشيخ «أبا حفص الحداد» ^(٥)

(١) سقط في (ط).

(٢) الشيخ الإمام المحدث الواعظ القدوة، شيخ الإسلام الأستاذ أبو عثمان، سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري الصوفي. مولده سنة ثلاثين ومائتين بالري، فسمع بها من محمد بن مقاتل الرازي، وموسى بن نصر وبالعراق من حميد بن الربيع، ومحمد بن إسماعيل الأحمسي وعدة، ولم يزل يطلب الحديث ويكتبه إلى آخر شيء. حدث عنه الرئيس أبو عمرو أحمد بن نصر، وابناه أبو بكر وأبو الحسن، وأبو عمرو بن مطر، وإسماعيل بن نجيد، وعدة. قال الحاكم: قدم نيسابور لصحبة الأستاذ أبي حفص النيسابوري، ولم يختلف مشايخنا أن أبا عثمان كان محاب الدعوة، وكان مجمع العباد والزهاد، ولم يزل يسمع ويحل العلماء ويعظمهم. سمع من أبي جعفر بن حمدان «صحيحه» المخرَّج على مسلم بلفظه، وكان إذا بلغ سنة لم يستعملها، وقف عندها حتى يستعملها. قلت: هو للخراسانيين نظير الحنيد للعراقيين. قال أبو عمرو بن حمدان: سمعته يقول: من أَمَر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أَمَر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. (سير أعلام النبلاء: ١٤/٦٣).

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) هو أبو الفوارس الكرمانى شاه بن شجاع، كان من أبناء الملوك، صحب أبا تراب النخشي وأبا عبيد البصري. كان حاد الفراسة، وقلما أخطأت فراسته، وكان يقول: من شخص بصره عن المحارم وأمسك عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال، لم تخطئ فراسته. ومن أقواله أيضاً علامة الركون إلى الباطل التقرب إلى المبطلين.

(٥) أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، من قرية يقال لها «كورداباذ» عند نيسابور، وصفه الذهبي بأنه «الإمام القدوة الرباني، شيخ خراسان»، روى عن حفص بن عبد الرحمن الفقيه، وصحب أحمد بن خضرويه، وأخذ عنه أبو عثمان الحيري، وأبو جعفر بن حمدان، وحمدون القصار. توفي سنة ٢٦٤ هـ، وقيل سنة ٢٦٨ هـ. (انظر سير أعلام النبلاء ١٢/٥١٠-٥١٣).

وقع على شبكته.. فاحتال إلى أن استوهبه «أبو حفص» من الشاه. فوهبه منه فصحب «الحداد» واستمسك بعروته الوثقى، وبلغ مبلغ الرجال. وأنت لقد تحجرت واسعاً إذا خصصت تعلق الإرادة بشيخ واحد. لأننا نقول: كما أن الولادة والتربية تتعلق على الحقيقة بالوالدين، ولكن تتفاوت حال الولادة والتربية تفاوتاً فاحشاً.

فإن تعلق الولادة تعلق لا يشارك الوالدين فيه غيرهما ولا يقوم أحد مقامهما. وتعلق التربية تعلق يمكن أن يشاركهما فيه غيرهما. فإنه كثيراً ما يتفق أن يربي الصبي غير الوالدين ويرضع الظئر^(١) لا الوالدة، فكذلك حال جنين العبودية في رحم إرادة المريد؛ يتعلق ظهوره وانعقاده على حسب تقدير الحق سبحانه وتعالى بشيخ [معين لا يشاركه فيه غيره إلى أن يموت الشيخ]^(٢). فإذا تولد الجنين الذي هو السالك حقيقة وصلاح لتربيته غيره يمكنه أن يسترضع عن شيخ هو كالظئر التي تقوم مقام الأم. وهذا أيضاً من خفيات لطائف الحق، ودقائق رازقيته، وحينئذ يتولى تربيته شيخ آخر؛ إما بسبب وفاة شيخه كما كان حال الشيخ «أبي النجيب السهروردي»^(٣)، رضي الله عنه. فإنه لما مات شيخه «أحمد الغزالي»^(٤) استفاد بإشارته بعده عن الشيخ «حماد الدباس» وإما بسبب رزقه عن تربية شيخ آخر ساقه القدر إليه، كما كان حال الشيخ «أبي عثمان الحيري».

أما إذا كان جنين العبودية بعد في الانعقاد وما تم تولده فلو اتصل بشيخ آخر فسد

(١) الظئر: المُرْضِعَةُ لغير ولدها.

(٢) سقط في (ط).

(٣) هو ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي ولد عام ٤٩٠ هـ وتوفي ببغداد ٥٦٣ هـ وهو فقيه شافعي ومتصوف، ولد بسهرورد، وسكن بغداد وبها وفاته. من آثاره «آداب المريدين» و«شرح الأسماء الحسنى» و«غريب المصباح».

(٤) هو أبو الفتوح مجد الدين أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي. درّس بالنظامية نيابة عن أخيه لما ترك التدريس فيها. توفي بقزوين سنة ٥٢٠ هـ، وقيل ٥٢٧ هـ. أديب شاعر واعظ، من أهل طوس. وهو أخو الإمام أبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ.

حاله، وسقط الجنين سقطاً فلا يصلح منه شيء، ويبقى مع تصرفات النفس. فإن غلبت عليه أهلكته، وإن لم تغلب^(١) عليه بل انقادت لقلبه دخل الجنة، وصار من أهلها، واشتغل بنعيمها، وفاز بالذي اشتتهت نفسه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا شِئْتُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١].

فإن مات الشيخ، وهو بعد في إرادته، وما تم الانعقاد، فإن ساعده القدر وأدركته العناية لزم خدمة شيخ مناسب الولاية لولاية^(٢) شيخه من غير فترة فيتصل تصرفه بتصرف شيخه فيستتبعه كالبيضة التي كانت مدة تحت دجاجة، [فإذا أخذتها ووضعتها تحت دجاجة]^(٣) مثلها من غير فترة أخرجت الفرخ. وإن وقعت فترة ما بردت البيضة فيه فسدت.

فأما إذا كان المريد فيها تحت تصرف شيخ فأزاعه الشيطان إلى إرادة شيخ آخر حتى انقطع عنه، واتصل بالآخر. فأبى الحق سبحانه أن يكمله بذلك الآخر. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح ٢٣].

ويستحيل أن يبقى مع ذلك الآخر إلا بحظ النفس. فيصير ضحكة للشيطان، وعبرة للسالكين. اللهم إلا أن يرى الشيخ بعد الانعقاد فيه صلاحية تربية غيره فيدفعه إليه، أو يرى قبل الانعقاد أن الله تعالى ينتجه من غيره، ويرزقه الكمال من آخر. فلا بتصرف فيه بل يشير إليه قبل التصرف ليستسعد بخدمة من رزق منه.

(١) في (ز): تبلغ.

(٢) سقطت في (ز، ط).

(٣) ما بين قوسين سقط في (ز).

كما يُحكى عن الشيخ «أبي القاسم القشيري»^(١) أنه أشار إلى الشيخ «أبي علي الفارمذي»^(٢) بملازمة خدمة الشيخ «أبي القاسم الجرجاني»^(٣) قدس الله أرواحهم.

الشرط الثامن:

ترك الاعتراض على الله، سبحانه وتعالى.

فإن من لوازم أمر المريد [إذا جلس في الخلوة]^(٤) أن يغتسل وينوي في غسله أنه غسل الميت. فيكون بين يدي الله، سبحانه وتعالى، كالميت بين يدي الغاسل، ويسلم لرب العالمين. ألا ترى إلى النبي ﷺ كيف كان يدعو كل ليلة، عندما يضع جنبه على الأرض لاستراحة النوم ويقول:

«اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك»^(٥) الحديث.

فكذلك المريد: يسلم نفسه إلى الله؛ فلا يعترض على الله ألبته، فإن رزقه بسطاً شكره عليه، [ويتيقن أن الباسط هو الله. وإن ابتلاه بقبض شكره عليه، أو صبر فيه]^(٦) ويتيقن أن القابض هو الله تعالى. فإن مثل المريد مع الله كمثّل المريض مع الطبيب، فإذا تيقن المريض أن الطبيب عالم بدقائق الطب مشفق على حاله، فوض أمره إلى

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) من أهل طوس، وفارمذ إحدى قراها. سمع من أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن باكويه الشيرازي وأبي منصور التميمي وأبي حامد الغزالي الكبير وأبي عبد الرحمن النيلي وأبي عثمان الصابوني وغيرهم. روى عنه عبد الغافر الفارسي وعبد الله بن علي الخركوشي وعبد الله بن محمد الكوفي العلوي وأبو الخير جامع الشفاء وآخرون. مولده في سنة سبع وأربعمئة، وتفقه على الإمام أبي حامد الغزالي الكبير صاحب التصانيف. دخل نيسابور وصحب أبا القاسم القشيري وأخذ في الاجتهاد البالغ. توفي بطوس في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمئة. (طبقات الشافعية).

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) سقط في (ط).

(٥) أخرجه الحاكم (١٩٣٣)، والضياء في (الأحاديث المختارة) (٦٧٩) باختلاف يسير. وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير (١٤٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٩).

(٦) ما بين قوسين سقط في (ز).

رأيه، وترك الاعتراض عليه. فإذا سقاه الحلو قبله وشربه، وإن سقاه المر قبله وشربه. وعلم أن الحلو في وقته أنفع من المر، وأن المر في وقته أنفع من الحلو. فكَذلك المريد إذا تحقق عنده أن الله لطيف بعباده رحيم عليهم، رءوف بهم، وأنه سبحانه لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وتيقن بأنه ظالم على نفسه ساع في هلاك قلبه وروحه، جاهل بما فيه فوزه ونجاته، أو هلاكه وشقائه، فوض أمره إلى الله، واستسلم لقضائه. فإذا طيب وقته ورزقه البسط شكره وتيقن أن شفاء قلبه فيه ومعالجة مرضه به. فإذا ضيق الأمر عليه وابتلاه بالقبض شكره وتيقن أن صحة قلبه تتعلق به، ومعالجة مرضه في ذلك الوقت مستورة فيه، كما قيل:

وَكَلْتُ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَمْرِي كُلَّهُ فَإِنْ شَاءَ أَحْيَانِي وَإِنْ شَاءَ أَتْلِفَا

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فإذا استسعد بالتسليم [في الابتداء بلّغه التسليم]^(١) إلى كمال العبودية في الانتهاء، كما نقل عن «الشبلي» رحمه الله أنه قال: «لو خيرني الحق، سبحانه وتعالى، بين الجنة والنار. لا اخترت النار؛ لما فيه من خلاف النفس».

فنقل هذا الكلام إلى «الجنيد» فقال:

– هذا كلام الأطفال.

ف قيل له:

– فما تقول أنت؟

فقال:

– لو خيرني لقلت: أنا العبد، وليس للعبد خيرة.

(١) ما بين قوسين سقط في (ز).

فسبيل المريد في الابتداء: أن يؤثر كل ما يخالف نفسه على ما يوافقها، ولا يسكن إلى ما فيه شرب النفس كما كان حال «الشبلي» وسبيل البالغ في العبودية أن لا يختار إلا ما اختاره الله تعالى كما كان حال «الجنيدي». ولن يبلغ أحد هذه المنزلة الرفيعة إلا على سبيل التدرج، ومبدأ التدرج هو ترك الاعتراض على الله.

إلى هاهنا كلام الشيخ، رضي الله عنه، في شرائط الخلوة، وكيفيتها.

قلت^(١):

ومن شرائطها ترك الاعتراض على شيخه في جميع معاملاته معه، ومع غيره من المريدين، وغيرهم. ويكون متحققاً أن لا يحيط علمه بعلوم الشيخ.. فإنه يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، ويستسلم له في جميع الأحوال. فإن بالاعتراض والتمرّد تنسد روزنة القلب، التي هي مفتوحة إلى ولايه الشيخ. ومنها يدخل ضوء أنوار الولاية؛ فيتنور^(٢) قلب المريد، ويتقوى به فإذا انسدت حرم عن الاقتباس، واستولت عليه ظلمة النفس، وجد الشيطان مجال التصرف وتعترّيه غيره الولاية وردها، ومنها يتولد آفات لا تدارك لها.

فأما آداب الخلوة:

فمنهما: أنه يجلس فيها كما يجلس في مجالس الملوك.

قال بعضهم: كنت جالساً في الخلوة فمددت رجلي فسمعت هاتفاً يقول:

– أهكذا تجالس الملوك. قال الله تعالى: «أنا جليس من ذكرني»^(٣).

فلا يمد رجله فيها ويجلس مستقبل القبلة متربّعاً، واضعاً يديه على فخذه ويواظب على كلمة «لا إله إلا الله» كما شرحنا في الذكر.

(١) في (ز، ل): قال الإمام الرباني المصنف.

(٢) في (ح): لينور.

(٣) سبق تخريجه.

وإذا خرج للوضوء، أو الصلاة يمشي ويرجع متنكس الرأس لا يلتفت يميناً وشمالاً حاضر القلب ذاكرةً، ومنها أنه إذا عرض الوقائع على الشيخ لا يزيد فيها ولا ينقص منها، ولا يقصها على أحد^(١) غير الشيخ، ويضبط قول الشيخ في تأويلها ولا يشرع في حديث غير الوقائع ولا يبرمه بتطويل الكلام ويعظمه دخولاً وخروجاً، ومنها أنه يكون متوجهاً إلى الله بحيث لا يتطرق إليه الملالة والسامة. وإن عارضه عارض من الأمراض والعلل، وغيرها لا يزعجه عن الخلوة إلا بالموت ليكون باب تصرفات النفس والشيطان عليه مسدوداً^(٢).

والله أعلم بالصواب.

عن «أبي عبد الرحمن السلمي»^(٣) قال:

سمعت «أبا تميم المغربي»^(٤) يقول:

من اختار^(٥) الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخالياً من جميع المراتد إلا مراد ربه، وخالياً من مطالبة النفس من جميع

(١) إضافة من (ح).

(٢) في (ز): مردوداً.

(٣) في (ز): أبي عبد الرحمن السليم. وأبو عبد الرحمن السلمي هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى ابن خالد بن سالم بن زاوية بن سعيد بن قبيصة بن سراق الأزدي. ولد سنة ثلاثين وثلاثمائة، وتوفي في شعبان سنة اثنتي عشر وأربعمائة.

قال الإمام الذهبي: شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، تكلّم فيه، وليس بعمدة. قال الخطيب: قال لي محمد بن يوسف القطان: كان يضع الأحاديث للصوفية.

له الكثير من المصنفات منها: حقائق التفسير، وطبقات الصوفية وغيرها. وفي الجملة ففي تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة، وفي حقائق تفسيره أشياء لا تسوغ أصلاً عدها بعض الأئمة من زندقة الباطنية، وعدها بعضهم عرفاناً وحقيقة، نعوذ بالله من الضلال ومن الكلام بهوى، فإن الخير كل الخير في متابعة السنة، والتمسك بهدي الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

(انظر: سير أعلام النبلاء: ١٧-٢٤٧ وميزان الاعتدال: ٦-١١٨).

(٤) لم أعثر له على ترجمة.

(٥) في (ط): أخبار.

الأشياء. فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة، أو بلية.

قال «أبو بكر الوراق»^(١): «وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة، ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط».

وروي أن «داود» عليه السلام، لما ابتلي بالخطيئة خرّ لله ساجداً أربعين يوماً وليلة حتى أتاه الغفران من ربه.

وأما فتوحات الأربعينية فأكثر من أن تُحصى، وأعظم من أن تُروى^(٢)، فإنها من المواهب، والمواهب على قدر المراتب. فكما لا نهاية للمراتب، لا نهاية للمواهب. * فتوحات أهل البدايات من اللوامع، والبروق، والطواع، والسواطع^(٣)، والطوارق، واللوائح.

وهي التي استخرجت باصطكاك غيوم البشرية عند هبوب نسيمات الذكر من أنوار شمس الصفات الروحانية. فتفيد التلذذ بالمعاني العقلية، ثم التنعم بحقائق الصفات القلبية، ثم التواجد بالواردات الروحانية والتشوق بالإلهامات الربانية، كما قيل:

طوارق^(٤) أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كتماناً وتخبر عن جمع

* وفتوحات أهل الوسائط. من المحاضرات، والمكاشفات، والمشاهدات.

- فصاحب المحاضرة، حاضر بالقلب في مقام القرب باستيلاء سلطان الذكر، فهو متنعم بنعيم الدرجات الفردوسية.

- وصاحب المكاشفة، قد كشف عنه الغطاء، ورفع عنه العماء وتبدل بيبانه بالعيان،

(١) أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري. أصله من ترمذ وسكن بلخ، له كتب مشهورة في التصوف والمعاملات والأدب وقد أسند الحديث. توفي عام ٢٤٠هـ.

(٢) في (ح): تُرى.

(٣) سقطت في (ح).

(٤) في (ز): طوارق.

واستغنى عن البرهان.

- وصاحب المشاهدة: مستغرق في بحر شواهد الأنوار، وأثار قرب الجوار. وقد صحت سماء سرّه عن غيوم أوصاف نفسه، وتجلت شمس روحه مشرقة بشهود أنوار الغيب فصار ليله نهارًا، وخفيه جهارًا. كما قيل:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

*وفتوحات أهل النهايات: من الفناء والبقاء، ودوام اللقاء.

- فصاحبها بدوام الذكر بعد أن أفنى أفعال نفسه في أفعال ربه بملازمة الشريعة، وصفاته في صفاته بمزاولة الطريقة، حتى يتجوهر القلب بنور الذكر، وتعري^(١) الذكر عن كسوة الحرف، والصوت، وانطبع نوره في مرآة القلب المصفاة عن دنس أوصاف البشرية ثم يسري إلى الروح، ويتجوهر الروح بجوهر الذكر، ويتحد الذكر والذاكر والمذكور^(٢) فيكون الذكر ذكر الذات. وحينئذ يتنور أجزاء الموجودات بنور ذكره؛ لأنه محيط بها، وتذكر الله معه. ثم إليه يصعد الكلم الطيب، [والعمل الصالح يرفعه]^(٣). والذكر الطيب هو الذي لم يكن معلولاً بعلّة دنيوية، ولا أخراوية. ويكون خالصاً لله بأن يذكره ببذل وجوده وإفائه فيه بمباشرة الحقيقة على مقتضى حقيقة قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ ليبقيه به على قضية ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

وهو عبارة عن تجلي جماله الموصوف بالمذكورية لذاكريته ليفنيه عنها، ويبقيه بمذكوريته، ثم يكون المحو عما يذوق من تجلي صفات الجمال ثم المحو والطمس عما يصادفه من تجلي صفات الجلال. فمن فني عن أفعاله فهو باق بأفعال الله تعالى.

(١) في (ط): وتعدي.

(٢) إضافة من (ح).

(٣) إضافة من (ح).

ومن فني عن صفاته فهو باق بصفات الله، ومن فني عن ذاته فهو باق بذات الله. كما قال قائلهم:

فقوم تاهوا في أرض بقفر وقوم تاهوا في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقاء بقرب ربه

وقيل: فالأول فناء صفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق، ثم فناؤه من شهود فناءه باستهلاكه في وجود الحق وهو فناء الذات في الذات. وهذا تحقيق قول من قيل له: «إما أنا وإما أنت وإلا فلا نجتمع».

استقبلني وسيفه مسلـول فقال لي واحدنا مقتـول^(١)
وقلت:

قلبي نهبوا ومن حياتي نالوا قد ملت إليهم وعني مالوا
إذا قلت بـمَ أعيش قولوا؟ قالوا بالحب فعش وحبهم قتـالُ



(١) في (ز): واحد يا مقتول.

الباب العاشر في معرفة الروح ومقاماته

الفصل الأول

في معرفة الروح وماهيته

قال الله تعالى ﴿ وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٥].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي^(١) عام»^(٢).
وقال: «أول ما خلق الله روعي»^(٣).

فاعلم أن الناس في أمر الروح ومعرفته تحزبوا أحزابًا كثيرة من الحكماء الأوائل، والعلماء المتقدمين من الصحابة والتابعين، والمتأخرين من المشايخ المعبرين^(٤). وأطنبوا فيه الكلام، وأكثروا فيه الاختلاف، وأطلقوا عنان النظر في مسارح الفكر، وخاضوا في غمرات ماهية الروح. فأكثرهم تاهوا في التيه، وتنوعت آراؤهم فيه، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كاختلافهم^(٥) في ماهية الروح إلا ما شاء الله، فنحن لا نطول الكتاب^(٦) بنقل مقالاتهم، وتقرير خيالاتهم، فإن أكثرها نتائج العقول المشوبة بأفة الوهم والخيال، ولم تكتحل عيونها بكحل الاقتداء

(١) في (ز): بألفي ألف.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ح): المفسرين. وفي (ل): المقربين.

(٥) في (ز): كالاختلاف.

(٦) سقطت في (ط).

بالأنبياء فلم يصبها نور الاهتداء، وأما ما نقل عن الأئمة والعلماء الراسخين في العلم. فقال بعضهم: إنه جسم لطيف. وقال بعضهم إنه عرض. وقال بعضهم: إنه جوهر قائم بنفسه ولكنه مخلوق. وقال الأكثرون: إن الله تعالى أبهم علم الروح على الخلق، وأستأثره لنفسه حتى قالوا: إن النبي ﷺ لم يكن عالمًا به.

قلت: جل منصب حبيب الله، ونبيه ﷺ أن يكون جاهلاً بالروح مع أنه يكون عالمًا بالله. وقد منَّ الله عليه بقوله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

هب^(١) أن علم الروح مما لم يكن يعلمه.. ألم يخبر الله أنه علمه ما لم يكن يعلم. فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظاراً للوحي حين سأله اليهود؛ فقد كان لغموضه يرى في معنى الجواب، ودقة لا يعلمها ويفهمها اليهود لبلادة طباعهم، وقساوة قلوبهم، وفساد عقائدهم.

فإنه قال ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهم أرباب السلوك، والسائرون إلى الله تعالى. فإنهم لما عبروا عن النفس، وصفاتها، ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب المنور بنور الذكر. ولما عبروا [بالسَّير عن القلب وصفاته، ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب.

وإذا عبروا عن السر^(٢)، ووصلوا إلى عالم الروح. عرفوا بنور الروح السر. وإذا عبروا عن عالم الروح، ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح. وإذا عبروا عن منزل الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار مشاهدات الجمال الخفي.

(١) في (ح، ز): احسب.

(٢) سقط في (ح).

وإذا أفنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن أنانية الوجود، ووصلوا إلى لجة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى. وإذا استغرقوا في بحر الهوية وأبقوا ببقاء الألوهية عرفوا الله بالله ووحدوه حين وجدوه. هذا أوان إراءة^(١) ماهية كل شيء كما هي. هذا وقت ﴿سَرُّهُمْ ءَابِتْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] فحينئذ إذا طلع الصباح أُستغني عن المصباح، وقد يتحقق للعبد مقام كنت له سمعًا، وبصرًا، ولسانًا، ويدًا، ومؤيدًا. فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يبطش. ففي هذه الحالة كيف يبقى لمعرفة الروح^(٢) خطر عند من هذه أحواله، وهو مع هذه الرتبة العلية، والمواهب السنية من لواقط سواقط حبات سنبلات يبادر بوادر^(٣) النبوة ونوادر الرسالة. فكيف بحال سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وحبیب رب العالمين، وأفضل الأولين والآخرين، صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين، في معرفة الروح، وهو الذي يقول: «علمت ما كان وما سيكون»^(٤).

ثم اعلم أن الروح لطيفة ربانية، وهو أول شيء تعلقت القدرة بإيجاده في أمر ﴿كُنْ﴾، وإنما قلنا إنه رباني لاختصاصه بالإضافة إلى الحضرة الربانية بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وهو جوهر نوراني قائم بنفسه، والذي يدل عليه قوله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي^(٥) عام»^(٦) وأنه ليس بجسم، ولا عرض لأنه أول مخلوق، وهو جوهر بسيط والجسم مركب، والعرض يحتاج إلى محل، وقد بينا في فاتحة الكتاب أن الجسم إذا قبل صورة لا يمكنه أن يقبل صورة غيرها من جنسها إلا أن

(١) سقطت في (ح).

(٢) سقطت في (ح).

(٣) في (ح): نوادر.

(٤) لم أعر عليه.

(٥) في (ز): بألفي ألفي عام.

(٦) سبق تخريجه.

يخلق الصورة الأولى ويفارقها، والروح ليس بهذه الصفة، [وذلك أنه]^(١) إذا قبل صورة معقول ما، وثبتت تلك الصورة فيه ازداد بها قوة على تصور معقول آخر إليها من غير أن تفسد الصورة الأولى فلا يكون جسمًا وهو أصفى الجواهر وأنورها، وأعلاها وأقربها إلى الحضرة، وهو المستعد لخلافة الله تعالى في الأرض، وهو الحي، السميع، والبصير، المتكلم، العالم، القادر، المريد، الباقي، خلافة عن الله عز وجل وقد عرفه الله بقوله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].. أي من قبيل عالم الأمر من قبيل عالم الخلق. وذلك أن الله تعالى خلق العوالم كثيرة، كما جاء في الخبر، بروايات مختلفة.

فقال في بعض الروايات: خلق ثلاثمائة وستين ألف عالم. وفي رواية أخرى: سبعين ألف عالم. وفي رواية أخرى ثمانية عشر ألف عالم. ولكنه جعلها محصورة في عالمين اثنين وهما الخلق والأمر، كما قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فعبّر عن عالم الدنيا، وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة بالخلق، وعبر عن عالم الآخرة، وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة، وهي: العقل، والقلب، والسر، والروح، والخفي بالأمر.

فعالم الأمر هو الأوليات العظام التي خلقها الله تعالى للبقاء من الروح، والعقل، والقلم، وسمى عالم الأمر أمرًا لأنه أوجده بأمر «كن» من لا شيء بلا واسطة شيء.

كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

ولما كان أمره قديمًا فما تكون بالأمر القديم كان باقيا وإن كان حادثا. وسمى عالم الخلق خلقًا لأنه أوجده بالوسائط من شيء مخلوق [كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ

(١) سقط في (ح) وفي (ل): وذلك لأنه.

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿[الأعراف: ١٨٥] فكما أن الوسائط كانت مخلوقة من شيء مخلوق﴾^(١) سماه خلقاً خلقه الله للفناء. فتبين أن قوله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] إنما هو لتعريف معناه أنه من عالم الأمر والبقاء، لا من عالم الخلق والفناء، وأنه ليس للاستبهام كما توهموه جماعة.

ثم اعلم أن الروح الذي تعلق به القدرة بأمر «كن» أولاً هو روح النبي ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روعي»^(٢) وفي رواية: نوري.

فإن قيل: روي أنه ﷺ قال أيضاً: «أول ما خلق الله العقل»، وقال: «أول ما خلق الله القلم» وقال: «أول ما خلق الله جوهره».. ولا يحتمل أن يكون المخلوق الأول المطلق إلا واحداً. لأن الشئيين المتغايرين لا يكون كل واحد منهما أولاً في التكون والوجود^(٣) على الإطلاق. إذا لا يخلو أما أحداً متصاحبين، أو أحداً متعاقبين.

فإن أحداً متصاحبين معا فلا يختص أحدهما من الآخر بالأولية، فلا يكون واحد منهما أولاً على الانفراد، وإن أحداً متعاقبين يكون المبتدأ أولاً والمتعاقب ثانياً. فيكون الأول واحداً منهما لا محالة. ولا يجوز الخلف في كلام النبي ﷺ لأنه جاء بالصدق، وأنه ﷺ قد أثبت الأوليات.

قلنا: المخلوق الأول الأول هو مسمى واحد وله أسماء مختلفة، فبحسب كل صفة فيه سُمي باسم آخر، وقد كثرت الأسماء والمسمى واحد وهو الأصل، وما سواه تبع له، فلا ريب أن أصل الكون كان النبي ﷺ لقوله: «لولاك لما خلقت الكون»^(٤).

فهو أولى أن يكون أصلاً وما سواه أولى أن يكون تبعاً له؛ لأنه كان بالروح بذر شجرة الموجودات، فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة كان بالجسم والروح ثمرة شجرة

(١) ما بين قوسين سقط في (ط).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ز): التكون والاتحاد والوجود.

(٤) سبق تخريجه.

الموجودات وهي سدرة المنتهى. فكما أن الثمرة تخرج من فرع الشجرة كان خروجه إلى قاب قوسين أو أدنى. ولهذا قال: «نحن الآخرون السابقون»^(١)، أي السابقون بالخروج كالثمرة، والسابقون بالخلق كالبذر. فيلزم من ذلك أن يكون روحه ﷺ أول شيء تعلق به القدرة، وأن يكون هو المسمى بالأسماء المختلفة. فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سُمي درة، منها وجوهرة. كما جاء في الخبر: أول ما خلق الله جوهره. وفي رواية: درة، فنظر إليها فذابت، فخلق منها كذا.

وإنما باعتبار روحانيته سُمي^(٢) روحًا، وباعتبار نورانيته سُمي نورًا، وباعتبار وفور عقله سُمي عقلًا.

ونقل عن بعض الكبراء من الأئمة: أن أول المخلوقات على الإطلاق ملك كروي يسمي العقل. وهو صاحب القلم بدليل توجه الخطاب عليه في قوله ﷺ: «أقبل، فأقبل. ثم قال له: أدبر فأدبر. ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقًا أحبَّ إليَّ منك، بك أعرف، وبك آخذ، وبك أعطي، وبك أعاقب، وبك أثيب»^(٣). وفي رواية: «وبك أعبد».. ولما سماه قلماً قال له: اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة، وتسميته قلماً كتسمية صاحب السيف سيفاً.

وقد قيل «لخالد بن الوليد» رضي الله عنه، سيف الله. فباعتبار غلبة صفاته الملكية يُسمى ملكاً.. وسُمي الملك عقلاً لفور عقله. وقلماً باعتبار كتابته على لوح الوجود. وإذا أمعنت النظر وجدت كل ما وصف النبي ﷺ به العقل وحكى عنه هو خاصية من خواص روحه الشريف ﷺ وهو قوله: «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له: أدبر، فأدبر». وهذا حال روحه ﷺ أنه أول ما خلق الله من خلق. إذ قال له:

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٤) واللفظ له، ومسلم (٨٥٥، ١٦٥٥) مفراً. والحديث كاملاً: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

(٢) سقطت في (ز).

(٣) سبق تخريجه.

أقبل إلى الدنيا على طريق التجارة لتربح من تجارتك أسباباً تحتاج إليه في المعرفة. فإن روحك كان عارفاً بكلّيات عالم الأرواح، وهو الغيب، جاهلاً بجزئياته. وكلّيات عالم الأجسام وجزئياته، وهو الشهادة. فتحصل من آلات الحواس الخمس، وقوى البشرية ما تصير به عارفاً بكلّيات الغيب والشهادة وجزئياتها؛ لتكون بالخلافة عالم الغيب والشهادة. ثم قال له: أدبر، أي ارجع إلى ربك. فأدبر عن الدنيا. فقال له: ما لي وللدنيا، ورجع إلى ربه ليلة المعراج ثم قال للعقل: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك. وهذا أيضاً حاله ﷺ أنه كان حبيب الله وأحب الخلق إليه، وقول تعالى للعقل: «وبك أعرف، وبك آخذ، وبك أعطي، وبك أعاقب، وبك أثيب»، فهذا كله حاله ﷺ لأنه من لم يعرف النبي ﷺ بالنبوة والرسالة لم يعرف الله. ولو كان له ألف دليل على معرفة الله.

فمعناه: بمعرفتك أعرف. أي من عرفك بالنبوة عرفني بالربوبية.. وبك آخذ: أي أخذ طاعة من أخذ منك ما أتيت من الدين والشرعة.. وبك أعطي: أي بشفاعتك أعطي درجة أهل الدرجات. كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»^(١). وبك أعاقب، وبك أثيب. وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ- وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

[آل عمران: ٨١].

فالله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه بأن يؤمن بمحمد ﷺ ويوصي أمته بالإيمان به ونصرة دينه. فمن آمن به من الأمم الماضية قبل بعثته فهو من أهل الثواب. ومن لم يؤمن به من الأولين والآخرين فهو من أهل العقاب. فصح فيه قوله: بك أعاقب، وبك أثيب.

(١) سبق تخريجه.

فكل ما ذكرناه في معرفة الروح فهو حال النبي ﷺ ومقاله. فكيف يُظن به أنه لم يكن عارفاً بالروح، والروح هو نفسه. وقال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(١)، وذلك^(٢) أن الله تعالى لما خلق آدم وبنيه جعلهم الله خلفاء في الأرض كما قال ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] فمن شرط الخلافة أن يكون المستخلف مجتمع أوصاف المستخلف بالخلافة إلا ما اختص به المنوب بالأصالة، مثل القدم، والأحدية، والصمدية، والكبرياء، والعظمة، والسلامة عن كل عيب ونقصان. فالروح خليفة الله، وهو مجتمع صفاته الذاتية، كالحياة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والعلم، والإرادة، والبقاء. والجسد خليفة الروح، وهو مجتمع صفاته التي باجتماعها في الروح علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أن الجسد خليفة الروح؛ لأننا وجدنا الجسد قبل اتصال الروح به وبعد انفصاله عنه خالياً عن هذه الصفات. فلما تعلق الروح به وجدنا فيه الصفات. علمنا أنه بخلافة الروح اتصف بهذه الصفات. ولو لم يكن متصفاً بهذه الصفات لخلافته الحق تعالى، لم يكن الجسد بها متصفاً. فبقي أن الروح باقٍ أبداً، والجسد فانٍ.

قلنا: وذلك لأن البقاء الأبدي من خاصية الروح فهو مختص به بالأصالة دون خليفته [كما أن الله تعالى اختص بالبقاء الأزلي الأبدي دون خليفته]^(٣) وهو الروح. فإنه حادث أبدي دون أزلي.

ثم اعلم أن الأرواح كلها خلقت من روح ﷻ كما روينا في حديث «جابر»، وأن روحه أصل الأرواح. ولهذا سُمي أمياً. أي أنه أم الأرواح. فكما كان آدم، عليه السلام، أبا البشر، كان النبي ﷺ أبا الأرواح وأمها، كما كان آدم أبا حواء وأمها [وذلك أن الله

(١) سبق تخريجه.

(٢) سقطت في (ح).

(٣) سقط في (ط).

تعالى لما خلق روح ﷺ^(١) كان الله ولم يكن معه شيء إلا روحه. وما كان شيء آخر حتى ينسب روحه إليه، أو يضاف إليه غير الله. فلما كان روحه أول باكورة أئمرها الله تعالى بإيجاده من شجرة الوجود، وأول شيء تعلق به القدرة، شرفه بتشريف إضافته إلى نفسه تعالى فسماه رُوحِي. كما سمي أول بيت من بيوت الله وضع للناس، وشرفه بالإضافة إلى نفسه فقال له: ﴿بَيْتِي﴾^(٢). ثم حين أراد أن يخلق آدم سواه ونفخ فيه من روحه أي من الروح المضاف إلى نفسه. وهو روح النبي ﷺ كما قال تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

فكان روح آدم من روح النبي ﷺ بهذا الدليل. وكذلك أرواح أولاده لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾.

[السجدة: ٨، ٩].

وقال في مريم، عليها السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢].

فكان النفخ لجبريل، عليه السلام، وروحها^(٣) من روح النبي ﷺ المضاف إلى الحضرة، وهذا أحد أسرار قوله ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»^(٤).

وقد أرى النبي ﷺ روحه ليلة المعراج في صورة ملك فعرفه حق المعرفة، كما جاء في حديث المعراج فيما يرويه «عبد الله بن عباس»، و«عبد الله بن مسعود» وغيرهما في حديث طويل إلى أن قال ﷺ: «ثم رأينا ملكاً قد امتزقت رجلاه في الأرضين السفلى، وامتزق رأسه من السماء السابعة العليا، غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام. وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع، من لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلئاً وجوهاً ونوراً، ففي كل جزء منه وجوه كثيرة

(١) ما بين القوسين سقط في (ز).

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الحج: ٢٦.

(٣) في (ح): وروحنا.

(٤) سبق تخريجه.

يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى. لا يشبه وجهٌ وجهًا، ولا لغةٌ لغةً، ولا عينٌ عينًا، ليس فيه عين إلا فيه من البرق والنور ما لا يحصى، في جانب من جسده نور أحمر، وفي جانب نور أصفر، وفي جانب نور أخضر، وفي جانب نور أبيض، وليس في جسده من أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح بتسبيح آخر فيخرج في كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة يسبحون، لو أراد أن يلتقم السموات السبع بلقمة واحدة لأطاق، لا يستطيع أحد من الملائكة ينظر إليه من نوره. لا جبريل، ولا ميكائيل، ولا الكروبيون. وهو الروح المذكور في القرآن ترفع إليه أمور أهل السموات والأرضين، وهو يرفعه إلى الله تعالى، وهو صاحب الحجب، وصاحب سرادقات العرش وهو كاتب الرحمن»^(١).

فاعلم أنه الروح الأعظم والنور الأكبر الذي هو أول شيء تعلق به القدرة بأمر «كن». كما صرح النبي ﷺ في هذا الحديث^(٢) فقال: «وهو روح المذكور في القرآن: وقوله: «من لدن رأسه إلى منتهى قدميه كان ممتلئًا وجوهًا» إشارة إلى أن كل وجه من وجوهه وجه روح ينشأ منه الأنبياء، والأولياء والمؤمنين فالأمثل فالأمثل على حسب علو منشأها وسفلها.. وقوله: «يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى لا يشبه وجهٌ وجهًا ولا لغةٌ لغةً، ولا عينٌ عينًا» فهكذا وجوه الخلق ولغاتهم وعيونهم. لا يشبه واحدٌ منها واحدًا، وفي الحديث دليل على أن أرواح الملائكة تنشأت منه أيضًا.

وقوله: «ترفع إليه أمور أهل السموات والأرضين وهو يرفعه إلى الله تعالى» هذا حال الروح الأعظم مع الأرواح المنتشأة منه وهو الروح المقدور الأول، روح حبيب الله ونبيه ﷺ كما أخبر عن هذا الحال بقوله: «تعرض عليَّ أعمال أمتي فاستبشر لمحسنها، وأستغفر لمسيئها»^(٣).

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ

(٢) الحديث السابق.

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٠٤٢).

وهو صاحب الحجب، إذ به ترفع الحجب، وهو صاحب سرادقات العرش الذي به يعبر عنها، وهو كاتب الرحمن إذ سُمي القلم، بنوره كتب الله حروف الموجودات على صحيفة العدم كما قال تعالى: «لولاك لما خلقت الكون»^(١).

وهذا كما يقول الزارع للبذر: لولاك لما زرعت الشجرة، وذلك أن روح النبي ﷺ كان أول مخلوق وكان بمثابة البذر لشجرة الموجودات في البداية، ثم كان شخصه بمثابة الثمرة لشجرة الموجودات في النهاية كما قال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون»^(٢).

فكما أن جميع أجزاء الشجرة تنشأ من بذر كذلك تنشأ جميع أجزاء شجرة الموجودات من بذر روحه ملكها وملكوتها كما مر شرحها في حديث جابر وحديث المعراج.
والله أعلم.



(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الفصل الثاني في مقامات الروح

وفيه ثلاثة عشر مقاماً^(١):

المقام الأول: الإرادة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

[الأنعام: ٥٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله. فقل له: كيف يستعمله يا رسول الله؟

قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت»^(٢).

اعلم أن المشايخ تكلموا في بيان الإرادة [على ما فتح الله لهم، وسانحهم الوقت به. وأكثرهم أخبروا عن أمارات الإرادة]^(٣) وموجباتها ومقتضياتها لا عن حقيقة الإرادة وماهيتها. حتى قالوا: «الإرادة ترك ما عليه العادة».

وعادة الناس في الغالب؛ التفريج^(٤) في أوطان الغفلة، والركون إلى اتباع الشهوة، والاختلاف إلى ما دعت إليه المنية.. فالمرید ينسلخ عن هذه الجملة؛ فصار خروجه

(١) الإضافة من (ل). وقد سبق كل مقام في (ز) بكلمة (فصل). وفي (ل) رتبها في مقامات من المقام الأول إلى الثالث عشر. وهو ما اخترناه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٢)، وأحمد (١٢٠٥٥)، وابن حبان (٣٤١)، والحاكم (١٢٥٧).

(٣) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٤) وردت هذه الكلمة في (ل): التفريج. وفي (ز): التفريج. وفي (ح): التعريج. والاختياران الأولان هما الأقرب لسياق الكلام.

أمانة ودلالة على صحة الإرادة. فيسمى تلك الحال إرادة، وهي خروج عن العادات، فهي أمانة الإرادة. وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري^(١): فأما حقيقة الإرادة، فهي نهوض القلب في طلب الحق تعالى. ولهذا يقال إنها لوعة تهون كل روعة^(٢).

قلت^(٣): وهذا أيضًا أمانة الإرادة لا حقيقتها.

فأما حقيقة الإرادة:

فهي صفة من صفات الله تعالى القديمة الأزلية الأبدية القائمة بذاته تعالى. فلما خلق الله الروح جعله قابلاً لعكس صفاته خلافةً عنه، ولما خلق النفس جعلها قابلة لعكس صفات الروح خلافةً عنه. فمن غلبت نفسه روحه كانت إرادته إلى الدنيا وما فيها. ومن غلب روحه نفسه كانت إرادته أخروية.

كما قال تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلا تتجاوز الإرادة الإنسانية عن هاتين المرتبتين إذا وكلت إلى طبعها.

فأما الإرادة الحقيقية التي تنزهت عن الدنيا والآخرة فهي^(٤) تريد وجه الله تعالى فحسب كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] أي جزاءً في الدنيا وشكوراً في الآخرة.

وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

فهي نور من أنوار جماله، تجلّى به لأرواح خواص عباده يوم خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره. فمن أصابه ذلك النور فقد هُدي إلى الإرادة ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) الروعة: الفرعة.

(٣) في (ل): قال المصنف.

(٤) في (ح): وهي.

اللَّهُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ ﴿الزمر: ٢٢﴾.

ثم من أمارات الإرادة ما قاله: «أبو علي الدقاق»^(١): الإرادة لوعة في الفوائد، لدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب.
ومن أمارات صدق الإرادة أن يشاهد المريد بنور الإرادة جمال ولاية مراده، وهو شيخه، فيعشقه.

ومن أمارة عشقه أن ينسلخ من إرادة نفسه بالكلية فيكون مُريد مُراد مراده، فلا يخالفه في شيء مما أمره به.

كما حُكي عن حال «أحمد بن أبي الحواري»^(٢) مع «أبي سليمان الداراني»^(٣).

(١) أبو علي الدقاق هو الحسن بن علي بن محمد النيسابوري الأصل الزاهد العارف شيخ الصوفية صاحب الأستاذ أبا القسم النصر آبادي وكان شيخ أبي القاسم القشيري والقشيري تزوج بابنته فاطمة. وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٠٥ هـ.

كان يعظ الناس ويتكلم على الأحوال والمعرفة، فمن كلامه: من تواضع لأحدٍ لأجل دنياه ذهب ثلثا دينه لأنه خضع له بلسانه وأركانه فإن اعتد تعظيمه بقلبه أو خضع له به ذهب دينه كله.
وقال: البلاء الأكبر أن تريد ولا تُراد وتدنو فتُرد إلى الطرد والإبعاد.

(٢) هو عبد الله بن ميمون بن عياش بن الحارث، أبو الحسن، التغلبي الغطفاني، أحد العلماء الزهاد المشهورين، والعباد المذكورين، والأبرار المشكورين، ذوي الأحوال الصالحة، والكرامات الواضحة، أصله من الكوفة، وسكن دمشق وتخرج بأبي سليمان الداراني رحمهما الله. وروى الحديث عن: سفيان بن عيينة، ووكيع، وأبي أسامة، وخلق. وعنه: أبو داود، وابن ماجه، وأبو حاتم، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو زرعة الرازي، وخلق كثير. وقد ذكره أبو حاتم فائتي عليه. وقال يحيى بن معين: إني لأظن أن الله يسقي أهل الشام به. وكان الجنيد بن محمد يقول: هو ريحانة الشام.

من أقواله: وقال: من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه. (انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠، وسير أعلام النبلاء ١٢/٨٦).

(٣) عبد الرحمن بن عطية، وقيل: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل: عبد الرحمن بن عسكر، أبو سليمان الداراني، أحد أئمة العلماء العاملين، أصله من واسط، سكن قرية غربي دمشق يقال لها: داريا. وقد سمع الحديث من: سفيان الثوري، وغيره. وروى عنه: أحمد بن أبي الحواري، وجماعة.

وقال أبو القاسم القشيري: حُكي عن أبي سليمان الداراني، قال: اختلفت إلى مجلس قاصٍّ فآثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء، فعدت إليه ثانية فآثر في قلبي بعد ما قمت وفي الطريق، ثم عدت إليه ثالثة فآثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالقات ولزمت الطريق، فحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ، فقال: عصفور اصطاد كركيًا - يعني: بالعصفور القاص، وبالكركي: أبا سليمان.

كان بين أحمد وبينه عقد لا يخالفه فيما يأمره، فجاءه أحمد يوماً وهو يتكلم في مجلسه. وقال: إن التنور قد سجّر فما تأمر؟ فلم يجبه فقال مرتين، وثلاثة.

فقال أبو سليمان: اذهب فاقعد فيه، كأنه ضاق به صدره.

فقال: وتغافل أبو سليمان ساعة ثم ذكر [العقد الذي بينهم]^(١). فقال: اطلبوا أحمد فإنه في التنور؛ لأنه على عقد أن لا يخالفني.

فنظروا فإذا هو في التنور لم يحترق منه شعرة.

فهذا أمانة تحقق صدق الإرادة التي من مواهب الحق تعالى.

ثم تقول إن القوم قد عدوا المواهب من الأحوال، والمكاسب من المقامات. وكنا وجدنا فرقاً دقيقاً بين المواهب المقاماتية والمواهب الأحوالية. فالمواهب المقاماتية ما خص الله تعالى به خواص عباده في بداية الفطرة من رشاش النور وإصابته، وذلك بمثابة البذر. فبالترية، وهي الكسب، يبلغ مبلغ كماله كمال قال النبي ﷺ:

«إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله»^(٢).

فإرادة الله بالعبد الخير موهبة منه، والاستعمال هو كسب العبد، وهو تربية بذر الإرادة. يبلغ المريد بها مبلغ مقام المراد به^(٣). وأما المواهب الأحوالية فهي^(٤) ما وهبه الله في أثناء السلوك ونهايته من الشواهد، والبوادر، والواردات، والكشوف^(٥)، وأمثالها. فلهذا الفرق، جعلنا المواهب المقاماتية من مقامات الروح لمدخل الكسب فيها. ولأن الروح مورد المواهب أولاً ثم تسري آثارها إلى القلب، ومنه إلى النفس ومنها إلى البدن، فمهما تصل إلى القلب تنشأ فيه أخلاق كريمة، وأحوال سنية. وإذا

(١) سقط في (ط).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ز، ط): المرادية.

(٤) سقطت في (ط).

(٥) في (ح): الكشوفات.

سرت إلى النفس تبدل صفاتها الذميمة بالصفات الحميدة. وإذا سرت إلى البدن تظهر عليه الطاعات والعبادات. ثم تنور الطاعات والعبادات بتنور الصفات والأخلاق، وتصفو الأحوال، وتزداد المواهب إلى أن يصير المرید مرادًا للحق تعالى وللخلق. والله أعلم.

المقام الثاني: الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(١).

وقال: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى تستقيم جوارحه، ولا تستقيم جوارحه حتى تستقيم أعماله»^(٢).

اعلم أن الاستقامة من خصائص الروح.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

أي الروح الإنساني. والاعوجاج من خاصية النفس.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والقلب خلق متوسط بين أصبعي اللطف والقهر قابلاً لكلتا الصفتين. فإن أيد الروح بالإيمان وروح من الله يبقى على استقامته، ويتنور القلب بنور الإيمان ويستقيم به.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه»^(٣) الحديث.

(١) سبق تخريجه.

(٢) صححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٥٤). ورواه بلفظ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه». وقال: حسن.

(٣) سبق تخريجه.

وإن وُكِّلَت النفسُ إلى اعوجاجها تعدى اعوجاجها إلى القلب فيتصف بصفتها^(١).
اعلم أن الشرع قد نزل لتقويم عوج النفس، واستقامة جميع الأركان الظاهرة
والباطنة على ما هو المستحق به كما أمر.

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢].

ليخرج عن ظلمة ما طُبِعَ عليه إلى نور ما أُمر به. فإن الخلق خلق في ظلمة الطبع،
ثم رُشَّ عليهم من نور الشرع.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

- فاستقامة اللسان؛ في تحري الصدق، وترك الكذب، والغيبة، والبهتان، والنميمة،
والفحش، والرفث، وما لا يعنيه، وملازمة الذكر.

- واستقامة كل عضو من الأعضاء؛ في استعماله بإتيان ما أُمر به، وانتهائه عما نُهي
عنه.

- واستقامة النفس في خروجها من أماريتها بالسوء إلى مأموريتها بالخير،
واطمئنانها إلى ذكر الله وعبوديته، وتبدل صفاتها الذميمة بالأخلاق الحميدة.

- واستقامة القلب؛ في توجهه إلى الله عز وجل، وإعراضه عما سواه، وتوكله
عليه، وتعرضه لنفحات الطافه قابلاً للفيض الإلهي.

- واستقامة السر في خلوه عن الأغيار لكشف الأسرار وشواهد الأنوار.

- واستقامة الروح؛ في استغراقه في بحر المحبة، واستلذاذه بمرارة المحنة^(٢).

- واستقامة الخفي؛ في قابليته لتجلي صفات الربوبية، والتحلي بأخلاق الألوهية
فانياً عن أنانية نفسه باقياً بهوية ربه.

(١) في (ط): بصفاتها.

(٢) في (ط): المحبة.

- فأما استقامة الطريق. فهي على ثلاثة أوجه:

١- استقامة الطريق إلى النار: وهي على إقدام الشهوات.

قال ﷺ: «حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١).

٢- واستقامة الطريق إلى الجنة: وهي على إقدام المكاره في نهى النفس عن

هواها. قال تعالى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات ٤٠، ٤١].

وقال ﷺ: «وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(٢).

٣- واستقامة الطريق إلى الله تعالى: وهي على إقدام المتابعة ولزوم المطاوعة.

قال الله تعالى:

﴿وَأِنَّكَ لَنَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

[الشورى: ٥٢، ٥٣].

أثبت للنبي ﷺ الهداية إلى هذا الصراط لا هداية الصراط. لأن الهداية إلى الصراط

من المكاسب وهداية الصراط من المواهب.

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦].

وهذه الهداية: نور يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده. كما قال تعالى:

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى ٥٢].

فمن تقرب إلى الله باستقامة المكاسب يتقرب الله إليه باستقامة المواهب. ثم

الاستقامة من لوازم كل مقام وحال. وبها الترقى من مقام إلى مقام، ومن حال إلى

حال. فمن لم يكن له استقامة في كل مقام وحال يؤول أمره إلى إضاعة السعي،

وإبطال الجهد، ويرجع قهقري.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٧١٩).

(٢) انظر التخریج السابق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ [النحل ٩٢].

فمن أمارات استقامة أهل البداية: الثبات على جادة الشريعة.

[ومن أمارات استقامة أهل الوسائط: مزاوله آداب الطريقة]^(١).

ومن أمارات استقامة أهل النهاية: محابقة^(٢) أحكام الحقيقة بخمود البشرية، وصقالة مرآة القلب عن طبع الطبيعة، وتركيز الأوصاف الإنسانية بالتحلية بالأخلاق الربانية^(٣).

المقام الثالث: الحياء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق ١٤].

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه:

«استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إِنَّا نَسْتَحِي يَا نَبِيَّ اللَّهِ، والحمد لله. قال: ليس ذاك ولكن من استحيى من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى حق الحياء»^(٤).

اعلم أن الحياء من أوصاف الروح ومقاماته. والحياء والعقل توأمان؛ وذلك أن الله تعالى لما خلق الروح الأعظم وهو روح النبي ﷺ كما مرّ شرحه، نظر إليه بنظر المحبة؛ لأنه كان حبيب الله غلب عليه الحياء فشق شقين، وهو القلم، فكان أحد شقيه: الحياء، والآخر: العقل، فلا ينفك أحدهما عن صاحبه، فأينما يوجد العقل

(١) سقط في (ط).

(٢) في (ط): مخالفة.

(٣) في (ز): بتحلية أخلاق الربانية.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وأحمد (٣٦٧١) واللفظ له. وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند: إسناده ضعيف.

يوجد الحياء، وأينما يُفقد العقل يُفقد الحياء.

وقد جاء في الخبر أن الله تعالى لما نظر إلى روح النبي ﷺ بنظر المحبة غلب عليه الحياء فتعرق روحه فخلق الله تعالى من قطرات عرقه الأنبياء، عليهم السلام. وقوله ﷺ: «خلق الورد الأحمر من عرقِي»^(١).

لعل من أصل هذا العرق أصله. ومن نتائج هذه الحقيقة أن من نظر الآن بنظر المحبة إلى محبوبه غلب عليه الحياء واحمر وجهه، وتعرق. وقيل الحياء على وجوه: حياء الجنانية. كآدم عليه السلام لما قيل له: أفراراً منا؟ قال: بل حياءً منك.

- وحياء التقصير: كالملائكة. يقولون: ما عبدناك حق عبادتك.
- وحياء الإجلال: كإسرافيل، عليه السلام، تسربل بجناحيه حياءً من الله تعالى.
- وحياء الكرم: كالنبي ﷺ كان يستحي من أمته أن يقول: اخرجوا. فقال الله تعالى، عز وجل: ﴿وَلَا مُسْتَغْنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].
- وحياء الحشمة: كعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه. حين سأل «المقداد»^(٢) حتى سأل رسول الله ﷺ عن حكم المذي لمكان فاطمة، رضي الله عنها، منه.
- وحياء الاستحقار: كحياء موسى، عليه السلام، قال: تعرض لي الحاجة في الدنيا فأستحي أن أسألك يا رب.
- فقال له عز وجل: سلني ولو ملح عجيتك، وعلف شاتك.
- وحياء الرب سبحانه وتعالى. يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعدما عبر الصراط.

(١) أخرجه الديلمي في (الفردوس) (٧٢٦٩)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (١٣١/١٣) واللفظ له، وابن الجوزي في (الموضوعات) (٦٢/٣) بلفظ: خُلِقَ الوردُ الأحمرُ من عَرَقِ جبريلَ ليلةَ المعراجِ وخُلِقَ الوردُ الأبيضُ من عَرَقِي وخُلِقَ الوردُ الأصفرُ من عَرَقِ البَراقِ. وهو حديث موضوع.

(٢) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة، من الصحابة.

وإذا فيه فعلتَ ما فعلتَ، ولقد استحييتُ أن أظهر عليك فإني قد^(١) غفرت لك.

وعن «أبي سليمان الداراني»^(٢) يقول: قال الله تعالى: «عبدى إنك ما استحييت مني أنسيْتُ الناس عيوبك، وأنسيْتُ بقاع الأرض ذنوبك، ومحوت من أم الكتاب زلاتك، ولا أناقشك في الحساب يوم القيامة».

قلت^(٣): الحياء حياءان: حياء روحاني منشؤه إنسانية الإنسان مما استفاد الروح عن حياء الرب تعالى بخصوصية الخلافة فإن الله حيي كريم. ويحتمل أن يكون هذا الحياء من وصف الكافر كما كان لزيخا حين ألقت ثوباً على وجه صنم في زاوية البيت إذ همّت «يوسف» عليه السلام، فقال: ماذا تفعلين؟ فقالت: أستحيي منه. وهي كافرة في تلك الحالة.

- وحياء رباني منشؤه نور الإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الحياء من الإيمان»^(٤) وهو برهان الرحمن كما كان «ليوسف» عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

قيل: البرهان حياؤه من الله تعالى لما رأى ذلك الفعل من زليخا. قال: أنا أولى أن أستحيي من الله تعالى، وهذا النوع من الحياء لا يكون إلا للمؤمن.

ومنه ما جاء في وصفه ﷺ أنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها. وقد خص النبي ﷺ بهذا الحياء من الصحابة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه بقوله: «أحياكم عثمان»^(٥).

(١) سقطت في (ز).

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) في (ز، ل): قال الإمام الرباني المصنف رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٣٢٦).

(٥) أخرج أبو يعلى (٥٧٦٣)، والبيهقي (١٢٥٤٩) واللفظ له وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٦٨) =

ثم اعلم أنه ما عبر سالك مقاماً من المقامات إلا بحياء من هذا النوع على حسب حالاته، وحضوره مع الله تعالى وقربه منه. فإن الحياء من نتائج الحضور والقرب والمشاهدة، فحياء الحضور لأهل البداية، وأماراته الندامة على ما جرى منه، والتوبة عنه، ولوم النفس عن المخالفات المنهيات وترك الموافقات المأمورات والرجوع منه إلى الله تعالى وعبوديته.

وحياء القرب لأهل الوسائط وأماراته الاشتغال بما يقربه من الله وترك الاشتغال بما يباعده من الله ويحجبه عنه، كما قال عليه السلام: «من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى» أي السمع والبصر واللسان والفم.. «والبطن وما حوى» أي النفس والقلب والفرج. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، أي حلالها وحرامها مما زين للناس «ويذكر الموت والبلى»^(١). أي يموت قبل أن يموت. كما قيل: مت بالإرادة تحيا بالحقيقة.

وحياء المشاهدة لأهل النهاية، وأماراته ذوبان الوجود حياءً لشهود المعبود وترك الوجود.

المقام الرابع: الحرية

قبل في قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إنما آثروا على أنفسهم لحريتهم عما خرجوا منه فآثروا به.

وقال رسول الله ﷺ: «إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه، وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر وإنما يرجع الأمر إلى آخره»^(٢).

= قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأف أمي بأمي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمرُ، وأصدقهم حياءً عثمانُ، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضهم زيدُ بنُ ثابتٍ، وأقرؤهم أبيٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذُ بنُ جبلٍ، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث طويل ذكره النخشي ورواه عن عبد الله بن مسعود في تخريج الحنائيات (٢/ ١٠٢٠) وقال: حسن لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن عمارة أبي محمد مولى بجيلة الكوفي، وكان يضعفه ابن عيينة، وقد رواه غيره موقوفاً من قول عبد الله وهو الصواب.

أشار به النبي ﷺ أن قناعة النفس على ما يكفيها من الطعام والشراب^(١) والثياب الضروري من الحرية عن رق عبودية الدنيا.

اعلم أن الحرية من أعلى مقامات القرب للروح وهي فك الرقبة عن رق عبودية الكونين.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أَفْجَحَ الْعَقَبَةُ ۖ ﴿١١﴾ وَمَا أَزْوَكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ۖ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١-١٣] يشير إلى أن اقتحام عقبة المكونات في فك الرقبة عن رق عبوديتها، وهي مقام العبدية مطلقاً، ولم يتمكن أحد في هذا المقام من الأنبياء والمرسلين إلا محمد رسول الله ﷺ. والذي يدل عليه قوله تعالى:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا ۖ﴾ [الإسراء: ١]. فقد سماه الله تعالى العبد مطلقاً وجعله كاسم العلم له. ومن سماه العبد غيره سماه مقيداً كما قال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ ۖ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ﴾ [ص: ٤٥].

وقال ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ۖ﴾ [ص: ٤١].

وقال: ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۖ﴾ [مريم: ٢].

فتحقق أن الحرية عن الأغيار مودعة في عبودية الملك الجبار. فمن ازدادت عبوديته ازدادت حريته. فللنفس عبودية الدنيا.

قال ﷺ: «تعس عبد الدرهم. تعس عبد الدينار. تعس عبد الخميصة»^(٢).

فأماره حريتها عنها بأن يتساوى عندها أخطار أعراضها^(٣).

كما كان لحارثة إذ قال لرسول الله ﷺ: عَرَضْتُ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجبها وذهبها^(٤).

(١) إضافة من (ز).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

(٣) في (ط): أحجارها وأعراضها.

(٤) أورده العراقي في تخريج الإحياء (٢٧١ / ٤) بلفظ «عَرَضْتُ نفسي عن الدنيا» وقال: إسناده ضعيف.

وللقلب: عبودية الآخرة. وأماراة الحرية عنها الاستغناء عنها بالافتقار إلى الله تعالى.

وللروح: عبودية الدرجات والقربات والكرامات، وأماراة حريته عنها الإعراض عما سوى الله بالفناء فيه للبقاء به.

وقال «بشر الحافي»^(١): «من أراد أن يذوق طعم الحرية، ويستريح من العبودية فليظهر السريرة بينه وبين الله تعالى».

وقال «الحسين بن منصور»^(٢): «إذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها يصير حرّاً من تعب العبودية. فيترسم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة. وذلك مقام الأنبياء، والصديقين». يعني تصير العبودية مشربه، ويستلذ بعذوبتها بدلاً عن استمرار مشقتها.

وقال «إبراهيم بن أدهم»^(٣): «الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها». قلت: الحر الكريم من يخرج عن الكونين، وإن لم يخرج عنهما كما كان حال النبي ﷺ أُخرج عن كون الدنيا بالبراق وجبريل. وأُخرج عن كون الآخرة بالرفرف وجذبة اذنُ مني. وأُخرج عن كون أنانيته بتجلي كينونة ربه. فلهذا انفرد بالعبودية مطلقاً وتوحد بالحرية مطلقاً. فكان عبداً لا يعبد إلا ربه، وكان حرّاً لا يتعبد إلا لربه.

المقام الخامس: الفتوة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ۖ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٣ - ١٤].

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) الحسين بن منصور الحلاج.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

وقال رسول الله ﷺ: «والله في عون ما دام العبد في عون^(١) أخيه المسلم»^(٢).

اعلم أن الفتوة اسم جامع لمعان جميلة، وخصال حميدة، وأخلاق كريمة روحانية ومواهب سنية ربانية أولها الإيمان الحقيقي لا التقليدي، كما كان لأصحاب الكهف ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ بلا واسطة تقليد بل بنظر تحقيق، وكما كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذا قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩]. ثم زيادة الهداية على الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. فلا ريب أن الإيمان لا يكون إلا بالهداية فآمنوا بالهداية فردناهم هدى. فهو هداية على الهداية.

وقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أيضاً من الهداية.

وقوله: ﴿سَيِّدِينَ﴾ طلب الهداية على الهداية.

كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فتوفيق^(٣) المجاهدة في الله من الهداية. ثم قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ الهداية على الهداية. ثم الربط على القلب، وهو بمنزلة السكينة، قال تعالى، ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾. أي أنزلنا السكينة في قلوبهم وربطنا على قلوبهم ألا يلتفتوا إلى غير الله تعالى، وهذا من المواهب السنية. ثم العفة والتقى وبذل الندى ومنع الأذى والتحمل عن الإخوان والصفح عن عثراتهم، والتعامي عن عيوبهم ورؤية فضلهم وأداء حقوقهم وأماناتهم والسعي في تعاونهم وتناصرهم وترافقهم والاجتناب عن مخاصمتهم ومخالفتهم.

ومن الفتوة الإيثار، والرّفد بعد الرّفد^(٤). والإنصاف وترك الانتصاف، والوفاء

(١) في (ح): حاجة.

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (٤٩٤٦) والترمذي (١٩٣٠) وابن ماجه (١٨٥) وأحمد (٢/٢٥٢) (٧٤٢١). بلفظ (ما كان) بدل (ما دام).

(٣) في (ز): لتوفيق.

(٤) في (ز، ل): مع الوفد. والرّفد: العطاء والصّلة.

بالعهود والاحتراز عن الغدر، والعفو عند المقدرة، ونصرة المظلوم، ورد المظالم، والاستحلال عن الغيبة والبهتان، والمجانبة عن صحبة الأحداث والنسوان.

المقام السادس: المحبة

قال الله تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ يَوْمَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(١).

وقال: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلانا فأحبه. فيحبه جبريل، عليه السلام. ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانا فأحبه، فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض الله العبد (قال مالك: لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك).

وفي رواية عن نافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال^(٢): «وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال: فيبغضونه. قال: ثم يوضع له البغضاء في الأرض»^(٣).

وقال رجل: يا رسول الله، متى الساعة؟

قال: وما أعددت لها؟

فلم يذكر كثيرا إلا أنه يحب الله ورسوله.

قال: فأنت مع من أحببت^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) في كل النسخ ما عدا (ح): في الحب فقال.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٦٥) وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩) باختلاف يسير.

وعن النبي ﷺ عن جبريل عن ربه عز وجل في حديث طويل قال:

«ولا يزال عبيدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً»^(١). الحديث.

اعلم أن المحبة صفة من صفات الله تعالى كما أن الجمال صفة من صفاته. قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(٢). فكان في الأزل محباً لجماله.

ولما كان من خصوصية الجمال العزة والجلال، ومن خصوصية المحبة الذلة والافتقار، وفي اجتماعهما تعسر وانكسار، فاقتضت الحكمة الإلهية^(٣) الأزلية أن يجعل خليفةً مستنيراً لحمل أمانة صفتيه: الجمال، والمحبة. وهو محمد الأمين، ليكون بخلافته ونيابته محباً لجماله وجميلاً لمحبهته. فإن كل محب^(٤) من محبة الله، كما أن كل جميل من جمال الله، فيحب الله لمحبهته ويحبه الله لجماله.

ولهذا سُمي حبيب الله؛ فهو خليفة الله تشرفاً وتكرماً به ليحب جماله بمحبته خلافةً عنه، ويحمل لجماله خلافةً عنه ليحبه الله، والله خليفته إنعاماً وإكراماً. ليكون قلبه الذي به يحبه، وبصره الذي يبصر جماله كما لو فرضنا مرآة مصفاة ينظر فيها صاحب جمال فينعكس فيها^(٥) صورة الناظر وصفاته. فالصورة التي في المرآة تكون

(١) أخرجه بهذه الرواية ابن أبي الدنيا في (الأولياء) (١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٨/٣١٨)، والبيهقي في (الأسماء والصفات) (٢٣١) باختلاف يسير. وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٧٧٥): ضعيف جداً. إلا أن هناك حديث البخاري الصحيح (٦٥٠٢) الذي يرويه عن أبي هريرة: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبُّهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦/٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/١٦٧).

(٣) إضافة من (ح).

(٤) في (ط): محبة.

(٥) في (ح): منها.

خليفة الناظر والناظر يكون خليفة الصورة التي في المرأة، وكل واحد منهما يحب جمال نفسه وجمال صاحبه بالأصالة والخلافة عنه. فالناظر يحب جمال نفسه وجمال منظوره بمحبته التي هي صفته بالأصالة ويحب جمال نفسه وجمال منظوره بالمحبة التي هي صفة المنظور خلافةً عنه. والمنظور يحب جمال نفسه وجمال ناظره بمحبته التي هي صفته بالأصالة، ويحب جمال نفسه وجمال ناظره بالمحبة التي هي صفة ناظره خلافةً عنه، فوجدت الناظر والمنظور في الصورة اثنين وفي الحقيقة واحداً، فالمحب والمحبوب على التحقيق واحد.

كما قيل:

* أنا من أهوى ومن أهوى أنا *

وهذا تحقيق قوله: «إن الله تعالى خلق آدم فتجلى فيه». فلما رأى النبي ﷺ في مرآة وجوده المصقولة عن طبع الطبع بمصقل لا إله إلا الله تجلى ذات الربوبية وصفاته. فقال: «أنا من الله أي من عكس ذاته وصفاته».

وقال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه». أي من عرف نفسه بالمرآة عرف ربه بأنه المتجلي فيه. ولما كانت من خصوصية المحبة الذلة والافتقار جعلت في طرف^(١) الخليفة استقلالاً واستحقاقاً، وبقيت العزة والجلال التي من خصوصية الجمال في طرف المستخلف استقلالاً واستحقاقاً ليفتخر الخليفة بالافتقار. ويقول: «الفقر فخري»^(٢).

ويتعزز المستخلف بعزته وجلاله فيقول: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني. فتكون المكونات تبعاً لهذا الخليفة كما قال تعالى لحبيبه: لولاك لما خلقت الكون، ويكون آدم ومن دونه تحت لوائه. فمن وجد سعادة الخلافة في حمل الجمال والمحبة بقوله:

(١) في (ط): طريق.

(٢) سبق تخريجه.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] إنما وجد بتبعيته. فأما المحبة فإنها من لوازم وجود الإنسان لأنه جُبلت القلوب على حُب من أحسن إليها.

وأما الجمال الذي هو محبوب الحق تعالى، فإنه يحصل بمتابعته لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١] أي تحبونه بمحبة حبيبه ^(١) ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بالتبذل إلى الله، وعدم الالتفات إلى ما سواه. ليتجلى الله في مرآة قلوبكم فتعطون جمالاً ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ وإنما كانت العزة والجلال من خصوصية المستخلف لأنه غني عن العالمين. وإنما كانت الذلة الافتقار من خصوصية الخليفة، لأن العالمين مفتقرون إليه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]. فكانت محبة الخليفة ذلة وافتقار ومحبة المستخلف عزة وجلالاً.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]. أي من كان يريد العزة بغير الله ودينه فلا يجدها فإن العزة لله جميعاً. ومن يريد الاعتذار بالله ودينه فله العزة لرسوله وللمؤمنين بمطاعة الله ومتابعة رسول وموافقة المؤمنين يجدها. فمن طلب العزة من الله أعزه الله، ومن طلب ^(٢) من غير الله أذله الله. ولهذا قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري. فمن نازعني فيهما ألقيته في النار» ^(٣).

ثم اعلم أن المحبة على ثلاثة أقسام: محبة إنسانية، ومحبة إيمانية، ومحبة ربانية. * فأما المحبة الإنسانية فما هو مركز في الجبل الإنسانية وهو على نوعين: محبة روحانية، ومحبة نفسانية.

فالمحوبات التي هي من نتائج المحبة الروحانية: التأله والعلوم العقلية، وأفعال الخير والأخلاق الحسنة، كما يكون للرهابين والبراهمة والفلاسفة وغيرهم، يشترك

(١) في (زن ل، ط): جبلية. وقد اخترت الكلمة التي وردت في (ح) لأنها الأقرب للسياق.

(٢) في (ح): طلبها.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وأحمد (٩٣٥٩)، وابن ماجه (٤١٧٤) باختلاف يسير.

فيها المؤمن والكافر. وكذلك محبوبات المحبة النفسانية وهي ما قال تعالى: ﴿زَيْنَ
لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْنِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

* وأما المحبة الإيمانية: فهي من نتائج نور الإيمان. فمن ازداد من نور الإيمان
ازدادت محبته. وقد أخبر الله تعالى عن المحبة الإنسانية والإيمانية بقوله: ﴿وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

[البقرة: ١٦٥].

وعلاوة هذه المحبة استيلاء محبة الموافقة على القلوب وانزعاج محبة
المخالفة عنها واستطابة روح المؤانسة ف﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾
[المؤمنون: ٦١] قد اشتغلت قلوبهم بلزوم دوام ذكر المحبوب عن اللذات، واشتعلت
نار المحبة على دواعي الشهوات فانحسمت مواد المخالفات، وانقطعت هواجس
التبعات كما قيل:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبُّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كُنْتَ تَصَدَّقُ حَبَّةً لِأَطْعَمْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَبَدَّى بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لَشَكْرٍ ذَاكَ مُضِيعُ^(١)

وقال بعضهم: سمعت رجلاً بالساحل في جوف الليل، وهو يبكي ويقول بصوت
حزين:

قرة عيني وسرور قلبي، ما الذي أسقطني من عينك فطوبى لقلوب ملأها من
خشيتك، واستولت عليها محبتك، فخشيتك مانعة لها من ولوج كل مقصد خوفاً من
حلول سخطك، ومحبتك قاطعة لها عن سبيل كل شهوة غير ذكرك.

(١) تنسب هذه الأبيات للإمام الشافعي، ويروى البيت الثاني:

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطْعَمْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

* وأما المحبة الربانية: فهي التي صفة الله تعالى المنعكسة في مرآة قلوب المحبوبين المحبين عند قوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ * وعلامة هذه المحبة في الظاهر متابعة الرسول ﷺ في ملازمة الفرائض ومداومة النوافل. كما قال النبي ﷺ: يقول الله عز وجل:

« لن يتقرب إليَّ المتقربون بمثل ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه.. »^(١) الحديث.

وعلاقتها في الباطن أن لا يُؤثر على الله غير الله ولا يكون متولي أمره إلا الله. والله غالب على أمره. والتفاوت بين القوم في المحبة على قدر العناية من الله تعالى، وكثرة الرعاية من العبد، وتعاهد المعرفة، وتصفية اليقين والصدق في الطلب. وعلامة ذلك^(٢) المسارعة والمبادرة والحث على السير، وحسن الالتجاء إلى الله تعالى في كل حال. قال «أحمد بن الحواري»^(٣):

حجبت أنا و«أبو سليمان الداراني»^(٤) فبينما نحن نسير إذ سقطت السَّطِيحَةُ^(٥) مني فقلت «لأبي سليمان»: فقدت السطيحةَ وبقينا بلا ماء، وكان البرد شديداً. فقال أبو سليمان: يا رادَّ الضالةِ، ويا هاديَ من الضلالةِ اردد علينا الضالة. فإذا واحد ينادي: من ذهب له سَطِيحَة؟

قال: فقلتُ: أنا. فأخذتها فبينما نحن نسير وقد تدرعنا بالفراء لشدة البرد فإذا نحن بإنسان عليه طمران^(٦) وهو يترشح عرقاً.

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ط): تلك.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

(٥) السَّطِيحَةُ: مَزَادَةٌ تَكُونُ مِنْ جِلْدَيْنِ يُضَمُّ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ وَعَاءٌ لِلْمَاءِ.

(٦) الطَّمْر: هو الثوب الخلق البالي.

فقال أبو سليمان: تعال ندفع إليك مما علينا الثياب^(١).

فقال: يا أبا سليمان، أتشير إلى الزهد وتجده البرد؟ أنا أسيح في هذه البرية منذ ثلاثين سنة ما انتفضت ولا ارتعدت. يلبسني في البرد فيحاً من محبته ويلبسني في الصيف مذاق برد محبته. ومَرَّ.

وقال «الحسن» صاحب «الفضيل بن عياض»: دخلت على فضيل وهو يبكي.

فقلت: ما يبكيك يا أبا عليٍّ؟

قال: ويحك يا حسن، إنه إذا جَنَّ الليلُ وهدأت العيونُ واختلط الظلامُ، افترش أهلُ المحبة لله أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وتسمع لدموعهم وقعاً على أقدامهم، وقد أشرف الجليل سبحانه وتعالى عليهم فنَادَى: بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إليَّ. فإني مطلع عليهم في خلواتهم، أسمع بكاءهم، وأرى أنينهم. فلم لا تنادي فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء الذي أسمع منكم؟ هل أخبركم أحد أن حبيباً يعذَّب أحبابه؟ وهل يجمل بي أن أعذب أقواماً وعند البيات أحدهم يطلب مرضاتي؟ فبي حلفت أنهم إذا وردوا عليَّ يوم القيامة جعلت هديتي لهم أن أكشف لهم عن وجهي حتى ينظروا إليَّ وأنظر إليهم.

كما سمعت بعض الحكماء يوصي رجلاً يقول له فيما يقول:

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للرحمــن خُدام

وإن من دأب المحبين وهَجِّيراهم^(٢) كثرة الذكر لمحبتهم على طريق الدوام، والاستقامة بالأقوال، والأعمال، والأحوال، كما مر ذكره. ولا ينقطعون، ولا يملون، ولا يفترون. وكيف يفترون وبذكره يتروِّحون؟

وقد أجمع الحكماء أن من أحب شيئاً أكثر ذكره، فذكر الله هو الغالب على قلوب

(١) في (ح): تعال خذ شيئاً مما علينا من الثياب.

(٢) الهَجِّيرَى: الدَّأْبُ والعادة. يقال: ما زال هذا هَجِّيرَاه: ما يُولَّعُ بذكره.

المحبين لله عز وجل، لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حِوَلًا، ولو قطعوا عن ذكر سيدهم لفسد العيش عليهم، وتشتتوا في أمورهم، وتنغصوا في أحوالهم. وذكر الله هو المستولي على همومهم وعقولهم كما قال «فتح الموصلي»^(١) رحمة الله عليه:

«يثار محبة الله تعالى على محبة نفسك من علامة حبك لله عز وجل. فالمحب لله، سبحانه، لا يجد مع الحب لله لذة لشيء، ولا يغفل عن ذكر الله تعالى».

وقال «فرقد السبخي»^(٢) في بعض الكتب:

«لن ينال^(٣) المحبون لله تعالى من طول اجتهادهم، يحبونه ويحبون ذكره، ويحبونه إلى خلقه، يمشون بين عبادته بالنصائح، ويخافون عليهم يوم تبدو الفضائح. أولئك أولياء الله وأحباؤه، وأهل صفوته، وأولئك لا راحة لهم دون لقائه». وقال بعض الحكماء: «ما تلذذ المتلذذون بشيء ألد من حب الله عز وجل، ومحبة ذكره».

ويروى عن «أبي نوح» قال: «سمعت رجلاً من العباد يقول:

– إذا سئم الطالبون من طلبهم فلن يسأم محبوبك من ذكرك ومناجاتك».

وكانت «رابعة» تقول إذا جنَّها الليل: «قد جاء الليل واختلط الظلام، وخلا كل حبيب بحبيبه، وخلوت بك يا محبوب».

(١) زاهد زمانه فتح بن محمد بن وشاح الأزدي الموصلي، أحد الأولياء له أحوال ومقامات وقدم راسخ في التقوى.

عن المعافي، قال: لم أرَ أعقل منه. قيل: كان يوقد في أتون بعد ما كان يصيد السمك، فشغلته سمكة عن الجماعة، فتركه. وقد بعث إليه المعافي بألف، فردها، وأخذ منها درهماً واحداً مع فقر أهله. وقيل: كان لا ينال إلا قاعداً، وكان بكاء، خوفاً متهجداً. توفي سنة سبعين ومائة وقيل: سنة خمس وستين. (سير أعلام النبلاء: ٣٤٩/٧).

(٢) ورد هذا الاسم في (ط، ل): السنجي، وفي (ز، ح): الشيخي، والصحيح هو فرقد السبخي، أبو يعقوب، أحد زهاد البصرة، روى عن سعيد بن جبير وقيل هو من سبخة الكوفة. (ميزان الاعتدال: ٣/٣٤٥).

(٣) في (ط): أن ينال.

وقال «سمنون»^(١): «ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة. لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»^(٢).

فهم مع الله تعالى.

قلت: وهذا حال المحبين لله. فكيف حال من أحبه الله، فحاله أن يفني كينونته في كينونه الله.

كما قال تعالى: «إِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَلِسَانًا، فَبِىْ يَسْمَعُ، وَبِىْ يَبْصُرُ، وَبِىْ يَنْطِقُ، وَبِىْ يَبْطِشُ»^(٣). الحديث.

وقال «يحيى بن معاذ الرازي»^(٤): «حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالبر».

قلت: وقوله: «حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء، فَمُسَلَّمٌ؛ لأنه كل ما جاء من المحبوب محبوب».

ولكن قوله: «ولا يزيد بالبر، فغير مُسَلَّمٌ؛ لأنه كما ليس لجمال المحبوب نهاية، ينبغي أن لا يكون لمحبة المحب نهاية. وذلك لأن المحبة على قدر المعرفة. فكلما

(١) هو الشاعر الحسن بن سمنون بن حمزة الخواص، أحد شعراء العصر العباسي، شاعر متصوف، لُقِّبَ في عصره بـ«سمنون المُحِبِّ»؛ لأنه كان ينسج غزلياته وينظم محبته لله تعالى، وقد عاش سمنون المحب في بغداد، ولازم كلاً من السقطي والقلانسي ومحمد القصاب، الذين كانوا من أكبر متصوفة بغداد ومشايخها. ومن القصص التي وردت عن سمنون المحب هي قصة عبارته الشهيرة التي قال فيها: «ادعوا لعمكم الكذاب» وقصة هذه العبارة أن سمنون المحب قال مرة في أحد أبياته:

فَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَاَمْتَحَنِي
إِنْ كَانَ يَرْجُو سِوَاكَ قَلْبِي لَا نَلْتُ سُوْلِي وَلَا التَّمَنِّي

فابتلى الله تعالى سمنون المحب بمرض عسر البول، فأصبح يطوف على الناس ويقول لهم: «ادعوا لعمكم الكذاب». وقد تُوفي في بغداد سنة ٢٩٨ للهجرة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

ازدادت المعرفة ازدادات المحبة، ولا نهاية للمعرفة، فلا يكون نهاية للمحبة. والمعرفة
برُّ من الله تزيد به^(١) المحبة.

وقال «الجنيد»^(٢):

دفع لي «السري»^(٣) رقعة وقال: هذه لك خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو،
فإذا فيها:

ولما^(٤) ادعيت الحبَّ قالتْ كذبتني فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحبُّ حتى يلصقُ القلبُ بالحشا وتذبلُ حتى لا تجيبَ المناديا
وتنحلُّ حتى لا يُبقى لك الهوى سوى مقلة تبكي بها وتناجيا
وأشد ابن عطاء^(٥):

غرست لأجل الحب غصناً من الهوى ولم يك يدري ما الهوى أحد قبلي
فأورق أغصاناً وأنع^(٦) صبوةً وأعقب لي مرّاً من^(٧) الثمر المحلي
فكل جميع العاشقين هواهم إذا نسبوه كان من ذلك الأصل
وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أنني إذا اطلعت على قلب عبد فلم
أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي.

وقال «أبو بكر الكتاني»^(٨): جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم. فتكلم

(١) في (ز): زيدته.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) في (ز): قد.

(٥) سبقت الإشارة إليه.

(٦) في (ط): أنع.

(٧) في (ز): بين.

(٨) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني، بغدادي الأصل، صاحب الجنيد والخراز والنوري، وجاور مكة إلى أن
مات سنة ٣٢٢هـ.

الشيخ فيها، وكان «الجنيد» أصغرهم سنًا. فقالوا: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: «عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته. وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه. فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمِن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله. فهو بالله ولله ومع الله».

فبكى الشيخ وقالوا:

- ما على هذا مزيد. جبرك الله يا تاج العارفين.

وقيل في بعض الكتب المنزلة: «عبدى، أنا وحقك لك محب، فبحقي عليك كن لي محبًا».

وكان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي، وسمعي، وبصري، وأهلي، ومالي، ومن الماء البارد»^(١).

فأراد النبي ﷺ أن يكون حب الله تعالى غالبًا على جميع أنواع المحبة له من محبة النفس، ومحبة القلب، ومحبة الروح، فيحب الله بنفسه وقلبه وروحه وكليته حتى يكون حب الله أغلب في الطبع أيضًا، والجبلة من حب الماء البارد. وهذا الحب يشتمل على الذات والصفات من المحب المحبوب.

وهذا كما قال بعضهم لبعض: كلّي بكلك مشغول. فقال: كلّي لكلك مبذول.

وقد كتب إليّ في أثناء السلوك بعض أجلة المشايخ: اعلم يا أخي أنه بقدر ما

(١) رَوَى الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ. قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ يُحَدِّثُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ عَبْدَ الْبَشَرِ». أخرجه الترمذي (٣٤٩٠)، والبزار (٤٠٨٩)، والحاكم (٣٦٢١). قال الألباني: ضعيف إلا قوله في داود: «كان عبد البشر».

تكون له يكون لك. وقد كنت في الخلوة «بخوارزم»^(١) فوق هذا الكلام على قلبي وأثر في أثر عظيمًا. فقلت في نفسي: أكون له بكليتي حتى يكون لي بكليته، وعزمت أن لا أخرج من الخلوة سنين كثيرة أو بقية عمري. فقعدت بقدر ثلاث سنين أقل أو أكثر، فأخرجني منها شيخي قدس الله روحه بغير اختياري، وألزمي ملازمة خدمته واستفادة صحبته، إلى أن صار الأمر إلى ما صار.

المقام السابع: المراقبة

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال رسول الله ﷺ في جواب جبريل عليه السلام عن قوله: ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

إشارة إلى حال المراقبة، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب، سبحانه وتعالى، عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه عز وجل.

اعلم: أن المراقبة من أعلى مقامات الروح، ولا يتمكن أحد في هذا المقام إلا بعد فراغه عن المحاسبة، وعبوره عن المقامات القلبية. ولكنها مستعملة في جميع المقامات ولها في كل مقام حظ من الخير.

فمراقبة الأبدان: بمحافظة أركان الشريعة.

ومراقبة النفوس: بملازمة آداب الطريقة وتهذيب الأخلاق.

ومراقبة القلوب: بمخالصة الأعمال ورعاية الأحوال عن التغير بالآمال.

ومراقبة الأسرار: عن إسبال الأستار بالنظر إلى الأغيار.

ومراقبة الأرواح عن التدنس بصفات الأشباح متخلقًا بأخلاق الملك الفتاح.

(١) خوارزم هو الاسم القديم لمدينة خيوة التي كانت تابعة لإقليم خراسان، وتقع اليوم في أوزبكستان، وتعد خوارزم من أقدم مدن آسيا الوسطى.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٥٠).

ومراقبة الله بخلو القلب، وصفاء السر، ولزوم الباب لمواهب رب الأرباب.
وحقيقة المراقبة: أن يكون الله رقيباً للعبد على جميع حالاته، حافظاً له ومعيناً في جميع مقاماته.

وقال بعضهم: «من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه».
وقال «الجنيد»: «من تحقق في»^(١) المراقبة خاف على فوت حظه من ربه لا غير». وكان بعض المشايخ له تلامذة، وكان يخص واحداً منهم بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره. فقالوا له ذلك. فقال: أبين لكم. فدفع إلى كل واحد من تلامذته طيراً وقال له: اذبحه بحيث لا يراه أحد. ودفع إلى هذا الغلام أيضاً فمضوا ورجع كل واحد منهم وقد ذبح طيره وجاء هذا بالطير حيّاً. فقال: هلا ذبحته؟. قال: أمرتني بحيث لا يراه أحد، ولم أر موضعاً إلا يراه أحد. فقال: لهذا أخصه بإقبالي عليه.
وقال «ذو النون»: «علامة المراقبة»^(٢) إثارة ما آثر الله تعالى. وتعظيم ما عظم الله تعالى. وتصغير ما صغر الله تعالى».

قلت: «من يراقب الله تعالى بعبوديته يراقبه الله بربوبيته، ومن لم يراقبه الله بربوبيته لم يراقبه الله بعبوديته فمن يراقب الله بأعماله يراقبه بأحواله».

المقام الثامن: العبودية

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].
وقال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحاباً في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت

(١) سقطت في (ط).

(٢) سقطت في (ط).

عيناه، ورجل دعتة امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

اعلم أن العبودية من أكمل مقامات الروح؛ لأنه أول عبد عبد الله مخلصاً حين لم يكن شيء مع الله يعبد الله أو يُعبد له من دون الله.

فإنه أول من تعلقت القدرة به، وهو في الحقيقة روح محمد ﷺ. ولهذا خصه الله تعالى باسم العبودية مطلقاً حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾.

[الإسراء: ١].

وقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ① عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩، ١٠].

ولأنه كانت العبودية مسلّمة له إذ لم يكن تحت رق غير الله تعالى. فالعبودية بهذا الاعتبار هي الحرية عما سوى الله، فلما خلق الله الروح خلقه عبداً لله حرّاً عما سوى الله ثم خلق الموجودات فتصرف الروح^(٢) فيها بخلافة الحق تعالى، وتعلق ببعضها لمناسبة ما معه فصار عبداً له.

قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدرهم. تعس عبد الدينار. تعس عبد الخميصة»^(٣). ولما كان روح «عيسى» عليه السلام، في بدء خلقه غير متعلق بشيء من الموجودات أخبر عن حاله فقال:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

ولما روح محمد ﷺ تخلص عن رق الموجودات، وعُرج به ليلة المعراج حتى عبر عن سدره المنتهى، أخبر الله عنه فقال:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) في (ح): العبد.

(٣) سبق تخريجه.

ففرق عظيم بين المقامين في العبدية^(١). بين من هو باق فيخبر عن نفسه، وبين من هو فان عن نفسه باق بربه. فيخبر عنه ربه بكل روح تجرد عن تعلق الكونين، وحرر عن رقهما استأهل لمقام العبودية. وقيل لها:

﴿فَادْخُلِي فِي عَبْدِي﴾ [الفجر: ٢٩].

ثم يستحق لجذبات العناية ودخول الجنة المضافة إلى الحضرة بقوله: ﴿وَادْخُلِي جَنِّي﴾ [الفجر: ٣٠].

ولهذا الاستحقاق رد من جوار رب العالمين بالنفخ الخاص إلى أسفل سافلين القالب.

فافهم جيداً.

ثم اعلم أنك عبدٌ من أنت في قيده وأسرهِ. إن كنت في أسر نفسك فأنت عبد لنفسك، وإن كنت في أسر دنياك فأنت عبد دنياك، وإن كنت في أسر آخرتك فأنت عبد آخرتك. وإن كنت في أسر مولاك فأنت عبد مولاك.

وقال «سهل بن عبد الله»^(٢): «لا يصلح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء: من الجوع، والعُري، والفقر، والذل».

وقال «ذو النون»^(٣): «العبودية أن تكون عبده في كل حال كما أنه ربك في كل حال».

قلت^(٤): «العبودية أن تكون عبداً لربك حرّاً عن رق الأشياء، ولا تكون ربّاً لشيء؛ فإن العبد وما يملكه لمولاه».

(١) في (ط): العبودية.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) في (ل): قال الشيخ المصنف رحمه الله.

المقام التاسع: الفقر

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ۲۷۳].

وقال رسول الله ﷺ «الْفُقَرَاءُ الصُّبْرُ هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقال: «يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ نِصْفِ يَوْمٍ»^(٢).

اعلم أن الفقر من أشرف مقامات الروح، وذلك لأنه لما خُلِقَ كان أول مخلوق ولم يكن معه مخلوق آخر. فكان عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه. فنهاية الفقر الرجوع إلى البداية. فالفقر على ثلاثة أوجه:

- فقر العوام: وهو بعدم المال كما ولدته أمه.

- وفقر الخواص: وهو بعدم الآمال والخروج من أحكام الصفات، كما كان في عالم الأرواح

- وفقر الأخص: وهو بعدم الوجود، كما كان في علم الله قبل إيجاده بالوجود ليكون عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء من الوجود وهو كَلٌّ على مولاه بـجود الوجود، ونيل المقصود. وهذا هو الفقر الذي افتخر به النبي ﷺ بقوله: «الفقر فخري وبه أفتخر»^(٣) (٤).

وهو فقر الفقراء الصُّبْر عن أوصاف الوجود الذين هم جلساء الله يوم القيامة. وهو الفقر الذي أشار إليه من قال: الفقير لا يحتاج إلى الله لأنه فقير عن وجوده غني بربه.

(١) أخرج الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ١٢٥): «لكل أمرٍ مفتاح ومفتاح الجنة حبُّ المساكين، والفقراء الصُّبْر هم جلساءُ لله يوم القيامة» وقال: باطل.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٣) واللفظ له، والنسائي في (السنن الكبرى) (١١٣٤٨)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وأحمد (١٠٦٥٤).

(٣) (وبه أفتخر) زيادة في (ح).

(٤) سبق تخريجه.

فالغني بالشيء لا يحتاج إلى ذلك الشيء. وهذا مقام النبي ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَالِيًا فَاَغْنَى﴾ [الضحى: ٨].

فكان ﷺ فقيرًا عن وجوده غنيًا بربه. ولم يكن غنيًا عن ربه.

ومثال ذلك أن القمر يحتاج إلى نور الشمس وهو غني بنورها عند محاذاتها، ولم يكن غنيًا عن نورها؛ ولهذا قالت المشايخ: «الاستغناء عن الشيء أتم من الاستغناء بالشيء».

قال بعضهم:

غنيت بلا شيء عن الشيء كله وإن الغنى الإعلاء عن الشيء لا به^(١)

وقال النبي ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة»^(٢). يدل على أن الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر.

وكذلك قوله ﷺ لرجلين أحدهما فقير وعليه أخلاق^(٣) والآخر غني: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا^(٤).

وقال: «صاحب الدرهمين أشد حسابًا من صاحب الدرهم»^(٥).

(١) هذا البيت موجود في (ح) فقط.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ط): احلاء. وهو خطأ. وأخلاق: جمع خَلَقَ وهو البالي من الثياب والجلد وغيرها (يستوي فيه المذكر والمؤنث).

(٤) روى البخاري في صحيحه (٥٠٩١) عن سهل بن سعد الساعدي قال: مرَّ رجلٌ على رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطبَ أن يُنكحَ، وإن شفعَ أن يُشفَّعَ، وإن قال أن يُستَمعَ، قال: ثمَّ سكَّت، فمرَّ رجلٌ من فقراءِ المسلمينَ، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطبَ أن لا يُنكحَ، وإن شفعَ أن لا يُشفَّعَ، وإن قال أن لا يُستَمعَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا خيرٌ من ملءِ الأرضِ مثلَ هذا.

(٥) أخرجه الديلمي في (الفردوس) (٣١٥٦) بلفظ: ذو الدرهمين أشدَّ حسابًا من ذي الدرهم، وذو الدينارين أشدَّ حسابًا من ذي الدينار. وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٢٥): موضوع.

وقال «الحسن البصري»: «إن مما كتب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام في الصحف الأولى: إن أحب أحبائي إليَّ الفقراء الذين يبتغون مرضاتي وأمرى ويحفظون وصيتي. وإن من كرامتهم عليَّ أن لا أرزقهم ما يشتغلون به عن طاعتي».

ويُروى في حديث آخر يقول الله عز وجل: «عبادي وأصفيائي: ما زويت عنكم الدنيا لهوانكم عليَّ. ولكن أردت أن تتردد أصواتكم إليَّ وأسمع منكم النداء. فهذه داري فانزلوها وهذه جواري فتبجحوا»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «رأس الدين ترك الدنيا، والقربة من الله عز وجل، وحب المساكين والدنو منهم»^(٢).

وروي عن «أبي هريرة» رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟

فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟

فيقول: فقراء المسلمين، القانعون [برزقي، القائمون]^(٣) بطاعتي، الراضون بقدري، أدخلهم الجنة.

فيدخلون، فيأكلون ويشربون، والناس في الحساب يترددون»^(٤).

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً. فقال لأصحابه: «لو قُسم نور

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، ولكن أخرج ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٧٧/١٨): «أن الله يعتذر للفقراء يوم القيامة ويقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم عليَّ ولكن أردت أن أرفع قدركم في هذا اليوم، انطلقوا إلى الموقف فمن أحسن إليكم بكسرة أو سقاكم شربة من الماء أو كساكم خرقة انطلقوا به إلى الجنة». وقال: كذب باطل.

(٢) لم أعثر عليه بهذا اللفظ ولكن أخرج ابن حبان في (المجروحين) (١٧٥/١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (٣٧٧/٦)، وابن الجوزي في (الموضوعات) (١٤١/٣) مطولاً باختلاف يسير: «لِكُلِّ شيء مفتاحٌ، ومفتاحُ الجنة حبُّ المساكين والفقراء».

(٣) ما بين قوسين زيادة من (ح).

(٤) أخرجه بنحوه المنذري في الترغيب والترهيب (١٥/٤).

هذا على أهل الأرض لوسعهم»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: كل ضعيف أغبر أشعت ذي طمرين. لو أقسم على الله لأبره»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الفقر على المؤمن أحسن من العذار»^(٣) الجديد^(٤) على خد
الفرس»^(٥).

وقيل: «لو لم يكن للفقير فضيلة غير إرادته سعة للمسلمين ورخص أسعارهم
لكفاه ذلك؛ لأنه يحتاج إلى شرائها والغني يحتاج إلى بيعها. هذا لعوام الفقراء فكيف
لخواصهم ولأخص خواصهم؟»

وقيل: «سئل «محمد بن عبد الله الفرغاني» عن الافتقار إلى الله أتم أم الاستغناء
بالله؟

فقال: إذا صح الافتقار إلى الله، صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء به كمل
الغنى به. فلا يقال أيهما أتم: الافتقار أم الغنى؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا
بالأخرى».

وقيل: أوحى الله تعالى إلى «موسى» عليه السلام: إذا رأيت الفقراء^(٦) فسائلهم
كما تسائل الأغنياء. فإن لم تفعل فاجعل كل شيء علمته^(٧) تحت التراب.

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٤٤): لم أجده.

(٢) أخرجه بنحوه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٤٤) وقال: متفق عليه مختصراً ولم يقلوا: ملوك.

(٣) العذار: اللجام.

(٤) في (ز، ط): الجيد.

(٥) أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٦٤) بلفظ: «الفقر أزين على المؤمن وأحسن من العذار على خد
الفرس».

(٦) في (ط): الفقر.

(٧) في (ط): عملته.

وروي عن «أبي الدرداء» أنه قال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحب إليّ من مجالسة الغني؛ لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ياكم ومجالسة الموتى».

قيل: ومن الموتى؟

قال: الأغنياء^(١).

قال «إبراهيم بن أدهم»^(٢): «طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى. وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر».

وقال ابن الكرمي^(٣): «إن الفقير الصادق يحترز من الغني حذرًا من أن يدخل عليه فيفسد عليه فقره، كما أن الغني يحترز من الفقر حذرًا أن يدخل عليه فيفسد غناه عليه».

وقيل: «أوحى الله تعالى إلى «موسى» عليه السلام: تريد أن يكون لك يوم القيامة مثل حسنات الخلق أجمع؟

قال: نعم.

قال: عُذ المريض، وكن لثياب الفقراء فاليّا.

فحمل «موسى» عليه السلام على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلي ثيابهم، ويعود المرضى»

وقال سهل بن عبد الله^(٤): «خمس أشياء من جوهر النفس:

فقير يُظهر الغنى، وجائع يُظهر الشبع، ومحزون يُظهر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة فيُظهر المحبة، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل فلا يظهر ضعفًا».

(١) رواه السبكي الأبن في طبقات الشافعية الكبرى (٣١٦/٦) وقال: لم أجد له إسنادًا.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) في (ح): الكرني، وفي (ل): الكرتي. ولعله يقصد ابن الكرماني الذي سبقت الإشارة إليه.

(٤) سبقت الإشارة إليه.

وقال «بشر الحافي»^(١): «أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر».

قلت^(٢): وتصحيح هذا القول: إن الله تعالى أراني في بعض مكاشفاتي العالم بأسره، وفي طرف منه رسم.

فقال لي: ما ترى؟

قلت: العالم بأسره.

فقال: هل تدري ما هذا الرسم؟

قلت: لا يا رب.

قال: هذا رأس سكة الفقر فاحفظه، ولازم عتبه.

وها أنا أعالج نفسي في لزوم هذه العتبة منذ خمسين سنة بفضل الله ومنه.

المقام العاشر: التصوف

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال لي رسول الله ﷺ:

«يا بني، إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل. ثم قال: يا بني، ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة»^(٣).

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف.

وذهب قوم إلى أنهم سُموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة؛ لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرقق، ولكونه لباس الأنبياء عليهم السلام.

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) في (ل): قال الشيخ المصنف رحمه الله. وفي (ز): قال الشيخ المصنف رضي الله عنه.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مرّ بالصخرة من الرّوحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤثّمون البيت الحرام»^(١).

وقيل: إن «عيسى» عليه السلام، كان يلبس الصوف والشعر، يأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى.

وقال «الحسن البصري»^(٢): «لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف، وكان اختيارهم لبس الصوف لتزكهم زينة الدنيا».

يقال: تصوّف، إذا لبس الصوف. كما يقال: تقمّص، إذا لبس القميص.

وقيل: سُموا صوفية لأنهم أهل الصف الأول في عالم الأرواح.

فقد روي أن الأرواح كانت في أربعة صفوف:

الصف الأول: الأنبياء، وخواص الأولياء.

الصف الثاني: هم المؤمنون.

والصف الثالث: هم المسلمون.

والصف الرابع: هم الكفار والمنافقون.

وقيل: لأنهم في الصف الأول بين^(٣) يدي الله تعالى بارتفاع همهم وإقبالهم على

الله بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوي، فاستُقل^(٤) ذلك وجُعل صوفيّاً.

وقيل: سُموا صوفية نسبة إلى الصّفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد

(١) أخرجه أبو يعلى (٧٢٣١)، والعقيلي في (الضعفاء الكبير) (٣٦/١)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) للهيتمي (٢٢٣/٣) مطوّلاً.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) في (ط): من.

(٤) في (ز): فاستقلب.

رسو الله ﷺ الذين قال الله فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] هذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشفاق اللغوي، ولكن صحيح من حيث المعنى؛ لأن الصوفية يشاكل^(١) حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين مصاحبين لله وفي الله كأصحاب الصفة، وكانوا نحوًا من أربعمئة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر. جعلوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديمًا وحديثًا في الزوايا والربط. وكانوا لا يرجعون إلى زرع، ولا إلى ضرع، ولا إلى تجارة. كانوا يحتطبون، ويرضخون النوى^(٢) بالنهار وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته. وكان رسول الله ﷺ يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ونزل في «ابن أم مكتوم»^(٣): ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١-٢] وكان من أهل الصفة.

وعن «ابن عباس» قال: وقف رسول الله ﷺ يوما على أهل الصفة فرأى فقرهم، وجهادهم، وطيب قلوبهم فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقي منكم على التعب الذي أتم عليه اليوم ماضيًا بما فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة»^(٤). ولم يكن هذا الاسم في زمن رسول الله ﷺ أعني الصوفي.

وقيل: كان في زمن التابعين.

ونقل: عن «الحسن البصري» أنه قال:

(١) في (ط): يخالط.

(٢) رَضَخَ النوى: دَقَّه، كسره بالحجر.

(٣) هو عبد الله ابن أم مكتوم، وهو ابن قيس من بني عامر بن لؤي، وأمه: أم مكتوم واسمها عاتكة، قدم المدينة مهاجرًا بعد بدر وقد ذهب بصره، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته. شهد معركة القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع ثم رجع إلى المدينة ومات بها.

(٤) رواه البخاري في الصلاة (٥٨) والموافيت (٤١) والمناقب (٢٥) ورواه أحمد في مسنده (١٩٧/١)، ١٩٨، (١٩٩).

«رأيت صوفيًّا في الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذه. وقال: معي أربع دوانيق^(١)، يكفيني ما معي».

ويشيد^(٢) هذا ما روي عن «سفيان»^(٣) أنه قال: «لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء».

وقيل: لما آثروا الذبول، والخمول، والتواضع، والانكسار، والتخفي، والتواري كانوا كالخرقة المرماة والصوفة المرمية التي لا يُرغب فيها ولا يُلتفت إليها. فيقال: صوفي نسبة إلى الصوفة كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة. وقيل: الصوفية قوم كانوا يخدمون الكعبة.

وقيل: سُموا بذلك لأنهم تشبَّهوا بها تشبُّك الصوف بما ينبت عليه والصوفان نبت أزغب^(٤). فالصوفي منسوب إلى الصوفة لاشتغالهم بالعبادة وتشبُّك بعضهم ببعض. وقيل: الصوفي منسوب إلى الصوفان الذي هو نبت^(٥)، لاقتصادهم واقتصارهم في الطَّعم على ما يجري مجرى الصوفان في قلة الغناء^(٦) في الغذاء.

قلت^(٧): اعلم أن نسبة الصوفي بخصوصية الصفاء أولى من غيره وإن كان له وجه بعيد من حيث اللغة، ولكنه وجه قريب من حيث المعنى؛ وذلك لأن الصفاء من أعز مقامات الروح. إذ هو أول من تعلق به أمر «كن». ولهذا قال تعالى، في تعريفه نبيه^(٨) ﷺ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو نور روحاني صافٍ عن كدورات

(١) الدائق: سُدس الدرهم، يجمع على دوانق ودوانيق.

(٢) في (ل): وسيد.

(٣) يقصد سفيان الثوري وقد سبقت الإشارة إليه.

(٤) في (ط): أرغب. والصوفان نبات عشبي من الفصيلة المركبة يظهر له زغب.

(٥) سقطت في (ط).

(٦) أي لا يغني كثير في الغذاء. وقد كتبت في (ط): العناء.

(٧) في (ز): قال الشيخ المصنف رضي الله عنه. وفي (ل): قال الشيخ الرباني المصنف رحمه الله.

(٨) في (ط): لنبيه.

تعلقات الكونين وكان مصافيًا في محبة الله وعبوديته، لأنه^(١) لم يكن معه مخلوق آخر ليحبه أو يتعلق به، فلما خلقت المخلوقات وردَّه الله تعالى إلى أسفل سافلين القالب تكدر صفوه بظلمات المخلوقات وتبدل أنسه بالوحشة، وقربه بالبعد، وتغيّرت تلك المصافاة بينه وبين ربه تعالى إلى أن أدركته العناية، وهبت نفحات الألفاف^(٢) الربوبية ودعته إلى إقامة العبودية متعرضًا لتلك النفحات بجميع الحركات والسكنات، تاركًا للشهوات، مُعرضًا عن محال الآفات، سالكًا في المقامات، ملازمًا لتزكية النفس، مداومًا على تصفية القلب، راغبًا في تحلية الروح، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن أقذار النفس وتحلية الروح بأوصاف الحق، فيزهق باطل الآفات، والموانع، والحجب، ويعود إلى تلك المصافات، فلما صافى العبد مع ربه برعاية العبودية صوفي عن كدر الوجود بعناية الربوبية. فهو فان عن أنانيته، باق بهويته. فصار الصوفي اسم علمه. وهذا معنى قول «الجنيد» وقد سئل عن الصوفي فقال: «هو أن يملك الحق عنك، ويحييك به».

وكذلك معنى قول «الحصري»^(٣): «الصوفي لا يوجد بعد عدمه، ولا يعدم بعد وجوده»

يعني الصوفي هو الفاني عن أنانيته، المعدوم عن وجوده المجازي، الباقي بهوية ربه الموجود الحقيقي الذي لا يُعدم.

وكذلك معنى قول «الشيخ أبي الحسن الخرقاني»^(٤): «الصوفي غير مخلوق»

(١) في (ح): إلا أنه.

(٢) في (ح): ألفاف.

(٣) الحصري هو: أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري البصري، سكن بغداد وكان شيخ وقته. كات ببغداد سنة ٣٧١ هـ.

(٤) الشيخ أبو الحسن الخرقاني: هو أبو الحسن علي بن جعفر البسطامي الخرقاني الخراساني. ولد في مدينة خرقان من توابع بسطام سنة ٣٥١ هـ، وقيل سنة ٣٥٢ هـ، لقبه الخرقاني نسبة إلى خرقان وشيخه أبي يزيد البسطامي. توفي سنة ٤٢٥ هـ، ودُفن بخرقان.

يعني قد فني منه كان مخلوقاً فهو الباقي ببقاء الله تعالى الذي لا يُعدم، فنسبة الصوفي إلى معنى الصفاء بهذا الاعتبار أولى. والله اعلم.

ثم اعلم أن التصوف مع كثرة الأقاويل فيه مبنيٌّ على ثلاثة أصول: خروج، وعروج، وولوج.

فأما الخروج: فهو الخروج عن الدنيا، ومطالبات النفس عنها.

وأما العروج: فهو العروج إلى أعلى مراتب العقبي، وملاحظات القلب منها.

وأما الولوج: فهو الولوج في التخلق بأخلاق الله تعالى والفناء فيها.

فالصوفي اسم جامع لمن أدى حق كل مقام وحظي بكل حال سني.

والله أعلم.

المقام الحادي عشر: الأدب

قال الله تعالى، عز وجل: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ١٧].

قيل: حفظ آداب الحضرة.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي»^(١).

اعلم أن الأدب من أكرم مقامات الروح، وذلك لأن الروح لما كان أول من تعلقت به القدرة، وهو موصوف بالعقل والأدب. ومن أدبه أنه كان مؤتمراً بأوامر الحق، ومنتهياً عن نواهيه. فلما أمره بأن أقبل فأقبل، وأدبر فأدبر، واهبط فهبط. ولم يكن معه موجود آخر ليلتفت إليه فيسيء أدبه.

ثم اعلم أن الأدب على ثلاثه أوجه: أدب الروح، وأدب القلب، وأدب النفس.

فأما أدب الروح: فهو مع الله بتوجهه إلى الحضرة، وتبتله عما سواه بعدم الالتفات

إليه، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج ﴿ إِذْ يَعْشَى الْسَدْرَ مَا يَعْشَى ۝ ١٧ ﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا

(١) سبق تخريجه.

طَقَى ﴿ [النجم: ١٦، ١٧] بالالتفات إلى ما يغشى السدرة من أنواع الكرامات وأصناف
التنعمات، تحفظاً^(١) لآداب الحضرة.

وأما أدب القلب مع النبي ﷺ والمشايخ، فبالتعظيم والتوقير، والتسليم لأوامرهم
ونواهيهم وإيثارهم على النفس والأهل، والولد، والمال؛ إيماناً للنبي ﷺ وفرض
عين، وإرادة للمشايخ، وقرّة عين.

قال النبي ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»^(٢).

أي بالاحترام، وامتنال الأوامر والنواهي.

وأما أدب النفس مع الإخوان والأهل والولد وسائر الخلّات فهو بالشفقة،
والرحمة، والنصيحة.

قال ﷺ: «ملاك الدين: التعظيم لأمر الله، والشفقة والرحمة والعطف»^(٣) على خلق
الله»^(٤).

وقال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٥).

وقال: «إنما الدين النصيحة»^(٦).

وقال أبو نصر السراج الطوسي^(٧): الناس في الأدب على ثلاث طبقات:

(١) في (ح): متحفظاً.

(٢) أخرجه ابن حبان في (المجروحين) (٢/ ٣٩)، وابن الجوزي في (الموضوعات) (١/ ١٨٣)، وقال الحافظ
العراقي في تخريج الإحياء: إسناده ضعيف.

(٣) (الرحمة والعطف) إضافة من (ح).

(٤) لم أعثر عليه.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٦٤٩٤).

(٦) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٤٢) واللفظ له.

(٧) أبو نصر السراج الطوسي، كان شيخ الصوفية ولقب بطاووس الفقراء. له كتاب «اللمع في التصوف»، وهو
بمثابة موسوعة في تاريخ التصوف الإسلامي وطبقات الصوفية وعلومهم ومصطلحاتهم وأقوالهم وأحوالهم،
توفي سنة ٣٧٨ هـ.

أما أهل الدنيا: فأكثر آدابهم في الفصاحة، والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسمار^(١) الملوك، وأشعار العرب.

وأما أهل الدين: فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية: فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب.

وسئل «أبو حفص»^(٢) عن أدب الفقر في الصحبة فقال:

«حفظ حرمان المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس في طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، والمعاونة في لأمر الدين والدنيا.

فمن آدابهم: التغافل عن زلل الأخوان، والنصح فيما تجب فيه النصيحة في الخلاء، وكنم السر وكنم^(٣) عيب الأصحاب، وإطلاعهم على عيوبهم في السر، والقيام بخدمتهم، واحتمال الأذى منهم. فبذلك يختبر الفقير حلمه، ويظهر جوهره».

ومن أدب القوم: أن لا يرون لأنفسهم ملكا يختصون به.

قال «إبراهيم بن شيان»^(٤): «كنا لا نصحب من يقول: نعلي».

(١) في (ط): أسماء.

(٢) أبو حفص عمر (وقيل عمرو) بن سلمة النيسابوري، من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، من قرية يقال لها «كورداباذ» عند نيسابور، وصفه الذهبي بأنه «الإمام القدوة الرباني، شيخ خراسان» توفي سنة ٢٦٤هـ. من أقواله: من إهانة الدنيا، أني لا أبخل بها على أحد ولا أبخل بها على نفسي لاحتقارها، واحتقار نفسي عندي.

(٣) زيادة في (ح).

(٤) هو شيخ الصوفية أبو إسحاق إبراهيم بن شيان، القرميسيني زاهد الجب. صحب إبراهيم الخواص، ومحمد ابن إسماعيل المغربي. وحدث عن: علي بن الحسن بن أبي العنبر. توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة. من أقواله: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية، وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغالطة والزندقة

وقال «أحمد القلانسي»: «دخلت على قوم من الفقراء يوماً بالبصرة فأكرموني وبجلوني. فقلت يوماً لبعضهم: أين إزاري؟ فسقطت من أعينهم».

وكان «إبراهيم بن أدهم» إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء:

- أن تكون الخدمة له^(١)، والأذان له، وأن تكون يدهم في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده.

فقال رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على ذلك. فقال: أعجبني صدقك.

وكان «إبراهيم بن أدهم» ينظر^(٢) البساتين، ويعمل في الحصاد، وينفق على أصحابه.

وكان من أخلاق السلف: كل^(٣) من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير أمره.

قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أي مشاع، فهم فيه سواء.

ومن الأدب: تقديم من يعرفون فضله، والتوسعة له في المجلس، والإيثار بالموضع.

رُوي أن رسول الله ﷺ كان جالساً في صُفة ضيقة فجاء قوم من البدرين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه. فأقام رسول الله ﷺ من لم يكن من أهل بدر، فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم.

فأنز الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ائْتِزُوا فَانْشُرُوا﴾ [المجادلة: ١١].

(١) زيادة في (ح).

(٢) نظر الزرع: حفظه وسهر على رعايته.

(٣) في (ط): كان.

حُكِيَ أَنَّ «عَلِيَّ بْنَ بِنْدَارِ الصَّوْفِيِّ»^(١) وَرَدَ عَلَى «أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَفِيفٍ»^(٢) زَائِرًا، فَمَتَمَاشِيَا، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: تَقْدُمُ.

فَقَالَ: بِأَيِّ عَذْرِ؟

قَالَ: بِأَنَّكَ لَقِيتَ «الْجَنِيدَ»، وَمَا لَقَيْتَهُ.

وَمِنَ الْأَدَبِ: تَرَكَ التَّكْلِفَ مَعَ الْإِخْوَانِ.

قِيلَ: لَمَّا وَرَدَ «أَبُو حَفْصٍ» الْعِرَاقَ تَكْلَفَ لَهُ «الْجَنِيدُ» أَنْوَاعَ الْأَطْعِمَةِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ «أَبُو حَفْصٍ» وَقَالَ: صَيَّرَ أَصْحَابِي مِثْلَ الْمَخَانِثِ يَقْدُمُ لَهُمُ الْأَلْوَانُ، وَالْفَتْوَةُ عِنْدَنَا تَرَكَ التَّكْلِفَ وَإِحْضَارَ مَا حَضَرَ، فَإِنَّ التَّكْلِفَ يُوْثِّرُ مَفَارِقَةَ الضَّيْفِ، وَبَتَرَكَ التَّكْلِفَ يَسْتَوِي مَقَامُهُ وَذَهَابُهُ.

وَمِنَ الْأَدَبِ: سَتَرَ عَوْرَاتِ الْإِخْوَانِ.

قَالَ «عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ» لِأَصْحَابِهِ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا رَأَيْتُمْ أَخَاكُمْ نَائِمًا فَكَشَفْتَ الرِّيحَ عَنْهُ ثَوْبَهُ؟

قَالُوا: نَسْتَرُهُ وَنَغْطِيهِ.

فَقَالَ: بَلْ تَكْشِفُونَ عَوْرَتَهُ.

قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَنْ يَفْعَلُ هَذَا؟

قَالَ: أَحَدُكُمْ يَسْمَعُ فِي أَخِيهِ بِالْكَلِمَةِ فَيَزِيدُ عَلَيْهَا وَيُشِيعُهَا بِأَعْظَمِ مِنْهَا.

وَمِنَ الْأَدَبِ: الْاسْتِغْفَارُ لِلْإِخْوَانِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ وَالْإِهْتِمَامُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي دَفْعِ الْمَكَارِهِ عَنْهُمْ.

حُكِيَ أَنَّ أَخَوَيْنِ: ابْتُلِيَ أَحَدُهُمَا بِهَوَى فَاظْهَرَ عَلَيْهِ أَخَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي ابْتُلَيْتُ بِهَوَى،

(١) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ بِنْدَارِ بْنِ الْحُسَيْنِ الصَّوْفِيِّ، مِنْ أَهْلِ مَشَايِخِ نَيْسَابُورَ وَمُقَدِّمِيهِمْ، صَحَبَ الْجَنِيدَ بِبَغْدَادَ وَغَيْرَهُ.

(٢) هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَفِيفِ الضَّبِّيِّ. أَقَامَ بِشِيرَازَ. مِنْ أَقْوَالِهِ: التَّصَوُّفُ تَصْفِيَةُ الْقُلُوبِ وَمَفَارِقَةُ الطَّبِيعَةِ.

فإن شئت ألا تقعد على محبتي لله فافعل.

فقال: ما كنت لأخل عقد إخائك لأجل خطيئتك، وعقد بينه وبين الله عقداً^(١) أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه^(٢). فطوى أربعين يوماً كلما يسأله فيقول: ما زال. فبعد الأربعين يوماً أخبره أن الهوى قد زال^(٣)، فأكل وشرب.

وقال «ذو النون المصري»:

أدب العارف^(٤) فوق كل أدب؛ لأن معروفه مؤدب قبله.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب. ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ألزمته العطب. فاختر أيهما شئت: الأدب أو العطب.

وقيل: مدّ «ابن عطاء» يوماً رجله بين أصحابه وقال: «ترك الأدب بين^(٥) أهل الأدب أدب».

ويشهد بهذه الحكاية الخبر الذي روي عن النبي ﷺ. كان عنده «أبو بكر» وعمر» رضى الله عنهما، فدخل عثمان، رضى الله عنه، فغطى فخده وقال:

«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»^(٦). نبّه ﷺ على أن حشمة «عثمان» رضى الله عنه، وإن عظمت عنده الحالة التي كانت بينه وبين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، كانت أصفى وأرق.

وفي قريب من معناه أنشد:

(١) في (ط): عهداً.

(٢) في (ح): مما ابتلاه.

(٣) في (ح): فبعد الأربعين يوماً أخبره أن الله تعالى قد أزال عنه ما كان يجد من الهوى.

(٤) في (ح): العارفين.

(٥) في (ح): مع.

(٦) أخرجه مسلم (٢٤٠١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٢٠).

فِي انْقِبَاضٍ وَحَشْمَةٍ فَإِذَا صَادَفْتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ
وَقَالَ «الْجَنِيدُ»: إِذَا صَحَّتِ الْمَحَبَّةُ أُسْقِطَتْ شُرُوطُ الْأَدَبِ.

فالأدب كل الأدب أن العبد إذا قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله علماً بمعرفة النفس وعيوبها، ومحاسن الأخلاق، ومعرفة محاسن الآداب ويوفقه في أداء^(١) الحقوق على بصيرة، ويفقهه في كل ذلك، ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق.

فكل تقصير يوجد من خبث النفس، وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه. فإن صحت^(٢) ظلمت بالإفراط تارة والتفريط أخرى.. وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق وإلى الخلق. والحكايات، والمواعظ، والآداب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير ويكون كبر^(٣) يُقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه، ولا يتنفع به، وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياة، وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الأدب، وواجب الصحة، بتوفيق الله تعالى.

المقام الثاني عشر: الصُّحْبَةُ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: «واشوقاه إلى لقاء إخواني. قالوا: أولسنا بإخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإنما إخواني الذين لم يأتوا بعد»^(٤).

(١) في (ط): وتوقفه من آراء.

(٢) في (ز): صحبت.

(٣) في (ط): كثير.

(٤) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، وإنما الذي ورد في صحيح مسلم (٢٤٩) عن أبي هريرة: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى =

وقال: «الله في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرَضاً بعدي. فمن أحبهم، فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»^(١).

اعلم أن الصحبة من أشرف مقامات الروح مع الله تعالى إذ لم يكن معه غير الله ليصحبه، وأنه قد خلق قبل الأجساد بألفي عام^(٢)، كما ورد به الخبر. وأنه قد صحب مع الله في هذه المدة فأورثته الصحبة شرفاً، ورتبة اختص بها عن سائر^(٣) العالمين. كما أورثت صحبة النبي ﷺ الصحابة شرفاً، ورتبة اختصوا بها العالمين.

قال رسول الله ﷺ:

«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم، ولا نصيفه»^(٤).

ولهذا الشرف وجد الروح اختصاص رتبة إضافية إلى الحضرة بقوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

اعلم أن كمالية كل شيء ونقصانه مودعة في الصحبة مثاله كالنواة، كماليتها مودعة في صحبة التراب، وتربيتها بالماء والهواء والشمس، ودهقته الدهقان، ونقصانها أيضاً مودعة في صحبة التراب عند إعواز^(٥) الماء، أو أحد أسباب التربة. فكذلك كمالية الروح ونقصانه مودعة في صحبة القلب. فإن وجد التربة بماء الإيمان ولواقع أعمال الشريعة وطلوع شمس العناية ودهقته النبي أو الشيخ تكاملت شجرة العبودية،

= الْمُقْبَرَةُ، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدَدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قالوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ».

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢)، وأحمد (٦٩٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سقطت في (ط).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٤٠).

(٥) في (ط): اعوان.

وأثمرت ثمرات المعرفة والتوحيد.

كما قال تعالى: ﴿تَوَقَّ أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم ٢٥].

وإن عُدِمَ منه بعض أسباب التربية تناقص الروح وخسر^(١) بصحة القلب كنقصان النواة بصحة التراب عند إعواز بعض أسباب التربية.

كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١ - ٣].

فمن أعظم أسباب التربية صحة شيخ كامل، واصل، صاحب ولاية، عالم بأركان الشريعة، واقف على آداب الطريقة، محق بدقائق الحقيقة، مكاشف لأسرار السلوك، محبب إلى الله إلى عباده، ومحجب عباد الله إلى الله، داع إلى الله.

قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه: «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي، جعلت نعمته ولذته في ذكره. وإذا جعلت نعمته ولذته في ذكره عشقني وعشقتة، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسهو إذا سهى الناس. أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فصرفت بهم عنهم»^(٢).

ولا يصحب أكثر مدعي أهل العصر المشيخة الذين ينسبون إلى البيوتات ويتشixon بالآباء والأجداد، وهم بمعزل عن رتبة المريدين الصادقين الطالبين من أرباب الرياضات وأصحاب السلوك المقتدين بالمشايخ [المستسلمين لتصرفاتهم فضلاً عن رتبة المشايخ]^(٣) والرجال البالغين، فإنهم قطاع الطريق على الصادقين من الطلبة. ولا يصحب أيضاً جماعة يسمون أنفسهم الملامتية، والقلندرية^(٤).

(١) في (ط): والحس.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سقط في (ز).

(٤) في (ط): القليدرية.

والحيدرية. فإن الغالب على أكثرهم الإباحة والزندقة إلا من شاء الله به خيراً، والضابط في تمييز أهل الخير منهم ومن غيرهم إقامة الشريعة على قانون المتابعة والتأدب بآداب الطريقة على وفق سير المشايخ، رضوان الله عليهم. ومن ادعى أنه خلص مع الله تعالى ضميره، ونال رتبة في الحقيقة أنه تنزه عن الشريعة وأن الارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام المتحصرين في مضيق الاقتداء تقليدًا. فاعلم أنه من أهل الإلحاد والزندقة والفلسفة والإباحة. فاحذرهم إن صحبتهم، وظلمة أنفاسهم سم قاتل لقلوب المبتدئين من المريدين، ولم يعلم الجاهل المغرور أن الشريعة قشر لب الحقيقة، واللّب لا ينعقد ولا يتربى إلا بالاستمداد عن القشر. وكل حقيقة ردتها الشريعة زندقة، وإن الشريعة [حق العبودية والحقيقة هي حقيقة العبودية ومن صار]^(١) من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية، وحقيقة العبودية، وصار مطالبًا بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك المقام، لأنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف، ومحا من^(٢) باطنه الزيغ والتحريف.

رُوي عن «أبي محمد الجري»^(٣) يقول:

سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى. فقال «الجنيد»: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظمة. والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا.

وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه يرجعون^(٤) فيها، ولو

(١) سقط في (ط).

(٢) في (ط): ويخامر.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) في (ح): رجعوا..

بقيت ألف عالم لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّةً إلا أن يُحال بي^(١) دونها، وإنها لآكد في معرفتي ولو قوي الحال.

ومن أوصاف المشيخة أن يكون من أهل الولاية، وإن لم يستأهل للاقتداء كل ولي، لأن أهل الولاية على ثلاثة أقسام: ولي مجذوب غير متدارك بالسلوك، وولي سالك متدارك بالجذبة، وولي مجذوب متدارك بالسلوك.

فالولي المجذوب الذي هو^(٢) غير متدارك بالسلوك لا يصلح للمشيخة؛ لأنه غير واقف على المقامات والآفات، والقواطع وطريق إصلاح الأحوال، فلا يصلح للاقتداء، وإن صلح للاهتمام.

فأما الولي السالك المتدارك بالجذبة، والولي المجذوب المتدارك بالسلوك فهما يستأهلان للمشيخة والاقتداء. ولكن المجذوب السالك أولى بالاقتداء، لأنه أعلى مقامًا وأقوى حالاً من السالك المجذوب، وذلك لأن الطريق إلى الله بنوعين اثنين: أحدهما: طريق من العبد إلى الله؛ فهو ضلالة في ضلالة.

وثانيهما: طريق من الله إلى العبد فهو هداية في هداية، وهو طريق المجذوب. فإن بسطوة الجذبة تنخرق^(٣) الحجب ويحترق في لحظة ما لا يندفع ولا يرتفع للسالك في سنين كثيرة بالمجاهدة والمكابدة ثم تحتجب^(٤) الجذبة، ويتدارك العبد بالسلوك مؤيداً بتأييد الجذبة. فيستأنف السير بالمعاملة والشوق والمحبة، ثم يتبدل السير بالطير، ثم بهبوب الرياح المرسله، ثم بلمعان البرق الخاطف إلى أن يبلغ أعلى عليين الروحانية وينقطع الطريق ويتعذر العبور ثم يتدارك السالك بالجذبة وتتخلص الجذبة عن الاحتجاب وتخطفه عنه وتفنيه وتوصله إلى الحق، وتبقيه به. فهذه حقيقة

(١) سقطت في (ز).

(٢) سقطت في (ط).

(٣) في (ز، ل): تنخرق. وما أثبتناه من (ح).

(٤) في (ز): تحتجب.

قوله ﷺ: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»^(١). فإن عمل الثقلين لا يوصل السالك إلى الحق كما توصله الجذبة.

وللمشيخة أمارات ودلالات، وأوصاف وأخلاق يطول شرحها ليستحق بها الاقتداء، ويصلح له الاهتداء، وكذلك للمريد الصادق الطالب المستصحب أمارات وأحوال يستحق بها الصحبة، فنحن نقتصر في شرحها على ما قال الشيخ «أبو سعيد ابن أبي الخير»^(٢) رحمة الله عليه. حين سئل عن الشيخ المحقق والمريد المصدق فقال:

«أدنى أحوال الشيخ أن يكون موصوفاً بعشر خصال حتى تسلم له المشيخة:

أولها: أن يصير مراداً حتى يمكنه أن يربي المريد.

ثانيها: أن يكون سالكاً للطريق حتى يقدر على الدلالة لغيره.

ثالثها: أن يكون مؤدباً مهذباً حتى يؤدب المريد ويهذبه.

رابعها: أن يكون جواداً سخياً غير ملتفٍ إلى الكون حتى يمكنه أن يؤثر به مريده.

خامسها: أن لا يتعلق بمال المريد حتى لا يحتاج إلى استعماله في حقه.

سادسها: إذا أمكنه أن يعظ بالإشارة فلا يعظ بالعبرة.

سابعها: إن أمكنه أن يؤدب المريد بالرفق فلا يؤدبه بالعنف والغضب.

ثامنها: إن كل ما يأمر المريد به يجب أن يباشره من قبل أن يأمر المريد به.

تاسعها: أن كل ما يجره عنه، فينبغي أن ينزجر عنه أولاً.

عاشرها: أنه إذا أقبل مريداً لله فلا يرده لأحد من خلقه.

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

وقال: أقل أحوال المرید أن تكون هذه الخصال العشرة موجودة فيه^(١) حتى تصح منه الإرادة.

- أولها: أن يكون لبيباً فهِماً حتى يفهم إشارة الشيخ.
 - ثانيها: أن تكون نفسه مطيعة له حتى يمكنه أن يكون [ممثلاً لأوامر الشيخ]^(٢).
 - ثالثها: أن يكون حديد السمع ليدرك كلام الشيخ.
 - رابعها: أن يكون منور القلب ليرى عظمة الشيخ.
 - خامسها: أن يكون صادق اللهجة ليصدق فيما يخبر عن حاله.
 - سادسها: أن يكون صادق العهد ليفي بما التزم في عقده مع الله^(٣).
 - سابعها: أن يكون سخياً جواداً يمكنه الخروج^(٤) عما في يده.
 - ثامنها: أن يكون حافظاً للسِر ليكتُم أسرار الشيخ.
 - تاسعها: أن يكون متعظاً محباً للنصيحة ليقبل نصيحة الشيخ.
 - عاشرها: أن يكون غيَّاراً^(٥) ليفتدي بروحه العزيز^(٦) في الطريق.
 - فإذا كان الشيخ والمرید مزيَّنين^(٧) بهذه الأوصاف يحصل المقصود على أسرع الأحوال.
- قال «أبو بكر الطمستاني»^(٨):

(١) في (ح): أن تكون فيه عشر خصال موجودة.

(٢) ما بين قوسين سقط في (ز).

(٣) زيادة في (ح).

(٤) في (ز): أن يخرج.

(٥) في (ط): عباراً.

(٦) في (ح): الفرس.

(٧) في (ح): مرتبطين.

(٨) هو أبو بكر الطمستاني الفارسي، من أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، قدم على مدينة نيسابور ومات بها بعد سنة ٣٤٠ هـ. من أقواله: لَا يُمكن الخُرُوج من النَّفسِ بِالنَّفْسِ وَإِنَّمَا يُمكن الخُرُوج من النَّفسِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ بِصِحَّةِ الإرَادَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

اصحبوا الله فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركات صحبتهم^(١) إلى صحبة الله عز وجل.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى «موسى» عليه والسلام: «كن يقظاً مرتاداً لنفسك أخذاناً. وكل خدنٍ لا يوافيك طائعاً على مسرة فأقصه ولا تصحبه فإنه يقسي قلبك، وهو لك عدو. وأكثر من ذكرى تستوجب شكري والمزيد من فضلي». وقال «ذو النون المصري»^(٢):

لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناسبة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة.

المقام الثالث عشر: السماع

قال تعالى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۚ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ﴾ [الزمر: ١٨-١٧].

وروي عن «عائشة» رضي الله عنها أن «أبا بكر» رضي الله عنه دخل عليها عندها جاريستان تغنيان، وتضربان بالدف، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه فانتهرهما أبو بكر، رضي الله عنه. فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»^(٣).

اعلم أن السماع من أجل مقامات الروح؛ لأنه استسعد بسعادة سماع خطاب الحق تعالى، وهو في كتم العدم إذا قال للسماء والأرض وهما في كتم العدم:

﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وكان الخطاب مع أهل السماء وأهل الأرض

(١) في (ط): صحبته.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) صححه الألباني في غاية المرام (٣٩٩) وابن حبان في صحيحه (٥٨٦٨).

كقوله تعالى: ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ أي اسأل أهل القرية. وهم الأرواح لا الأجساد، بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ أَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وما قال «طائعات» لأن الخطاب مع العقلاء. وإن في قدرة الله تعالى لا فرق بين أن يسمع حيواناً، أو جماداً، أو معدوماً كما أسمع النار بقوله: ﴿ يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فلما أسمع الله تعالى الأرواح المعدومة خطاب: ﴿ أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ استفرغت عذوبة سماع الخطاب للأرواح ارتاحوا للإتيان طوعاً فقالوا: ﴿ أَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ بخلاف تراب الأجساد الذي جاء جبريل إليه فقال: أجب ربك. فلما سمع الخطاب بواسطة جبريل عليه السلام لم يجد ذوق سماع الحق تعالى فلم يجبه بالطوع، بل أقسم عليه، واستغنى أن يقبض منه قبضة حتى بعث الله إليه عزرائيل فقبض منه قبضة على كره منه. ولو كان الله أسمع التراب خطابه بلا واسطة، كما أسمع الأرواح لارتاح للإجابة طوعاً، ورغبة، ألا ترى أن الذرات الترابية لما أخذها الله تعالى من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فلما أسمعها خطابه كيف ارتاحت الذرات والأرواح لعذوبة سماع الخطاب.

وقالوا طوعاً ورغبةً: ﴿ بَلَىٰ ﴾.

فالآن ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] إذا سمع قولاً من القرآن أو شعراً بالألحان، أو ضروباً بالأوزان، أو معنى من العرفان يرتاح له ويذكره دون^(١) عذوبة ذلك السمع. ويجدده شوق لذادة^(٢) ذاك الخطاب فيحركه بالتواجد ثم بالوجد، ثم بالوجود. قيل: سمع الشبلي قائلاً يقول:

أسأئل عن سلمى^(٣) فهل من مخبر يكون له علم بها أين تنزلُ

(١) التصويب من (ح) وفي باقي النسخ: ذوق.

(٢) في (ز): لذاته.

(٣) في ح: (ليلى).

فرعق وقال:

- لا والله ما في الدارين مُخبر^(١).

- وقيل: الوجدُ سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر. وصفات الظاهر: الحركة والسكون، وصفات الباطن: الأحوال والأخلاق.

وقال شيخنا «السعيد الشهيد شرف بن المؤيد البغدادي»^(٢) في كتابه (تحفة البررة): إن الله تعالى كما خلق للإنسان قلباً وروحاً، فكذلك خلق لحواسه الخمس التي هي: السمع، والبصر، والذوق، والشم، واللمس، قلباً وروحاً. فقال به ما تعلق بالقلب، وروحه ما تعلق بالقلوب.

ولما كان القلب في حيز الاشتراك مع البهائم والأنعام صارت صورة الحواس مشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوان. فللقلب المشترك حواس مشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوان، وللقلب المخصوص بالإنسان روح الحواس المخصصة بالإنسان، فمن ليس له من عالم الإنسانية غير خط الحواس الظاهرة وحُرم حقيقة روح الحواس الظاهرة التي هي حقيقة حواس الباطن فهو كالنعم والبهيمة، ومن خلق جهنم وذراها.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

[الأعراف: ١٧٩].

فبالحواس الظاهرة تدرك عالم الجواهر والأعراض^(٣) وبالحواس الحقيقية

(١) في (ز): عنه مخبر.

(٢) سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه تحفة البررة.

(٣) في (ط): الأعراف.

يدرك صورة حقائق الغيب، قال تعالى في صفة الكفار: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] يعني، والله أعلم، أنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة، وما كانوا يبصرون صورة نبوته بالحس الحقيقي الروحاني، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢].

فلا شك أنهم كانوا معزولين عن حاسة السمع الظاهرة، وكانوا معزولين عن السمع الروحاني الحقيقي الذي هو روح السمع الظاهر. وكانوا يسمعون القرآن من حيث قرع الأصوات المتموجة بالصماخ^(١) تموجاً مخصوصاً حرفياً، فتحس بها الحاسة المتعينة المتموجة الظاهرة فيفهمون بها منه أساطير الأولين ولا يسمعون بالسمع الحقيقي الذي هو روح السمع الظاهر، إذ كانوا عنه معزولين حتى يدركوا كلام الله، سبحانه وتعالى، فيؤمنوا به، فما هو المعبر من الحواس الحقيقية اعتباراً يعتد به السمع والبصر.

قال الله تعالى في معرض الامتنان على العباد في مواضع من القرآن العظيم: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].
فبدأ بالسمع ثم بغيره؛ لأن الإحياء مبدؤه من السمع. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فكما أن الإحياء الذي يتعلق بالبشر. إنما كان منشؤه من السمع وبه. فكذلك إحياء القلوب الذي يتعلق بالنشأة الأخرى التي هي مبدأ ظهور آثار الحياة الطيبة [من السمع الحقيقي، فإذا ظهرت آثار الحياة الطيبة]^(٢) التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

(١) جاء في لسان العرب مادة (صمخ): الصَّمَاخُ من الأذن: الخرقُ الباطن الذي يُفْضَى إلى الرأس ويقال: إن الصماخ هو الأذن نفسها.

(٢) سقط في (ط).

انفتح السمع الحقيقي وزال الصمم الذي ذكره الله بقوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨].
فسمع العبد من حروف القرآن أو من غير تلك الحروف المعينة المودعة بين
الدفنين كلام الله تعالى فاشتاق إلى الحضرة وصبا إليها «والأذن تعشق قبل العين
أحياناً».

فأنقذ نفسه من النار، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
[الملك: ١٠].

فإذن السمع ينقذ العبد من السعير، والبصر يختطفه من الجنة. وابتداء السير هو
الممر على السعير.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]،
ولذلك^(١) صارت مرتبة ذوي الأبصار فوق مرتبة ذوي السمع.

ألا ترى أن محمداً ﷺ كان صاحب البصر. قال الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾
[النجم: ١٧].

وموسى (عليه السلام) كان صاحب السمع. قال الله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وناهيك بموسى عليه السلام وسيره إشارة إلى الابتداء بالسمع، وإلى الانتهاء
بالبصر.

قال الله تعالى حكاية عن ابتداء ظهور آثار روحانيته ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ
الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ إِفَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.
[القصص: ٣٠].

وقال تعالى حكاية عن مرتبة تمكنه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ

(١) في (ط): وكذلك.

أَرِيفٍ أَنْظَرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴿ [الأعراف: ١٤٣].

وقال عقبه: ﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْلَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

فبين الحق، سبحانه وتعالى، أن حظ موسى عليه السلام منه، سبحانه، على استقلال الرسالة والكلام. فأمره بقبول الاصطفاء من هذا الوجه المخصوص ورؤية المن والفضل من الله تعالى والخروج عن عهدة الشكر؛ ليستحق بشكره على هذه النعمة على قضية ﴿ لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] مزيد حظ^(١) الرؤية على تبعية النبي ﷺ ولذلك قال: «اللهم اجعلني من أمة أحمد».

وقال النبي ﷺ: «لو كان موسى حياً ما وسعته إلا اتباعي»^(٢).

لأنه الطالب الصادق، والسالك الوامق^(٣)، والمريد المتعطرش، فإذا تيقن أن الحظ الأوفر، وهو الرؤية التي تتعلق بالبصر يستحيل أن تحصل إلا بمتابعة المصطفى ألزم على نفسه المتابعة بخلاف إبليس الكاذب في دعواه، فإنه ما وسعه في إدراك رضى المحبوب إلا متابعة آدم ف ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

فلما كان ظهور السمع الحقيقي مبدأً لظهور^(٤) آثار الحياة الطيبة التي بها تصير المضغة التي إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت بها سائر الجسد. فلما^(٥) كان تعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد والبون بينهما أقرب من البعد الذي بين البصر الظاهر الحسي إلى البصر الحقيقي الروحاني. ولذلك يؤدي آثار ما

(١) في (ط): معنى.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٤٧) (١٧٥) وحسنه الألباني في (الإرواء) (٩٨٥١). وجاء

بلفظ «والله لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني».

(٣) في (ط): الوافق وهذا خطأ. والوامق: فاعل من وَمَقَّ بمعنى أحب.

(٤) في (ط): مبدأ الظهور.

(٥) في سائر النسخ: قلباً.

يتعلق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر.

ألا ترى أن الإنسان ربما غُشي عليه إذا سمع بعض الأصوات الطيبة المناسبة الأوزان سواء كان صاحب قلب أو لم يكن. ولا يصير مغشياً عليه برؤية الأشياء المستحسنة في البصر الظاهر.

وهذا السمع الحقيقي ربما يتحلى به العبد ولم يشعر بذلك التجلي فيسمع الأشياء بقلبه ولا يشعر باستماعه عليه لذلك الشيء من حيث الظاهر، وإن كان القلب الذي هو السامع مشعراً بحقيقة استماعه، وإنما يكون ذلك لمباينة بين الظاهر والباطن. وإن هذه المباينة لا ترتفع ألبتة إلا بواسطة المجاهدة والرياضة. فإذا سمع الإنسان صوتاً سواء كان ذلك الصوت موزوناً متناسباً أو لم يكن فله من ذلك السمع حظ لا محالة من حيث الإدراك الحسى. فإن كان له مع هذا الحس روح الحس، أي السمع الحقيقي كان له منه حظان اثنان:

أحدهما: إدراك الحس.

وثانيهما: حظ إدراك السمع الحقيقي، وإن كان السمع الحقيقي لا يتوقف على ما يستفيد من السمع الظاهر. فإن له في عالمه إدراكات غير محصورة.

ولذلك قال بعض المشايخ: «وفي فؤادي قوال^(١) يغنيني».

ففي مبدأ ظهور هذا السمع يغلب عليه تصرفات هذا الحس، إذ هو قشره وقالبه، فيتخير إدراكاته، فإذا كمل وبلغ الغاية القصوى عمت الأوقات كلها؛ إذ منبعه الحقيقي فوق عالم الزمان والمكان.

فإذا التفت السالك إلى الكون سمع تسبيح الأشياء بأسرها ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا اختطفه الحق سبحانه وتعالى عن الكون سمع كلام الحق، سبحانه وتعالى،

(١) هكذا رسمت في النسخ الثلاث (ح، ز، ل). وفي (ط): قول.

فاستغرقت أوقاته في السماع.

ولذلك قال «الحصري»^(١): «إيش أعمل بسماع منقطع إذا انقطع من يسمع منه». ينبغي أن يكون سماعك سماعًا متصلًا غير منقطع. فإذا سمع السالك صوتًا واستوفى الصماخ منه حظه، والسمع الحقيقي حقه، فلو كانت المباينة بين الظاهر والباطن مرتفعة بالمجاهدة وغيرها، يمكن للسامع أن يعبر عما هو مسموع سمعه الحقيقي من مجرد الصوت الظاهر بكلام منظور معلوم، فيسمع من صوت اليراعة^(٢) كلامًا معلومًا مفهومًا، وكذلك من سائر الأصوات كصيرير الباب، وأصوات الطيور وغيرها.

رُوي عن أمير المؤمنين وقدة السالكين «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه، أنه سمع صوت ناقوس فقال لأصحابه:

– أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: إنه يقول: سبحان الله حقًا إن العبد يفنى^(٣) والمولى يبقى.

أورده الأستاذ «أبو القاسم القشيري» في الرسالة.

وقال أيضًا: سمعت «السلمي»^(٤) يقول: دخلت على «أبي عثمان المغربي»^(٥)

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) في (ط): البراعة. واليراعة: واحدة البراع للقصب والحشرة. والقلم يتخذ من القصب. والأجمة. والقصبه التي يزمر فيها الراعي.

(٣) زيادة في (ح).

(٤) في (زن ل): الشبلي.

(٥) قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: الإمام القدوة، شيخ الصوفية أبو عثمان، سعيد بن سلام المغربي القيرواني، نزيل نيسابور. سافر وحج، وجاور مدة، ولقي مشايخ مصر والشام. وكان لا يظهر أيام الحج. وقال السلمي: كان أوحده المشايخ في طريقته، لم نر مثله في علو الحال وصون الوقت، امتحن بسبب زور نسب إليه، حتى ضرب وشهر على جمل، ففارق الحرم. وقال الخطيب: وكان من كبار المشايخ. له أحوال وكرامات. =

وواحد يستقي الماء من البئر على بكرة.

فقال: يا أبا عبد الرحمن. تدري إيش تقول هذه البكرة؟

- فقلتُ: لا.

فقال: تقول الله الله.

وهذا ربما تستبشعه العقول غير المستخلصة عن آفات النفس البشرية. ومن لم يذق لا يدري.

فأما إذا لم يكن في المباينة من منفعة لا يمكنه أن يعبر منه بشيء مفهوم^(١) وربما لا يشعر بسماعه، وإن سمعه غير ذلك السماع حالته في الظاهر وهذا هو حال أرباب المواجهين الذين وجدوا في الباطن من السماع واردات وَرَدَت على قلوبهم فغيَّرت صفات قلوبهم، وأدى ذلك التغير إلى الظاهر، لكنهم ما فهموا شيئاً، ولا أدركوا كلاماً. وهذا السمع؛ أعني السمع الحقيقي الروحاني تبع لا محالة لحقيقة القلب إذ هو له بمنزلة الحاسة للقلب، فكما أن الشخص يسمع الكلام أو الصوت بواسطة الحاسة عن من يكون معه، أو يخاطبه، فكذلك القلب يسمع الكلام عن من يكون معه، فإذا كان مع الله سمع من الله، وإذا كان مع غيره سمع من ذلك الغير. فإذا سمع العبد كلاماً أو صوتاً وكان القلب مع الله سمعت حاسته ذلك الكلام أو الصوت من المتكلم أو الصامت وسمع القلب ذلك الكلام، أو مراد الله تعالى منه من^(٢) الحق ولذلك ربما يسمع شيئاً ويفهم من ذلك الشيء شيئاً آخر، ويسمع هزلاً ويفهم من

= قال السلمي: سمعته يقول: ليكن تدبرك في الخلق تدبر عبدة، وتدبرك في نفسك تدبر موعظة، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة. قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [محمد: ٢٤] جراك به على تلاوته، ولولا ذلك لكنت الألسن عن تلاوته.

(١) جاءت هذه العبارة في (ز، ط، ل) هكذا: (فأما إذا لم تكن المباينة مرتفعة لا يمكنه أن تغير منه شيء مفهوم). وقد صوبناها من النسخة (ح).

(٢) في (ط): إلى.

ذلك الهزل جدًّا.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

وقال بعض المشايخ: كنت أقرأ القرآن مرة وأسمع من نفسي فصار كأني أقرأ وأسمع من النبي ﷺ ثم صار وكأنني أقرأ وأسمع من جبريل، عليه السلام، ثم صار كأني أقرأ وأسمع من الله تعالى.

ثم اعلم أنه تختلف أحوال أشخاص الإنسان^(١) اختلافاً ظاهراً. فبعضهم من اتصف قلبه بصفات النفس وغلبت عليه آفات الشهوات، ودواعي الهوى فانحط عن ذروة الإنسانية إلى حضيض البهيمية.

وبعضهم من اتصف نفسه بالصفات القلبية، فاستنارت بنور القلب، واطمأنت في العبودية.

قال الله تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّخْبِتَةً﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] فدخلوها في زمرة العباد، وهو اتصافها بصفات الأرواح التي من خصائصها العبودية.

وبعضهم من له منزلة بين المنزلتين، فيكون قلبه باقياً على فطرته الأولى، لا هو تصرف في النفس تصرفاً بيناً يزيل به عنها حقائق الظلمة، ولا تصرفت النفس فيه تصرفاً بيناً تزيل به عنه حقائق النورانية. فتارة تغلب النفس على قلبه، وتارة يغلب القلب على نفسه. هذا هو حال أكثر المسلمين. فمن اتصف قلبه بصفات النفس، فإن كان ذلك الاتصاف مُبْطِلاً حقيقة خاصية جوهره كما في الكفار، فلا بد أن يبطل فيه السمع والفقه اللذان من صفات كماله.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) في (ح): الناس.

وإن لم يكن ذلك الاتصاف مبطلًا لحقيقة جوهره وذاتيات صفاته بل مغيرًا لبعض صفاته، ومبطلًا لبعضها. فإما أن يكون بحيث إن أبطل السمع الحقيقي أو لا يكون. فإن لم يكن بحيث قد أبطل سمعه الحقيقي وربما غافصه^(١) في السماع وارد حق أو فجأه خطاب غيبي^(٢) فيكون مخالفًا لما اعتاده من طبائع الحيوانية، فلم يحتمله الروح الحيواني فيهلك بغتة. فلا تستغربن ذلك فإن الأطباء قد أجمعوا واتفقوا على أن الفرح المفرط والغم المفرط مهلكان، خصوصًا إذا اعتريا القلب بغتة. فإن لم يهلكه غير حاله إما بإنابة إلى الله تعالى، أو بمرض وتبديل مزاج.

وإن كان ذلك الاتصاف أبطل حقيقة جوهره، أو أبطل سمعه الحقيقي فلا يكون سمعه إلا على طفيل^(٣) القالب وواسطة الحاسة. فلو سمع القرآن فهم منه أساطير الأولين. ولو سمع شعرا فتخيل معناه إلى ما يقتضي هواه فيزيد سماعه في زندقته.

قال «ذو النون» رضي الله عنه: السماع وارد حق جاء يزعج القلوب إلى ربها. فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق. لكنه مع هذا إن لم يكن ذلك الاتصاف مبطل [حقيقة جوهره كما في الكفار يُرجى منه انفتاح سمعه]^(٤) ولو بعد حين. وذلك إذا كان بدركته همة الشيخ.

وأما من اتصفت نفسه بالصفات القلبية فيكون حاسة سمعه تبعًا لحقيقة سمع قلبه. فلا يستمع في الظاهر شيئًا إلا وقد سمع فيه من القلب أشياء. فتارة يسمع من مجرد الصوت حقائق الترغيب والتشويق، ولطائف المخاطبات، أو الترهيب والتخويف ومستلذات المعاتبات. وتارة يسمع الكلمات فيسبق السمع الباطن السمع الظاهري، فيغير مدرك الظاهر كما حكى الأستاذ في الرسالة أنه سمع «أبو سلمان الدمشقي»

(١) غافصه: فاجأه، وأخذَه على غرة.

(٢) في (ط): عيني.

(٣) الطفيل: الماء الكدر يبقى في الحوض ونحوه.

(٤) سقط في (ط).

طوّافاً ينادي: يا سعتري بري، فسقط مغشياً عليه، فلما أفاق سُئِلَ، فقال: حسبته يقول: اسعَ ترَ بري. ويبلغ حاله إلى مرتبة لا يتوقف سماعه على استماع شيء بالحس، بل لا ينقطع سماعه من الغيب، كما مر من حكاية الحصري، كما لا تنقطع أبصاره ولا يزاحمه النظر الحسي فكذلك لا ينقطع سماعه ولا يزاحمه السمع الحسي.

وأما من بقي في منزلة بين المنزلتين على غلبات صفات النفس وبقاء صفات القلب حتى يغلب تارة صفات نفسه فتوقعه في الفتنة، وتارة تغلب صفات قلبه فتخرجه من الظلمات إلى النور. ﴿حَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. فإذا غلبت عليه صفات النفس يخاف عليه من السماع تهيج الشهوات وإثارة الآفات المستكنة، والصادق في طلبه مقصور الهمة على قهر النفس، وإحياء صفات القلب فيراعي أوقاته ويعالج باطنه بما يوافقه.

حكى الأستاذ في الرسالة أنه كان «ابن زيري» من أصحاب الجنيد شيخاً فاضلاً فربما كان يحضر موضع سماع، فإن استطابه فَرَشَ إزاره وجلس عليه وقال: الصوفي مع قلبه.

وإن لم يستطبه قال: السماع لأرباب القلوب، وأخذ نعله ومَرَّ.

وأما الكلام في تحليل السماع وتحريمه فمنه ما يتعلق بالأحاديث والآثار، ومنه ما يتعلق بأحكام المجتهدين من الأئمة، ومنه ما يتعلق بإشارات المحققين من مشايخ الصوفية.

فأما ما يتعلق بالأحاديث والآثار فمنه ما روى «ابن شهاب الزهري» عن «عروة» عن «عائشة» رضي الله عنها، أن «أبا بكر» رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتدفقان، وتضربان الدف ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد»^(١).

(١) سبق تخريجه.

وتلك أيام منى ورسول الله ﷺ بالمدينة.

وقالت «عائشة» رضي الله عنهما: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد وأنا جارية^(١).

واتفق البخاري ومسلم على تخريجه من طريق ابن شهاب، وروى الزهري أيضًا: وقال «سائب بن يزيد»^(٢): بينا نحن مع «عبد الرحمن بن عوف» رضي الله عنه، في طريق الحج ونحن نوم^(٣) مكة اعتزل عبد الرحمن الطريق ثم قال «لرباح بن المغترف»: غننا يا أبا حسان. وكان يقصد يحسن النَّصَب.

فبينما «رباح» يغنيهم أدركهم «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، في خلافته. فقال: - ما هذا؟

فقال عبد الرحمن: ما بأس بهذا، نلهو ونقصر عنا.

فقال عمر: فإن كنت آخذًا فعليك بشعر «ضرار بن الخطاب».

وضرار: رجل من بني محارب بن فهر. والنَّصَبُ: ضَرْبٌ من أغاني الأعراب.

* وروى «عمر بن عبد العزيز» عن «عبد الله بن الحارث بن نوفل» أنه رأى «أسامة ابن زيد» في مسجد رسول الله ﷺ مضطجعًا رافعًا إحدى رجله على الأخرى يتغنى بالنَّصَب. وهذا الحديث رواه «يونس بن زيد» وجماعة عن الزهري عن «عمر بن عبد العزيز». وقال «مسلم بن الحجاج»: والحديث كما قال القوم.

* وروى «وهب بن كيسان» قال: قال «عبد الله بن الزبير» وكان متكئًا يغني، قال: فقال له رجل: تغني؟ فاستوى جالسًا ثم قال: وأي رجل من المهاجرين لم أسمع

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٨٧٦).

(٢) هو السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة، أبو عبد الله، وكان جده سعيد بن ثمامة حليف بني عبد شمس. قال السائب: حج بي أبي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنا ابن سبع سنين وكان له نصيب من صحبة ورواية. وقد أخطأ محقق النسخة المطبوعة وأشار إلى أنه أسامة بن زيد.

(٣) في سائر النسخ (نام).

يتغنى النصب^(١).

* وروى ابن جريج قال: سألت عطاء عن الغناء بالشعر.

فقال لا أرى به بأساً ما لم يكن فحشاً.

* وروى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» رضي الله عنه في هذه الآية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦].

قال: نزلت في الغناء وأشباهه.

* وروى «أبو بكر الصهباء» عن «ابن مسعود» قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

قال: هو والله الغناء.

* وروى «عكرمة» عن «ابن عباس»:

﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ [النجم: ٦١] قال: هو الغناء بالحميرية^(٢).

* وروى «أبو مالك الأشعري» عن النبي ﷺ أنه قال:

«يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها وتضرب على رؤوسهم

المعازف يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»^(٣).

* وروى «ابن عباس» رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى حرّم

عليكم الخمر والميسر والكوبة» وهو الطبل، وقال: «كل مسكر حرام»^(٤).

* وروى «ابن وائل» عن «ابن مسعود» قال:

(١) النَّصْبُ: صوت غناء الحادي.

(٢) اللغة الحميرية هي: لغة قبيلة حمير اليمنية، وهي لغة مشتقة من اللغة السبئية والكوشية، وقد فسدت اللغة الحميرية بسبب مجاورة الحميريين للأحباش.

(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (ليشربن) (٥٥٩٠) باختلاف يسير.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٨٥) مختصراً، وأحمد (٦٤٧٨).

«الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»^(١).

* ونقل «أبو طالب المكي» وقال: سمع من الصحابة «عبد الله بن جعفر» و«ابن الزبير» و«المغيرة بن شعبة» و«معاوية» وغيرهم قال:

قد فعل ذلك كثير من السلف: صحابي، وتابعي بإحسان، قال: ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل الأيام في السنة، وهي الأيام المعدودات التي أمر الله تعالى عباده فيها بذكره، وهي أيام التشريق. ولم يزل أهل المدينة مواظبين مع أهل مكة على السماع إلى زماننا هذا.

* وأما ما يتعلق بأقاويل المجتهدين من الأمة، فالشافعي، رضي الله عنه، لا يحرمه ويجعله في العوام مكروهاً حتى لو احترف بالغناء واتصف على الدوام بسماعه على وجه النهي؛ يرد به الشهادة، ويجعله مما يسقط المروءة ولا يلحقه بالحرمان.

* وروي عن «ابن جريج» أنه كان يرخص في السماع فقليل له: إذا أتني بك يوم القيامة ويؤتى بحسناتك وسيئاتك، ففي أي الجانبين سماعك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات، يعني أنه من المباحات.

وحكى القاضي «أبو الطيب الطبري» عن «الشافعي» رضي الله عنه، ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهما، وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً استدل بها على أنهم رأوا تحريمه.

وقد قال الشافعي في كتاب: (أدب القضاء): «إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل. فمن استكثر فيه فهو سفیه تُردُّ شهادته».

وقال: وأما «أبو حنيفة» رضي الله عنه، فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٧) مختصراً، وابن أبي الدنيا في (ذم الملاهي) (٣٩)، والبيهقي (٢١٥٣٧) واللفظ لهما. قال السيوطي في الجامع الصغير (٥٧٩١): ضعيف. وقال النووي في المشورات (٢٩٤): لا يصح.

وكذلك سائر أهل الكوفة: سفيان الثوري، وحمام، وإبراهيم، والشعبي. ولا مزيد على ما ذكره حجة الاسلام: «محمد الغزالي»^(١) رحمه الله في إباحة السماع في «إحياء علوم الدين» إجمالاً وتفصيلاً ورداً على القائلين بتحريم السماع. ولا نطول هذا المختصر بنقله، وحاصل كلامهم يرجع إلى أن السماع لهو. وكل لهو حرام. إلا ما صح جوازه عن النبي ﷺ.

والنزاع في المقدمتين جميعاً.

أما الأولى فلأن السماع عندنا ينقسم إلى ما يتعلق باللهو وإلى ما لا يتعلق به. والمتعلق باللهو، وإن كان مباحاً في الشرع حقيقة، فعند أكثر العلماء فهو محظور في معاملة أرباب القلوب، وقد جلت رتبة هذه الطائفة عن أن يستمعوا بلهو^(٢) ويجتمعوا للسماع بسهولة. وقد استفاض واشتهر أن «أبا الحسن النوري» حضر مجلساً فيه سماع فسمع هذا البيت:

ما زلت أنزل في وداك منزلاً تحير الألباب عند نزوله

فقام، وتواجد، وهام على وجهه، فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقي أصوله مثل السيوف، وكان يغدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة، والدم يخرج من رجليه فورم قدماه وساقاه وعاش بعد أياماً قلائل، ومات.

حكى الأستاذ في الرسالة:

(١) هو الشيخ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي، ولد بمدينة طوس سنة ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨ م، سافر الإمام الغزالي إلى نيسابور ليتلقى تعليمه على يد إمام الحرمين أبو المعالي الجويني حتى أصبح من أشهر تلامذته، وبدأ يناظر العلماء وهو لا زال شاباً. ترك الإمام الغزالي الكثير من المؤلفات، في مختلف صنوف العلوم الشرعية، في الفقه وأصول الفقه، والعقيدة الإسلامية، أهمها إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وغيرها.

(٢) في (ط): بهذا.

أن «الرقى»^(١) قال: سمعت الدراج يقول:

كنت أنا وابن القوطي مارّين على الدجلة بين البصرة والأبلة فإذا بقصر حسن له
منظرٌ وعليه رجلٌ وبين يديه جارية تغني وتقول:

في سبيل الله ود كان مني لك يبذل كل يوم يتلون غير هذا بك^(٢) أجمل
فإذا شاب تحت المنطرة بيده ركوة، وعليه مرقعة يسمع، فقال: يا جارية، بحياة
مولاك أعيدي:

* كل يوم يتلون غير هذا بك أجمل *

فقال الشاب: قولي، فأعادت. فقال الفقير: هذا والله تلوّني مع الحق، وشهق شهقة
خرجت فيها روحه.

فقال صاحب القصر^(٣) للجارية: أنت حرة لوجه الله تعالى، وأهل البصرة لما
فرغوا من دفنه، والصلاة عليه، فقام صاحب القصر وقال: أليس تعرفونني؟ أشهدكم
أن كل شيء لي^(٤) في سبيل الله تعالى، وكل ممالك أحرار. وائتزر بإزار وارتدى
برداء، وتصدق بالقصر وما فيه، ومر فلم ير له بعد ذلك وجه، ولا سُمع له أثر.

وحكى أن نقيب العلوية بنيسابور كان منكراً لسماع القوم وينسب مواجيدهم
وحركتهم في السماع إلى التكلف والإراءة فاتفق أن حضر سماع بعض المشايخ،
أظنه «أبا سعيد بن أبي الخير»^(٥)، فذكر القوال بيتاً. فصعق بعض الفقراء وقام وقعد
ميتاً فشاهد السيد تلك الواقعة فقال: يمكن أن يكذب الرجل في حالته، ولا يمكن أن

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن داود الرقي. كان من كبار مشايخ الشام، من أقران الجنيد وابن الجلاء. توفي سنة ٣٢٦هـ.

(٢) في (ل): أنك.

(٣) في (ل): فقال صاحب الجارية للجارية.

(٤) في (ح): اكتسبته.

(٥) سبقت الإشارة إليه.

يكذب في موته.

فهذه الحكايات المشهورة تعرفك أن سماع القوم ليس هو مما ينسب إلى اللهو واللعب. فإنهم يسمعون من حيث صفاء^(١) التوحيد بحق، لا بحظ فهم بين استتار يوجب التلهيب^(٢) أو تجلُّ يورث الترويح، أو خطاب يقتضي الاشتياق، أو عتاب^(٣) يزيد في الإحراق. فتارة يخاطبهم الحق بأشعارهم فيختطفهم عن أذكار^(٤) البشرية مستورًا. فتارة يتضرعون بين يد الحق بأحوالهم وأبياتهم^(٥)، فيملأ قلوبهم سرورًا وحبورًا.

وأما المقدمة الثانية: وهي أن كل لهو حرام إلا ما صح جوازه عن النبي ﷺ فهي صادقة. وإن كان فيها نظرٌ، إلا أن السماع الذي يتعلق باللهو قد ثبت جوازه عن النبي ﷺ.

فإن حديث عائشة أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جارتان تغنيان، وتدفعان، وتضربن، والنبي ﷺ متغشٍ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما»^(٦). حديث ثابت متفق على صحته أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وروي عن «عروة بن الزبير» قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد بالدرق والحراير ورسول الله ﷺ يسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف^(٧). فاقدرُوا قدر الجارية الحديث السنن الحريضة على اللهو. وهذا أيضًا مما اتفقا على تخريجه. وهذه الأحاديث مما قد خرجنا في كتابنا الموسوم بـ «زبدة

(١) في (ط): سماع.

(٢) في (ط): التلهية.

(٣) في (ط): غياب.

(٤) في (ح): أو كآ، وفي (ل): أوطار. وسقطت كلمة (البشرية) في (ط).

(٥) في (ط): وأموالهم.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) سبق تخريجه.

العوالي وحلية الأمالي» فصح إباحة النظر إلى اللهو، وإباحة الرقص، فإنه لا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب، وإباحة اللعب في المسجد وإباحة نظر النسوان إلى الرجال المشتغلين باللهو واللعب، فإذا ثبت جواز هذه الأشياء ثبت أن السماع مباح وإن كان مقروناً باللهو واللعب شرعاً إذا لم يقترن بمحظور شرعي، أو يؤدي إلى محظور شرعي. والله أعلم.

* وأما ما يتعلق بالمحققين من المشايخ. فقد نُقل عن بعضهم: إنكار السماع، ومهم المريدين عن الاشتغال به. وعن بعضهم تجويز السماع بل الاشتغال به، والتروي عن مشاربه. وإذا تأملت في أقوالهم، وكشفت الغطاء عن أحوالهم، وجدتهم متفقين في الحقيقة غير مختلفين إلا في الظاهر. وإنما تطرق الاختلاف في أقوالهم لا في صورة معينة تريك وجه التناقض، ولكن في صورة مختلفة، وأقوال متباينة، ومقامات متباعدة. وإذا اختلفت الأحوال زال التناقض من الأقوال.

ومما يدل على هذا اتفاق شافعيّهم، وحنفيّهم على إثبات السماع واجتماعهم في مجالس السماع.

حكى الشيخ «أبو نصر السراج»^(١) في (اللمع) قال:

سمعت «أبا الحسن علي بن محمد الصيرفي» قال: سمعت رويماً^(٢) وقد سُئل عن المشايخ الذين لقيهم: كيف كان يجدهم في وقت السماع؟ فقال: مثل قطيع الغنم إذا وقع في وسطه الذئب.

(١) هو أبو نصر السراج الطوسي وسبقت الإشارة إليه.

(٢) هو أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، من أهل بغداد ومن جلة مشايخهم، كان عالماً بالقرآن ومعانيه، وكان فقيهاً على مذهب داود الظاهري، تُوفي سنة ٣٠٣ هـ. من أقواله: إذا رزقك الله المقال، والفعال، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنها نعمة، وإذا أخذ منك الفعال، وأبقى عليك المقال، فإنها مصيبة، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة وعقوبة.

وقال سمعت الوجيهي يقول: سمعت الطلاس الرازي^(١) بمصر يقول:

دخلت على «إسرافيل» أستاذ «ذي النون» وهو جالس وينكت^(٢) بإصبعه الأرضَ
ويترنم مع نفسه بشيء فلما رأيته قال لي: تحسن تقول شيئاً؟ قلت: لا. قال: أنت
بلا قلب. فمن منع المريدين عن السماع وأنكر عليهم الاجتماع بالسماع فلفوائد،
منها: أن المريدين في شرح إرادتهم، وعزة طلبهم قد غلبت عليهم الصفات النفسانية
والأهواء المختلفة، ولذلك^(٣) احتاجوا إلى المجاهدة والرياضات الشاقة، فهو^(٤)
عليهم إثارة فتنة قد أمتوها، وتهيج داعية قد قيدوها، وتذكر شهوة قد نسوها، والنزاع
إلى معشوقة قد فارقوها، والتحنن إلى بلاد قد رحلوا عنها.

سئل «الشبلي» عن السماع فقال: ظاهره فتنة، وباطنه عبدة، فمن عرف الإشارة حل
له استمتاع العبدة، وإلا فقد استدعى الفتنة، وتعرض للبلية.

وقال «الجنيد»: إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

* ومنها: أنه ربما يقع المريد في آفات الرياء، فيميل طبعه إلى قبول الخلق،
ويستحلي تقربهم إليه، وتبركهم إلى وجده فيجره ذلك إلى تكلف في إظهار الوجد
لا سيما وقد وجدوا رخصة في التواجد. فعلى ظن التواجد المحمود الذي هو التوجه
إلى الحضرة باستمداد الحق، والاستعانة به في نفي الصفات النفسانية والالتفاف إلى
الغير يوقعهم الشيطان في التواجد الذي هو نتيجة الرياء الصرف.

حكى أن «أبا القاسم النصراباذي» كان كثير الولع بالسماع فعوتب في ذلك
فقال: نعم هو خير من أن تقعد وتغتاب. فقال له «أبو عمرو بن نجيد»: هيهات يا

(١) في (ح): الطراس الرازي. وقد ورده اسمه في تهذيب الكمال للمزي: علي بن مُحَمَّد بن الطلاس الرازي.

(٢) في (ز): وسكت.

(٣) في سائر النسخ: (وكذلك). والتصويب من (ح).

(٤) في (ل، ط): فخافوا.

أبا القاسم، زلة في السماع شر^(١) من كذا وكذا سنة تغتاب الناس؛ وذلك أن من مزلة السماع أنه يكذب على الله أنه وهب له شيئاً، وما وهب له. والكذب على الله من أقبح الزلات.

وكذلك قال أبو علي الدقاق وقرئ بين يديه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] قال: هو الصوفي إذا صاح في غير وقته.

* ومنها: أنه قلما يخلو مجلس سماع عمن لا يكون من جنسهم بل يكون من أرباب النفوس، وأبناء الدنيا. فربما لا تؤدي فائدة أحوالهم إليهم^(٢)، وتعود غائلة حضورهم إليهم، فيشقى بهم جلسهم، ومن شأنهم أن لا يشقى بهم جلسهم. وكذلك قال «الجنيد»: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان، والمكان، والإخوان.

* ومنها: أن السماع يظهر مخفيات الباطن ومستورات القلوب ويبرز الجوهر المكنون. فيصير المرید بذلك عرضة للآفات؛ إذ هو مأمور بإخفاء الأحوال، لا سيما عن الأغيار؛ فلذلك قالوا: كل عمل وقع عليه نظر الخلق صار هباءً منثوراً. وقال بعضهم: الفقير الصادق هو الذي لا يضمن شراً ولا يظهر خيراً.

* ومنها: أنه ربما خلطوا جدهم بهزل^(٣) ما، أو وقعوا في اعتراض على محقق، وتركوا بعض آداب الصحبة، أو غفلوا عن مراقبة باطنهم لحظة، فتصرفت فيهم الشياطين وسولت لهم وأغوتهم. وكثيراً ما تكون هذه التصرفات في صورة الوجد وإظهار غلبات الأحوال.

(١) أثبت محقق النسخة المطبوعة كلمة (خير) مكان كلمة (شر) مع أنه وجد كلمة (شر) مثبتة في نسختين كما أشار هو، وهي المناسبة للمعنى هنا. ومع ذلك طاعته نفسه على أن يثبت كلمة (خير).

(٢) في (ط): فربما لا تؤدي أحوالهم.

(٣) في (ز): بمنزل.

حكى الشيخ «أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري»^(١) صاحب كتاب «كشف المحجوب» فيه قال:

سمعت الشيخ أبا العباس الشقاني يقول: كنت في مجلس قوم اشتغلوا بالسماع، فرأيت الشياطين عرايا يطوفون ويلعبون بين أيديهم وينفخون فيهم فيتواجد الفقراء بذلك. وهذا مما لا يقف عليه إلا صاحب نظر كامل واقف على مكائد الشيطان، وتصرفاته في المريدين.

ولهذا قال «أبو علي الروذباري»^(٢): «لينا تخلصنا منه رأساً برأس».

فلما تحقق عندهم هذه الآفات في السماع احترزوا عنه واستجلبوا فوائده بطرق أخرى^(٣)، وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذي يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من وجهين: إما قوم متملهين^(٤) من أهل الدعاية والفتنة أو قوم وصلوا إلى الأعمال السنية، وعانقوا المقامات الرضية، وأماتوا أنفسهم بالرياضات والمجاهدات، وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم، وانقطعوا إلى الله بجميع معانيهم. ولسنا نحن من هؤلاء ولا من هؤلاء. فلا معنى لاشتغالنا بذلك، وترك ذلك أولى بنا. والاشتغال بالطاعات، وأداء المفروضات، واجتناب المحرمات شغلنا عن ذلك.

(١) هو أبو الحسن علي بن عثمان بن أبو علي الجلابي الهجويري الغزنوي. ولد في غزنة في أواخر القرن الرابع الهجري، وتوفي كما قالت بعض المصادر سنة ٤٧٠ هـ. أهم آثاره هو كتاب كشف المحجوب (وهو مكتوب باللغة الفارسية) وكتاب سفينة الأولياء، وأسرار الخرق والملونات، وغيرها.

(٢) في (ط): الروذباري والصحيح (الروذباري). قال عنه الذهبي في أعلام النبلاء: أبو علي الروذباري شيخ الصوفية. قيل: اسمه: أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور، وقيل: اسمه حسن بن هارون. سكن مصر، صاحب الجنيد، وأبا الحسين النوري، وأبا حمزة البغدادي، وابن الجلاء. وحدث عن: مسعود الرملي وغيره، وقال: أستاذي في الفقه ابن سريج، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي. توفي سنة ٣٢٢ هـ.

(٣) في (ط): بطرف آخر.

(٤) رسمت هكذا في النسخ الثلاث، ولم أصل لمعناها، وكتبت (متملهين) في (ط) وليس لها معنى أيضاً في سياقها.

ومن رخص السماع للمريدين فكانت رخصته على سبيل المعالجة، والتدبير الصالح لهم؛ فإن الله تعالى ما خلق دواء وأودع فيه شفاء إلا وقد قاربه بنوع ضرر يُتوقع من استعماله، إن لم يتداركه المعالج بحسن التدبير. وما من شيء من المعاملات الشرعية والأوامر الإلهية التي يتوقع منها النجاة وبها الفوز بالدرجات إلا وفيها آفات ربما^(١) تؤدي إلى الهلاك إذا لم يستعملها العبد على شرطها. فأولى أركان الإسلام بالاعتبار الصلاة، ومنها الفوز والفلاح. قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

ومنها: الويل والخسران. قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وقال النبي ﷺ: «رب قائم ليس حظه من قيامه إلا السهر، ورب صائم ليس حظه من صيامه إلا الجوع والعطش...»^(٢).

وكما رأى «الشقاني» الشياطين يلعبون بأهل السماع رأى رسول الله ﷺ الشياطين يدخلون فرج الصفوف في الصلاة.

فإنه قد صح في حديث «أنس بن مالك» رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَصُّوا صفوفكم وقاربوا بينها، وحاذوا بالأعناق، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصفِّ كأنها الحَذَفُ»^(٣).

وصح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ؛ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّائِدِينَ، فَإِذَا قُضِيَ

(١) سقطت في (ط).

(٢) أخرجه النسائي في (السنن الكبرى) (٣٢٤٩)، وابن ماجه (١٦٩٠)، وأحمد (٩٦٨٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٦٧) واللفظ له، والنسائي (٨١٥)، وأحمد (١٣٧٦١). والحذف: غنمُ سَوْدٍ صِغَارٍ، فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَتَصَغَّرُ؛ حَتَّى يَدْخُلَ فِي تَضَاعِيفِ الصَّفِّ وَفِي الْفَتَحَاتِ بَيْنَ النَّاسِ.

النداء أقبل، حتى إذا ثُوبَ بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضيَ الثوبُ أقبلَ حتى يخطرَ بين المرءِ ونفسِهِ يقولُ: اذكر كذا، واذكر كذا، لما لم يكن يذكرُ، حتى يظلَّ^(١) الرجلُ لا يدري كم صَلَّى^(٢).

فلا يسوغ لأحد ترك الصلاة بعلّة طواف الشيطان بين يدي المصلي ولا بعلّة مزاحمته بالوسوسة وإلقاء الخواطر المذمومة. فطريق المريد أن يجدَّ في تنقيح الأعمال وتهذيبها، وإزاحة الآفات عنها. وهذا هو فائدة الرياضة ليصير بها مناجيًا ربه في صلواته بعد أن كان ضحكة للشياطين، وأسير تصرفاته، فكما أن المصلي لا يترك الصلاة لأنه يجد هذا^(٣) في خلال صلاته، بل يجدُّ في تنقيح الصلاة وتصحيحها، فكذلك الشيخ لا يترك السماع بعد أن تحقق عنده طريق تربية المريدين به إذا وجد آفة تلحقه بل يزيل الآفة بهمة وولايته ويريهم بصفوته وزبدته. فإن للمريد، وأصحاب الرياضة، والمجاهدة، وأرباب الخلوة، والعزلة أطوارًا وأحوالًا مختلفة. فربما يذيقهم الوقت لذة بسط يُحيي الحق سبحانه بها قلوبهم، فيزيل عنهم نصب الرياضة وتعب المجاهدة، وربما يوقعهم في قبض يؤدي إذا استكمل شأنه إلى ملالة وسآمة يخاف منها إزعاج المريد عن الخلوة وقبول باطنه لتصرفات الشيطان والنفس. ففي كلا الوقتين يربيه الشيخ على مقتضى نظره النافذ^(٤). فإذا كان في البسط يزيد في السماع في تشويقه وتعشيقه فيشحذ به دواعي قلبه الوامق حتى يصير بحيث لا يبالي ببذل مهجته وروحه فيتبدل بذلك سيره بالطيران، فيقطع بلحظة ولمحة ما لا يتوقع قطعه في غيره بسنة. وإذا كان في القبض ينشطه ويقويه ويزيل تعبهُ وبريحه من نصبه، ويدفع بذلك منه إصر المجاهدة، وعبء الرياضة، ويحيي به قلبه، ويفك له روحه عن أسر الشيطان.

(١) في جميع النسخ (يضل) والتصويب من كتب الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨) واللفظ له، ومسلم (٣٨٩). ومعنى إذا ثُوبَ لِلصَّلاةِ، أي: أُقيمَ لها.

(٣) في (ط): لا يترك الصلاة لآفة يجدها.

(٤) في (ط): الناقد.

واستيلاء النفس. وإذا استراح السالك به عن كلاله عرضت وسامة^(١) سنحت عن الرياضة، واستيلاء خواطر الأعداء عاد رونق وجه طلبه، [واخضرَّ عود إرادته، فزاده جدَّةً، واشتد شوقه]^(٢) ولا تستغربن ذلك في حال المريد والسالك، فإنك تشاهد في الظاهر أنه ربما يغيب عاشق عن معشوقه فيمحو طول المفارقة آثار الشوق من قلبه، ويخلق النزاع في باطنه إلى محبوبه فيقل أنينه بل يفنى حينه. فإذا اتفق له سماع أبيات تتعلق بواقعة وتتضمن تعبير^(٣) معشوقه إياه وتذكره أيام الوصال، ولذات المعاشقة والمغازلة، ولطائف الاستمتاع بحال المعشوق حرَّكه السماع، وهيج دواعي طلبه، وأثار أشواق قلبه، وجدَّد نزاع ضميره إلى أن طفق يمزق ثيابه وربما يسعى في إهلاك نفسه وإزهاق روحه، لا سيما إذا صحبه سكر.. فكذلك إذا استولت صفات النفس، ودواعي الهوى على القلب الهائم فانسدت بذاك طريق القلب الذي تلي الغيب، فلا يروحه نسيم نفحات ألطاف الرب، فبقي القلب كالعاشق المهجور، المبتلى بأفات الحرمان. فإذا امتدت مدة الهجران وطالت أيام الحرمان، ولم يتمكن بعد في صدق الطلب أنس بالوحشة ونسي لذة المناجاة. وإذا حرَّكه السماع واستورى زند قلبه^(٤) وهيج أشواقه الكامنة فيستحكم بذلك عقدة الإرادة، ويتجدد عهد الطلب. فتبين أن السماع في حق المريد في الابتداء من أنفع المعالجات وأنجح التدابير لا سيما إذا لم تقارنه آفة صحبه الأغيار، ولم تزاخمه مجالسة الأشرار، ولم يكدره حضور من يزيغ قلب المريد من الحق إلى الباطل بل يكون في حراسة همة شيخ تمنع هيئته المريد عن الحركات المتكلفة وخلط الجدل بالهزل، ومزح الطلب بالطرب. وأما الكبراء والسادة منهم فجلت ربتهم عن أن يسكنوا لشيء أو يكون^(٥) فيهم فضلة

(١) في (ط): وشامة.

(٢) سقط في (ط).

(٣) في (ز): تغيير. وفي (ح): تعبير. وفي (ل): تعبير.

(٤) في (ط): واستوى زيد قلبه.

(٥) في (ط): أن يستكملوا بشيء ويكون.

لطارق يطرقهم ولوارد يرُد عليهم؛ ولذلك قال بعضهم: أنا ردُّم كله لا ينفذ فيَّ قول. وحكي عن «سهل بن عبد الله التستري» أنه قال: «حالي في الصلاة، وقبل الدخول في الصلاة شيء واحد».

وذلك أنه يراعي قلبه، ويراقب الله بسرّه قبل دخوله في الصلاة، ثم يقوم إلى الصلاة بحضور قلبه، وجمع همه، فيدخل في الصلاة بالمعنى الذي كان قبل الصلاة. فكذلك حاله يكون قبل السماع وبعده بمعنى واحد، فيكون سماعه متصلاً، ووجده متصلاً، وشربه دائماً، وعطشه دائماً؛ فكلما ازداد شربه ازداد عطشه، وكلما ازداد عطشاً ازداد شرباً، فلا ينقطع أبداً.

حكى «الوجيهي» أنه كان جماعة من الصوفية متجمعين في بيت ومعهم قوال، فهم يقولون ويتواجدون فأشرف عليهم «ممشاد الدينوري»^(١) فلما نظروا إليه سكتوا جميعاً، فقال لهم «ممشاد»:

ما لكم قد سكتم؟ ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي، ولا شفي ما بي.

قال الشيخ «أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي»^(٢) في كتاب «كشف المحجوب»: دخلت يوماً في صميم الصيف على الشيخ «أبي أحمد بن المظفر بن أحمد بن

(١) من أئمة الصوفية، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١١ / ٢٣١) وقال عنه أبو نعيم في حلية الأولياء: ومنهم الدينوري ممشاد، حارس همته العالية، وغارس خطراته الآتية.

سمعت أبي يقول - وكان قد لقيه وشاهده - قال: سمعته يقول: الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته، وصدق فيها، صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال، وكان يقول: أحسن الناس حالاً من أسقط عن نفسه رؤية الخلق، وكان صافي الخلوات لسره راعياً، واعتمد في جميع أموره على من كان له كافياً وثقاً بضمانه، وكان يقول: لو جمعت حكمة الأولين والآخرين، وادعيت أحوال السادة من الأولياء والصادقين لن تصل إلى درجات العارفين حتى يسكن شرك إلى الله، وتثق به فيما ضمن لك، وكان يقول: ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك، وما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك.

(٢) هو الهجويري صاحب (كشف المحجوب) وقد سبق الكلام عنه.

حمدان» وعليّ ثياب السفر وغبار الطريق فقال لي: يا أبا الحسن، إيش إرادتك في الحال؟

فقلت: السماع.

فاستحضر قوَّالاً، وجماعة من أهل السماع، وكنت على قوة الإرادة، وحرقة الابتداء، وحدة الشباب. فلما سمعت السماع استولى عليّ سلطان الوجد، واضطربت اضطراباً شديداً. فلما سكنت غلبات الوقت وسكت القوَّال، قال لي الشيخ: كيف وجدت السماع؟

فقلت: أيها الشيخ استرحتُ به، وطابَ وقتي فيه.

فقال: سيحيي وقت يستوي عندك هذا السماع ونعيق الغراب؛ فإن قوة السمع تكون عند عدم المشاهدة؛ فإذا حصلت المشاهدة اضمحلت ولاية السمع. فانظر حتى لا تعتاد ذلك، فتصير طبيعة تمنعك عن الكمال.

قال الشيخ «أبو نصر السراج»^(١) رحمة الله:

وهؤلاء^(٢)، يعني الكبراء، ربما يحضرون في هذه المواضع التي فيها السماع لأحوال شتى، وجهات مختلفة. فربما يجتمعون معهم من جهة مساعدة أخ من إخوانهم، وربما يحضرون لعلمهم وثباتهم^(٣) وكبر عقولهم حتى يعرفوهم ما لهم وما عليهم من شرائط السماع وآدابها، وربما يجتمعون مع غير أبناء جنسهم من سعة أخلاقهم وتحملهم، فيكونون معهم بائنين منهم، ومنفردين عنهم ببواطنهم، وإن كانوا مع جلسائهم بظواهرهم.

قلت: إلى هنا ما ذكره الشيخ الشهيد، رضي الله عنه، في فضل السماع، من كتابه

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) في (ط): وهو لا.

(٣) في (ط): ونياتهم.

المرسوم بـ«تحفة البررة»؛ أوردته لفظاً بلفظ تيمناً بميامن كلماته الشريفة، وإشاراته اللطيفة، متبركاً بنتائج نفائس أنفاسه العزيزة؛ ليكون الكتاب بطراز فوائده مُطَرِّزاً، والمتأملون بتناول موائده معززاً.

فأما اختياري من الأقاويل في السماع ما قال «الجنيد»، رحمة الله عليه: السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للخواص لوفور علومهم، واجب على أصحابنا لفناء حظوظهم.

وقال «أبو بكر الكتاني»:

سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان.

ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام. ولا ريب في أن السماع مشتمل على كثير من الفوائد.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

فكل سماع قول يفيد هذه المعاني من الهداية والرشد والمعرفة واللب فهو السماع الحق الذي أسمعه الحق تعالى، فمن القوم من يسمع في الله ولله وبالله ومن الله، ولا يسمع بالسمع الإنساني بل يسمع بالسمع الرباني كما قال تعالى: «كنت له سمعاً فبي يسمع»^(١).

عن «ابن عباس» رضي الله عنه، قال: «أوحى الله إلى «موسى بن عمران» عليه

(١) سبق تخريجه.

السلام أنني جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامي، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني»^(١).

فمن كان له مثل هذه السمع فقد يسمع من الناقوس التوحيد كما سمع «عليٌّ» رضي الله عنه.

وهذا سماع لم يختلف فيه أحد من المسلمين، وكذلك السماع يتضمن آفات كثيرة، وفتناً عظيمة، لمن تصدى بالحرص عليه؛ إذ قلّت أعماله، وانفسدت أحواله، وربما تطلب النفوس الاجتماع في السماع لتناول الشهوة، واسترواحاً إلى الطرب، واللهو، والعشرة، واستحلاء لمواطن الغفلات، والمطايبات^(٢) ولا سيما في زماننا هذا. فإن أكثر من تزياً بزي الطلبة من أرباب أصحاب النفوس والأهواء الذين ينتسبون إلى التصوف، ويتشبهون بأهل التعرف.

يتدخلون في هذا الشأن بأغراض فاسدة، ويتعاملون في أسواق كاسدة، شيوخهم عن التقوى عريّة، وشبابهم عن الفتوى برية. يباشرون الهوى في اجتماعهم، ويعاشرون الرجال النساء في سماعهم. فلعمري الواجب على ذوي الاجتهاد الصائب تحريم السماع بهذه العلل، وسد هذا الخلل. اللهم إلا أن يكون شيخاً كاملاً واصلاً، صاحب ولاية وتصرف، وله أصحاب من الطالبين الصادقين ذوي جد واجتهاد، مواظبين على العزلة والخلوة، منقطعين إلى الله، ملازمي ذكر الله، مجاهدي كفار النفوس بسيف الصدق وتأيد الله يسلم لهم السماع، بشرط حصول الزمان والمكان والإخوان. في بعض الأوقات، بحسب نظر الشيخ المعالج الواقف على دوائهم ودوائهم وإن اتفق حضور بعض أولي الإرادة، فمن لم يكن من جملتهم ولا في زميرتهم^(٣)، بل متبركاً بهم، ومتوسلاً إليهم، ومتأدباً بآدابهم يُساغ له ذلك الحضور لينال بركة صحبتهم؛

(١) أخرجه السخاوي في القول البديع عن سعيد بن جبير (١٩٣)، وقال: إسناده ضعيف.

(٢) في (ط): والمطائبات.

(٣) في (ط): زمن لهم.

فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم.

* وأما آداب أهل السماع فكثيرة.

وهي مقصورة على ثلاثة أصول:

أحدها: الصدق مع الله في جميع أحواله فيه بحيث تكون حركته وسكناته لله، وفي الله، وبالله.

وثانيها: حسن المراقبة ليتمكن الوجد فيه، ويمتلئ منه، ولا يتحرك إلا بتحريك الوجد، وتصرف الوارد، أو موافقة الإخوان.

وثالثها: حفظ القلوب، ورعاية الحقوق. فيراعي جانب الشيخ بالتواضع، والتذلل، والخضوع^(١)، ويحسن الأدب حين يضع رأسه على قدمه لئلا يكون على هيئة السجود. ويتأدب في الرجوع، ويراعي جانب الإخوان بضبط الحركات؛ لئلا يقع على أحد ولا يشوش عليهم حالاتهم، ويقدمهم على نفسه، ويؤثر الوقف^(٢) عليهم بقدر الإمكان، ويوافقهم في القيام وكشف الرأس ووضع الرأس في الأقدام، ويجب على الشبان موافقة الشيوخ، ولا يجب على الشيوخ موافقتهم، ويراعي نفسه عن التعري والخروج عن الثياب، ورمي الخرقة إلى القوال، وتمزيقها، والزعقات، إلا عن ضرورة ونية صالحة مجتنباً فيها التكلف، والمراءاة.

ثم الحكم في جميع ما يصدر من القوم في السماع من إلقاء الخرقة، والتمزيق، والتخريق، وغير ذلك مفوض إلى رأي الشيخ، أو مقدّم القوم، واستصوابه من غير تصنع بعض القوم؛ لاستخراج حظ من حظوظ النفس. فإن من شرائط الصحة، وآدابها رعاية الحقوق، وترك الحظوظ.

وقد رود في إلقاء الخرقة إلى الحادي إذا أحسنت النية أن «كعب بن زهير» دخل

(١) في (ز): والحضور.

(٢) في (ط): الوقت.

على رسول الله ﷺ المسجد وأنشد أبياته التي أولها:

* بانت سعاد فقلبي اليوم متبول *

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إن الرسول لنور يُستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلُولٌ
فقال له رسول الله ﷺ:

- من أنت؟

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.. أنا كعب بن زهير.

فرمى إليه رسول ﷺ بردةً كانت عليه. فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير: بعنا بردة رسول الله ﷺ بعشرة آلاف. فوجه إليه: ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات «كعب» بعث «معاوية» إلى أولاده بعشرين ألفاً وأخذ البردة، وهي البردة التي عند الإمام «المستعصم بالله»^(١) أمير المؤمنين، أعاد الله بركتها على أيامه الزاهرة.

وقد وردَ في تواجد القوم وموافقة بعضهم لبعض، وسقوط الخرقه وسنة تخريقها وقسمتها على الحاضرين ما رواه «أنس بن مالك» رضي الله عنه، قال:

كنا عند الرسول الله ﷺ: إذ نزل عليه «جبريل» عليه السلام فقال:

«يا رسول الله، إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام. ففرح رسول الله ﷺ»

وقال:

- أفيكم من ينشدنا؟

(١) أبو عبد المجيد «المستعصم بالله» عبد الله بن منصور المستنصر بالله كان آخر خليفة عباسي في بغداد. قتل عام ٦٥٦ هـ على يد المغول عندما دخلوا بغداد.

فقال بدوي:

- نعم يا رسول الله.

فقال:

- هات.

فأنشد:

[كل صبح وكل إشراق تبك عيني بدمع مشتاق]^(١)

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقبي

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقتي وترياقبي

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه فلما فرغوا أوى كل واحد إلى مكانه، فقال «معاوية بن أبي سفيان» رضي الله عنه:

ما أحسن لعبكم يا رسول الله!

قال: مه يا معاوية. ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب^(٢).

ثم قسم رداء رسول الله ﷺ بين حاضريه أربعمئة قطعة. وذهب بعضهم إلى أن المخروج من الخرق تقسم على الجميع، وما كان من ذلك صحيحاً يعطى القوال.

واستدل بما روي عن «أبي قتادة» قال: لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين، وفرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٣). وهذا له وجه في

(١) سقط في (ز).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية (١١ / ٥٩٨): وهذا حديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وأحواله.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٤٢) واللفظ له، ومسلم (١٧٥١). ورواية البخاري ليس فيها ما يدل على الخرقه أو ما زعمه المصنف هنا. وسأورد لك رواية البخاري كاملة حتى تحكم بنفسك.

قال أبو قتادة رضي الله عنه: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ، فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَدْرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى =

الخرقة الصحيحة. والله أعلم.

وللسماع آداب كثيرة. فاختصرنا على هذا القدر لئلا يطول به الكتاب.



= حَبْلٍ عَاتِقِهِ، فَأُقْبِلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَأُرْسِلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ، فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي، ثُمَّ جَلَسْتُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ، فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي، ثُمَّ جَلَسْتُ، ثُمَّ قَالَ الْثَالِثَةُ مِثْلَهُ، فَقُمْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟ فَانْتَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَسَلْبُهُ عِنْدِي فَأَرْضِهِ عَنِّي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَاهَا لِلَّهِ، إِذَا لَا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أَسَدِ اللَّهِ، يُقَاتِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، يُعْطِيكَ سَلْبُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ، فَأَعْطَاهُ، فَبِعْتُ الدَّرْعَ، فَأَبْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلَمَةَ، فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ نَأْتَلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ. وَالْمَخْرَفُ (بفتح الميم): الْبُسْتَانُ.

فصل في «خاتمة الكتاب»

فصل في خاتمة الكتاب

قال الله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

اعلم أن الله تعالى في تحقيق قوله: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقتُ الخلق لأُعرف بهم»^(١).

لما خلق الخلق، أي أرواح الخلق، خلقهم في ظلمة الخلقية، ثم رش عليهم من نوره، أي من نور القدم، فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى، أي بنور القدم إلى ذات القديم وصولاً ومعرفةً لذاته وصفاته، وهم المجدوبون المقبولون من أهل العناية. ومن أخطأه، أي لم يُصب نور القدم فقد ضل، أي عن الطريق الموصلة^(٢) إلى الله تعالى ومعرفته، وضل في شجرة المخلوقات عن أن يكون ثمرةً، كما يقال ضل الماء في اللبن، وهم المخدولون، المردودون من أهل الشقاوة.

ثم أعلم أن العالم شجرة ثمرتها الإنسان، وبذورها روح النبي ﷺ بقوله: «أول ما خلق الله روعي»^(٣) وهو الروح المشرف بشرف إضافة من روعي.. ولهذا قال ﷺ: «أنا من الله، والمؤمنون مني»^(٤).

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) في (ط): طريق الوصول.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

(٤) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧٢/١١): مكدوبة مخلوقة ليس لشيء منها أصل. وقال عنه الزركشي في اللآلئ المصنوعة (١٨٩): قال بعض الحفاظ: هذا اللفظ لا يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم.

لأنهم خلقوا من بذر روحه، كالثمار على الشجرة كما خلقت الشجرة منه، كما مر شرحه، فكما أن في البذر نفس نامية^(١) معبأة لتنمو بها الشجرة فكذلك في بذر الروح النبوي الملكوت معبأ لتنمو به شجرة العالم، ولما كانت أجزاء البدن^(٢) متساوية في الجنسية على طبيعة واحدة، وهي إما السكون أو الحركة، فإن كانت طبيعتها السكون فانا نشاهدها متحركة عند النشوء والنمو، فلا بد من محرك، وإن كانت طبيعتها الحركة فينبغي أن تكون الحركة الطبيعية من نوع واحد: إما إلى علو، أو إلى أسفل.

فلما وجدنا بعض أجزاء البدن^(٣) يتحرك إلى العلو، وبعضها إلى السفل، علمنا أنه لا بد له من محرك فاعل مختار، قادر، عليم، حكيم، يدبر أمر البدن على قانون الحكمة البالغة الأزلية، ليصير شجرة كاملة، مثمرة ذات عروق وأغصان، وأوراق، وأزهار وثمار. وهو الذي ينشئ أقسام الشجرة المختلفة من الأجزاء المتساوية المتفقة في الجنسية على خلاف طبيعتها بالقدرة الكاملة، والإرادة القديمة؛ إظهاراً للقدرة والحكمة. ثم تخصيص الجزء المخصوص بالثمارية من بين الأجزاء المتساوية في الطبيعة يدل على مزيد عناية منشئه في حقه، وله شرف بذلك ومزية على إخوانه من الأجزاء. وهذا المعنى ينبئك على مالكية منشئ الشجرة ومَلِكِيَّتِهِ على مملكة الشجرة وهو قوله تعالى:

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧٢]. فبالمالكية يتصرف فيها، وبالمالكية يحكم على كل جزء منها بأن^(٤) «كن» عرقاً أو غصناً أو ورقاً أو ثمرة وبالمنشائية^(٥) يكونه ما يشاء كما قال تعالى:

(١) في (ز): النامية.

(٢) في (ز): البذر.

(٣) في (ز): البذر.

(٤) في (ح، ز): بأمر.

(٥) في (ط): وبالمشيئة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

فإذا اتفق^(١) لك بهذا البرهان القطعي أن الله، سبحانه وتعالى، فاعل، مختار، حكيم فاعلم أنه الذي أنشأ شجرة العالم من بذر الروح النبوي في البداية ثم جعله ثمرة شجرة العالم في النهاية، ولهذا قال: «نحن الآخرون السابقون»^(٢). أي الآخرون بالثمارة السابقون بالبذرة، وجعل الأنبياء والأولياء كذلك أثماراً على أغصان الشجرة بحسب مراتبهم في القربات، بعضهم أعلى درجة من بعض، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن هذا قال ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»^(٣).

لأنه بلغ من الشجرة ذروة^(٤) قاب قوسين أو أدنى، وبقي كل نبي على غصن من أغصان الشجرة وهي السموات، ثم جعل أشخاص بني آدم كالغراس التي تخرج من أصل الشجرة. ولهذا قيل: الإنسان العالم الصغير. فشخص كل واحد من الأشخاص شجرة بالصورة وحقيقة وجوده مخبوءة فيها بالثمارة قد رُدَّ إلى أسفل السافلين بتعلق بذر الروح في أرض القلب، وهي عرق شجرة الإنسانية، فكل روح أصابه النور المرشش في عالم الأرواح، وهو أصل الإيمان لم يسكن في أسفل عرق الشجرة، وهي النفس الشهوانية المتعلقة بالدنيا وزينتها وشهواتها، فإنه يحركه النور إلى علو أغصان الشجرة وهي القلب، بالسير في صورة الأعمال الصالحة المأمورة الشرعية ليخرجه من ظلمات الطبيعة إلى نور الشريعة بالإيمان والعمل الصالح.

لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦].

والإيمان الحقيقي هو قبول كلمة الله التي ضرب الله بها مثلاً كلمة طيبة كشجرة

(١) في (ز): تحقق.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٣٧٥).

(٤) سقطت في (ح).

طيبة، وهي شجرة التوحيد، يوصل بها على غصن شجرة الإنسانية^(١) وهو القلب، أصلها ثابت، أي أصل شجرة التوحيد ثابت في النور المرشش، الذي محله القلب، وإنما يثبت فيه وينضم إليه لأنهما من جنس واحد، وأصلهما الوجدانية والجنسية علة الضم وفرعها، أي الفرع المنتشأ من أصل التوحيد، ونور الوجدانية وشجرة الإنسانية في السماء، أي سماء الروحانية، تؤتي أكلها أي ثمرتها وهي الوحدة كل حين، أي في أوانها وحينها بإذن ربها، أي بلا واسطة طبيعية. بل بأمر مني كما نودي موسى معنى السالك من الشجرة. أي شجرة التوحيد ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]. أي نعلي الدنيا والآخرة من قدم همتك ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] أي الحضرة المقدسة المطوية فيها الداران. كما قال تعالى: ﴿وَالْتَمَتْنَاهُ بِمَفْصِلٍ﴾ [الزمر: ٦٧].

ومن تلك الشجرة أتى ما أتى بإذن ربها من ثمرة أنا الحق، وسبحاني. فافهم جدًا. وكل روح أخطأه النور المرشش في عالم الأرواح وُكِّلَ إلى طبيعة ظلمة الخلقية يسكن في أسفل عرق شجرة الإنسانية وهو النفس الشهوانية، كما سكن آدم إلى حواء. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فكذلك النفس خلقت من جنب الروح ليسكن إليها ولولا سكونه إليها لما أقام في عالم الأجسام^(٢) للتجارة التي بعث بها إليه. لكن بشرط النكاح الشرعي لا بالسفاح الطبيعي، وهو أن يكون سكونه إليها بالأمر بحيث لا يشغله عن التجارة التي له فيها النجاة من عذاب أليم وهو البعد عن الحضرة، وله فيها الدرجات في جنات النعيم، وهي مقامات القرب إلى الحضرة.

(١) في (ط): والإيمان الحقيقي هو قبول كلمة الله التي ضرب الله بها مثلاً كلمة طيبة وهو قول لا إله إلا الله كشجرة طيبة أي كغصن شجرة طيبة وهي شجرة التوحيد توصل بها على غصن شجرة الإنسانية.

(٢) في (ز): الأجساد.

كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١٠) تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴿ [الصف: ١٠-١١].

وذلك أنه بنور الإيمان يشاهد سوء خاتمة الركون إلى الدنيا وشهواتها ليعرض^(١) عنها، ويتوجه إلى الحضرة ويقول لأهله ﴿ اَمْكُثُوا إِنِّي أَنَا نَارًا لَعَلِّي ءَانِيَكُمْ مِنْهَا بِقَسِيٍّ أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]. فيحرم على نفسه السكون في أسفل عرق شجرة الإنسانية فيجاهد في سبيل الله بالخروج عن نفسه وماله، ويوفي بعهده من الله إذا اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة^(٢)، في تسليم الثمن وطلب المشتري. فترك الدنيا وشهواتها، وبذل النفس والمال يتربى الفرع الموصل من الكلمة على غصن القلب إلى أن يبلغ سموات الروحانية فيؤتي ثمرات لا مقطوعة ولا ممنوعة إلى أبد الآباد.. ذلكم خير عظيم لكم، أي ربح هذه التجارة خير لكم من السكون في أسفل عرق شجرة الإنسانية، والركون إلى استيفاء الحظوظ الفانية، إن كنتم تعلمون أن السكون في أسفل عرق شجرة الإنسانية هو السكون في أسفل نار جهنم خالدين فيها أبداً؛ لأن^(٣) كل جزء من البذر إذا بقي في عرق شجرة الإنسانية، ولم يجذبه قوة النور المرشش إلى أغصان الروحانية التي يعبر عنها بالجنان، فلا خلاص له من جهنم أبداً، وإنما يخرج من جهنم عرق شجرة الإنسانية جزء من بذر الروح، ولو حين، أن يكون فيه مثقال ذرة من النور المرشش في عالم الأرواح لقصده وميله إلى عالمه، وقابليته لجذبات الحق تعالى.

ثم اعلم أن أجزاء بذر الروح المتفرقة في شجرة الإنسانية على ثلاثة أقسام، كما قال تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ [الواقعة: ٧].

(١) في (ط): يعرض.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة: ١١١].

(٣) في (ح): إلا أن.

قسم منها ما قدّر الله تعالى أن يصير جزءاً من أجزاء الشجرة ثابتاً فيها، فهم أصحاب المشأمة، وأهل النار المخلدون فيها. كما قال تعالى: «هؤلاء في النار ولا أبالي»^(١).

وقسم منها ما قدّر الله تعالى أن يكون سائراً في الشجرة بتوفيق الله إلى أن يخرج من أغصان الشجرة بالزهرية ولا يبلغ إلى رتبة الثمارية، وهم مقام المؤمنين إذا خرجوا من ظلمة نفس الشجرة إلى نور فضاء الروحانية وهم أصحاب الميمنة الذين وردوا جهنم الشجرة ونجوا منها بترك الشرك. ونور الإيمان ودخلوا جنات الأزهار، كما قال تعالى: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»^(٢) وهم طائفتان:

طائفة يخرجون من ها هنا بالسير، وتزكية النفس، والمجاهدات. وهم الذين إذا وردوا النار يوم القيامة تقول النار لأحدهم: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهي. ولذلك أنهم لما وردوا اليوم جهنم النفس^(٣) الشهوانية وتلهبت نار شهواتهم، فقد أطفأوها بشعلة أنوار إيمانهم، ونهوا أنفسهم عن الهوى.

وطائفة يخرجون منها يوم القيامة بعد تزكية نفوسهم بورود النار والثبات فيها، وذلك لأنهم كانوا ها هنا بمعزل عن تزكية النفس فخابوا وخسروا. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وكان أمرهم ها هنا مبنياً على خلط الأعمال الصالحة بالسيئة؛ وذلك لأن النور المرشش، وإن كان قد أصاب أرواحهم شيئاً ما ولكن باستيلاء ظلمات صفات النفس

(١) أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٩/٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٨): عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟! قَالَ: عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ».

(٢) راجع التخريج السابق.

(٣) في (ط): بالنفس.

واستعلائها، وخذلان الحق، صار ملبوسًا، مغلوبًا بظلم سيئات الأعمال في بعض الأوقات، خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا. فبالعمل الصالح الذي من نتائج النور كان السالك سائرًا إلى الله تعالى، وبالععمل السيئ الذي من نتائج ظلمة صفات النفس كان يرجع قهقري. عسى الله أن يتداركهم بجذبة العناية، ويتوب عليهم، أي يرجع بهم إلى السير بتقوية النور، واستيلائه على ظلمات صفات النفس، وإطفاء لهب نار شهواتها ليجوزوا على النار كالريح المرسلة.

ولما كان بعض أجزاء بذر^(١) الروح مستعدًا في أصل الفطرة لثبوت في شجرة الإنسانية، وبعضها مستعدًا للخروج منها بعد الموت، قال رسول الله ﷺ في جواب من سألته عن ذراري المشركين، قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٢).

يعني إن كانوا ممن أصابهم النور المرشش لكانوا عاملين بما يدخلهم الجنة، وإن كانوا ممن أخطأهم النور لكانوا عاملين بما يدخلهم النار.

والقسم الثالث منها: فهم ﴿وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ﴾^(١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿الواقعة: ١٠-١١﴾ من الأنبياء والأولياء. وقد قدر الله تعالى لهم أن يكونوا مجذوبين من أجزاء بذر الروح، بالسير في شجرة الإنسانية من مقامات النفس، والطير على أغصانها في مقامات القلوب. وكالريح المرسلة إلى أزهارها على مقامات الروحانية. وكالبرق الخاطف بجذبات الألوهية للخروج عن قشر الوجود فانيًا عن الشجرية باقيًا بالثمارة في مقامات الوصول. وهم الذين أحبههم الله أن يخلقهم ليعرفوه؛ إظهارًا للكنز المخفي، وسائر المخلوقات كان تبعًا لوجودهم كما أن سائر أجزاء الشجرة يكون تبعًا للثمرة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. أي ليعرفون.

(١) في (ط): بدن.

(٢) رواه البخاري (١٣١٨) ومسلم (٦٩٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما فائدة تكرار السبق في حقهم بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]. من وجوه:

منها أنهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، فجعلهم^(١) مستحقين لجمال به يحبهم، ويجعلهم مستعدين لكمال به يحبونه. فهم السابقون بسبق العناية في حقهم. ومنها: أنهم السابقون على سائر أجزاء بذر الروح من السائرين للخروج من شجرة الإنسانية بالخروج للثمارة: ولاية، ونبوة، ورسالة، على حسب مراتبهم بالخروج والتفاوت فيما بينهم بالنقصان والكمال في الثمارة^(٢) وصغارها وكبرها.

ومنها: أنهم أهل السبق بالمحبة، والمحبة في العدم^(٣)، وأهل السبق في استماع خطاب الله عز وجل، والائتمار بأمره، وجواب خطابه حين خطابهم بقوله: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالُوا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأهل السبق بالخروج من العدم إلى عالم الأرواح، وأهل السبق في خروج ذرياتهم من صلب آدم للميثاق، وأهل السبق في الحضور عند رب العالمين، وأهل السبق في استماع خطاب قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وأهل السبق في جواب ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾، وأهل السبق في الإحياء بنفخ الصور، وأهل السبق في الجواز على الصراط، وأهل السبق فيمن يكلمهم الله، وينظر إليهم، وهم أهل السبق في دخول الجنة، وأهل السبق في رؤية الله تعالى حين يتجلى لعباده بذاته وصفاته، تبارك وتعالى وتقدس.

ثم اعلم أن الأرواح لما خوطبوا، وهم في حظائر القدس وجوار رب العالمين بقوله: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

أي اهبطوا بالبذرية إلى أرض القالب. بعضكم أي بعض روحكم عدو لبعض روحكم

(١) في (ز، ط): بأنه تعالى يجعلهم.

(٢) في (ط): بالثمارة.

(٣) في (ز، ط): القدم.

عدو؛ وذلك لأن الله تعالى خلق النفس بازدياد الروح والقلب من الروح والقلب. فهي بعض الروح، كما أن حواء كانت بعض آدم عليه السلام، وهي عدوة للروح.

كما قال ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك»^(١).

والروح أيضاً عدو لها، وذلك لأن الروح علوي النسب علوي الهمة نزاعاً إلى الحضرة، يحن إلى ربه شوقاً إلى لقائه^(٢). لأنه أنشأه من لا شيء، وشرفه بالإضافة إلى حضرته، وكان أنيساً له برهة من الدهر قبل خلق المكونات. وهو الأصل وما سواه فهو فرع له. فهو قاصد والحق مقصوده وهو طالب والحق مطلوبه. وهو محب والحق محبوبه. وهو تابع يستتبع النفس إلى الحضرة قهراً وقسراً على خلاف طبعها، فهي تعاديه لخسة طبعها ودناءة همتها ورداءة جوهرها، فإنها سفلة سفلية تنزع إلى الدنيا الدنية لأنها تنشأت منها وترت بلبان شهواتها واستأنست بملاذها وتمتعاتها، فهي تستتبع الروح إلى أسفل الدنيا وتدعو إلى استيفاء لذاتها وتمتعاتها قهراً وقسراً على خلاف طبعه فيعاديها الروح لعلو^(٣) همته، وعظم شأنه، ولكل واحد منهما أعوان وأنصار يعينون صاحبهم وينصرونه. فأعوان الروح وأنصاره العقل والقلب، وهما يستمدان من الله ورسوله، وآلة استمدادهما حواس القلب، وهي معدة في القوة، وما خرجت به بعد إلى الفعل، وأوان البلاغة وقت إخراجها من القوة إلى الفعل، بتصرف الائتمار بأوامر الشرع والانتهاز عن نواهيه. [ووقت إفسادها وإبطال استعداداتها بترك الأوامر وإتيان النواهي]^(٤) حتى يبقى القلب من قبيل من هم ﴿صُمُّكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ولهذا قال ﷺ: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها الجسد، وإذا

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ح): الغاية.

(٣) في (ط): بعلو.

(٤) سقط في (ط).

فسدت فسد بها سائر الجسد. ألا وهي القلب»^(١).

وإن أعوان النفس الهوى والشهوة، وهما يستمدان من الدنيا والشیطان. وآلة استمدادهما حواس القلب. وهي من ابتداء الطفولية إلى نهاية البلاغة معدة بالفعل في إعانة النفس ونصرتها مستمدة بآلة حواس القلب من الدنيا والشیطان في تزوين زينتها لتصير النفس أماراً بالسوء ويظهر سلطانها على الروح وتستأسره وتحبسه^(٢) في سجين الطبيعة الحيوانية، وإن أعوان الروح أعني العقل، والقلب غير مستعدين لإعانتته ونصرته لضعفهما، وعدم استطاعتهما، وتعطل حواس القلب التي بها استمدادهما من الله ورسوله، فبقي جميع أجزاء الروح في أسفل أرض القلب، كل جزء^(٣) بالبذرية، بعضه لبعض عدو.

كما قال تعالى: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعَ إِلَى حِينٍ﴾.

[البقرة: ٣٦].

أي إلى حين مشيئة الله تعالى وإرادته القديمة بالحكمة البالغة أن تهب نفحات ألطاف الحق عن مهب العناية ووفق مشام الروح لتنسّمها والتعرض لها فيتلقى آدم من ربه كلمات وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] باتباع الهوى وشهوات النفس، ﴿وَأِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ تستر علينا جناح فضلك ﴿وَرَحِمْنَا﴾ بأن تنظر بنظر الرحمة إلى النفس الأمارة فتزيل عنها الأمارية، وتجعلها مأمورة باختصاص إلا مارحم ربي لتتخلص من أسرها، وحبسها فتكون من عبادك المخلصين. وإلا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم باتباع الهوى والشهوات؛ فبقوا في أسر النفس وأسفل سافلين صفات القلب. فاجعلنا ممن تؤتیه هدى منك، ووفقته لاتباع هداك، فلا خوف عليهم عليهم ولا هم يحزنون على ما فات لهم من التمتع

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) في (ط): وتحبه.

(٣) سقط في (ط) و (ز).

النفسانية والتلذذات الشهوانية الحيوانية بما اجتبيتهم على خليقتك وتبت عليهم وناديت نفوسهم بخطاب: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٧]. وهديتهم بتجلي جمالك إلى حضرة جلالك.

* ثم اعلم أيها الطالب الصادق، والسالك الحاذق، والمجذوب العاشق أنني شرحت لك في هذا المختصر ما يحتاج إليه في الرجوع من أسفل سافلين الطبيعة الإنسانية إلى أعلى عليين من مراتب قرب الروح^(١) الربانية، شرعاً وافياً، وبيئاً كافياً. فأريد أن يكون ختامه مسكا تتعطر بفائحته مشام الأرواح المقدسة، والمدنسة. فأما المقدسة منها: فلما شمت روائح ألطاف الحق من هذا المهبّ اتبعته للوصول به وحصول المقصود منه.

وأما المدنسة: فليكون حجةً عليها، وإن لم يكن لها [حاجة به، وهو زبدة الكتاب وخلاصته]^(٢) مما لا بد للطالب الراغب منه. فمن عمل به فقد عمل بجميع ما في هذا الكتاب، بل عمل في الحقيقة بجميع ما في الكتب المنزلة، والله الموفق والمعين.

قال بعض المشايخ: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلق. فطريقنا الذي نشرع في شرحه أقرب الطرق إلى الله، وأوضحها، وأرشدّها؛ وذلك لأن الطرق مع كثرة عددها محصورة في ثلاثة أنواع:

أحدها: طريق أرباب المعاملات، بكثرة الصوم، والصلاة، وتلاوة القرآن، والحج، والجهاد، وغيرها من الأعمال، وهو طريق الأخيار. والواصلون بهذا الطريق في الزمان الطويل أقل من القليل.

وثانيها: طريق أصحاب المجاهدات، والرياضات في تبديل الأخلاق، وتزكية النفس،

(١) سقطت في (ط).

(٢) سقط في (ط).

وتصفية القلب وتحلية الروح، والسعي فيما يتعلق بعمارة الباطن وهو طريق الأبرار.. فالواصلون بهذا الطريق أكثر من ذلك الفريق. ولكن وصول البوادر منهم من النوادر كما سأل «ابن منصور»^(١) عن «إبراهيم الخواص»^(٢): في أي مقام تروض نفسك؟

قال: أروض نفسي في مقام التوكل منذ ثلاثين سنة.

فقال: إذا أفنيت عمرك في عمارة الباطن، فأين أنت من الفناء بالله؟

وثالثها: طريق السائرين إلى الله والطائرين بالله. وهو طريق الشطار من أهل المحبة، السالكين بالجملة.. فالواصلون منهم في البدايات أكثر من غيرهم في النهايات. فهذا الطريق المختار مبني على الموت بالإرادة.

قال ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»^(٣).

وهو^(٤) محصور في عشرة أصول:

أحدهما: التوبة، وهي الرجوع إلى الله بالإرادة، كما أن الموت رجوع بغير الإرادة. كقوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧].

وهي الخروج عن الذنوب كلها. والذنوب ما يحجبك عن الله من مراتب الدنيا والآخرة.

فالواجب على الطالب الخروج عن كل مطلوب سواه حتى الوجود. كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب^(٥)

(١) ربما كان يقصد أبا المغيث الحسين بن منصور الحلاج.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) قال الزرقاني في مختصر المقاصد (١١١٠): لم يثبت. وقال ملا علي قاري في الأسرار المرفوعة (٣٤٨): من كلام الصوفية.

(٤) سقطت في (ط).

(٥) شطر بيت ينسب لعبد الغني النابلسي، وتماهه:

وإن قلت ما ذنبي إليك أجبتني وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وثانيها: الزهد في الدنيا:

وهو الخروج عن متاعها وشهواتها، قليلها وكثيرها، مالها، وجاهها.

كما أن بالموت يخرجون منها.

وحقيقة الزهد: أن تزهد في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله»^(١).

وثالثها: التوكل على الله.

وهو الخروج من الأسباب والتسبب بالكلية ثقة بالله كما هو بالموت.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ورابعها: القناعة.

وهي الخروج عن الشهوات النفسانية، والتمتعات الحيوانية، كما هي بالموت، إلا ما اضطر إليه من حاجة الانسانية، ولا يسرف في المأكول، والملبوس، والسكن. ويختصر على ما لا بد منه لقوته.

وخامسها: العزلة.

وهي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع كما بالموت. إلا عن خدمة شيخ واصل، كامل، مُرَبٍّ له. وهو كالغاسل للميت، فينبغي أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل يتصرف فيه كما شاء ليغسله بماء الولاية عن جنابة الأجنبية، ولوث الحدوث. وأصل العزلة: عزل الحواس بالخلوة عن التصرف في المحسوسات. فإن كل آفة، وفتنة، وبلاء، ابتلي الروح بها، وكانت تقوية النفس، وتربية صفاتها فيها دخلت من روزنة الحواس، وبها استتبع النفس الروح إلى أسفل السافلين، وقيدته بها واستولت عليه.

(١) حديث موضوع.

فبالخلوة وعزل الحواس ينقطع مدد النفس عن الدنيا والشيطان بإعانة الهوى والشهوة، كما أن الطبيب في معالجة المريض يستعمل أولاً الاحتماء عما يضره ويزيد في علل مرضه، وقد قيل: الحمية رأس كل دواء، فيقطع بذلك عنه مدد المواد الفاسدة التي ينبعث بها المرض وتبقى^(١) به المواد، ثم يعالجه بمسهل يزيل عنه المواد الفاسدة وتتقوى به قوى الطبيعة والحرارة الغريزية ليزول عنه المرض بدفع الطبيعة وتنجذب الصحة. فالمسهل هنا بعد الاحتماء، وتنقية المواد الذكر الدائم.

وسادسها: ملازمة الذكر. وهو الخروج عن ذكر ما سوى الله بالنسيان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

أي إذا نسيت غير الله. كما هو بالموت.

فأما نسبة المسهلية بالذكر. وهو كلمة (لا إله إلا الله) فبأنه معجون مركب من النفي والإثبات. فبالنفي يزيل المواد الفاسدة التي تولد منها مرض القلب، وقيود الروح، وتقوية النفس، وتربية صفاتها. وهي الأخلاق الذميمة النفسانية، والأوصاف الشهوانية الحيوانية وتعلقات الكونين. وبالإثبات (إلا الله) ونوره تحصل صحة القلب. وسلامته عن الرذائل من الأخلاق بانحراف مزاجه الأصلي، واستواء مزاجه، وتنوره وحياته بنور الله فيتجلى^(٢) الروح بشواهد الحق. وتتجلى ذاته، وصفاته. وأشرقت أرض النفس بنور ربها، وزالت عنها ظلمات صفاتها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فعلى قضية ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] تتبدل الذاكرة بالمذكورية والمذكورية بالمذاكرية، فيفنى الذاكر ويبقى المذكور خليفة للذاكر. فإذا طلبت

(١) في (ط): وتنقى.

(٢) في (ط): وحيوته بنور الله وتجلي الروح.

الذاكر وجدت المذكور، وإذا طلبت المذكور وجدت الذاكر.

فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وسابحها: التوجه إلى الله بكلية وجوده.

وهو الخروج عن كل داعية تدعوه إلى غير الحق، كما هو بالموت. فلا يبقى له مطلوب، ولا محبوب ولا مقصود، ولا مقصد إلا الله. ولو عُرض عليه مقامات جميع الأنبياء والمرسلين لا يلتفت إليها بالإعراض عن الله لحظة.

قال «الجنيد»: لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة، فإن ما فاته أكثر مما ناله.

وثامنها: الصبر.

وهو الخروج عن حظوظ النفس بالمجاهدة والمكابدة، كما هو بالموت. والثبات على فطامها عن مألوفاتها ومحبوباتها لتزكيتها وخمود شهواتها والاستقامة على الطريقة المثلى لتصفية القلب، وتحلية الروح.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَاْمُرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وتاسعها: المراقبة.

وهي الخروج عن حوله وقوته، كما قال بالموت، مراقباً لمواهب الحق، متعرضاً لنفحات ألطافه، مُعرضاً عما سواه، مستغرقاً في بحر هواه، مشتاقاً إلى لقاءه، إليه قلبه يحن، ولديه روحه يئن^(١)، به يستعين عليه، ومنه يستغيث إليه، حتى يفتح الله له باب رحمة لا ممسك لها، ويغلق عليه باب عذاب لا مفتح له.

فبنور سطع من رحمة الله على النفس تزول ظلمة أمارية النفس في لحظة ما لا

(١) في (ط): بأن.

يزول بثلاثين سنة بالمجاهدات والرياضات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي﴾.

[يوسف: ٥٣].

وهم الأخيار، بل تبدل سيئات النفس بحسنات الروح، لقوله تعالى: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهم الأبرار، بل تكون حسنات الأبرار سيئات المقربين، فيبدل سيئات المقربين بحسنات الطافه، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فهذه الزيادة حسنات ألطاف الحق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وعاشرها: الرضا.

وهو الخروج عن رضاء نفسه بالدخول في رضاء الله بالتسليم لأحكامه الأزلية، والتفويض إلى تدبيره الأبدي بلا إعراض ولا اعتراض، كما هو بالموت.

كما قال بعضهم:

وكلتُ للمحبوب أمري كله فإن شاء أحياني وإن شاء أتلّفا

فمن يموت بإرادته عن هذه الأوصاف الظلمانية يحييه الله بنور عنايته كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي من كل ميتاً عن أوصافه الظلمانية في شجرة الإنسانية أحييناه بأوصافنا الربانية، وجعلنا له نوراً من أنوار جمالنا يمشي به، أي بذلك النور. ولقوله: بي يمشي في الناس. أي في سرائر الناس، يمشي بالفراسة ويشاهد أحوالهم. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي كمن بقي في ظلمات شجرة الإنسانية ليس بخارج منها لا بزهرية المؤمنين، ولا بشمارية الولاية والنبوة.

تفهم إن شاء الله تعالى، وتنتفع به.. فمن دامت^(١) بهذه الصفة خلوته لازمت سلوته. وبالعلاج الذكر انقطعت عنه مواد الآفات والفتن، وارتفعت الحجب، وانكشفت الغيوم عن شمس شواهد الحق، وشاهدت مشاهد الصدق. ثم دارت كؤوس المشاهدات، وسارت في العروق والأعصاب شراب المكاشفات، وتساكر حلاج القلب، وتظاهر بعريدة^(٢) أنا الحق. وترادف هل من مزيد؟ أبي يزيد الروح^(٣)، وتصاعدت منه صعداء سبحاني. ثم تجلى ربه بجبل النفس وجعلة دكاً، وخرّ موسى القلب صعباً، سكراناً من سطوة روائح الشراب الطهور، الذي سقاه ربه. فلما أفاق من السكر قال أداءً للشكر بدل سبحاني: «سبحانك إني تبت إليك» من أنانيتي التي اقتضت تجاسر أرني أنظر إليك وأنا أول المؤمنين الذين عرفوك^(٤) وآمنوا بأنوار جمالك أن سلطان جلالك لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار. وإدراكه إياها يطهرها^(٥) عن لوث الحدوث ونورها بنور القدم، وبوجه مرآة القلوب المصقولة المطهرة المنورة بنور القدم الناضرة عن وصمة الأنانية إلى جمال الربوبية بتجلي جلال الألوهية فتكون وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة..

فهذه جملة ما سامح^(٦) به الوقت، وسنح لي من المؤقت، فيما التمسه الطلبة مني، واقتراح عليّ الأصحاب. جمعته وألّفته تذكرة لأولي الألباب. وهو الفرائض المكتوبة على مدعي الطلب، والسنن المرغوبة لذوي الرغائب، وأهل الرتب. فمن غلب سلب. صلاة مكارم الأخلاق فرضٌ وما غير الأذان على البلال^(٧)

(١) في (ط): داومت.

(٢) في (ط): تغريده.

(٣) في (ز): هل من يداني يزيد الروح.

(٤) في (ط): عرفوا.

(٥) في (ط): يطهره.

(٦) في (ز، ط): سمح.

(٧) في (ط): بلال. ولم أصل إلى قائل هذا البيت.

ولكن لعمرى، إنه لم يحتَظْ^(١) من هذا الكتاب إلَّا أولو الألباب الذين لهم صدق شامل، وعشق كامل. ولا يتفطن دقائقه وحقائقه إلَّا من أوتي قريحة ذكية، ونفسًا زكية، ونية صالحة مرضية، ونية خالصة صافية، بعد إمعان النظر، وجولان الفكر. ولا ينتفع به من كانت همته اصطیاد الناس لشبكة مضموناته^(٢)، وفخ مكوناته، ولا من تهمة السمعة والرياء، ليرِي نفسه بأنه معدن هذه العلوم، ومنيع هذه الحكم.

بل يكون سببًا لخسرانه، ومظنة لنقصانه. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

إلَّا من كان جُلَّ مطلبه منه درك حقائق علوم القوم بالاقتداء بهم في السلوك والاهتداء.

كما قال تعالى لحبيبه، ونبيه ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُهْدَاهُمْ اُفْتَدَتْ﴾.

[الأنعام: ٩٠].

ليعلم أنه ما بلغ أحد مرتبة الاهتداء إلَّا بالاقتداء.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد وجدتُ في ضمن هذه الآية إشارة إلى بشارة قد اختصت بها هذه الأمة، وهي مقام المحبة والمحبوبة الذي مَنَّ الله تعالى على نبيه ﷺ بقوله:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ومع عظم شأنهم جعلهم للعزة طرائق قَدًّا.

فأقول مناجيًا، ولكلامه راجيًا: يا من أنشأ شجرة العالم وأثمرها بثمار بني آدم،

(١) في (ط): يختصني. واحتظي: علا شأنه. وأحظى فلانًا: قرَّب مكانته وأدناه، أحظى الملك العلماء.

أحظى فلانًا بالشيء: تفضَّل عليه به وأناله إياه. أحظى الرئيس حفظه القرآن بالتكريم.

(٢) في (ط): مظنوناته.

واختار منهم محمدًا المصطفى وجعله مجتبي مجتنيها. على أنه جعل أمته التي كانت خير أمة طرائق قددًا، وجعل الناجي من جملتهم أحدًا^(١) والباقون ودّوا لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا، فافترقوا على عدد حروف الجسد فرقًا بددًا فتاهوا في تيه الجهالة، وتمادوا في الغي والضلالة سُدَى، ولم ينالوا من أمرهم رشدًا. لقد خُبِّت مفاتيح قلوبهم في خزانة الغيب، لا يعلمها إلا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا. إلهنا اهدنا صراطك المستقيم، وثبتنا على دينك القويم، في متابعة سيد المرسلين، وخاتم النبيين، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك. وأفرغ علينا سجال فضلك، وخذنا بك عنا، وامن علينا بجود وجودك منا مستغرقين في بحر فضلك ونوالك. بدوام تجلي جمالك وجلالك، يا إله العالمين، يا خير الناصرين. برحمتك وكرمك يا أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

الحمد لله الذي وفقنا لإنجاز ما وعدنا في إتمام كتاب (منارات السائرين إلى الله، ومقامات الطائرين بالله).

فمن أمعن النظر، وأنعم الفكر، ووُفِّق لكشف أسرارهِ ومعانيهِ، ونشر ما في مطاويهِ، ولم تردعه العصبية، والدخلة^(٢) الردية أنصف.

وأعترف بأنني وإن كنت من المتأخرين لآت بما يأت به أحد من المتقدمين تصحيحًا لقول النبي ﷺ: «أمتي كالمطر لا يُدْرَى أولهم خيرٌ أم آخرهم»^(٣).

ولا يعلم قدر ما أودعت فيه إلا العلماء بالله، والراسخون في العلم الذين هم أوتاد الأرض وعمد السماء الذين هم أقطاب العالم، وحجج الله على الخلق عليهم سلام

(١) في (ز، ل): أحدى.

(٢) في (ط): الدخيلة.

(٣) أخرج أحمد (١٨٨٨١)، والبخاري (١٤١٢)، وابن حبان (٧٢٢٦) واللفظ لابن حبان: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ».

الله ورحمته وبركاته.

وأقول كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

[الإنسان: ٢٩].

على أنني لم أدع فيه العصمة عن إمكان السهو والغلط فإن الإنسان مُعَرَّضٌ للنسيان كما قيل:

وَسُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسٍ وَأَوَّلُ نَاسٍ آدَمُ^(١) أَوَّلُ النَّاسِ

فالمتوقع من كرم الناظرين المتأملين فيه، إن اطلع عالم منصف على موضع سهو أو غلط أن يصلحه بقلمه، بفضله وكرمه، بشرط أن يكون على يقين، دون تحير وظن؛ فإن الظن يخطئ ويصيب. ولا يكون ممن إذا رأى ألف صواب غطاه وإذا وجد سهواً نادى عليه وأبداه. كما قيل:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ * وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذُنُ^(٢)

ختمتُ الكتاب بالخير^(٣) ختم الله كتاب^(٤) آجالنا بالخير.

تم الكتاب بعون الله الملك الوهاب يوم الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخر سنة ست وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المحروسة بالقرافة الصغرى على يد

(١) زيادة في (ط).

(٢) ذكره أبو حيان البستي في كتابه (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) ص ١٧٣، تحقيق محمد حامد الفقي، وقبله بيتان:

وما بال قوم لثام ليس عندهم عهدٌ	وليس لهم دينٌ إذا اتَّمنوا
إن يسمعوا ربةً طاروا بها فرحاً	منّا وما سمعوا من صالح دَفَنُوا
صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ	وإن ذُكِرْتُ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذُنُوا

يُقال: أذن الرجل للقول: أي ألقى سمعه وأصغى بانتباه ويقظة زائدة، والأبيات لِقَعْنَبِ بن أم صاحب. (ت بعد سنة ٩٦ هـ).

(٣) سقطت في (ط).

(٤) تنتهي هنا النسخة (ل) وباقي الصفحة مظموس.

كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى: أحمد بن محمد بن عبد الله الكردي، حامدًا ومصليًا،
والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.
(قوبل على نسخة مباركة صحيحة جهد الطاقة، والحمد لله وحده وصلواته على
محمد وآله وصحبه وسلم)^(١).



(١) هذه كانت خاتمة النسخة (ح).

وفي (ز): (ختمت الكتاب بالخير في ثامن ربيع الأول سنة أربع وتسعين وتسعمائة والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين، وعترته الطاهرين وسلم تسليمًا كثيرًا).
وعلى الصفحة الأخيرة بطاقة مشار فيها إلى اسم الناسخ وهو: مولانا إمام الدين ابن نعمة الله بن محمد
لاهوري.

الفهارس

أولاً - فهرس الآيات القرآنية

فاتحة الكتاب

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ ٤٠٣، ٢٠٠ ﴾

سورة البقرة

٨٣	﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
٤٩٨، ٣٥٧، ٣٥٦، ٢٠٣، ٩٣	﴿ فَادْكُوفِي أَذْكُرْكُم ﴾
١٤٩	﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ ﴾
١٥٠	﴿ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾
١٦٢	﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾
١٦٢	﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾
١٦٣	﴿ وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَبُوءٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَسِ ﴾
١٦٨	﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾
١٦٨	﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾
٤٨٧، ١٧١	﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾
٤٠٢، ٢٥٠، ١٨٤، ١٨١	﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى النُّورِ ﴾
٣١٩، ٢٥٧، ٢٤٤، ١٩٢	﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾
١٩٧	﴿ وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾
٢٤٠	﴿ بَكَلَى ﴾
٢٤١	﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾
٢٥٨، ٢٤٤	﴿ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾
٢٥٣، ٢٥٠، ٢٤٩	﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾
٢٥٨	﴿ يَتَّكِدُمْ أَنفُسُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾

٢٧٤، ٢٧٣	﴿ أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾
٢٧٤	﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾
٤٥٤، ٢٨٣	﴿ أَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْكُفْرَةِ وَلَكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾
٢٨٤	﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾
٣٢١	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾
٣٣١	﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾
٣٧٧، ٣٣٥	﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
٣٦٢	﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾
٤١٥	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾
	﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾
٤٣٣، ٤٢٦	﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
	صَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾
٤٩٣، ٤٥٣	﴿ صُمْ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
٤٩٤، ٤٩٢	﴿ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

سورة آل عمران

١٤٨	﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا ﴾
٣٩١، ١٥٣	﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمْ ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَآخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾
١٦٠	﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾
١٦٨	﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾
١٨٧	﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
١٩٥	﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
٥٠٢، ٢١٨، ٢٠٩	﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾
٢١٤	﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾
٢١٥	﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
٤١٥، ٣٠١	﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
	وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
٣٠٧	﴿ وَالْكَافِرِينَ فِي الْعَذَابِ ﴾

- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ٣١١
- ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٣٤٥
- ﴿ وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى ﴾ ٣٤٦
- ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ٣٥٦
- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ٣٥٧
- ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ ٣٩٨
- ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ٥٠٢

سورة النساء

- ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ٤٥٣، ١٠٧
- ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ١٦٧
- ﴿ يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ١٦٧
- ﴿ وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ٣٨٦، ١٧١
- ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ ٣٤٤، ٢١٤
- ﴿ وَيَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ٣٥٠

سورة المائدة

- ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَابْتَغُوا الْوَعْدَ الْأَخِيرَ ﴾ ١٠٨
- ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ١١٩
- ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ ١٦٨
- ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ١٨٥
- ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قَوْلَ قُلِ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ ١٨٩
- ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٣٣٤، ١٩١
- ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ٢٤٨، ٢٠٣
- ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ٢٨٨، ٢٠٣
- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ ٥٠٢، ٤١١
- ٤٧٦

سورة الأنعام

- ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ٥٧

- ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٨٦
- ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ٨٦
- ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ١٢٥، ٢٧٣
- ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ ٣٤١
- ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ١٦١
- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ ١٦٦، ٥٠٢
- ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ١٦٧
- ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ ١٦٨
- ﴿ قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُوْحَيْنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا يُسْلِمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي يُبَدِّلُ مَشْرُوعَ ﴾ ٢٠٠
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ٢٥٠
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ ٢٥٥
- ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ٣٢٨
- ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ٣٦٢
- ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ٣٩٧، ٣٩٨
- ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ٤٣٣
- ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ٥٠٠
- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدَرُ ﴾ ٥٠٢

سورة الأعراف

- ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ٢٧٣، ٦٧
- ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ٨٢
- ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعْ أَبْصَرَ إِلَيْكَ ﴾ ١٠٧
- ﴿ وَكَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ١٦٨، ٣٠٤
- ﴿ وَلَمَّا سُقُوا فِي آبْئِهِمْ ﴾ ١٦٨
- ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ١٨٢، ١٨١
- ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ٢٤٠

- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ شَاءَ وَتَهْدِي مَنِ شَاءَ﴾ ٢٥٣
 ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ٢٩٤
 ﴿خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ٣١٩
 ﴿فَلَا يَأْمُرُ مَكْرًا إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرُونَ﴾ ٣٤٧
 ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ ٣٦٧
 ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٨٨، ٢٤٩
 ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ٣٨٩
 ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ٤٥٠
 ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ٤٥٩، ٤٥١
 ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ٤٥٢
 ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ﴾ ٤٥٤
 ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٤٥٤
 ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ٤٨٨
 ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ ٤٩٤
 ﴿وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ٤٩٤
 ﴿وَرَحْمَنَا﴾ ٤٩٤
 ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٤٩٤

سورة الأنفال

- ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ ١٣٦، ٧٢
 ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٩٠
 ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ ١٦٠
 ﴿وَلِيُجِبِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ ١٨٨
 ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ﴾ ١٩٦

سورة التوبة

- ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ١٦٠
 ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ ١٦٨
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ٣٤٣
 ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا﴾ ٤٢٤

- ﴿ خَاطَبُوا عَمَلًا صَلَاحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ٤٦٠
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ٤٨٩

سورة يونس

- ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ١٢١
 ﴿ أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰ عَلَىٰ خَوْفٍ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١٨١، ١٨٤، ٣٤٧
 ﴿ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ٣٤٣
 ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ ٥٠٠

سورة هود

- ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ٨٩، ٧٩
 ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ ١٦٢
 ﴿ فَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ ﴾ ٤٠٢

سورة يوسف

- ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ٨٦
 ﴿ فَلَمَّا أَسْنَوْا مِنْهُ خَصَصُوا يُحْيَا ﴾ ١٦٧
 ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ ﴾ ٢٧٧، ٣٢٠، ٤٠١، ٥٠٠
 ﴿ وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّيَ ﴾ ٤٠٦

سورة الرعد

- ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ١٦٨
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ٣٢٩
 ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ٣٦٩

سورة إبراهيم

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ١٣٣
 ﴿ تَتَوَقَّعُ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا ﴾ ٤٤٤
 ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ٤٥٤
 ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ٤٩٨

سورة الحجر

- ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ١٩، ٣٤٢، ٤٢٣
 ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ١٦٨

١٧٦	﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾
٣٩٣، ٣٨٧، ٢٦٨، ٢٥١، ٢٤٢	﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾
٢٤٢	﴿ فَفَعَّوْا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴾
٣٥٠	﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾
٣٥٢	﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾
٣٥٢	﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾
٣٦٧	﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْآمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴾

سورة النحل

٤٥	﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴾
١٠٨	﴿ وَأَوْحِ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾
١٦١	﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾
١٩٥	﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾
٢٠١	﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
٣٤٦	﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾
٤٥٣، ٣٥٧، ٢٨٩	﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً ﴾
٤٠٤	﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾
٤٥٢	﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
٤٦٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

سورة الإسراء

٤٣٤، ٣٨٩، ٣٨٨، ٢٦٤، ٥٠	﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾
٩٣	﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾
١٦٧	﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾
١٧٠	﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾
٢٨٨، ٢٥١، ١٨٥	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾
٣٨٥	﴿ وَنَسَّوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
٤٢٤، ٤٠٨	﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾
٤٥٥	﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

سورة الكهف

- ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ٨٦
 ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ ١٦٨
 ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ٣٤٨
 ﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ٤١٠، ٤٠٩
 ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ٤٩٨

سورة مريم

- ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُنْعِ النَّخْلَةِ ثُنَاقًا عَلَيْكَ رُطْبًا خَبِيثًا﴾ ١٤٨
 ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ١٦٨
 ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ ٣٨٨
 ﴿عَبْدُهُ، زَكَرِيَّا﴾ ٤٠٨
 ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ٤٢٤
 ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ٤٥٣

سورة طه

- ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ٢٠٠
 ﴿﴿ مِنْهَا خَلَقْتَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ٢٣٩
 ﴿وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ﴾ ٣٢٢
 ﴿ثُمَّ أَجْبَلْنَاهُ رَبَّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ٣٢٢
 ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَالْخَلْعَ نَعْلَيْكَ﴾ ٤٨٨
 ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ٤٨٨
 ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي ءَاسِسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَانِيَكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ٤٨٩

سورة الأنبياء

- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ١٥٧
 ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ١٦٧
 ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ ١٦٨
 ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ ١٩٦
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾ ٢١٢
 ﴿يَنَادُوا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٤٥٠

سورة الحج

١٦٨	﴿ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾
١٦٨	﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾
٢٤١	﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

سورة المؤمنون

١٦٧	﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَدِمٍ بِمَا خَلَقَ ﴾
٣٤٦	﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾
٤١٥	﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴾
٤٧١	﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

سورة النور

٢١٦، ٢١٥	﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
	تُورُّ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾
٢٧٣	﴿ ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾
٣٢١	﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

سورة الفرقان

٨١	﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾
٨٧	﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾
١٧٤	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾
٥٠٠	﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾

سورة الشعراء

٨٣	﴿ قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾
١٧٤، ١٠٩	﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴾
٣٢٨	﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
٤٥٢	﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾

سورة النمل

١٤٨	﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾
٣٢٨	﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ ﴾
٣٩٢	﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾

سورة القصص

- ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُورِدُكَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِنْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٤٥٣، ٧٢
- ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٣٤٧، ٨١، ٧٢
- ﴿ تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَىٰ يُفْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ﴾ ٣٢٣
- ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ٤٨٧

سورة العنكبوت

- ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ٨٢
- ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ٣٨٦
- ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ٤١٠

سورة الروم

- ﴿ اَلْعَمَّ ١٠١ غَلَبَتِ الرُّومُ ١٠٢ ﴾ فِي آَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ١٦٠

سورة لقمان

- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ٦١
- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ٤٦٢

سورة السجدة

- ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ١٩٣، ١٨٥
- ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ٣٤٥
- ﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ٨ ﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي ٣٩٣
- ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ٤٩٩

سورة الأحزاب

- ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ ٤٢٢، ٣٥٢
- ﴿ وَلَا تُسْتَغْنِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ٤٠٥

سورة فاطر

- ﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عَدُوٍّ لِلَّهِ ﴾ ٨١
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا ﴾ ١٠٨
- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ٣٥٧، ٢٦٩، ٧٩، ١٨

- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ٣٤٦
 ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ٤١٤
 ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ﴾ ٤٣١

سورة يس

- ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ ١٦١
 ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴾ ٣٧٥

سورة الصافات

- ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ ١٠٩
 ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ١٣٣
 ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ٤١٠

سورة ص

- ﴿ يٰٓيَا بَلِيلُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ ﴾ ٨١
 ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سٰٓجِدِينَ ﴾ ٢٥٠
 ﴿ يٰٓدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ٢٤٩، ٢٤٧
 ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ ﴾ ٣١٧
 ﴿ نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ٣٢٢
 ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ٤٠٨
 ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ ٤٠٨

سورة الزمر

- ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ ٦١
 ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ ١٣٧
 ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ٢٠٠
 ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، ﴾ ٣٢١
 ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ، ﴾ ٣٩٩، ٣٤٠
 ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ٤٧٦، ٤٤٩

- ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ٤٥٨
 ﴿ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ ٤٨٨

سورة فصلت

- ﴿ سَرُّهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ٤٨٥، ٣٨٧، ١٢٥، ٦٨
 ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ ٧٢
 ﴿ أَذْفَعُ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ٣٠٩
 ﴿ كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٌ ﴾ ٣١٠
 ﴿ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ٤٩٢، ٤٥٠، ٣٢٣
 ﴿ تَزُلْزَلُ مِنْ عَقْوَري رَحِيمٍ ﴾ ٣٣٨
 ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ ﴾ ٣٧٥
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ ٤٠١

سورة الشورى

- ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ﴾ ١٣٣
 ﴿ مَا الْكَتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ١٠٥
 ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ١٩١
 ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ مِنْ حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ ﴾ ٣٠٧
 ﴿ وَإِذَا مَا عَضُّوا هُم يَغْفِرُونَ ﴾ ٤٠٣
 ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٤٠٣
 ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ٤٣٩
 ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ٤٣٩

سورة الزخرف

- ﴿ أَفَضْرَبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ ١٦٨

سورة الجاثية

- ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ٦١

سورة الاحقاف

٢٤٣

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾

سورة محمد

٢٠٠، ٩٣

﴿ فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ ﴾

٤٥٧

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ ﴾

سورة الفتح

٨٥

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ ﴾

١٣٦

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

١٦٠

﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾

٢٥٢

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

٣٢٧

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾

٣٥٩

﴿ وَكَانُوا الْحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾

٣٥٩

﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النُّقُوتِ ﴾

٣٧٥

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

سورة الحجرات

١٨٦

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

سورة ق

٢٦٥

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾

٣٢٢

﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾

٣٢٧

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾

٣٤٢

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

٤٥٠

﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

سورة الذاريات

٥

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٧﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ زَنْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

سورة النجم

٣٤١، ٧٢، ٦٧

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾

٧٢	﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ أَمْرٍ﴾
١٧٤، ١٠٧	﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾
٤٥٣، ٤٣٧، ٤٣٦	﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾

سورة القمر

١٦٠	﴿سَيَهْمُ الْجَمْعُ وَيَزُولُ الدُّبُرُ﴾
-----	--

سورة الرحمن

١٦٧	﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾
١٧٤	﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾
٢٣٨	﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾
٣٠٧	﴿مِنْ صَافِرٍ كَالْفَخَّارِ﴾
٣٦١	﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾

سورة الواقعة

٤٨٦	﴿أَنشَأْنَا شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾
٤٩٠	﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾
٤٩٢، ٤٩١	﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمَقَرُّونَ﴾

سورة المجادلة

٤٠١، ٣٢٨	﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾
٤٣٩	﴿وَإِذَا قِيلَ ائْزُزُوا فَانْزُزُوا﴾

سورة الحشر

٤٠٧	﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾
-----	--

سورة الصف

١٠٨	﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاغْتَابَتْ ظُلُمَةُ مَن بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾
٣٢٩	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ، يَقُومُوا لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ نَعْلَمُوكَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾
٤٨٩	﴿هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّفٍ تُخَبِّرُكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْإِلَهِ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾

سورة الجمعة

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٣٤٥
﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٣٥٧، ٣٥٦

سورة الطلاق

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ٤٩٧، ٣٣٥، ٣٣٤

سورة التحريم

﴿ فَتَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ ١٢

سورة الملك

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ٤٥٣، ٥٧
﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ ٢٦٦

سورة القلم

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ٣٥٤

سورة المعارج

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ٢٨٧

سورة الجن

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ ٢٧٤
﴿ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ٢٧٤

سورة المزمل

﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ ٣٣٥
﴿ وَبَنِّئْ إِلَيْهِ تَبْيِيلًا ﴾ ٣٦٢

سورة المدثر

﴿ يٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ ٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبٌ ٣ وَيٰأَيُّكَ فَطَّيِّرٌ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ ﴾ ٣٦٤، ١١٢
﴿ هُوَ أَهْلُ الْغَفْوَى وَأَهْلُ الْمَعْفَرَةِ ﴾ ١٨٦

سورة القيامة

وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ ٣٢٠

سورة الإنسان

وَجَرَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً ﴿١﴾
 إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٢﴾
 إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣﴾

سورة عبس

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾

سورة الانفطار

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾
 وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٢﴾

سورة الفجر

يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِيهِ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي
 عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٣٢٠، ٣٢٣، ٤٢٥، ٤٥٨، ٤٩٥، ٤٩٦

سورة البلد

فَلَا أَقْنَحُمُ الْعُقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكَ رَقِيبَةً ﴿١٣﴾ ٤٠٨

سورة الشمس

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ٣٢٠، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٧٩

سورة الضحى

وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴿١﴾ ١٧٧

سورة التين

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٩
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ٤٠١، ٤٨٨

سورة العلق

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ١١٢

١١٩

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾

٤٠٤

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾

٤٢٤

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾

سورة البينة

٣٣٦، ٢٠٦

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

٣٥٢، ٣٥٠

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

سورة الماعون

٤٧١

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾

سورة النصر

٣٢٤، ٣٢٢

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

سورة الإخلاص

٧٧

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

سورة الفلق

١٤٩

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

٢٩٣

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

ثانيًا - فهرس الأحاديث والآثار

- أبشروا يا أصحاب الصفة ٤٣٣
- أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني ٣٦٥
- اجتنبوا النجوم فإنها تدعو إلى الكهانة.. ١٣٧
- أجوع يومًا وأشبع يومًا. ٣٠٤
- أحب ما تعبد به عبدي إليّ: النصيح لي. ٢٩٨
- الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه.. وإن لم تكن تراه فإنه يراك.. ٨٩، ٣٥٢، ٣٧٠، ٤٢٢
- أحياكم عثمان... ٤٠٦
- الإخلاص سر من أسرارني استودعته قلب من أحببته من عبادي ٣٥١
- أدبني ربي فأحسن تأديبي. ١٧٤
- آدم ومن دونه تحت لوائي. ٧٠، ١٧٧، ٣٩٣، ٤٨٩
- إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل إني أحببت فلانًا.. ٢١٩
- إذا أحب الله عبدًا لم يضره ذنب. ١٨٩
- إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه.. ١٢٧
- إذا رأى أحدكم ما يكره فلا يحدث به، وليقم فليصل.. ١٢٢
- إذا رأيت الرجل قد أوتي زهدًا في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة.. ١٩٢
- إذا كان آخر الزمان لم تكدر رؤيا المؤمن تكذب.. ١٢٢
- إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعمته ولذته في ذكري. ٤٤٤
- إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ٤٧١

- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.. ٤٣٧
- ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.. ٢٠٥، ٣٣٦
- أريت الأمم بالموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل.. ٣٣٤
- استحيوا من الله حق الحياء.. فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى.. ٤٠٤
- استغنوا بغنى الله قالوا: ما هو؟ قال: غداء يوم وعشاء ليلة.. ٢٨٩.
- استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن.. ٣٦٦
- أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.. ٢٧٧، ٤٩٣
- أفضل الذكر: لا إله إلا الله. ٣٥٩
- أفضل الصيام صوم أخي داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً... ٣٠٤
- اقرأ.. قال: ما أنا بقارئ.. ١١٢
- أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من بقية طينة آدم. ٢٢٦
- ألا أخبركم بملوك أهل الجنة. ٤٢٩
- ألا أدلكم على أشرف أخلاق أهل الدنيا... ٣١٧
- ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة. ٤٤١
- ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم... ٣٥٦.
- أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر.. قال: لا. ولكن يصوم ويصلي ويخاف ألا يقبل منه... ٣٤٦.
- أمتي كالمطر لا يدرى أولهم خير أم آخرهم. ٥٠٣
- إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة ٢٦٣
- إن دعامة البيت أساسه ودعامة الدين المعرفة بالله واليقين والعقل القامع... ٥٧
- إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء... ٣٠٨.
- إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار... ٣٠٧
- إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا فسدت فسد سائر الجسد ٣٢٧، ٤٩٤

- إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة... ٣٠٩
- إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء... ٣٢٧
- إن لكل آية ظاهراً وباطناً، ولكل حرف حداً ومطلعاً.. ١٦١
- إن الله بحكمته تعالى جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، ٣٣٧
- إن الله تبارك وتعالى حرّم عليكم الخمر والميسر والكوبة ٤٦٢، ٤٦٣
- إن الله خلق آدم فجلى فيه.. وخلق آدم على صورته. ٧٠، ٢٤٢، ٢٥٨، ٤١٣
- إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام. ١٧٣، ٣٨٥، ٣٨٧
- إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور... ٢٤١
- إن الله خمّر طينة آدم بيده أربعين صباحاً.. ٢٣٧
- إن الله رفيق يحب الرفق. ٣٠٨
- إن الله عفوّ يحب العفو.. ٣١٧
- إن الله قد فرغ من الخلق والخلق والرزق والأجل.. ٣٥٥
- إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة... ٢٦٧ .
- إن من خير معشر الناس رجلاً أخذ بعنان فرسه في سبيل الله.. ٣٦٢
- إن من الشجر شجرة لا تسقط ورقها، وإنها مثل المسلم.. ٣٦٠
- إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة القائم الصائم.. ٣٠٩
- أنا أحمد وأنا محمود. ١٥٥
- أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه.. ٣٤٦
- أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً. ١٥٣
- أنا جليس من ذكرني. ٣٧٠
- أنا دعوة إبراهيم وكرامة موسى، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة.. ١٥٩
- أنا سيد ولد آدم ولا فخر.. ١٧٧
- أنا من الله والمؤمنون مني. ٤٨٥
- إنما الأعمال بالنيات.... ٣٥١

- إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق. ٣٠٩
- إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه، ٤٠٧
- إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة ٣٢٤
- أوحى الله إلى عيسى قال: تجوع تراني. ٣٠٣
- أوحى الله إلى موسى بن عمران قال: جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامي. ٤٧٧
- أوحى الله إلى موسى تريد أن يكون لك يوم القيامة مثل حسنات الخلق أجمع. ٤٣٠
- أول ما بُدئ به رسول الله الرؤيا الصالحة. ١١١
- أول ما خلق الله روحي، نوري، العقل .. ٤٦، ١٧٣، ٣٨٥، ٣٨٩، ٤٨٥
- أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر. ٢٠، ٤٦، ٤٧
- إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث. ٢٩٨
- إياكم ومجالسة الموتى. قيل: ومن هم؟ قال: الأغنياء. ٤٣٠
- أي داء أدوى من البخل؟ ٣١٥
- أي الإيمان أفضل؟ قال: الصبر والسماحة. ١٩٥
- الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.. ١٩٥
- أي المؤمنين أحسنهم إيماناً: قال: أحسنهم خلقاً. ٣٥٥
- بينا أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة .. ٣٣٧
- التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ١٨٩
- تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيغفر الله لكل عبد مؤمن .. ٣١٨
- تعس عبد الدرهم... ٤٠٨
- توبوا إلى الله فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة.. ٣٢٤
- ثلاث لا يعجزهن ابن آدم: الطيرة، والظن، والحسد.. ٢٩٦
- ثلاث هنَّ أصل كل خطيئة فاحذروهن: الكبر، والحرص، والحسد.. ٢٩٣
- جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصني. قال: لا تغضب.. ٣٠٩

- جاورت بحراء فلما قضيت جوارى... ٣٦٤
- جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين.. ٤٤٧
- حُب إليه الخلاء، وكان يتحنث إلى غار حراء أسبوعًا أو أسبوعين.. ٢٢٠
- حديث المعراج: ثم رأينا ملكًا.. ٣٩٣
- الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي.. ٣٦٨
- حَفَّت النار بالشهوات، وحَفَّت الجنة بالمكاره.. ٤٠٣
- الحياء من الإيمان.... ٤٠٦
- الخلافة بعدي ثلاث وثلاثون سنة وبعدها مُلْك وجبروت... ٢٤٧
- خلق الله القلم من نور ومداده النور.. ٤٦
- دعا الله جبريل فأرسله إلى الجنة فقال: انظر ماذا أعددت لأهلها.. ٣٠١
- الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا والاثنتان حرام على أهل الله... ٤٩٧
- الدين النصيحة... ٢٩٧
- ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا.. ٣٣٦
- رأس الدين ترك الدنيا والقربة من الله وحب المساكين.. ٤٢٨
- رأيت الرسول يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد... ٤٦١
- ربي زدني تحيرًا.. ٢٠٠
- رب قائم ليس حظه من قيامه إلا السهر.. ٤٧١
- رصوا صفوفكم، وقاربوا بينهما وحاذوا بالأعناق.. ٤٧١
- رؤيا الأنبياء وحي.. ١٠٩
- الرؤيا الحسنة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.. ١٢١
- الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها... ١١٣
- زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها.. ١٧٦
- سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. ٤٢٣

- السحر حق والعين حق.. ١٤٨
- السخّي قريب من الله قريب من الناس بعيد عن النار.. ٣١١
- الشيخ في قومه كالنبي في أمته.. ٤٣٧
- صاحب الدرهمين أشد حسابًا من صاحب الدرهم.. ٤٢٧
- طوبى لمن كان رزقه كفافًا.. ٢٨٩
- عبادي وأصفيائي: ما زويت عنكم الدنيا لهوانكم عليّ... ٤٢٨
- عبدي ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئًا غفرت لك على ما كان منك .. ٣٤٨
- عرضت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها .. ٤٠٨
- عشرة في الجنة من أصحابي... ١٨٣ .
- علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل.. ١٨٥
- علمت ما كان وما سيكون... ٤٨٧
- عليكم بستي وسنة الخلفاء المهديين من بعدي،... ٨٥، ٨٦
- الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل... ٤٦٣
- فأخذ عزرائيل قبضة تراب سلّها من جميع وجه الأرض وطرحها.. ٢٣٨
- فضّلت على الأنبياء بست، وأرسلت للخلق كافة، .. ١٧١
- الفقر على المؤمن أحسن من العذار الجيد على خد الفرس.. ٤٢٩
- الفقر فخري.... ١٧٧
- الفقراء الصّبر هم جلساء الله يوم القيامة.. ٤٢٦
- في جواب من سأله عن ذراري المشركين، قال الله أعلم بما كانوا عاملين.. ٤٩١
- قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه .. ٢٨٩
- قلب الشيخ شاب على حب اثنين.. ٢٨٨
- القناعة كنز لا يفنى.. ٢٨٨
- قيل لرسول الله: إن عيسى كان يمشي على الماء. قال: لو ازداد يقينًا لمشى في الهواء..

- كان: ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها.. ٤٠٦
- كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن كان في هذه الأمة فعمربن الخطاب.. ٤٧٢
- كلنا يدي ربي يمين. ٨١
- كن قنعاً تكن أشكر الناس... ٢٨٩
- كن ورعاً تكن أعبد الناس.. ٣٣٣
- كنّا جلوساً عند رسول الله فقال: يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة.. ٢٩٥
- كنّا عند رسول الله ﷺ فقال: ارفعوا أيديكم. فرفعنا، فقال: قولوا لا إله إلا الله، ٣٥٩
- كنت له سمعاً وبصرًا، ويدًا، وفؤادًا.. ٣٥١، ٣٥٥
- كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد.. ١١٧، ١٥٣
- لا تسبوا أصحابي.. ٤٤٣
- لا تستقبلوا رمضان بيوم أو يومين.. ٣٠٥
- لا تنزع الرحمة إلا من شقي.. ٢٩٨
- لا حسد إلا في اثنتين.. ٢٩٩
- لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.. ٢٨٣
- لا يزال العبد يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا.. ٣٤٣
- لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه.... ٣٥٥
- لا يكون المؤمن بخيلًا ولا جبانًا.. ٣١٦
- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.. ٢٩٤
- لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به.. ٨٦
- لما خلق الله القلم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ ٤٧
- لما خلق النفس قال لها: أقبلي فأدبرت وقال لها: أدبري فأقبلت.. ٢٧٧
- الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.. ٤١٠
- الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا بعدي ٤٤٣
- لهم البشرى في الحياة الدنيا.. قال الرؤيا الصالحة - عن عبادة بن الصامت.. ١٢١

- اللهم اجعل حبك أحبَّ إليَّ من نفسي وسمعي وبصري ومالي وأهلي .. ٤٢١
- اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا .. ٢٨٩
- اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك .. ٣٧٦
- لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً .. ٣٤٩
- لو قُسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم .. ٤٢٨، ٤٢٩
- لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً .. ٢٨٧
- لولاك لما خلقت الكون .. ٣٨٩
- لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل .. ١٣٦
- ليس أحد أصبر على الأذى من الله .. ١٩٦
- ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب .. ٣٠٧
- ليس الغنى كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس .. ٢٩٠
- ما أنا بقارئ .. فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد .. ١١٢
- ما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة .. ١٢٢
- ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد من حرص المرء على المال والشرف ... ٢٨٧.
- ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الأدب والخلق، ٣١٠
- ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر .. ١٣١
- مثل المؤمن في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ... ٢٩٧
- المرء مع من أحب ٢١٩
- مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمّون البيت الحرام ... ٤٣٢
- مرّ رجلان أحدهما فقير والآخر غني فقال ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا.
- ٤٢٧
- ملاك الدين التعظيم لأمر الله، ٤٣٧
- من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه .. ٣٢٤
- من أعطي حظّه من الرفق أعطي خير الدنيا والآخرة ٣٠٨

- من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالحرب، وإنني لأغضب لأولياي كما يغضب الليث...

١٨١

- من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا... ١١٣، ٢٤٤، ٢٦٠، ٣٥٧
- من تواضع لله رفعه. ٢٨٦
- من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه... ٣٣٢
- من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية. ٣٥٤
- من رأي في المنام رأي فإن الشيطان لا يتمثل بي... ٣٧١
- من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم. ٣٠٥
- من عرف نفسه فقد عرف ربه. ١١٧، ٣٩٢، ٤١٣
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت.. ٣٦٨
- من لا يرحم لا يُرحم. ٢٩٨
- من لم يرض بقضائي، ويصبر على بلائي فليطلب ربًّا سواي... ٢٠٥
- المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس... ٣٦٣.

- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.. ٢٩٧
- موتوا قبل أن تموتوا.. ٤٩٦
- الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم... ١٧٧، ٣٩١
- نحن الآخرون السابقون.. ٣٩٠
- واشوقاه إلى لقاء إخواني. قالوا: أولسنا بإخوانك؟ ٤٤٢
- وأن تؤمن بالقدر خيره وشره.. ٢٠٦
- يا رسول الله أوصني.. قال: عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ١٨٧
- يا رسول الله: متى الساعة؟ قال له: وما أعددت لها؟ ٤١١
- يا طالب الدنيا لتبر فتركها أبر وأبر. ١٩١
- يا معاذ أوصيك بتقوى الله ٣١٠.

- يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم. ٤٢٦
- اليسير من الرياء شرك... ٣٥١
- يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها .. ٤٦٢
- يقول الله لأهل الجنة: يا أهل الجنة! يقولون: لبيك ربنا وسعديك... ٢٠٣
- يقول الله يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ ٤٢٨
- يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان: الحرص والأمل... ٢٨٨

ثالثاً - فهرس الأشعار

قافية «الهمزة»

أبان الحق ليس به خفاء	وباح السر وانكشف الغطاء ٧٣، ٧٢
فنفسى زailت والروح بادت	فلم يبق التكدر والصفاء
تجلت سطوة الجبروت حتى	فنيثا ثم قد فنى الفناء
بقاء الحق أفنانا وأفنى	بقاء فنانا ذلك البقاء

قافية «الباء»

فيا عجباً منى أحاول وصفه	وقد فنيت فيه القراطيس والكتب ١٦٠
--------------------------	----------------------------------

* * *

من اللؤلؤ النض المؤلف نظمه	فما خانه سلك ولا شانه ثقب ١٦٩
----------------------------	-------------------------------

* * *

وما أنا بالبأغي على الحب رشوة	ضعيف هوى يرجى عليه ثواب ٢١٠
-------------------------------	-----------------------------

قافية «الذال»

وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد ٦٧
يا عين سحي أبداً	يا نفس موتى كمد ٣٤٢

ولا تحبي أحداً إلا الجليل الصمد

قافية «الراء»

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري ٣٨١

والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار ٣٨١

* * *

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة وحسي أن ترضى ويتلفني صبر ٢٠١

* * *

قد كان ما كان سرّاً لا أبوح به فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر ٧١

قافية «السين»

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع ٢١٥

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

في كل يوم يتديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع

* * *

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا ٢٢٨

* * *

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كتماننا وتخبر عن جمع ٣٨٠

قافية «الفاء»

وكلت للمحجوب أمري كله فإن شاء أحياني وإن شاء أتلّفا ٥٠٠

قافية «القاف»

كل صبح وكل إشراق تبك عيني بدمع مشتاق ٤٨٠

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راقبي

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقتي وترياقِي

قافية «الكاف»

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا ٢١١

قافية «اللام»

إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيكون بدرًا كاملاً ١٥٨

* * *

غرست لأجل الحب غصنا من الهوى ولم يك يدري ما الهوى أحدٌ قبلي ٤٢٠

فأورق أغصانا وأينع صبــــــــــــوة وأعقب لي مرّاً من الثمر المحلي

فكل جميع العاشقين هواهم إذا نسبوه كن من ذلك الأصل

* * *

استقبلني وسيفه مسلول فقال لي واحدنا مقتول ٣٨٢

* * *

صلاة مكارم الأخلاق فرض وما غير الأذان على البلال ٥٠١

* * *

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيف الله مسلول ٤٧٩

* * *

أسائل عن سلمى فهل من مخبر يكون له علم بها أين تنزل ٤٥١

* * *

في سبيل الله ود كان مني لك يبذل كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل ٤٦٥

* * *

ما زلت أنزل في وداك منزلاً
يتحير الألباب عند نزوله ٤٦٤

قلبي نهبوا ومن حياتي نالوا
قد ملت إليهم وعني مالوا ٣٨٢

إذا قلت بم أعيش؟ قولوا
قالوا بالحب فعش وحبهم قتال

* * *

سأعبد الله لا أرجو مثوبته
لكن تعبد إعظام وإجلال ٢١١

قافية «الميم»

لقد طفت في تلك المعاهد كلها
وصيرت طرفي بين تلك العوالم ٥٨

فلم أر إلا واضعا كف حائر
على ذقن أو قارعا سن نادم

* * *

شهدت على أحمد أنه
رسول من الله باري النسب ١٥٧، ١٥٨

فلو مد عمري إلى عمره
لكنت وزيرا له وابن عم

* * *

وكن لربك ذا حب لتخدمه
إن المحبين للرحمن خدام ٤١٧

* * *

في انقباض وحشمة فإذا
صادفت أهل الوفاء والكرم ٤٤٢

أرسلت نفسي على سجيتها
وقلت ما قلت غير محتشم

قافية «النون»

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به
وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا ٥٠٤

* * *

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا ١٩٩

فإذا أبصرتنا أبصرتَه وإذا أبصرتَه أبصرتنا

* * *

كان رقيباً منك يرعى خواطري وآخر يرعى ناظري ولساني ٣٥٣
فما رمقت عيناى بعدك منظرًا يسوؤك إلا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من فيّ دونك لفظة بغيرك إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السر بعدك خطرة لغيرك إلا عرجا بعناني
وأخوان صدق قد سمعت حديثهم فأمسكت عنهم ناظري ولساني

* * *

غدينا بالمحبة يوم قالت له الدنيا أتينا طائعيناً ٢١٢

قافية «الهاء»

وقوم تاهوا في أرض بقفر وقوم تاهوا في ميدان حبه ٣٨٢
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقاء بقرب ربه

قافية «الياء»

فلما ادعت الحب قالت كذبتني فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا ٤٢٠
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا ٤٢٠
وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

أنصاف الأبيات

في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل ١٦٠

* * *

وكفى بك داء أن ترى الموت شافيا ١٦٢

رابعاً - فهرس الأعلام

- إبراهيم بن أدهم ٣٢٨، ٣٥٠، ٤٠٩، ٤٣٠، ٤٣٩
إبراهيم بن شيان ٤٣٨
إبراهيم الخواص ٣٤٢، ٤٣٨، ٤٩٦
إبراهيم المارستاني ٢٩٠
ابن الأعرابي ٢٨٣، ٢٨٤
ابن جريج ٤٦٢، ٤٦٣
ابن شمعون ٢٠٧
ابن شهاب الزهري ٤٦٠
ابن عباس: عبد الله بين عباس: انظر عبد الله بن عباس ١٠٩، ١١١، ١٣٧، ٣٠٩، ٤٣٣، ٤٦٢، ٤٧٦
ابن عطاء ٢٠١، ٣٣٩، ٤٢٠، ٤٤١
ابن قتيبة ١٥٧
ابن القوطي ٤٦٥
ابن قيم الجوزية ٦١
ابن مسعود ٨٦، ١٦١، ١٧٤، ٢٣٧، ٤٦٢، ٤٦٣
ابن منصور ٤٩٦
أبو أحمد بن المظفر بن أحمد بن حمدان ٤٧٤

أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة: الصديق ٧٣، ٨٤، ١٦٥، ١٨٣، ٣٣٢، ٣٣٣، ٤٠٧، ٤٤١،

٤٤٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٦، ٤٨١

أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي ٣٨

أبو بكر الطمستاني ٤٤٨

أبو بكر الكتاني ٤٢٠، ٤٧٦

أبو بكر الوراق ٣٣٨

أبو تراب النخشي ٣٠٣، ٣٧٣، ٤٠٧

أبو تميم المغربي ٣٧٩

أبو ثور .. ٩٠، ٩١، ٣١٢

أبو الحسن الخرقاني .. ٤٣٥

أبو الحسن سمنون بن حمزة .. ٤١٩

أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي ٤٧٤

أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري .. ٤٧٠

أبو الحسن علي بن محمد الصيرفي .. ٤٦٧

أبو الحسن النوري ٤٦٤

أبو حفص الحداد ٣٧٣

أبو حنيفة النعمان .. ٤٦٣، ٤٦٤

أبو خبيق .. ٣٤٩

أبو الدرداء .. ٤٣٠

أبو سعيد بن أبي الخير .. ٢١٣، ٤٤٧، ٤٦٦

أبو سليمان الخطابي .. ٢٩٧

أبو سليمان الداراني .. ٢١٦، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٦، ٤١٦، ٤١٧

أبو الصهباء .. ٤٦٢

أبو طالب المكي .. ١١٧، ٤٦٣

أبو الطيب الطبري .. ٤٦٣

- أبو الطيب المتنبي .. ٢١٠
أبو العباس الشقاني .. ٤٧٠
أبو عبيد الله الروذباري .. ٣١٤، ٣٨٣، ٤٧٠
أبو عبد الرحمن السلمي .. ٢٠٧، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٧٩
أبو عبد الله بن خفيف .. ٤٤٠
أبو العتاهية .. ٦٧
أبو عثمان الحيري .. ٣٧٣، ٣٧٤
أبو عثمان المغربي .. ٤٥٦
أبو علي الدقاق .. ٢٠٥، ٣٩٩
أبو علي الفارمزي ٣٧٦
أبو عمرو بن نجيد ٤٦٩
أبو القاسم القشيري ٢٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٣٤٧، ٣٩٨، ٤٥٦
أبو القاسم الكركاني ٣١٩
أبو مالك الأشعري ٤٦٢
أبو النجيب السهروردي ٣٧٤
أبو نصر السراج ٤٣٧، ٤٦٧، ٤٧٥
أبو نوح ٤١٨
أبو هاشم الصوفي ٤٣٤
أبو هريرة ١٢٢، ٤١١، ٤٢٨، ٤٧١
أبو يزيد البسطامي ٦
أبو يعقوب السوسي ٣٦٣
أحمد بن أبي الحواري ٣٩٩
أحمد الغزالي ٣٧٤
أحمد القلانسي ٤٣٩
أرميا بن برخيا ١٥٧

أسامة بن زيد ٤٦١

أسعد أبو كرب الحميري ١٥٧

إمام الدين بن نعمة الله ٥٠٥

أنس بن مالك ٤٣١، ٤٧١، ٤٧٩

بختنصر ١٥٧

بشر الحافي ٢٩٠، ٤٠٩، ٤٣١

البخاري ٤٦١، ٤٦٦

جالينوس ١٤٣

جابر بن عبد الله الأنصاري ٢٠، ٤٦، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٩٢

الجريري: أبو محمد أحمد بن محمد ٩١، ٣٥٤، ٤٤٥

جهم بن صفوان ٨١

الجنيد: أبو القاسم الجنيد ٩٠، ٢٠٠، ٢٠٤، ٣٠٥، ٣١٢، ٣٣٨، ٣٣٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٣،

٤٣٥، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٦٠، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٦، ٤٩٩

حارثة ٤٠٨

الحسن البصري ٨٠، ٢١١، ٢٥٢، ٣٣٣، ٣٣٨، ٤٢٨، ٤٣٢

الحسن بن منصور

الحصري: الحسن على بن إبراهيم ٩١، ٤٣٥، ٤٥٦، ٤٦٠

حماد الدباس ٣٧٤

حمدون القصار ٣٣٦

خالد بن الوليد ١١٨، ٣٩٠

خديجة بنت خويلد ١١٢، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥

دانيال ١٥٦

الدراج ٤٦٥

ذو النون المصري ٦٣، ٢٠٧، ٢٩١، ٣٣٢، ٣٥٢، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٤١، ٤٤٩، ٤٥٩

رابعة العدوية ٢١٠، ٣٢٢، ٣٣٩، ٤١٨

- رباح بن المغترف ٤٦١
الرقام ٣١٢
الرقى: أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقى ٤٦٥
زليخا ٤٠٦
زكريا بن برخيا ١٥٦
سائب بن يزيد ٤٦١
السري السقطي ٩٠، ٩١، ٢٠٧، ٣١٢، ٤١٩
سعيد بن جبير ٤٦٢
سفيان الثوري ٢٥٢، ٣٣٩، ٣٩٩، ٤٣٤، ٤٦٤
سواد بن قارب ١٤١
سهل بن عبد الله ٦، ١٩١، ١٩٢، ٣٠٣، ٣٣٥، ٣٣٩، ٤٢٥، ٤٣٠، ٤٧٤
سيف بن ذي يزن ١٥٨
الشافعي ٢١٥، ٤١٥، ٤٦٣
شاه الكرمانى ٣٧٣
الشبلى: أبو بكر بن جحدر الشبلى ١٩٨، ٢٢٠، ٣٣٩، ٣٧٧، ٣٧٨، ٤٥٠، ٤٦٨
الشحام ٣١٢
الشعبي ٤٦٤
شعباذه ١٤٨
شداد بن أوس ٣٥٩
ضرار بن الخطاب ٤٦١
طليحة الأسدي ١٤١
عائشة ٢٧، ١١١، ١١٢، ٣٤٦، ٣٦٢، ٣٦٤، ٤٤٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٦،
عبادة بن الصامت ١٢١، ٣٥٩
عبد الرحمن بن زيد ٩٤
عبد الرحمن بن عوف ٤٦١

- عبد الله بن الحارث بن نوفل ٤٦١
عبد الله بن الزبير ٤٦١، ٤٦٣
عبد الله بن مكتوم ٤٣٣
عبد الله بن جعفر ٣١٤، ٣١٥، ٤٦٣
عبد الله بن عباس ١٥٧، ٣٩٣
عبد الله بن عمرو بن العاص ٩٤، ٢٩٥
عبد المطلب بن هاشم ١٥٨
عثمان بن عفان ٤٠٦
عروة ٤٦٠
عكاشة بن محصن الأسدي ٣٣٤
عكرمة ٤٦٢
علي بن بندار الصوفي .. ٤٤٠
علي بن أبي طالب .. ٢٨٩، ٤٠٥، ٤٥٦
علي بن طباطبا العلوي .. ٢٦، ١٦٤
عمر بن الخطاب .. ٣٧٢، ٤٦١
عمر بن عبد العزيز ٤٧١
فرقد السبيخي ٤١٨
الفضيل بن عياض .. ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٦، ٤١٧
قتادة .. ٢٥٢
كعب بن زهير .. ٤٧٨، ٤٧٩
لبيد بن أعصم اليهودي ١٤٨
المستعصم بالله ٤٧٩
مسلم بن الحجاج .. ٤٦١
مسيلمة الكذاب .. ١٦٥
معاوية بن أبي سفيان .. ٤٨٠

- معد بن عدنان.. ١٥٧
المغيرة بن شعبة .. ٤٦٣
محمد بن عبد الله الترمذي.. ٢٣٩
محمد بن عبد الله الفرغاني .. ٤٢٩
محمد الغزالي .. ٤٦٤
المقداد بن عمرو بن ثعلبة ٤٠٥
النضر بن الحارث .. ١٦٦
الوجيهي.. ٤٦٨، ٤٧٤
ورقة بن نوفل.. ٣٦٥
الوليد بن المغيرة المخزومي ١٦٤
وهب بن كيسان ٤٦٢
وهب بن منبه ٢٩٠
يحيى بن معاذ ١١٧، ٣٠٣، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٤٩، ٣٧٣، ٣٩٩
يوسف بن الحسين ٣٠٣، ٣٥٢
يونس بن زيد ٤٦١

خامساً - فهرس الفرق والجماعات والبلدان

الأباضية ٨٧

الأبله ٤٦٥

الأخنسية ٨٧

الأزارقة ٨٧

الإسماعيلية ٨٧

الاسمية ٨٧

الإمامية ٨٧

أوزبكستان ٩

بابل ١٥٥، ١٥٦

البترية ٨٧

البدائية ٨٧

البدعية ٨٧

البشيمية ٨٧

البصرة ١٦٦، ٤٣٩، ٤٦٥

بنو إسرائيل ٨٦، ١٠٨، ١٠٩، ١٥٥، ١٦٩، ١٨٥

البهشمية ٨٧

تهامة ١٥٧، ١٥٨

الجارودية ٨٧

الجباية ٨٧

جنديسابور ١٤٤

الجهمية ٨٧

الحازمية ٨٧

حقوق ١٥٦
الحرية ٨٧
الحرورية ٨٢
الحجاز ١٥، ١٢، ١٠
الحنيفية ٨٧
الحيدرية ٤٤٤
الخارجية ٨٢
خراسان ٢٠٤، ١٥، ١٢، ١١، ١٠
الخراسانيون ٢٠٣
الخطابية ٨٧
الخوارج ٨٤
خوارزم ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٥، ١٦، ٤٢٢
خيوة ٩
الدجلة ٤٦٥
الدهرية ٦١، ١٤٩
الرافضة ٨٧
الروافض ٨٤، ١٤٩
الروم ١٠، ١٢، ١٥، ١٤٩
الزرارية ٨٧
الزيدية ٨٧
ساعير ١٥٤
السبابة ٨٧
السليمانية ٨٧
الشريعة ٨٧
الشمرية ٨٧
الشمطية ٨٧
الصالحية ٨٧

- الصلبية ٨٧
- الصمقرية ٨٧
- الضرارية ٨٧
- الطائفية ٨٧
- الطارية ٨٧
- الطبائعية ٦١
- طور سيناء ١٥٤
- العجاردة ٨٧
- العراقيون ٢٠٣، ٢٠٤
- العطوية ٨٧
- العلوية ٤٦٥
- العمارية ٨٧
- الغالية ٨٧
- فاران ١٥٤
- الفرس ١٤٩
- الفضيلية ٨٧
- القرامطة ٨٧
- القطيعة ٨٧
- القلندرية ٤٤٤
- الكرامية ٨٠، ٨٧
- الكروبيون ٤٨، ٨٧
- الكلابية ٨٧
- الكيسانية ٨٧
- المارقة ٨٤
- المتناسخية ٨٧
- المجسمة ٨١
- المجوس ٦١

- المحمدية ٨٧
المرجئة ٨٣
المعتزلة ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ١٤٧، ١٤٩
المعمرية ٨٧
المغارية ٨٧
المغيرية ٨٧
المفوضية ٨٧
المقاتلية ٨٧
الملاحدة ٦١
الملاطية ٣٣٦، ٤٤٤
الممطورية ٨٧
الموسوية ٨٧
الميمونية ٨٧
ناصر ١٥٤
النجارية ٨٧
النجادات ٨٧
النصارى ٦١، ٨٠، ١٥٤
النظامية ٨٧
النعيمية ٨٧
نيسابور ١١، ٢٠٦، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٧٣، ٣٧٦، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٨، ٤٥٧،
٤٦٤، ٤٦٥
الهاشمية ٨٧
الهديلية ٨٠، ٨٧
الهند ٨٨، ١٤٩، ١٨٤
اليزيدية ٨٧
اليعقوبية ٨٧
اليونسية ٨٧

سادساً - مراجع التحقيق

- آثار البلاد وأخبار العباد: زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، تحقيق رحماه الله ولد السالم، كلية الآداب، نواقشوط.
- اقتداء الغافل باقتداء العاقل: قطب الدين القسطلاني، تحقيق أحمد جمعة عبد الحميد، نشر دار الفارابي، ٢٠١٥.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
- البداية والنهاية: أبو الفداء الحافظ ابن كثير، دار الفكر العربي.
- التكملة لوفيات النقلة: زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤م.
- الرسالة القشيرية: أبو القاسم القشيري طبعة البابي الحلبي
- الطبقات الكبرى: عبد الوهاب الشعراني، المكتب التوفيقية - القاهرة.
- الفرق بين الفرق: للبغدادي، تحقيق محمد عثمان الخشت
- المعارف، ابن قتيبة: تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر ط ٢.
- المعرفة عند صوفية الإسلام... أبو سعيد بن أبي الخير نموذجاً
- الملل والنحل: الشهرستاني.

- المنقذ من الضلال: عبد الحليم محمود، دار المعارف، مصر، ط ٥.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: لشمس الدين الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- تاريخ الدولة العباسية، محمد سهيل طقش، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري
- جامع المسائل لابن تيمية: المجموعة الرابعة، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
- ديوان أبي العتاهية: إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان انظر ديوانه ط دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان.
- سير أعلام النبلاء: الإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٩٦م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.
- طبقات الشافعية
- طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمي، تحقيق: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٨٦م
- فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وموقف الإسلام منها: غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط ٤، ٢٠٠١م.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د. ت
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان: أبو عبد الله محمد بن أسعد لليافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.
- معجم المصطلحات: الجرجاني، تحقيق محمد صديق المشاوي، دار الفضيلة، مصر.
- معجم المؤلفين: محمد رضا كحالة، مؤسسة الرسالة.
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للعلامة القسطلاني: شرح العلامة الزرقاني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
- موسوعة كشف اصطلاحات العلوم والفنون - محمد علي التهانوي - تحقيق الدكتور علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١، ١٩٩٦.

الفهرس

٥	مقدمة
٩	١ - نجم الدين الرازي: (٥٧٣هـ - ٦٥٤هـ)
٩	اسمه ونسبه
١٠	شيوخه
١٢	تلاميذه
١٤	وفاته
١٥	روافده الصوفية
١٦	مؤلفاته العلمية
١٧	رؤيته الصوفية
١٩	موضوع الكتاب
٢٢	مصادر الرازي في كتابه
٢٤	عنوان الكتاب
٢٤	وصف النسخ المعتمدة في التحقيق
٢٦	منهج التحقيق
٢٧	نماذج من المخطوطات
٣٧	مقدمة المؤلف

٥٥٣

٥٥	الباب الأول: في مقام المعرفة
٥٧	مقام المعرفة
٦١	الفصل الأول: في مقام معرفة العوام
٦٧	الفصل الثاني: في مقام المعرفة النظرية وهي (معرفة الخواص)
٦٩	الفصل الثالث: في مقام المعرفة الشهودية وهي (معرفة أخص الخواص)
٧٥	الباب الثاني: في مقام التوحيد
٧٧	الفصل الأول: في مقام توحيد العوام
٨٩	الفصل الثاني: في مقام توحيد الخواص (وهو مقام المتوسط)
٩٣	الفصل الثالث: في مقام توحيد الأخص (وهو مقام المنتهى)
٩٧	الباب الثالث: في مقام النبوة
	الفصل الأول: في كيفية ارتقاء الحواس [الخمس] إلى الحس المشترك، ومنه إلى ما فوقه إلى أن تصير الروح به قابلاً للوحي
٩٩	
١٠٥	الفصل الثاني: في كيفية الوحي
١٠٧	الفصل الثالث: في أصناف الوحي
	الفصل الرابع: في أن العقل ملك مطاع بالطبع متهى لقبول الوحي، والإيمان به
١١٥	
	الفصل الخامس: في المنام الصادق
١٢١	[وأنه جزء من النبوة]. والفرق بين المنام ووقائع القوم
١٣١	الفصل السادس: في دلائل النبوة، والفرق بين الرسول والنبي
١٣٥	الفصل السابع: في الفرق بين النبوة والكهانة

- ١٤٣ الفصل الثامن: في الفرق بين المعجزة، والكرامة، والشعبذة، والسحر
- ١٤٣ المعجزة
- ١٤٤ الكرامة
- ١٥٣ الفصل التاسع: في إثبات نبوة المصطفى ﷺ
- ١٥٤ تفسيره
- الفصل العاشر: في فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء -عليهم السلام-
- ١٧١ وختم النبوة به
- ١٧٩ الباب الرابع: في مقام الولاية
- ١٧٩ الفصل الأول: في مراتب مقامات الولي
- والمفصول الخمسة: في مقامات هي دعائم مقامات الولاية وهي: التقوى،
- ١٧٩ والزهد في الدنيا، والصبر على البلوى، والرضى بالقضاء، ومحبة المولى.
- ١٨١ الفصل الأول: في مراتب مقامات الولي
- ١٨٧ الفصل الثاني: في مقام التقوى
- ١٩١ الفصل الثالث: في مقام الزهد
- ١٩٥ الفصل الرابع: في مقام الصبر
- ٢٠٣ الفصل الخامس: في مقام الرضا
- ٢٠٩ الفصل السادس: في مقام المحبة
- ٢٢١ الباب الخامس: في مقام الإنسان
- ٢٢٣ الفصل الأول: في أن الإنسان هو العالم الكبير بالروح
- ٢٣١ الفصل الثاني: في أن [شخص] الإنسان عالم صغير

٢٣٧	الفصل الثالث: في تسوية القلب وتعلق الروح به
٢٤٥	الباب السادس: في مقام الخلافة المختصة بالإنسان
٢٤٧	الفصل الأول: في ماهية الخلافة
٢٤٩	الفصل الثاني: في اختصاص الإنسان بالخلافة
٢٥٥	الفصل الثالث: في تفاوت الخلافة ودرجاتها
٢٦١	الباب السابع: في مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه
٢٦٣	الفصل الأول: في كيفية رد الروح إلى القلب
٢٦٧	الفصل الثاني: في رجوع الروح إلى الحضرة
٢٦٩	الفصل الثالث: في العبور عن مقامات خواص الجواهر العنصرية
٢٧٣	الفصل الرابع: في العبور عن خواص جواهر المركبات والنباتات في الرجوع
٢٧٥	الباب الثامن: في مقامات النفس ومعرفتها
٢٧٧	الفصل الأول: في معرفة النفس وماهيتها
٢٨١	الفصل الثاني: في تزكية النفس عن صفاتها الذميمة
٢٨٣	الفصل الثالث: في صفة الكبر وعلاجها بالتواضع
٢٨٧	الفصل الرابع: في صفة الحرص وعلاجها بالقناعة
٢٩٣	الفصل الخامس: في صفة الحسد وعلاجها بالنصيحة والرحمة والشفقة
	الفصل السادس: في صفة الشهوة وعلاجها بالعفة والاجتناب
٣٠١	عن الشهوات، والجوع
٣٠٧	الفصل السابع: في صفة الغضب وعلاجه بالحلم

٣١١	الفصل الثامن: في صفة البخل وعلاجه بالسخاء
٣١٧	الفصل التاسع: في صفة الحقد وعلاجه بالعفو، وسلامة القلب
٣٢١	الفصل العاشر: في مراتب التوبة على حسب مقامات النفس
٣٢٥	الباب التاسع: في معرفة القلب ومقاماته في التصفية
٣٢٧	الفصل الأول: في معرفة القلب
٣٣١	الفصل الثاني: في مقامات القلب
٣٣٢	المقام الأول: الزهد
٣٣٢	المقام الثاني: الورع
٣٣٤	المقام الثالث: التوكل
٣٣٦	المقام الرابع: الرضا
٣٤٠	المقام الخامس: اليقين
٣٤٣	المقام السادس: الصدق
٣٤٥	المقام السابع: الخوف
٣٤٨	المقام الثامن: الرجاء
٣٥٠	المقام التاسع: الإخلاص
٣٥٢	والفرق بين المخلص والمخلص
٣٥٢	المقام العاشر: المراقبة
٣٥٤	المقام الحادي عشر: الخلق
٣٥٦	المقام الثاني عشر: الذكر
٣٦٢	المقام الثالث عشر: الخلوة والعزلة

٣٨٣	الباب العاشر: في معرفة الروح ومقاماته
٣٨٥	الفصل الأول: في معرفة الروح وماهيته
٣٩٧	الفصل الثاني: في مقامات الروح
٣٩٧	المقام الأول: الإرادة
٤٠١	المقام الثاني: الاستقامة
٤٠٤	المقام الثالث: الحياء
٤٠٧	المقام الرابع: الحرية
٤٠٩	المقام الخامس: الفتوة
٤١١	المقام السادس: المحبة
٤٢٢	المقام السابع: المراقبة
٤٢٣	المقام الثامن: العبودية
٤٢٦	المقام التاسع: الفقر
٤٣١	المقام العاشر: التصوف
٤٣٦	المقام الحادي عشر: الأدب
٤٤٢	المقام الثاني عشر: الصُّحبة
٤٤٩	المقام الثالث عشر: السماع
٤٨٣	في «خاتمة الكتاب»
٤٨٥	فصل في خاتمة الكتاب
٥٠٧	الفهارس
٥٠٧	أولاً - فهرس الآيات القرآنية

- ٥٢٣ ثانياً - فهرس الأحاديث والآثار
- ٥٣٣ ثالثاً - فهرس الأشعار
- ٥٣٧ أنصاف الأبيات
- ٥٣٨ رابعاً - فهرس الأعلام
- ٥٤٥ خامساً - فهرس الفرق والجماعات والبلدان
- ٥٤٩ سادساً - مراجع التحقيق

